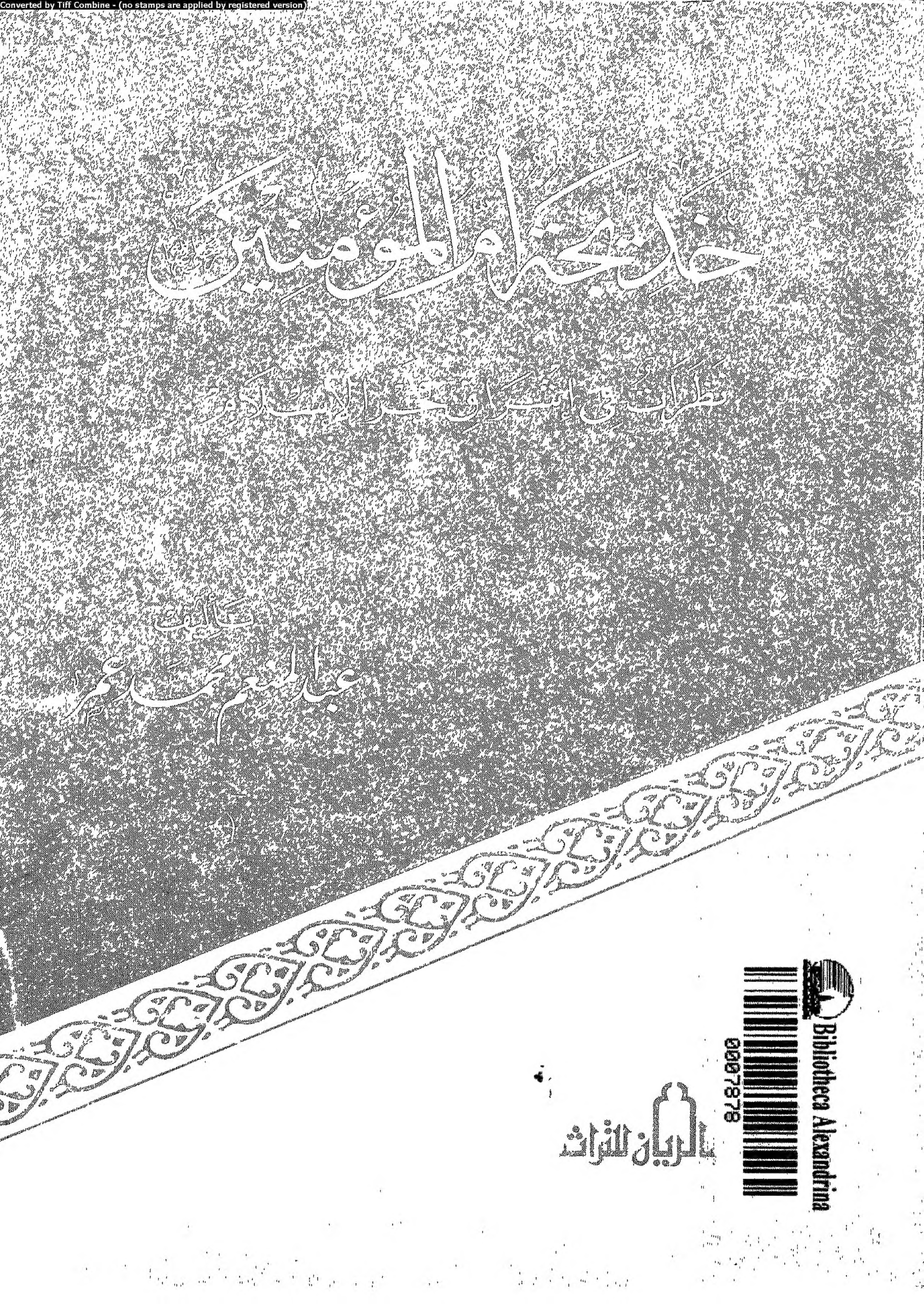

خديجة أم المؤمنين
نظرات في إشراق فجر الإسلام
تأليف
عبد المنعم محمد عمر
دار الريان للتراث
Bibliotheca Alexandrina
0007878



خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها

نظرات في إشراق فجر الإسلام



خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها

نظرات في إشراق فجر الإسلام

تأليف

عبد المنعم محمد عمر

المدير العام لدار الكتب والوثائق القومية،
ووكيل وزارة الثقافة الأسبق
ورئيس إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

دار الريان للتراث

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

طبعة مزيدة ومنقحة

وقد أضيفت عليها الموضوعات التالية:

١ - الإسـراء والمعـراج.

٢ - الهجرة النبوية الشريفة.

٣ - الجهود التي بذلها رسول الله ﷺ في تكوين الأمة الإسلامية والجهود التي بذلها ﷺ في إنشاء الدولة الإسلامية التي تحافظ على هذه الأمة وتعمل على تنفيذ المنهج الإسلامي ونشره في شبه الجزيرة العربية والأمم الأخرى.

المؤلف

دار الريان للتراث

- ٣٥٠ شارع الأهرام ت ٨٥٤٦٨٧ جيزة

- ١٧٧ شارع الأهرام محطة إسباتس - جيزة



الإهـــداء

فى العـام السـابع من القـرن الخامـس عشر من هجرة خاتم الأنبياء والمرسلين «محمد بن عبدالله» صلوات الله وسلامه عليه يسعدنى أن أهدى الطبعة الثانية من هذا البحث إلى الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها، راجياً أن يجدوا فى استعراض تاريخ هذه الحقبة التى شهدت «إشراق فجر الإسلام» نوراً يضيىء لهم السبيل إلى العزة والمنعة والأمن والأمان، حيث يصبح القرآن الكريم لهم هادياً، والحديث النبوىّ الشريف لهم مرشداً، والسيرة المحمدية العطرة لهم دليلاً ومثلا يحتذى.

والله ولى التوفيق

المؤلف

عبد المنعم محمد عمر

٢١ من ربيع الثانى ١٤٠٨هـ
١٣ من ديسمبر ١٩٨٧م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى يَسَّر إصدار الطبعة الثانية من كتاب: «خديجة أم المؤمنين: نظرات فى إشراق فجر الإسلام» بعد أن نفدت الطبعة الأولى فى فترة وجيزة؛ وقد رأينا أن نضيف على الطبعة الجديدة بعض الفصول التى تجلو أمام الأجيال من شبابنا ما يوقفهم على جهاد «محمد المصطفى» صلى الله عليه وسلم فى سبيل تكوين الأمة الإسلامية التى تؤمن بالله الواحد الأحد، والتى يعيش المجتمع فيها وفق الأحكام التى أنزلها الله فى كتابه العزيز، وما ترشد إليه سُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، عيشة تسود فيها المبادئ السامية التى تنظم حياة الناس على المنهج الآلهى القويم الذى يؤدى إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة؛ وقد نتج عن جهاده الطويل فى هذا السبيل، قبل الهجرة النبوية إلى «المدينة المنورة» وبعدها، أن ظهر فى التاريخ الإنسانى أمة جديدة وصفها الله فى كتابه المجيد بقوله:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١)

ولذلك كان لها أثرها الكبير فى النهوض بالحضارة الأنسانية نهوضاً لم تحظ بمثله من قبل.

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

وإذ كان لا بد لهذه الأمة من دولة جديدة لها نظمها وأجهزتها التى تعمل على صيانة وحدتها الناشئة تنفيذاً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (١)

وإذ كان من أهم واجبات هذه الدولة أن تسهر على توجيه المسلمين إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيّه حتى ينتشر العدل والمحبة والأمن والأمان فى المجتمع الإسلامى ، وأن تعمل على حماية الأمة الإسلامية من الأخطار التى كانت تهددها من الأعداء الذين كانوا يسعون جاهدين للقضاء عليها فى مهدها ، كما تعمل لنشر الدين الإسلامى فى المجتمعات التى تحيط بها وفى غيرها من المقيمين خارج شبه الجزيرة العربية تنفيذاً لقوله تعالى مخاطباً نبيّه صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢)

لذلك فقد جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تمكن من تكوين ما احتاج إليه من أجهزة الدولة التى ساعدته فى الاشراف على توجيه حياة الناس ؛ كما أنشأ بعض النظم التى طوّرها من بعده وتوسع فى إقامتها الخلفاء الراشدون ؛ ولكن الكثيرين من المؤرخين فى عصرنا هذا ، ومن كتب منهم فى السيرة النبوية العطرة ، لم يعنوا بذكر هذه الجهود وبيان نواحيها ، لأن أخبار جهاده الطويل فى تكوين أفراد الأمة الإسلامية وتنشئتهم وفق المنهج الإسلامى قبل الهجرة النبوية وبعدها ، وكذلك ما بذله صلى الله عليه وسلم من الجهود فى تنظيم الدولة بعد وصوله إلى « المدينة المنورة » ؛ كل هذه الجهود العظيمة من العسير جمع شتات أخبارها الموزعة فى كثير من مصادر التاريخ الإسلامى الأصيلة وفى كتب الحديث الشريف وفى ثنايا مصادر كتب السيرة على اختلاف مسمياتها ؛ ومن هنا أصبح من الصعوبة بمكان

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٥٢ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨ .

على الناشئين فى زماننا هذا أن يحيطوا بمعرفة هذا الجهاد العظيم؛ ولذلك عنينا بالبحث والتنقيب فى تلك المصادر حتى استطعنا أن نجمع بعض أخبار جهاده صلى الله عليه وسلم فى هذا السبيل حتى نهاية العامين الأول والثانى للهجرة النبوية، وهو العصر الذى يؤرخ له كتاب «خديجة أم المؤمنين: نظرات فى إشراق فجر الإسلام»؛ ونحن نرجو أن يعيننا الله سبحانه على التوسع فى هذا البحث حتى نجلوَ أمام الأجيال الصاعدة ونرسم لهم صورة واضحة عن الجهاد العظيم الذى بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم وآزره فيه صحابته الكرام حتى قوى بناء الأمة الإسلامية، وأقيمت الدولة الإسلامية على أساس متين؛ وقد أعاننا الله تعالى فأضفنا على الطبعة الثانية من كتاب: «خديجة أم المؤمنين: نظرات فى إشراق فجر الإسلام» أربعة فصول وهى:

١ ــ الفصل الحادى عشر بعنوان: «الهجرة النبوية الشريفة»، فهى التى مهدت لظهور الأمة الإسلامية، وكانت بداية لإنشاء الدولة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢ ــ الفصول الثلاثة: الثانى عشر، والثالث عشر، والرابع عشر، وهى تبحث فى دعم بناء الأمة الإسلامية وفق المنهج الإسلامى، كما توضح بداية إنشاء الدولة الإسلامية بعد وصول النبى صلى الله عليه وسلم إلى «المدينة المنورة».

وقد امتد البحث فى هذه الفصول الجديدة الأربعة حتى نهاية العام الثانى من الهجرة النبوية حيث نصر الله دينه، وأعز المسلمين بنصرين عظيمين كان لهما أثرهما الكبير فى «إشراق فجر الإسلام»، وكان النصر الأكبر منهما فى شهر رمضان من العام الثانى للهجرة النبوية حيث نصر الله خاتم الأنبياء والمرسلين والفئة القليلة التى كانت معه من المؤمنين، برغم ضآلة عددهم، وقلة ما كانوا يملكون من سلاح، على الأرستقراطية القرشية

الكافرة مع كثرة عددهم، ووفرة ما كان معهم من سلاح وخيل ومئونة، نصراً عزيزاً وصفه الله بقوله :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

فأدركت القبائل العربية كلها أن الأمة الإسلامية قد نشأت لتبقى، وأن لها دولة، يرأسها نبي الله صلى الله عليه وسلم، تعمل على حمايتها، وتبذل جهدها لنشر دين الإسلام الذى يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد. وقد أغنى الله بهذا النصر الكبير المجاهدين المؤمنين مما افتدى به أسرى المشركين أنفسهم من مال وفير كان خير معين للمهاجرين على العيش الكريم فى «المدينة المنورة»، وعوضهم عن بعض ما اغتصبه كبار المشركين القرشيين من أموالهم؛ وكان فى هذا النصر المبين عون كبير للأنصار، وتشجيع لهم على الاستمرار فى البذل والعطاء فى سبيل الله وإعلاء كلمته.

وقبيل نهاية العام الثانى من الهجرة النبوية نصر الله العزيز الإسلام والمسلمين على «يهود بنى قينقاع» الذين نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما كان ينذر بالقضاء على المعايشة السلمية التى أراد النبى الكريم أن ينشرها فى أرجاء «المدينة المنورة» حتى يعيش جميع سكانها فى أمن وأمان، وينتشر بينهم الأخاء وحسن الجوار، مما يمهد السبيل لأن يعُمَّ الرخاء أرجاء مدينتهم. وقد كانت هزيمة يهود «بنى قينقاع» نذيراً لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الأمة الإسلامية الناشئة، ولكل من يفكر فى تعكير صفو حياة المسلمين من اليهود والمنافقين والقبائل العربية التى كانت تحيط «بالمدينة المنورة»، فقد أجلى الرسول صلى الله عليه وسلم «بنى قينقاع» من الحصون التى كانوا يسكنونها وسط «المدينة المنورة»، كما غنم المجاهدون المسلمون من أموالهم الشيىء الكثير، والسلاح الوفير، وغنموا كذلك آلة الصناعة التى كانوا يعتزون بها.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٣.

لقد أعز الله بهذين النصرين العظيمين دين الواحدانية ، « فأشرق فجر الإسلام » وانتهت بذلك الفترة الزمنية التى تؤرخ لها الطبعة الثانية من كتاب « خديجة أم المؤمنين: نظرات فى إشراق فجر الإسلام » ؛ أما الفصول الثلاثة الأخرى التى تلى ذلك فهى ملحقة « بالسيرة النبوية العطرة » .

ويسعدنى أن أسجل بجزيل الشكر المعاونة الكريمة التى تفضل بتقديمها الأصدقاء الثلاثة الأفاضل: الأستاذ الشيخ «جوده أحمد سليمان» مستشار اللغة العربية السابق بوزارة التربية والتعليم المصرية ؛ والأستاذ «محمود زايد» الأمين العام لجامعة حلوان ؛ والاستاذ الدكتور «عبد الصبور شاهين» الأستاذ بدار العلوم جامعة القاهرة وعضو مجلس الشورى ؛ فقد تفضلوا بتقديم عون كريم كان له أثره الطيب فى ظهور هذه الطبعة الجديدة من كتاب «خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها : نظرات فى إشراق فجر الإسلام» .

والله ولى التوفيق

٢١ من ربيع الثانى ١٤٠٨هـ
١٣ من ديسمبر ١٩٨٧م

عبد المنعم محمد عمر



مقدمة الطبعة الأولى

السيرة النبوية والمغازى

أحدث انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى هزة عنيفة بين المسلمين كانت أشبه بالذهول الذى يصيب الناس إذا نزلت بهم الفجيعة، فلما أفاقوا قليلاً أقبلوا يسألون عن كل ما يتصل برسولهم الكريم من أقوال وأفعال وأخبار وغزوات، وأخذ نفر من الصحابة ومن الطبقة الأولى من التابعين فى جمع كل ذلك وحفظه عن ظهر قلب، مروياً عن أمهات المؤمنين، وبخاصة عن «أم المؤمنين عائشة»، وعن الخلفاء الراشدين الأربعة، وعن كبار الصحابة، مثل أبى هريرة، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبى موسى الأشعرى، وأبى ذر؛ وكانوا يحدثون الناس بما يجمعون، وقد روى ابن سعد: «كان ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدرى، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وجابر بن عبد الله، ورافع بن خديج، وسلمة بن الأكوع، وأبو واقد الليثى، وعبد الله بن بجينة، مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يفتون بالمدينة ويحدثون عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من لدن توفى عثمان إلى أن توفوا. والذين صارت إليهم الفتوى منهم: ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدرى، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله» (١).

وكان «سعد بن أبى وقاص» من أوائل الصحابة الذين عنوا برواية المغازى، ففضلا عن أنه أحد الخمسة الرواد الأول الذين أسلموا بدعوة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: القسم الثانى من الجزء الثانى ص ١٢٤.

«أبى بكر»، فإنه شهد أكثر المغازى، وقد ثبت أنه كان يعلم أولاده مغازى النبى، صلى الله عليه وسلم، وسراياه ويوصيهم بقوله: «يا بنى هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها»(١).

وهكذا كان جمع الحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة والمغازى يسير فى «المدينة المنورة» سيراً طبيعياً بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الرواية الشفوية والحفظ فى الصدور، وقد تميز الرواد الأول الذين عنوا بهذا الجمع باتباع طريق إيراد الحوادث والأخبار منسوبة إلى مَنْ ذكرها لهم، والعناية بإثبات أسانيدها حتى تصل إلى أحد الصحابة، وهى نفس الطريقة التى كان يتبعها جامعو الحديث؛ لأن هؤلاء الرواد الأول كانوا أصلاً من المحدثين، وبذلك نشأت السيرة العطرة والمغازى فى كنف الحديث النبوى الشريف. وقد ظلت كل تلك الأخبار تحفظ فى الصدور وتلقّن مشافهة من عالم إلى عالم عن طريق الرواية؛ وتأخر تدوينها لأن الخلفاء الراشدين أبوْا أن يصرحوا بذلك لرغبتهم فى أن ينفرد القرآن الكريم وحده بالتدوين «فقد أشير على عمر، الخليفة الثانى، بتدوين سنن النبى صلى الله عليه وسلم فاستخار الله شهراً كاملاً ثم رفض»(٢). واستمر الخلفاء الأمويون على ذلك «فقد رأى الخليفة الأموى «عبدالملك بن مروان» بعض أخبار مغازى النبى صلى الله عليه وسلم مدونة على صورة كتاب فى يد أحد أبنائه، فأمره بإحراقها، وأمر الصبى بقراءة القرآن ومعرفة السنن»(٣) واستمر هذا المنع حتى عهد «عمر بن عبدالعزيز»؛ ولكن وصلنا من الروايات الموثوق بها ما يقرر أن بعض الشبان من الطبقة الأولى من التابعين كانوا يدوّنون لأنفسهم ما يجمعون من الأحاديث النبوية، وما يقفون عليه من أخبار السيرة العطرة والمغازى مثل عبدالله بن عباس (ت ٧٠هـ)(٤)، وعبدالله بن

---

(١) خطبة السيرة الدحلانية.

(٢) مارغوليوس: دراسات عن المؤخين العرب ترجمة حسين نصار، ص ٥٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ٢ القسم الثانى ص ١٢٤.

عمرو بن العاص (ت ٦٨هـ)(١)، وعروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٢هـ)(٢)، وأبان ابن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ)(٣). غير أنه لم يصلنا، مع الأسف الشديد، شيء من تدوينهم، وكل ما وصل إلينا هو ما رواه عنهم تلاميذهم الذين حفظوا ما سمعوه منهم شفاهاً، وما اقتبسه عن هؤلاء وعن غيرهم المؤرخون والعلماء الذين أتوا بعدهم، وظل الاعتماد فى ذلك كله على الحفظ والنقل من صدر عالم إلى آخر حتى أوائل القرن الهجرى الثانى حين صرح الخليفة «عمر بن عبد العزيز» (ت ١٠١ هـ) بجمع آثار النبى، صلى الله عليه وسلم، فنشط الكثيرون لذلك.

وكان «أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى» (ت ١٢٥ هـ) فى مقدمة من عنوا بجمع السيرة النبوية والمغازى، فقد تتلمذ على «عروة بن الزبير» وعلى «أبان بن عثمان بن عفان» وعلى غيرهما من التابعين، وأجمعت الروايات الموثوق بها على أنه كان من أسبق من اعتمد على التدوين فى دراسته (٤)، وذلك إلى جانب الحفظ حتى يساعد ذاكرته التى اشتهرت بقوتها وبذلك تفوق على معاصريه وقال عنه «الإمام مالك»: «بقى ابن شهاب وما له فى الدنيا نظير» (٥). ويتضح من المصادر العربية التى وصلت إلينا أن «الزهرى» لم يكتف برواية المغازى لتلاميذه مشافهة، ولكنه ألف فيها كتاباً؛ ولذلك ذكره «حاجى خليفة» من بين من ألفوا فى المغازى فقال: ومنها «مغازى محمد بن مسلم الزهرى» (٦)؛ ولكن مما

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤؛ والبلاذرى: فتوح البلدان طبع القاهرة سنة ١٩٣٤ ص ٢١٩؛ وعبد العزيز الدورى: بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ص ٧٤.

(٣) أبان، بفتح الهمزة وتخفيف الباء الموحدة، أنظر بدر الدين العينى: عمدة القارئ فى صحيح البخارى جـ٣ ص ٣٨٣، والفهرست طبعة القاهرة ص ٤٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ٢ القسم الثانى ص ١٣٥، وابن خلكان تحقيق محيى الدين عبد الحميد جـ٢ ص ١٣٧، والذهبى: تذكرة الحفاظ، حيدر أباد الدكن جـ١ ص ١٠٢–١٠٣.

(٥) الذهبى تذكرة الحفاظ ص ١٠٣، كما أورد ابن سعد فى الطبقات عبارات مثلها فى جـ٢ القسم الثانى ص ١٣٥.

(٦) مادة مغازى فى كشف الظنون.

يؤسف له أن مؤلفه هذا لم يصل لنا منه إلا ما رواه عنه تلاميذه فيما ألفوه من كتب. ويتضح مما دونوه أن «الزهرى» اعتمد على الإسناد فى رواية الأحاديث التى استشهد بها وكذلك فى وصف الحوادث والأخبار التى جمعها، كما كان يعتبر الآيات القرآنية مصدراً رئيساً يعتمد عليه فى التأريخ للمغازى؛ وأنه لم يتأثر إلا نادراً بالإسرائيليات أو بالقصص الشعبى اليمنى أو قصص الأيام وذلك على الرغم من معاصرته لبعض رواتها مثل: «وهب بن منبه»[1]، كما أنه لم يتأثر بمن سبقه منهم من أمثال: «أبى إسحق كعب الأحبار» (ت ٣٢ هـ)، «وعبيد ابن شرية الجرهمى» (ت ٧٠ هـ) «ويمكن القول إن روايات (الزهرى) تعطى بصفة عامة معلومات واقعية متزنة للحوادث بأسلوب يتصف بالصراحة والبساطة والتركيز، وتقل فيها محاولات التفخيم أو المبالغة التى تكثر عند المؤرخين فيما بعد»[2].

وكانت نتيجة الجهود الكثيرة التى بُذلت لجمع آثار النبى صلى الله عليه وسلم وأخباره أن ظهر، فى القرن الهجرى الثانى، بين ما ظهر من المؤلفات فى سيرة الرسول ومغازيه الكتب الثلاثة الآتية التى تعد المنبع الذى استقى منه كل من ألف فى هذا الموضوع بعد ذلك، فقد سار الجميع على نهجها، وذلك بإضافة بعض ما فاتها، أو بشرح بعض ما أوجزته، أو باختصار واحد منها، وهى:

(١) كتاب فى السيرة ألفه «موسى بن عقبة» (ت ١٣١ هـ) واعتمد عليه كثير من المؤلفين؛ ولكنه فقد من المشرق العربى كله، وإن كان قد بقيت منه نسخ فى المغرب العربى اعتمد عليها المؤلفون هناك فى كتابة السيرة والمغازى، فقد كان مصدراً من المصادر التى اعتمد عليها الحافظ «ابن عبد البر» (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م) عندما ألف كتابيه (الدرر فى اختصار المغازى والسير» و«الاستيعاب فى معرفة الأصحاب» فقد صرح فى

---

(١) عاش ٣٤ ــ ١١٤ هـ = ٦٦٥ ــ ٧٣٢ م، ابن النديم: الفهرست طبعة مصر سنة ١٣٤٨ ص ١٣٢ وطبعة فلوجل ببيروت ص ٨٩.

(٢) عبد العزيز الدورى: بحث فى نشأة التاريخ عند العرب ص ٩٤.

مقدمة الكتابين أنه اعتمد عليه اعتماده على سيرة «محمد بن إسحق».

(٢) تاريخ أبى معشر، «نجيح بن عبد الرحمن» (١) (ت ١٧٠ هـ = ٧٨٧ م) وهو من المؤرخين الموالى، وأخذ عن كثير من التابعين من بينهم «نافع» مولى «عبدالله بن عمر»؛ وقد انتفع بهذا الكتاب الكثيرون من الكتاب والمؤرخين وبخاصة «أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى» (ت ٣١٠ هـ) الذى استمد منه معلومات عن تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم ومعلومات تاريخية أخرى تنتهى إلى سنة وفاته (٢)، وقد فقد هذا التاريخ ولم يصلنا منه إلا ما اقتبسه عنه من أتى بعده من المؤرخين.

(٣) سيرة «أبى عبد الله محمد بن إسحق بن يسار» (ت ١٥٠ هـ)، وهذه هى السيرة التى استقى منها كل كتاب السيرة الذين جاءوا بعده فى المشرق، فقد اعتبروها أصلاً اعتمدوا عليه ونهجوا على منواله، ولذلك أُثر عن الإمام «الشافعى» انه قال: «أنهم جميعاً كانوا عيالاً على ابن إسحق» (٣) كما ورد عن «الشافعى» أيضاً قوله: «من أراد أن يخبر فى المغازى فهو عيال على «محمد بن إسحق» (٤). وقد كان «محمد بن إسحق» حريصاً على تسجيل كل ما روى له، ولذلك دخل على كتابه الكثير من الإسرائيليات، وعَلِقَ به بعض القصص الشعبى اليمنى وقصص الأيام مما ذاع وانتشر فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى من الهجرة؛ ولكن هذه السيرة بقيت على الرغم من كل تلك العيوب أقدم المصادر المدونة التى تجمع بين سيرة الرسول ومغازيه، كما ظلت الأساس الذى اعتمد عليه المؤرخون حتى أوائل القرن الثالث الهجرى من أمثال «الواقدى» (١٣٠ — ٢٠٧ هـ) الذى ترك لنا أقدم كتاب كامل وصل إلينا من كتب التراث على صورته الأصلية من بين الكتب الكثيرة التى عنيت بكتابة

---

(١) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، القاهرة ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١ م.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص ٦١٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٩ ص ١٨٣.

(٤) تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢١٩.

السيرة([1])، وكذلك تلميذه «ابن سعد» (ت ٢٣٠ هـ= ٨٤٥م) فى كتابه المعروف بعنوان «الطبقات الكبرى».

وقد قيض الله لسيرة «محمد بن إسحق «أبا محمد عبدالملك بن هشام المعافرى المصرى» (ت ٢١٨ هـ= ٨٢٤م) الذى عنى باختصارها وتهذيبها رواية عن شيخه «زياد بن عبدالله البكائى»([2]) (ت ١٨٣ هـ) ومستعيناً بما كان يحفظ من الحديث الشريف وبما ظهر فى عصره من كتب الصحاح والمسانيد([3]). وقد قدر الناس جهود ابن هشام فى نقدها وتنقيتها حتى أصبحت فى ثوبها الجديد تنسب إليه ونسى الناس مؤلفها الأصلى «محمد بن إسحق»، وصارت هى المصدر الأساسى الذى يعتمد عليه. وقد وصف «ابن هشام» المنهج الذى اتبعه فى هذا العمل الجليل فى مقدمته؛ ونحن نكتفى باقتباس ما ذكره عن أهم ما تركه، فقد قال إنه:

(أ) «تارك بعض مايذكره «ابن إسحق» فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار».

(ب) وتارك أيضاً «أشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها».

(جـ) وتارك كذلك «أشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا «البكائى» بروايته»([4]).

---

(١) كلمة هوروفتس محقق القسم الأول من الجزء الأول من كتاب: الطبقات الكبرى ابن سعد.

(٢) أحد الحفاظ وهو تلميذ محمد بن إسحق.

(٣) عاصر الكثيرين من جماع الحديث فى القرن الثالث الهجرى وكان صديقا لأحمد ابن حنبل صاحب المسند.

(٤) النقل فى أ، ب، جـ عن مقدمة ابن هشام: السيرة تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى، الطبعة الثانية، ص ١١.

ولما كان «ابن هشام» لم يستأصل كل ما كان يجب أن يستأصله من سيرة «ابن إسحق» فقد عمد بعض كبار المشتغلين بتاريخ الرسول من رجال الحديث والسنن إلى تهذيب السيرة النبوية بتنقيح ما اعتمده «ابن هشام» وما ورد عن «موسى بن عقبة» متبعين فى ذلك طريق الاختصار وترك الضعيف من الروايات، والاقتصار على العيون من الأخبار دون الحشو والتخليط (١)؛ مبتعدين أحياناً عن ذكر ما لم يصح عندهم من الروايات، ومناقشة ما رواه غيرهم أحياناً أخرى من ضعيف الروايات (٢) لبيان الصحيح من الأخبار، ونحن نختار من بين هذه المختصرات الكتابين الآتيين: .

(١) جوامع السير للحافظ «أبى محمد، على بن حزم» أحد أئمة الأندلس، وقد حققه الأستاذان «إحسان عباس وناصرالدين الأسد»، ونشرته دار المعارف بالقاهرة (٣).

(٢) الدرر فى اختصار المغازى والسير: لحافظ الأندلس وفقيهها «يوسف ابن عبدالبر» (٤) تحقيق «د. شوقى ضيف» ونشرته «لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية».

صعوبة الكتابة فى السيرة

ويتضح من التمهيد السابق أن عملنا فى هذا البحث لم يكن سهلاً ولا ميسَّراً، فقد كان لا بد من أن نتفادى الإسرائيليات وغيرها مما دس على السيرة، وأن نقارن بين الروايات المختلفة وننقدها حتى نبتعد عن الضعيف منها، ولا نأخذ إلا بأوثقها؛ وبذلك تستقيم رواية السيرة، ولا يصبح هناك تضارب فى الروايات فنختار مما روى منها عن الثقات من الصحابة، فكلهم صادقون، ونحن نضرب الأمثلة التالية مما صادفنا فى هذا البحث:

(١) اتفق الصحابة جميعاً على أن أول من أسلم من الناس كان

---

(١) ابن عبد البر: خطبة كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير.

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم: تصدير المرجع السابق.

(٣) ت ٤٥٦ هـ. وكذلك نشرته مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة ١٩٨٢ م

(٤) ت ٤٦٣ هـ.

«خديجة بنت خويلد» ؛ واختلفوا فى أول من أسلم من الرجال ، فذكر بعضهم أنه «أبوبكر» وروت طائفة أنه «على بن أبى طالب» ، وقررت طائفة أخرى أنه «زيد بن حارثة» ، وبعد جهد ومقارنة استطعنا أن نصل إلى أن سبب هذا التضارب يرجع إلى الظروف التى أحاطت بالدعوة فجر إشراقها، فإن النبى صلى الله عليه وسلم ، ضرب سياجاً من السرية التامة على الدعوة على مدى ثلاث سنوات كاملة ، لذلك ، ولظروف أخرى شرحناها أثناء البحث ، فإن «علياً» لم يعلن للناس إسلامه وكذلك «زيد بن حارثة» . و«أما أبوبكر» فإنه كان يعمل مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى نشر الدعوة ويختار من يثق فيهم من أصدقائه الذين يعلم فيهم الاستعداد لتقبل مايدعو إليه الإسلام من قيم جديدة وأخلاق فاضلة ؛ وقد استجاب له لفيف منهم كانوا من الرواد الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام ، وكان هؤلاء يعتقدون أنه أول من آمن من الرجال ، وبذلك شهدوا .

(٢) اختلفت الروايات التى وردت عن أول من تزوج السيدة «خديجة» وقد بحثنا ذلك فى الخاتمة التى ألحقناها بهذا الكتاب ، ورجحنا فيها الرواية التى أخذ بها بعض كبار الموثوق بهم من رواة السيرة .

(٣) ذكر «ابن سعد» من بين الروايات العديدة التى جمعها ، أن «ابن عباس» قال : «كانت «خديجة» يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ابنة ثمان وعشرين سنة ، ومهرها النبى اثنتى عشرة أوقية ، وكذلك كانت مهور نسائه» (١)، وهذه رواية شاذة وضعيفة بشقّيها ، ولم يأخذ بها أحد من كبار مؤرخى السيرة ؛ ولذلك فقد بادر «ابن سعد» على الفور بنفيها استناداً إلى رأى أستاذه «محمد بن عمر الواقدى» فقد روى عنه قوله : «ونحن نقول من عندنا ومن أهل العلم إن «خديجة» ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة ، وإنها كانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنت أربعين سنة (٢)» .

ونحن لم نكن لنأبه بهذه الرواية الشاذة لولا أن الأستاذ «عباس

(١) الطبقات الكبرى جـ ٨ عند ذكر خديجة ص ١٠ .
(٢) المرجع نفسه .

العقاد»، وهو من هو بين كبار قادة الفكر والأدباء المسلمين فى القرن العشرين، قد أخذ بها، وقد بدأ بعض المعاصرين الذين يكتبون فى السيرة يتأثرون برأيه، وينقادون وراءه دون اتباع للطريق العلمى فى مناقشتها، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء فى تصدير كتاب من أحدث ما نشر عن السيرة فى السنوات الأخيرة إذ ورد فيه: «قد بذل المؤلف جهداً شاقاً فى الموازنة بين الروايات الكثيرة المختلفة فى الموضوع الواحد، حتى انتهى فيه إلى شعاع من النور يكشف عن وجه الحق. وقد أظهر فى ذلك براعة يحمد عليها، واستخلص حقائق من بطن التاريخ، كان الناس يعتقدون خلافها. فقد رجح مثلاً رواية ابن عباس (رضى الله عنه) التى تذكر أن سن السيدة «خديجة» كانت ثمانية وعشرين عاماً حين تزوج النبى، صلى الله عليه وسلم منها، واستدل على ذلك بالأسانيد، وكانت الرواية الشائعة تقول إنها كانت فى الأربعين» (١)».

وقد بحثنا فى هذا الكتاب فلم نجد موازنة بين الروايات فى هذا الموضوع، ولم يذكر المؤلف مصدراً من المصادر الأصيلة التى تروى ما صح من الأخبار يمكن أن نقول إنه اعتمد عليه عند اختيار هذه الرواية الشاذة، كما أنه لم يذكر سنداً من الأسانيد يبيح له أن يرجح تلك الرواية الضعيفة التى لم يأخذ بها من قبل أحد من كبار كتاب السيرة الموثوق بهم، ولعل جلّ اعتماده كان على ما أشار إليه فى أحد الهوامش من «أن العقاد رضى هذه الرواية فى فاطمة والفاطميين» (٢) وكل ما ساقه الأستاذ المؤلف واعتبره دليلاً اعتمد عليه فى ترجيح هذه الرواية ليس إلا كلاماً أو هى من نسج العنكبوت حيث قال: «وهذا يستدعينا أن نعيد النظر فى عمر السيدة «خديجة»، فأكثر المؤرخين أنها تزوجت النبى، صلى الله عليه وسلم، وهى فى الأربعين من عمرها، ولو كانت كذلك لكانت وقت بعثة الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى الخامسة والخمسين: وكيف

(١) تصدير كتاب «سيرة النبى العربى محمد رسول الله تأليف أحمد التاجى»؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر سنة ١٩٧٨، ص ٤ ــ ٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٣.

تنجب سيدة فى هذه السن؟ والموثوق به أنها أنجبت ولدها عبدالله بعد البعثة. لهذا نرجح رواية «ابن عباس» الذى يذكر أنها تزوجت من النبى صلى الله عليه وسلم وهى فى الثامنة والعشرين؛ فكانت أكبر من النبى صلى الله عليه وسلم بقليل وبهذا يستقيم أن تلد «خديجة» فى الإسلام» [1].

وهذا التفكير السقيم لا يحتاج إلى تفنيد؛ إذ هل هناك ما يمنع النساء من أن يلدن فى الخامسة أو السادسة والخمسين؟ إن أمر الإنجاب وموعده بيد الله وحده، فهو سبحانه الذى

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [2]

وهذه زوجة أبينا إبراهيم عليه السلام أنجبت بعد أن صارت عجوزاً عقيماً قال تعالى:

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [3]

وكذلك شمل الله برحمته عبده زكريا، وقص علينا الكتاب العزيز بأفصح عبارة قوله تعالى: [4]

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن

---

(١) المرجع السابق ص ١٧.
(٢) سورة الشورى: الآية ٤٩.
(٣) سورة هود: الآية ٧١ ـ ٧٣.
(٤) سورة مريم: الآية ٢ ـ ٩.

لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾

ولما كان الأخذ بتلك الرواية الغريبة الشاذة يفتح باباً للشك في الروايات الصحيحة الموثقة الأخرى المتفق عليها . وهي التي ظل المسلمون يؤمنون بها طوال تاريخهم الطويل المجيد ، لذلك كان علينا أن نناقشها مناقشة علمية هادئة مستعينين بالله على هذا الجهد الذي لم يكن له ما يسوغه سوى الرغبة في التظاهر بالوصول إلى ما لم يصل إليه الأوائل .

من المتفق عليه أن « عبد الله بن عباس » ، رضي الله عنه ، ولد عندما كان الرسول « وبنو هاشم » محاصرين في شعب « أبي طالب » ، وقد كان ذلك بعد زواج النبي صلى الله عليه وسلم ، من « خديجة » بأكثر من واحد وعشرين عاماً (١) ، والرواية التي قيل إنها رويت عنه لم تذكر المصدر الذي استقى منه « عبد الله بن عباس » هذا الخبر حتى نتأكد أن ذلك المصدر كان شاهداً عدلاً ، وبذلك فإن هذه الرواية لم تستوف الأركان التي توجب تصديقها ، وواضح أنها إحدى الروايات الكثيرة التي حُملت على « عبد الله بن عباس » وهو منها بريء . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشق الثاني من هذه الرواية غريب أيضاً ، فقد روى من يوثق بهم أن مهر خديجة كان عشرين بكرة (٢) ، قدمها أبو طالب من ماله الخاص ، وهو ما أخذنا به في هذا الكتاب (٣) ، ولذلك فإننا نعتقد أن هذه الرواية ليست غريبة فقط ولكنها شاذة أيضاً .

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ، ترجمة عبد الله بن عباس برقم ٣٠٣٥ جـ٢ ص ٢٩ .
(٢) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ١٩٠ .
(٣) الفصل الأول من كتابنا هذا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الذى روى أن خديجة تزوجت النبى صلى الله عليه وسلم، وهى فى سن الأربعين فهو «حكيم ابن أخيها حزام بن خويلد»(١)، وكان من «أشراف قريش ووجوهها فى الجاهلية والإسلام»(٢) وكان فى الثامنة والثلاثين من عمره، ولا نشك فى أنه حضر، مع غيره من رجال بنى أسد، حفل زواج عمته «خديجة» من «محمد بن عبدالله» صلى الله عليه وسلم وهو شاهد عدل، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكرمه ويجزل له العطاء فقد أعطاه يوم حنين مائة بعير(٣)، وقد وردت إلينا روايته موثقة عن «محمد بن عمر الواقدى، عن موسى ابن عقبة، عن أبى حبيب مولى الزبير بن العوام» وكلهم رواة لا ترقى إليهم الشبهات ولذلك أخذ بها الموثوق بهم من مؤرخى السيرة والمغازى؛ وهى فوق ذلك كله حقيقة يعرفها الرواد الأوائل من شيوخ الصحابة مثل: «أبى بكر بن أبى قحافة»، فقد كان فى الثانية والعشرين عندما عقد هذا الزواج(٤)؛ فقد ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين؛ ويجدر بنا أن نذكر فى هذا المقام أن «حكيم بن حزام» كان وفياً لعمته؛ وأنه كان، قبل أن يسلم، أحد القلة القليلة من ذوى الفضل والمروءة الذين أشفقوا أن يهلك «بنو هاشم» و«بنو المطلب» جوعاً أثناء الحصار الذى ضربته عليهم الكثرة الباغية من قريش؛ ولذلك كان يقوم بقيادة الجمال المحملة بالطعام فى ظلام الليل، ويتسلل بها خفية إلى المحاصرين فى شعب أبى طالب. مما أشرنا إلى بعضه فى الفصل التاسع من هذه السيرة.

* * *

وقد سبق أن شرحنا فى التمهيد للمقدمة أن الصحابة والتابعين لم يعنوا بجمع أخبار السيرة الشريفة إلا بعد انتقال النبى صلى الله عليه وسلم، إلى

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ ٨ عند ذكر خديجة ص ١٠.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ترجمة حكيم بن حزام برقم ١٣٣٤ جـ٢ ص٤٥.

(٣) المرجع السابق، وابن هشام: السيرة، جـ ٢ ص ٤٩٣.

(٤) ترجمة عبد الله بن عثمان أبو بكر الصديق برقم ٣٠٦٤، أسد الغابة، جـ٣ ص ٣٣١.

الرفيق الأعلى، وأن الناس لم يكونوا يعرفون تفاصيل حياة «محمد بن عبدالله» الخاصة هو وزوجته «خديجة» في الفترة السابقة لمبعثه؛ ولذلك اختلف الرواة في ترتيب تفاصيل تلك الحياة، وقد رضينا في ذلك بالروايات التي اعتمدها كبار المؤرخين وكتاب السيرة والتراجم من المشهود لهم بالدقة في تحري الأخبار، وعنينا بذكر المصادر التي استقينا منها كل رأي أخذنا به، كما عنينا في الفصلين السادس عشر والسابع عشر، اللذين ألحقناهما بتاريخ «خديجة أم المؤمنين»، بترتيب كثير من هذه التفاصيل، ومن الأمثلة على ذلك.

(١) بيان من الذي تزوج «خديجة» عندما كانت بكراً.

(٢) ذكر وترتيب تواريخ ميلاد أولاد «خديجة» من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

(٣) ذكرنا «عبد الله بن محمد خاتم الأنبياء والمرسلين» في مكانه من هذه السيرة، كما تحدثنا عنه في الفصول الأخيرة الملحقة بهذا الكتاب.



منهجنا فى كتابة هذه السيرة

إن الحديث فى هذا البحث عن حياة السيدة «خديجة بنت خويلد» هو فى الحقيقة جزء هام من الحديث عن السيرة النبوية الشريفة فى «بداية إشراق فجر الإسلام» ؛ فقد تزوجها «محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم» ، قبل النبوة بخمسة عشر عاما ، وعاش معها بعد النبوة تسعة أعوام وستة شهور، ولم يتزوج غيرها وهى معه حتى توفيت إلى رحمة الله ، ولذلك كان لزاما علينا أن نتحدث عن بعض أدوار حياته ، فبدأنا بالحديث عنه شابا من شبان قريش ، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وينهض بما يجد من عمل التماسا للرزق الحلال ، ويفرح لما يفرح له قومه إذا أفاء الله عليه أوعليهم خيرا ، وإذا استطاع أن يعمل صالحا ، كما كان يحزن لما ينزل به أوبأهله وعشيرته مما يسوء القوم أويحزنهم ، ولكنا لم نغفل أن نذكر أن العناية الربانية صانته ، فى هذا الدور من أدوار حياته ، مما كان منتشرا بين شبان مكة من اللهو والمجون ، وحفظته من أن يسجد لغير الله ، فحرّمت عليه أن يتقرب إلى الأوثان ، وجمّلته بالأخلاق الفاضلة فكان باراً بأهله يصلهم ويعطف عليهم ، وكان بالفقراء والمحتاجين رءوفا رحيما ، وغرس الله فى نفسه حب الخير والسلام والوفاء بالعهد ، فوفّقه لإحلال السلام والمحبة بين جميع بطون قريش بعد أن أوشكوا على الدخول فى حرب طاحنة قبل مبعثه بخمس سنوات ، وذلك لأن الله الذى خلقه طهّره وأعده ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأراد أن يكون النعمة التى قرر أن يهديها إلى الناس أجمعين .

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أرادت له العناية الإلهية أن يعيش فى أسرة ، فيسرت له الزواج من «خديجة بنت خويلد»، ورزقته منها البنين

والبنات، وعاش يرعى أسرته، ويصل قرابته، ويكد ويتعب ليكسب لهم الرزق الحلال، ويسمر معهم ويداعبهم أثناء فراغه ليسرّى عن نفسه وعنهم، فرفرفت السعادة عليهم. ولما أبتليت الأسرة بوفاة ابنها البكر ذاقت ما ذاق غيرها من الأسر من آلام الفجعية فى الولد، ولكنها رضيت بقضاء الله وقدره، وتذرعت بالصبر راجية أن يعوّضها الله بأحسن الأجر، فما لبثت أن عادت السعادة ترفرف عليهم.

ولكن «محمداً» صلى الله عليه وسلم، كان يسمو فوق ما يقنع به الإنسان العادى، ولا يكتفى أن تكون رسالته فى الحياة هى العيش فقط لبناء أسرة سعيدة، فكان يخلو إلى نفسه كل عام شهرا فى غار حراء بعيدا عما كانت تزخر به مكة من إباحية مفرطة، وانغماس فى عبادة وتقديس حجارة نحتها الناس بأيديهم، وكان يتفرغ فى هذه الخلوة للتفكير فى ملكوت السموات والأرض، وقد ألهمه الله ذلك كما ألهم من قبل أباه إبراهيم الخليل، الذى كان يعتزل الناس ليخلو إلى نفسه، محاولا أن يهتدى إلى عبادة الخلاق العظيم. ولما بلغ «محمد بن عبد الله» الأربعين من عمره اجتباه ربه فبعثه داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وقد أخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتهد فى نشر الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، وإلى التمسك بالخلق الكريم زهاء ثلاثة عشر عاما فى أرجاء «مكة»، كان طوالها مؤمنا أن الله الذى بعثه بالحق لن يتخلى عنه وأنه سوف ينصر دينه، فتحمل ما تحمل بصبر وثبات وعزيمة، وقد قيّض الله له عمه «أبا طالب» سيد «بنى هاشم وبنى المطلب» ليزود عنه ويحميه إذا خرج من بيته للدعوة، فقد كان المشركون من زعماء قريش يهابون «أبا طالب» ويخشون تفجير حرب لا تبقى ولا تزر بين بطون قريش، ولذلك فقد كانوا لا يذهبون فى إيذاء الرسول الكريم إلى الحد الذى يريحهم منه بالقضاء عليه.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا عاد إلى بيته من جهاده، وجد فى «خديجة» سكنا لروحه واطمئنانا لنفسه، وتثبيتا له على كفاحه وأداء رسالته، ودام على ذلك زهاء ثلاثة عشر عاما فقد فى نهايتها الأمان خارج البيت لموت «أبى طالب»، كما فقد السكن والاطمئنان داخل المنزل لوفاة

«خديجة»، فقد رحلا من هذا العالم فى عام واحد أطلق عليه عام الحزن، فلم يعد له فى «مكة» بعدهما أمن ولا أمان ولا سكن ولا أطمئنان.

ومحور الحديث فى هذا الكتاب يدور حول «خديجة أم المؤمنين»، فقد كانت «أول من آمن بالله ورسوله، وصدق «محمداً» صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من ربه، وآزره على أمره، فكان لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من رد عليه، وتكذيب له إلا فرّج الله عنه بها، تثبته وتصدقه وتخفف عنه وتهوّن عليه ما يلقى من قومه»([1]). ولا شك أن العناية الربانية أعدتها لتكون زوجة لخاتم الأنبياء والمرسلين، فقد ورثت عن البيئة التى ولدت فيها الصلاح والخلق الكريم، حتى أطلق عليها الناس فى الجاهلية لقب «الطاهرة»، وأرادت لها العناية الإلهية أن تعمل فى التجارة فكسبت خبرة واسعة، وتعودت الصبر الذى يعين على تحمل المشاق الجسيمة، والتعود على مجابهة ما يقابلها من مصاعب، وعدم الركون إلى الدعة، واستثمار كل ما وهبها الله من مواهب حتى تصل إلى ما تبغى الوصول إليه مادامت الغاية شريفة والطريق الموصل إليها كريما، غير مبالية بتقاليد الجاهلية التى لم تكن تلائم تطور الزمن، بل كانت تقف حجر عثرة فى طريق تقدم المجتمع، كل ذلك فى نُبل وسماحة وكرم مما ورثته عن آبائها ومما أودعه الله فيها من صفات، وبهذا الإعداد الإلهى كانت «خديجة» نعم المعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أداء الرسالة الربانية، فقد صمدت معه فى المحن والخطوب، وبذلت النفس والنفيس فى سبيل نشر الدعوة، وفى مساعدة أبنائها المؤمنين ورعايتهم فى السراء والضراء، وفى السر والعلن، وإن فى إخلاص النبى الكريم وإكرامه لها بعدم الزواج من غيرها طوال أربعة وعشرين سنة وستة شهور قاربت فيها الخامسة والستين من عمرها فى بيئة بدوية كانت تشجع على تعدد الزوجات لضمان إنجاب الكثير من الأولاد ليكونوا عزا لآبائهم وحماية لقبيلتهم، كما أن فى كثرة ذكره لها وحديثه عن فضلها ووفائه لذكراها بعد وفاتها، فى ذلك كله، وفى إكرام الله سبحانه

---

(١) متفق عليه وانظر ابن عبد البر: الاستيعاب عند ذكر خديجة الكبرى؛ وكذلك ابن هشام: السيرة جـ١، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

لها حين شاءت الإرادة الإلهية أن تجعل منها، دون غيرها من النساء، الذرية الطاهرة لخاتم الأنبياء والمرسلين فتصبح على مدى الدهر الأم الكبرى لآل البيت النبوى الكريم وذرية «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، إن فى ذلك كله ما شجعنا على أن نقول إنها بحق أول «أم للمؤمنين»، وأن نسند إليها هذا اللقب العزيز علينا منذ نزول أقدس رسالة سماوية للناس أجمعين، على الرغم من أن هذا اللقب لم يهتد إليه المسلمون إلا بعد الهجرة الشريفة إلى «المدينة المنورة» حيث نزلت الآية الكريمة:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ (١)

ونحن نرجو أن يعيننا الله سبحانه حتى نكمل هذه السيرة بكتابة بحث آخر نفصّل فيه حياة آل البيت النبوى الكريم من سلالتها الطاهرة.

مصادر البحث وأسلوبه

كانت الحوادث فى بداية «إشراق فجر الإسلام» تتتابع بسرعة حتى يأخذ بعضها بزمام بعض، وكانت الآيات القرآنية الشريفة تتنزل فى تلك المناسبات بحيث يترى بعضها فى إثر بعض، ولذلك كان القرآن الكريم هاديا لنا فى متابعة تلك الحوادث، وكانت بعض كتب أسباب النزول وكتب التفسير مبسوطها ومختصرها هى التى يسرت لنا تلك المتابعة، وكانت الأحاديث النبوية الكريمة هى التى توضح لنا معالم الطريق لأنها تفسر لنا ما أجملته آيات الكتاب العزيز، وقد اعتمدنا فى ذلك على بعض كتب الصحاح التى نطمئن منها على صدق الرواية عن قائلها صلى الله عليه وسلم، ثم استقينا الأخبار من المصادر التى بذل أصحابها الجهد الكبير فى جمع ما روى من أخبار السيرة النبوية الشريفة والمغازى، وما روى كذلك من تراجم الصحابة والتابعين. وقد تحرينا، من بين تلك الروايات العديدة المتضاربة، أن نختار ما نعتقد بعد البحث والمقارنة والتدقيق أنه أصح

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦

الروايات وأقربها إلى الحقيقة التاريخية ، ثم صغنا ذلك بأسلوب عصرى يتسم بالبساطة والوضوح آملين أن ينتفع بهذا الكتاب أكثر الناس من مختلف المستويات الثقافية وخاصة الجيل الصاعد من شبابنا ، واخترنا لهم فى بعض الأحيان نماذج اقتبسناها من الروايات التى رجحتها المصادر التاريخية القديمة بعد شرحها شرحا مبسطا حتى يتذوقوها ، وبذلك نأمل أن نفتح أمامهم الباب للتعوّد على متابعة القراءة والبحث فى تلك المصادر لعلهم يستطيعون فى المستقبل أن يستخرجوا من كنوزها بحوثا تجلى بعض نواحى هذا التاريخ ، وتشجع الأجيال القادمة على التوسع فى شرحه وبيان جواهره.

وكان اعتمادنا فى كثير من النواحى على رواية الأحداث بالأسلوب القصصى الذى يرتب الحوادث ترتيبا زمنيا متسلسلا حتى نتابع فصول السيرة متابعة تاريخيه تسهل اقتفاء حوادثها ، وبذلك يسلمنا كل فصل من فصولها إلى الفصل الذى يليه ، واكتفينا أثناء سرد الحوادث باختيار ما كان له تأثير فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم هو وزوجته «أم المؤمنين خديجة» ، وكذلك ما يُيسّر لنا أن نحيط بقدر الإمكان ببعض ما وهبها الله من كريم الأخلاق والصفات ، فقد كانت حياتها مثلا أعلى من أكرم الأمثلة التى تحتذى فى تاريخ البشرية كلها.

وقبل أن أختتم هذه المقدمة يسرنى أن أسجل بجزيل الشكر المعاونة الطيبة التى قدمها لى الكثير من الأصدقاء ، وأخص منهم بالذكر الأستاذين الكبيرين : الدكتور «عبد العزيز الدالى» أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة الزقازيق ، والدكتور «رمضان عبد التواب» وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس ، فقد قام كل منهما بقراءة أجزاء كبيرة من الكتاب وأبديا ما عن لهما من الملاحظات القيمة.

وكذلك أسجل موفور الشكر للعالم الجليل الأستاذ «محمد يس جزر» الوكيل الأول لوزارة شئون الأزهر بمجلس الوزراء ، فقد تفضل مشكورا بقراءة

الكتاب كله، وأبدى الكثير من الملاحظات القيمة، كماتكرم بالإسهام مساهمة فعالة فى تصحيح تجارب الطباعة، مما كان له أحسن الأثر فى ظهور الكتاب على الصورة التى هو عليها الآن.

المؤلف

عبد المنعم محمد عمر

١٠ من المحرم سنة ١٤٠٢هـ

٧ من نوفمبر سنة ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (سورة الأعراف الآية ١٨٩)



الفصل الأول

الزواج

السيدة «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى» أخي «عبد مناف» وحليفه؛ فنسبها عن أبيها يلتقي مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند جدهما الرابع «قصى»، وأمها هي «فاطمة بنت زائدة»، وأم «فاطمة» هذه هي «هالة بنت عبد مناف» الجد الثالث للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان أبوها «خويلد سيد بني أسد بن عبد العزى»(1)، ذكى الفؤاد، واسع الغنى، عريض الجاه، ملتزما بالأخلاق الفاضلة، وكان معروفا بالأنفة والصدق والأمانة والوفاء. وكان ابن عمها «ورقة بن نوفل بن أسد» أحد أربعة أصدقاء من حكماء العرب في زمانهم، ولم يرضهم أن تنحت قريش من الحجارة أوثانا يخرّون لها ساجدين(2)، ويضعونها حول الكعبة التي بناها جدهم «إبراهيم» وأبنه «إسماعيل»، ثم يدعون القبائل العربية إلى عبادتها من دون إله «إبراهيم»، ولذلك قال هؤلاء الأربعة بعضهم للبعض الآخر: «تعلمون، والله، ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم «إبراهيم». ما حجر نطيف(3) به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر

---

(1) ابن إسحق: السيرة النبوية مراجعة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القسم الأول، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥، المجلد الأول ص١٨٩ــ ١٩١. وهو نسب متفق عليه في كتب السيرة وكتب الطبقات.

(2) المرجع السابق، ص٢٢٢ ــ ٢٢٣.

(3) أي يطوفون حوله.

ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء(١). فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين «إبراهيم»، وبعد بحث طويل اعتنق «ورقة» الديانة المسيحية، وأكب على دراسة كتبها حتى صار من أعلم الناس بها في عصره». (٢).

ويتضح من هذه المقدمة الموجزة أن «خديجة بنت خويلد» كانت من أعرق قريش نسبا، وأعلاهم حسبا، وأنها نبتت في بيت واسع الثراء، ملتزم بالأخلاق الفاضلة، ومعروف بالتدين والبعد عن الانغماس في الشهوات التي كان بعض القرشيين غارقين فيها. وقد ولدت قبل عام الفيل، وهو العام الذي ولد بعده الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس عشرة سنة(٣). وقد ورثت عن أبويها شرف النفس، وحسن السيرة، والحزم، وجمال الخلقة والخلق؛ فلما بلغت مبلغ النساء تزوجها «أبو هالة النباش بن زرارة التيمي» فولدت له ولدين، بكرت بابنها «هند» ثم رزقت بأخيه «هالة»(٤) وهذان الاسمان من أسماء الإناث ولكن العرب كانت تسمي الذكور أحيانا تسمية الإناث، ولعل ذلك كان للتدليل؛ ولكن هذا الزواج لم يعمّر، فقد توفي الزوج تاركا لها ولولديها منه ثروته الطائلة.

وتزوجت خديجة بعد ذلك «عتيق بن عائذ المخزومي». فولدت له بنتا يقال لها «هند» أيضا، وقد شبت هذه البنت وترعرعت ثم تزوجت ابن عم لها يدعى «صفي بن أمية بن عائذ المخزومي» فولدت له «محمداً»، وقد عاش هذا الولد، وكانت له ذرية أقامت في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية، وكان يطلق على هذه الذرية هناك «بنو الطاهرة» لما كانت تتمتع

---

(١) المقصود أن عبادة الأصنام ليست على أساس صحيح.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٣) يكاد يكون مجمعاً عليه، وانظر ابن عبد البر: الاستيعاب، الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن، سنة ١٣١٨هـ، ص١٤ ـ ١٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٨ في ترجمة خديجة ص ١٤ ـ ١٥، وابن الجوزي صفوة الصفوة جـ١، ص٢٥.

به جدتهم «خديجة» من الذكرى العطرة، والمكانة الطيبة عند المسلمين، ولكنهم انقرضوا [1].

أما «هند بن خديجة من أبى هالة»، فقد ذكرت كتب السيرة والطبقات أنه عاش مع أمه فى كنف «محمد بن عبد الله» الذى كان يحبه ويرعاه، وأنه كان يفخر أنه ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخو فاطمة الزهراء، وكانت له رواية عن النبى صلى الله عليه وسلم سوف نذكرها فى مكانها، وقد اشترك فى «غزوة أحد»، وقيل أنه اشترك فى «بدر» الكبرى»، وكان بليغا فصيحا يحسن الوصف، ولذلك طلب منهم «الحسن بن على بن أبى طالب» أن يصف له النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى هذا الوصف عنه ابن أخته «الحسن» فخورا بخاله وفصاحته، وقد استعنا بهذا الوصف عندما ذكرنا أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم [2].

أما «هالة بن أبى هالة من خديجة» فقد عاش وأسلم وكانت له كذلك صحبة ورواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر «ابن حجر» ما أثبته الطبرانى: «أن هالة دخل على النبى صلى الله عليه وسلم، وهو راقد فاستيقظ، وضمه إلى صدره وهو يقول: «هالة! هالة!». وكذلك روى ابن حجر من طريق آخر، أن السيدة «عائشة أم المؤمنين» قالت: قدم ابن لخديجة يقال له «هالة»، والنبى صلى الله عليه وسلم قائل [3]، فسمع فى قائلته: «هالة»، فانتبه وقال: «هالة! هالة! [4]» وهذا يدل على وفاء النبى صلى الله عليه وسلم «لخديجة» بعد وفاتها، ومحبته لأولادها.

ولعل ذرية «خديجة» من أولادها هؤلاء الثلاثة هم الذين كانت تعنيهم «أم المؤمنين عائشة» عندما قالت: «ماغرت على امرأة ماغرت على

---

(١) المرجعان السابقان.

(٢) انظر هذا الوصف كاملاً فى النويرى: نهاية الأرب جـ١٨ ص٢٧٣ – ٢٧٦، وقد اهتم الكثيرون بشرحه لفصاحته. وانظر: مقدمة «أسد الغابة» عند ذكر صفة الرسول الكريم.

(٣) قائل: أى مستريح أثناء القيلولة، وهى أشد أوقات الحر فى النهار.

(٤) ابن حجر: الإصابة ترجمة رقم ٨٩١٤.

«خديجة» وما بي أن أكون قد أدركتها ، ولكن ذلك كان لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إياها. وإن كان ليذبح الشاة فيتتبع بذلك صدائق «خديجة» يهديها لهن» (١).

وكانت «خديجة» تعيش مع ولديها وابنتها عيشة راضية مطمئنة، وكانت تُعرف في مكة بحسن سيرتها، وشرف نفسها، وجمال خلقها حتى أُطلق عليها في الجاهلية لقب «الطاهرة»، فتقدم الكثيرون يطلبون زواجها، وعرضوا عليها الأموال الكثيرة صداقا، ولكنها عزفت عن الزواج ورفضت كل من تقدم لها من سادة قريش وزعمائها، وآثرت أن تفرغ لرعاية أولادها، وأن تنصرف للإشراف بنفسها على الاتجار في أموالها الطائلة (٢)، وكانت التجارة التي ترسلها مع القوافل القرشية من الوفرة بحيث يتكون منها ما يقرب من نصف ما تحمل كل قافلة (٣). وكانت تختار من أشراف قريش من يخرج مع العير ليشرف على تجارتها، ولا شك أنها كانت تختارهم من بين التجار المجربين المشهود لهم بالأمانة والصدق، ولهم في مقابل ذلك نصيب متفق عليه، واستمرت حياة «خديجة» تسير على هذا المنوال حتى أشرفت على الأربعين من عمرها.

* * *

ولما أرادت العناية الإلهية لها السعادة، وكانت إحدى القوافل القرشية على وشك الارتحال إلى الشام، راحت «خديجة» تفكر في اختيار التاجر الذي ستعهد إليه بالإشراف على تجارتها. وكان أهل مكة في ذلك الوقت يلهجون بذكر ما يتمتع به «محمد بن عبد الله» من كرم الأخلاق والأمانة، وبعده عن اللهو والمجون الذي كان ينغمس فيه كثير من أنداده من شبان قريش، فلماذا لا تنتخبه للخروج في مالها مع هذه القافلة؟ انه لم يسبق له

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب جـ٢ ص٧٤١.

(٢) متفق عليه وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى: جـ٨ ص ١٤ ـ ١٦، وابن الجوزي: صفوة الصفوة جـ١ ص٢٠٥.

(٣) ابن سعد: ترجمة خديجة.

الاشتغال بالتجارة فهل يصلح للإشراف على مالها؟ إن الناس يتحدثون كثيرا عن ذكائه وعن كريم صفاته فلماذا لا تستدعيه لترى بنفسها رأيها فيه؟ لقد كانت لها فراستها التي لم تخنها قط في اختيار التاجر المناسب فلماذا لا تقابله مثل ما كانت تفعل كل مرة عند اختيار من تكلفه الإشراف على قافلتها؟ وتستريح «خديجة» لهذه الفكرة، فأرسلت إليه. ولما حضر استقبلته وأخذت تحدثه في شئون التجارة، فوجدته شابا شديد الذكاء، وسيم الطلعة، عف النفس، لطيف المحضر، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سَمَا وعليه البهاء، وكان حلو المنطق، يحسن الإصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه [1]، مما بعث في نفسها الثقة وهي التاجرة المجربة، ولذلك فقد تسرب إلى نفسها الإطمئنان إليه، وحزمت أمرها فعرضت عليه أن يخرج في تجارتها الذاهبة إلى الشام في عير قريش، ومما يؤثر عنها أنها قالت له حينذاك: «دعاني إلى طلبك ما بلغني من صدق حديثك، وعظيم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك» [2] فاستجاب «محمد»، وشكر لها اختياره وما أثنت عليه، واستأذن في الانصراف.

وترقبه خديجة وهو يسير بخطى متزنة سير الواثق من نفسه، وتتأمله جيدا، فتراه رجلا ربعة لا هو بالطويل ولا هو بالقصير، مضمر الجسم لا هو بالسمين ولا بالهزيل، ضخم الرأس. ثم تتذكر أنه كان طوال المقابلة يغض من بصره، فلما عرضت عليه أمر الإشراف على تجارتها إلى الشام تبسم ثم رفع من رأسه قليلا ليشكرها، ولكنه سرعان ما عاد وغض من بصره ثانية. لقد تأملته حينذاك فكان مبسوط الجبين، مرسل الذقن، عالي العنق كأنه إبريق

---

(١) هذا الوصف ـ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وغيره مما جاء في هذا البحث مقتبس من وصف أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية للنبي صلى الله عليه وسلم عندما مر بها في طريق هجرته إلى يثرب، وكانت لا تعرفه بل رأته لأول مرة، وهي أوصاف لا تخفى على مثل خديجة، وكذلك استعنا في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف علي بن أبي طالب له، ووصف أم المؤمنين عائشة، ووصف هند بن خديجة. انظر الطبري: التاريخ جـ٣ ص١٧٩ ـ ١٨٠، والنويري: نهاية الأرب جـ١٨ ص٢٧٣ ـ ٢٧٨.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص١٨٨، وتاريخ الطبري جـ٢ ص٢٨٠.

فضة، عريض الصدر، يتوج هامته شعر كث شديد السواد، وتشع عيناه الدعجاوان [1] الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك، وتتألق أسنانه البيضاء المفلجة إذا تبسم [2]. ولكن ما شأنها هي بهذه الأوصاف والصفات التى كان يتحلى بها «محمد بن عبد الله»! إنها بلا شك صفات كانت تعجب بها الفتيات من زهرات قريش اللاتى أخذن يتفتحن للحياة فإنهن يعجبن عادة بأمثاله من الشبان الأقوياء، فلماذا انطبعت فى مخيلتها تلك الصور بهذه السرعة؟ أليس استدعاؤها له كان لأمر من أمور التجارة وهو ما تعودت أن تفعل مثله قبيل رحيل كل قافلة من قوافل تجارتها؟ ولكنها تجد نفسها منساقة إلى تذكر ملامح هذا الشاب كلما خلت إلى نفسها. ما ألطف ما بدا على وجهه من البهاء عندما ابتهج بما عرضته عليه! وما أبدع تلك البسمة الخفيفة التى افتر عنها ثغره، وأشرق بها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة! وما أظرف حديثه غير المتكلف! إنه بلا شك جدير بالإعجاب الذى يحيطه به أهل مكة.

وذهب «محمد» إلى عمه «أبى طالب» وقص عليه ما حدث، فغمره الابتهاج وأشرق وجهه سرورا وهو يشجعه قائلا: «هذا رزق ساقه الله إليك» [3].

وتتجهز القافلة للمسير، ويحين موعد سفرها، فيقبل شيوخ مكة وسراتها كعادتهم لتوديعها، ويسرع أعمام «محمد»، وفى مقدمتهم عمه «أبو طالب» لوداعه، ويوصون به الشيوخ المسافرين معه [4]، وتسير القافلة متجهة إلى الشام كما سارت مثيلاتها من قبل.

لقد خرج «محمد» فى أول تجربة تجارية يعهد بها إليه، وكان يساعده

---

(١) العينان الدعجاوان، شديدتا السواد.

(٢) هذه أوصاف مختارة مما وصف به النبى صلى الله عليه وسلم مما أشرنا إلى مصادره من قبل.

(٣) ابن حجر: الإصابة جـ٨ ص٦١.

(٤) ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول ص٨٣، والنويرى: نهاية الأرب جـ١٦ ص٩٦.

عبد من عبيد «خديجة» اسمه «ميسرة»[1]، وقد أمرته سيدته ألا يعصى «لمحمد» أمراً ولا يخالف له رأيا[2]، فكانت تجربة فريدة استفاد منها فائدة عظيمة، ولما وصل مدينة «بصرى» جنوبى الشام[3] تحين أحسن الفرص ليبيع ما يحمل من متاع فربح ربحا عظيما لم يدر بخلده أنه سيربح مثله، ثم أخذ فى اختيار بضاعة يحملها معه من الشام عند عودته، وانتقى ما يعتقد أن الإقبال يكثر عليه فى أسواق مكة، ثم عاد مع القافلة القرشية، فلما وصلوا إلى وادى مر الظهران بالقرب من مكة، وهو الوادى الذى يعرف الآن باسم وادى «فاطمة» قال له ميسرة: «يا محمد»، انطلق إلى «خديجة» فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك، فإنها تعرف لك ذلك[4]. فتقدم، كما تقدم غيره من شبان قريش العائدين مع العير، وسارت القافلة الهوينى حتى أناخت خارج مكة، وخرج رجالات قريش كعادتهم لاستقبالها، واعتلت نساء قريش أسطح المنازل حتى ترى كل منهن ذوى قرباها العائدين من الشام عند دخولهم المدينة. ودخل «محمد» ساعة الظهيرة[5]، وكانت «خديجة» تطل مثل غيرها من النساء من غرفة عالية فى بيتها بالبطحاء، فرأت «محمدا» وهو على ظهر قعود أحمر[6]، ورأت ملكين يظلان عليه، ورأت ذلك من كان حولها من النساء فعجبن. ما أبهى طلعة «محمد»! وما أعظم هذا الوقار الذى كان يحف به! وما أجمله وأبهاه من بعيد!.

وقصد «محمد» من فوره إلى الكعبة فطاف بها كما كان يفعل شيوخ قريش إذا رجعوا مع تجارتهم، وكانت «خديجة» تنتظر قدومه إلى منزلها فاستقبلته عندما استأذن فى الدخول عليها أحسن استقبال، وجلست قبالته

---

(١) مجمع عليه: ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٨٠.

(٢) محمد بن يوسف الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد؛ جـ٢، ص٢١٥.

(٣) مدينة حوران الآن.

(٤) ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول ص٨٣، ومحمد بن يوسف الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ٢ ص٢١٦.

(٥) متفق عليه: انظر المرجعين السابقين.

(٦) متفق عليه: انظر المرجعين السابقين.

تستمع إليه وهو يقص عليها أنباء رحلته، فأخذ يخبرها، في تواضع وقد غض من بصره، عن التوفيق الذى أصابه عندما باع تجارتها، وما كسب لها من الربح الوفير، وكان يتكلم بكلمات موجزة تعبر عن أدق المعانى، كما حدثها عن البضاعة التى اختار شراءها من الشام، فتشعر «خديجة» بالفرحة العظيمة التى ملأت نفسها سرورا وانشراحا.

ولا شك أنها شكرت له جهوده التى كانت سببا فى هذا التوفيق، ثم باعت ما حملته لها القافلة فربحت ربحا عظيما كاد أن يكون ضعف ما كانت تربح عادة من قوافلها السابقة، فأجزلت «لمحمد» العطاء، وكافأته ضعف ما كانت قد عرضت عليه من الأجر (١).

وذهب العبد «ميسرة» إلى سيدته «خديجة» يقص عليها أنباء هذه الرحلة الموفقة، وما جرى فيها من أحداث لم يشهد لها مثيلاً من قبل، وطفق يقول لها إنه رأى فى ذهابه وإيابه عجباً، فقد رأى الغمام يتجمع ثم يظلل فوق «محمد» وهو راكب على بعيره كلما اشتد الحر فى الهاجرة، وأن «محمداً» نزل يوماً يستظل تحت شجرة بالقرب من صومعة راهب يدعى «نسطورا»، فلما رآه الراهب سأل «ميسرة» عنه، فأخبره أنه فتى من أشراف قريش، فسأله الراهب: «أفى عينيه حمرة»؟ فرد عليه «ميسرة» قائلاً: «نعم لا تفارقه» (٢)، فقال الراهب: «إن هذا الرجل الجالس تحت الشجرة نبى من الأنبياء» (٣). ثم ذكر لها أن رجلاً من أهل الشام عليه سمات الوقار أختلف مع «محمد»، أو تعمد أن يختلف معه فقال له: «أحلف باللات والعزى» فرد عليه «محمد» قائلاً: «ما حلفت بهما قط، وإنى لأمرّ فأعرض عنهما» فقال الرجل: «القول قولك» ثم خلا الرجل «بميسرة» وقال له: «هذا والله نبى تجده أحبارنا منعوتاً فى كتبهم.» (٤)

---

(١) متفق عليه: المرجعان السابقان.

(٢) متفق عليه وانظر ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول ص٨٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق والصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ٢ ص٢١٥ ـ ٢١٦.

ثم أخذ «ميسرة» يصف لها سيرة «محمد» أثناء هذه الرحلة، وما كان يتصف به من كرم الأخلاق، وعن طهارته وصدقه، وعطفه على كل من كان معه.

وأخذت «خديجة» تفكر وتستعرض كل ما رأت مما مر بها، وما سمعت عن «محمد بن عبد الله». لقد كانت تعلم أن مكة كلها كانت معجبة بهذا الشاب الذى لم يكن كغيره من الشبان، فقد كانت قريش تؤمن بصدقه وأمانته وترفعُّه عن الدنايا حتى أطلقوا عليه لقب «الأمين»؛ ولقد رأت فيه، عندما استدعته لتكل إليه أمر تجارتها، شاباً يناهز الخامسة والعشرين من عمره، قوى العضلات، مكتمل الرجولة، وقوراً ليس به شىء من خفة الشبان ولا طمع التجار عند التعاقد؛ ولكن لماذا تجول بخاطرها كل هذه الأحاسيس؟ ثم تعود فتسائل نفسها: ألم تعجب به وهو راكب فوق بعيره الأحمر أثناء دخوله إلى مكة عند الهاجرة وهى تطل من العلية فوق منزلها؟ ألم يكن يظل عليه ملكان وقد رأتهما بعينيها؟ ألم يكن وجهه مشرقاً وقد ظهرت عليه نضارة الشباب؟ ألم يهزها حديثه وينساب الفرح والبهجة إلى نفسها عندما كان يحدثها فى تواضع عما أصاب من توفيق وربح؟ وهل كان سبب هذه المشاعر الجميلة التى غمرتها آنذاك هو مجرد البشرى بالربح الوفير؟ ثم ما هذا الحديث العجيب الذى رواه لها غلامها «ميسرة»؟ وما هذه الغمامة التى كانت تظل «محمداً» كلما اشتد الحر فى ذهابه وإيابه؟ وما هذه النبوة التى يشر بها الراهب «نسطوراً»؟.

لقد سبق أن سمعت، كما سمع غيرها من الناس، ما رواه الكهان والرهبان الذين قالوا إن هناك نبياً ينتظر العالم وفادته فى ذلك الزمان يخرج من هذه البقعة من الأرض المباركة، فهل يكون «محمد بن عبد الله» هو هذا النبى المنتظر؟ ثم كيف تيسر لهذا الشاب أن بربح كل هذا الربح الوفير الذى لم يربح لها أحد ربحاً مثله من قبل مع قلة تجاربه؟ وهل لذلك صلة بما بشر به الراهب «نسطوراً» من أن «محمداً» هو النبى المبارك المنتظر؟.

وتحاول «خديجة» أن تبعد عن نفسها كل هذه التساؤلات؛ ولكنها لاتلبث أن تجد أنها مشدودة إلى العودة إليها، وأنها تجد فى هذه العودة كثيراً من الراحة وكثيراً من السعادة، فهل كان سر هذا الاهتمام هو إعجابها «بمحمد ابن عبد الله» صلى الله عليه وسلم كما تعجب به قريش كلها؟ أهذه الأحاسيس،التى تتدفق بين جوانبها ولا تكاد تغيب عنها، مجرد إعجاب مثل إعجاب سائر الناس؟ إنها لاتدرى! وهى فى حيرة من أمرها ولاتستطيع أن تجزم بشىء عن سبب هذه الأفكار والعواطف التى تجول فى نفسها على الرغم من أنها كانت مشهورة بين قريش بأصالة الرأى والحزم فى الأمور وسرعة البت فيا يعترضها من مشكلات الحياة. ويطول بها التفكير وتطول بها الحيرة، فتقصد ابن عمها «ورقة بن نوفل»، وكان شيخاً قد تنصر منذ زمن بعيد، وانقطع إلى عبادة الله نابذاً عبادة الأوثان، وتبحر فى دراسة الأديان وقراءة الكتب السماوية القديمة؛ وروت له ما سمعته من غلامها «ميسرة»، وما رأته بعينها هى وصويحباتها؛ فظهر البشر على وجه الشيخ، وعمه سرور عجيب، ثم نهض فى عزم وكأنه عاد شاباً من جديد، فأخذ يخبرها أنه قرأ فى الكتب القديمة المنزلة أن الله سيبعث إلى الناس رسولاً هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن هذا الرسول من ولد «إسماعيل» وسيولد بجوار بيت الله المحرم، وأن أوان نزوله قد آن؛ ثم صمت وقال بعد تفكير طويل: «لئن كان هذا حقا «ياخديجة» إن «محمدا» لنبى هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه»(١). وسكت ورقة برهة ثم قال إنه يرجو أن يعيش حتى يبعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً فيؤمن به ويتبعه، ويشد من أزره، وأخذ ينشد قائلاً: (٢).

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لهمّ طالما بعث النشيجا(٣)
ووصف عن «خديجة» بعد وصف ... فقد طال انتظارى «ياخديجا»

وعادت «خديجة» إلى بيتها وقد طربت لحديث ابن عمها «ورقة»،

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص١٩١.
(٢) المرجع السابق.
(٣) النشيج هو الصوت المرتفع.

وتأثرت تأثراً عميقاً جعلها تعيد التفكير فى أمر هذا الشاب الأمين الذى أعجبت به مكة كلها، فهل كان إعجاب الناس به قدراً من السماء حتى تمهد السبيل لمجيء هذا النبى الذى أخبرها عنه ابن عمها «ورقة» وتحدث عنه الرهبان؟ ومرت أمام مخيلتها الألفاظ التى تحدث بها إليها «ورقة» فأخذت تستعيدها وكأنها منقوشة على ذاكرتها، فما علاقتها هى بمجيء هذا النبى العربى؟ وما هذه المشاعر والأحاسيس التى تعاودها صباح مساء دون قصد منها؟ لقد التقت من قبل بكثير من سادة قريش الذين أوفدتهم فى تجارتها، وبكثير من ذوى المكانة من الشيوخ والشبان الذين تقدموا لخطبتها فأعرضت عنهم على علو شأنهم ووفرة أموالهم لأنها أحست أنهم إنما يطلبونها لمالها ولجاهها، ولم يكن أحد منهم يريدها لذاتها، ولم يبعث أحد منهم فيها هذا النور الذى تسلل إليها رويداً رويداً دون أن تفطن له حتى نفذت أشعته إلى قلبها؛ ترى أهذا أيضاً قدر من السماء التى قدرت أن تغزوها هذه المشاعر مقدمة لربط مصيرها بمصيره؟ أهذا هو ما خبأته لها الأقدار جزاء لها على ما كانت تفعل من خير، وما كانت تقدم لأهلها ولغيرهم من عون، وعلى ما صانت به نفسها وحافظت على شرفها حتى صارت تعرف فى أرجاء مكة كلها «بالطاهرة»؟ إنها لتؤمن إيماناً عميقاً بما قال ابن عمها «ورقة»، وأصبحت توقن أن هذه العواطف التى تتجاذبها والمشاعر النبيلة التى تجيش فى صدرها هى تلك العواطف والمشاعر التى تدور بخاطر المرأة الشريفة عندما يسعدها الحظ فتتعرف على الشريك الأمين الذى يشاركها حياتها؛ فهى ليست معجبة «بمحمد بن عبد الله» فقط، ولكنها اكتشفت أن ما تشعر به هو حب قوى شريف تسرب بأمر من السماء إلى نفسها؛ ولكن الحب الطاهر لا يؤدى إلى السعادة التى يرجوها أشراف الناس إلا إذا اقترن بالتوفيق فى زواج ناجح.

وتنتفض «خديجة» عندما يخطر الزواج على بالها. لقد عزفت عن الزواج منذ زمن بعيد، ورفضت كل مَنْ تقدم لها مِن أشراف قريش رغم كثرة ما عرضوا عليها من أموال، وعاشت، كما كانت تعتقد، سيدة نفسها مع ولديها وابنتها عيشة راضية، وانقطعت لتجارتها حتى ولّى قدر كبير من

شبابها ، وها هى ذى قد أخذت تفكر فى الزواج من هذا الشاب ، فماذا سيقول رؤساء قريش وكبراؤها عندما يعلمون أن «خديجة» ، التى عزفت عن الزواج منهم ، تسعى لتخطب لنفسها شاباً فقيراً متخطية بذلك التقاليد الموروثة ؟ إنها لن تعبأ بما سوف يقولون ، كما أنها لن تعبأ بتلك التقاليد الجاهلية البالية التى كانت تحكم على الفتاة العربية أن تعيش فى انتظار من شاء أن يتقدم لخطبتها من الشبان أو الشيوخ . حقيقة لقد كان أهلها يعرضون هذا الأمر عليها ، وكان لها أن تقبل هذا الزواج أو أن ترفضه ، ولكن «خديجة» ليست بالفتاة الصغيرة الناشئة ، ولن تقبل أن تجلس فى انتظار من شاء أن يطلب الزواج منها ، فهى امرأة قد عركت الحياة كما عركها الرجال ، وأمسكت زمناً طويلاً بزمام تجارتها تصرفها كما تريد بحكمتها وذكائها ، وتختار أكثر الرجال حنكة وتجربة لتصريف أمور ما تحمله القوافل من بضاعتها ، وقد نجحت فى ذلك نجاحاً منقطع النظير، أفلا يكون لها حق اختيار الرجل الصالح الذى يحافظ على أموالها ، ويسعدها فى حياتها ؟ وطال تفكير «خديجة» ولكنها حزمت أمرها ، واختارت أن يكون «محمد بن عبد الله» شريكاً لحياتها ، وأن تكون هى البادئة والمبادرة إلى طلب الزواج منه ، وستجد الوسيلة التى تبلغها هذا الأمل ، متخطية فى ذلك كل ما سوف يقابلها من عقبات .

وأغرقت «خديجة» فى التفكير لتدبير الوسيلة التى تضمن لها تحقيق هذه الأمنية الغالية ، وأخذت الخواطر تتوارد على ذهنها . لقد عملت زمناً طويلاً فى التجارة ، وتعلمت أن الحزم والإقدام هما أضمن الوسائل للنجاح فى الحياة ، ولذلك فقد نجحت عندما استدعت «محمداً» إلى بيتها وعرضت عليه أن يسافر فى تجارتها، فهلا تقدم على استدعائه ثانية وتعرض عليه أن يصبح شريك حياتها وأباً لأولادها منه ؟ لقد كانت قوية الإرادة شجاعة لا تهاب أحداً ما دامت تؤمن أنها على حق ، وأنها تسير على طريق الخير، ولعلها إذا تولت عرض هذا الأمر بنفسها تكون أقرب إلى النجاح وبلوغ ما تتمناه ! ولكن من يضمن لها أنه يقبل هذا العرض ؟ ألا يكون فى ذلك خدش لحيائها أو امتهان لكرامة أنوثتها ؟ وعندما تصل فى تفكيرها إلى هذه المرحلة

تشبط همتها وتأخذ في التراجع عن هذه الوسيلة ؛ ولكنها سرعان ما تسترجع عزيمتها ، وتعود فتتذكر أن أمرها بيدها ، وأنها ينبغي أن تتحدث بنفسها عن نفسها ، فقد كانت ذات مال وفير، وجمال وحيوية ترى في مرآتها أنهما لا يزالان في أوجهما، وكانت ذات حسب ونسب، وكان أكثر رجال قريش وما زالوا حتى الآن يتطلعون إلى الزواج منها لو أمكنهم ذلك، أفلا يكون هذا كله حافزاً «لمحمد» على قبول الزواج منها إذا هي عرضت عليه ذلك بنفسها؟ لقد كانت تعلم أن «محمداً» لم يك طماعاً ولا جشعاً ولا يغريه المال ، ولكنه كان في ريعان شبابه، فمن يضمن لها ألا يكون قلبه قد تعلق بفتاة من بنات أعمامه فإن نساء قريش وبناتها لم يكن محجبات في ذلك الوقت؟. وتؤرقها هذه الفكرة؛ فتقرر ضرورة العدول عن هذه الخطة وتعود إلى التفكير والتدبير لعلها توفق إلى طريق آخر أسلم من هذه المجازفة، ويستقر رأيها ، بعد إعمال الفكر، على اختيار صديقة لها تثق في قدرتها وفي إخلاصها لها لتكون سفيرتها إلى «محمد» تتلمس الأمر في لباقة ، وترغبه في الزواج من «خديجة» ، فإذا وجدت منه ميلاً تهون عليه أمر إتمامه نظراً لمكانة «خديجة» في قريش، وما كانت عليه من ثراء ، وما كان هو عليه من قلة المال.

وتوفق «خديجة» في اختيار صديقة لبقة من قريش هي «نفيسة بنت أمية» أخت الصحابي «يعلى بن أمية» [1] وتفضي إليها بمكنون سرها ، وعظيم أملها ، وأنها اختارت أن توفدها إلى «محمد» لعلها توفق في تحقيق أمنيتها الغالية.

وذهبت «نفيسة بنت أمية» [2] إلى «محمد بن عبد الله»، وأخذت تبدى له عطفها عليه كما تعطف الأم على وليدها ثم بدأت ترغّبه في الزواج

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في ترجمة نفيسة بنت أمية برقم ٣٤٦٩، وابن حجر الإصابة ترجمتها رقم ١٠٥٨.

(٢) متفق عليه، وانظر الطبقات الكبرى جـ٨ ص١٦، وقد ورد اسم هذه السيدة في بعض المراجع منسوبة إلى أمها «منية».

حتى لا يعيش وحيداً لا أنيس له ولا رفيق يعنى بشئونه، ويشكر «محمد» «لخالته نفيسة» عطفها عليه، وعنايتها بأمره، ثم يعتذر لها فى أدب وتواضع قائلاً إنه قليل المال، وإنه يكافح ليشق طريقه فى الحياة؛ ولكنها تحدثه فى حنان الأم عن إعجاب مكة كلها بأخلاقه وفتوته وأمانته، وتذكر أنه ما من بيت من بيوت أشراف قريش إلا ويرحب به خاطباً، فليس من الحكمة أن يظن أن قلة المال تمنع زواجه فيكبت مشاعره، ويعيش هكذا وحيداً. فلما آنست منه إقبالاً عليها، ورضاً بحديثها، ورأت البشر على وجهه، أخذت ترغبه فى الزواج من «خديجة»، فهى تختارها له من دون نساء قريش لحسبها ونسبها وجمالها ومالها وعفتها وكمال أخلاقها حتى أطلقت قريش عليها اسم «الطاهرة». وتبدو الحيرة على وجه «محمد» وهو يشكر خالته «نفيسة» ويقول لها إن هذا أمر بعيد المنال فإنه لا قبل له بمهر «خديجة». وترى «نفيسة» فى هذا الرد بادرة لنجاحها فى تأدية رسالتها، فتهوّن عليه الأمر، وتيسر أمامه سبيل تحقيقه، وتشير بلباقة إلى أن «خديجة» راغبة فى الزواج منه إذا أبدى قبوله، وتعده أن تشرع فى هذا الموضوع حتى تتمه، ويغمر البشر والسرور وجه «محمد»، فيشكر لها سعيها، ويقبل عن طيب خاطر وساطتها، تاركاً لها تدبير هذا الأمر، وهاك نص بعض ما ورد من وصف مقتضب عن هذه السفارة التى كان لها أكبر الأثر، لا فى تاريخ «خديجة» فقط، بل فى تاريخ البشرية كلها لما كان لها من تأثير كبير فى نجاح نشر رسالة «محمد». قالت «نفيسة بنت أمية»: «أرسلتنى «خديجة» دسيساً إلى «محمد» بعد أن رجع من الشام، فقلت: «يا محمد» ما يمنعك من أن تتزوج؟ قال: ما بيدى من مال أتزوج به. قلت: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن؟ قلت: «خديجة». قال: وكيف لى بذلك؟ قلت: على وأنا أفعل» (١).

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول ص٨٤، وابن الجوزى: صفوة الصفوة ص٢٥، والنويرى جـ١٦ ص٩٧ ــ ٩٨، والصالحى: سبل الهدى والرشاد، جـ٢ ص٢٢٣.

ولا شك أن «نفيسة» هرعت إلى «خديجة» تزف إليها البشرى، فكانت لحظة من أسعد اللحظات التى مرت بهاتين المرأتين الكريمتين، فقد سعدت «خديجة» واطمأن بالها، وسعدت «نفيسة» لنجاح وساطتها.

لقد سنت «خديجة» بعملها هذا، منذ حوالى ألف وأربعمائة عام، سُنة ترفع من قدر المرأة، وتعلى من مكانتها: فإنها كما كانت تتمسك بحقها فى أن تدير أمورها، وتشرف بنفسها على تجارتها، فقد تمسكت بحقها فى اختيار شريك حياتها، وانتقاء الرجل الصالح الذى أحبت أن يكون أباً لأولادها منه. إنها لم تبن اختيارها على أساس انتقاء الرجل الموسر، ولكنها آثرت اختياره لكريم خصاله، ومتانة خلقه، وحسن سيرته. لقد سبق لها أن أئتمنته على مالها فكان خير أمين، وكان حريصاً على المحافظة عليه قادراً على تنميته، ولذلك كله آمنت بأنه أقدر الناس على إسعادها.

كذلك استنت «خديجة»، وهى أول أم للمؤمنين، سنة عظيمة أخرى تدل على شجاعتها وثقتها فى نفسها، ذلك أنها عندما علمت، من صديقتها «نفيسة بنت أمية»، موافقة «محمد» على الزواج منها، استدعته إلى منزلها، وعرضت عليه فى عفة وشجاعة رغبتها فى الزواج منه، وفى ذلك ما يدل على اعتدادها بنفسها، وتمسكها بكل حقوقها: إنسانة لها كل الحق فى أن ترعى شئونها بنفسها، وتعمل على ضمان سعادتها، وأن تستقبل فى بيتها من ترى أنه جدير بزيارتها، وأن من حقها أن تعرض نفسها للزواج ممن تختاره دون حاجة إلى وسيط، وبذلك جمعت بين الحسنيين، فإن سفارة «نفيسة» قد أكدت حسن استجابة «محمد» إلى تحقيق رغبتها مما يضمن لها عدم خدش خفرها وحيائها أو كرامتها، وهى كذلك تستطيع أن تدبر ما بقى من أمور هذا الزواج بينها وبين من اختارته، دون حاجة إلى وسيط، وليس أدل على هذه المعانى التى جالت بخاطرها مما أثر عنها أنها قالت له، فى عزة وكرامة، أثناء هذا اللقاء:

«يا ابن عم. إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك[1] فى قومك،

---

(١) أى لشرفك.

وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » (١).

وجاء اليوم الموعود وذهب « محمد » لعقد الزواج، وذهبت معه « بنو هاشم » وعلى رأسهم عمه « أبو طالب » « وعمه الحمزة »، كما حضر معه رؤساء مضر (٢)، وحضر الحفل آل « خديجة » من بنى أسد وعلى رأسهم « عمرو بن أسد ». ونهض « أبو طالب » فخطب خطبة الزواج وكان مما قال: « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء معد (٣)، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس» ثم قال: «إن ابن أخى هذا « محمد بن عبد الله » لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان فى المال قل (٤)، فإن المال زائل، وأمر حائل (٥)، ومحمد من عرفتم قرابته، وقد خطب « خديجة بنت خويلد »، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالى، وهو بعد هذا والله نبأ عظيم، وخطر جليل » (٦). وكان مهر « خديجة » عشرين بكرة (٧).

ونهض « عمرو بن أسد »، عم « خديجة » وزعيم قومه فردّ على «أبى طالب»، وأثنى على «محمد بن عبد الله»، وأعلن تزويجه من ابنة أخيه « خديجة »، وبذلك تمت مراسم عقد الزواج بين أشرف زوجين، وقد كان زواجهما بعد مجىء « محمد بن عبد الله » من الشام بشهرين وخمسة عشر يوماً (٨)، وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين عاماً،

---

(١) ابن هشام: السيرة، جـ ١ ص ١٨٩.

(٢) ابن الجوزى: صفوة الصفوة جـ ١ ص ٢٥ وكذلك ابن هشام المرجع السابق، والطبرى: التاريخ جـ ٢ ص ٢٨٢.

(٣) أى من أصل معد.

(٤) أى قليل المال.

(٥) أى يتغير.

(٦) ابن الجوزى: المرجع السابق.

(٧) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ١٩٠.

(٨) محمد بن يوسف الصالحى الشامى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٢ ص ٢٤٤.

وكانت، كما روى ابن أخيها «حكيم بن حزام بن خويلد»، قد بلغت الأربعين عاماً، فقد أثر عنه أنه قال: «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن خمس وعشرين سنة؛ وكانت خديجة أسنّ منى بسنتين، ولدتْ قبل الفيل بخمس عشرة سنة وولدتُ أنا قبل الفيل بثلاث عشرة سنة» (١) وحكيم هذا شاهد عدل، أسلم يوم الفتح وكان النبى صلى الله عليه وسلم، يكرمه ويجزل له العطاء، وكان «أبوبكر» فى خلافته يحترمه وكذلك كان يفعل «عمر بن الخطاب»، والرواية عنه موثقة رواها الواقدى، عن «موسى بن عقبة»، عن «أبى حبيبة» مولى «الزبير بن العوام» (٢) وكلهم رواة لاترقى إليهم الشبهات، ولا نشك أن حكيم ابن حزام بن خويلد حضر زواج عمته «خديجة بنت خويلد» بوصفه أحد رجالات بنى أسد، ولذلك أخذ بهذه الرواية كبار مؤرخى السيرة والمغازى وظل المسلمون يؤمنون بها طوال ألف وأربعمائة عام.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٨ عند ذكر خديجة ص١٠ وانظر كذلك ترجمة حكيم بن حزام برقم ١٢٣٤ فى أسد الغابة.

(٢) ابن سعد: المرجع السابق.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة الروم الآية ٢١)



الفصل الثانى

العيشة الهنية فى عش الزوجية

وجاء يوم الزفاف فأولم «محمد» وليمة ذبح فيها جزورين (١)، وأطعم الأهل والأصدقاء وأكرم المحتاجين والفقراء، وأمرت «خديجة» الجوارى أن يضربن الدفوف ويصدحن بالغناء ابتهاجاً بهذا اليوم الذى يجتمع فيه الشمل، ونهل الزوجان من السعادة ما شاء الله لهما أن ينهلا (٢)، وعاشا عيشة راضية مستقرة، فى بسطة من الرزق، وبحبوحة من العيش. وكانت «خديجة» تسبح فى بحر من السعادة تفوق كل ما تخيلته فى أحلام اليقظة قبل الزفاف، فقد لمست عن قرب وتجربة ما تحلى به «محمد» من نبل العشرة، وصدق الإخلاص والمحبة، وأيقنت بالمباشرة أن كل الأوصاف الكريمة التى بلغت مسامعها عن «محمد» قبل الزواج لم تكن إلا جزءاً يسيراً مما تتحلى به نفسه، وما يمتاز به سلوكه وحسن معاملته لكل من يتصل به، فقد كان متصفاً بالحلم والصبر والأناة؛ لا يظهر إلا ما يبطن؛ وكان جواداً كريماً يمد يد العون إلى المحتاجين، ولا يدخر وسعاً فى صلة ذوى القربى من غير منٍّ ولا تظاهر، وكان المال فى يده ينمو على الرغم من كثرة العطاء، والرزق يربو على الرغم من وفرة السخاء، وكان متواضعاً لا يأنف من أن يخدم نفسه بنفسه، وأن يمد يد العون لزوجته دون انتظار مساعدة من العبيد أو الخدم، بل إنه كان يساعد الخدم والعبيد ولا يكلفهم من العمل فوق ما يطيقون. أما رحمته فقد عمت الكبار والصغار، وتحدث بها كل من فى الدار، فقد كان

(١) الجزور: البعير الكبير.

(٢) أبو شهبة: السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة جـ١ ص٢٣٠.

يؤثرهم على نفسه ولا يخص نفسه بشيء دونهم، ولا يستأثر بنعمة يُحرم منها أحدهم بل كانوا جميعاً سواسية يقتسمون كل خير ملبساً كان أو مأكلاً أو مشرباً؛ وكان ينفق عليهم عن سعة ولكن فى غير إسراف.

أما العمل فى ميدان التجارة فقد كان يؤثره بالجزء الأكبر من وقته، فهو ينهض له ويقبل عليه بعزم وحزم، ولا يضن بجهد مهما عظم، فالكسل لا يعرف إلى نفسه سبيلاً، ولم يكن الشعور بوفرة المال سبباً فى تقاعس أو تخاذل، وكان يحب الشورى ويسعى إلى طلبها فهو يشرك معه فى الرأى «خديجة» يستشيرها فى أمور التجارة وفى ما يبذل من مساعدة أو عطاء، ويستمع إلى مشورتها وهو مقبل عليها، ومصغ بكل نفسه إليها، فلا يرد لها طلباً، ولا يخيب لها رجاء(١)؛ ولذلك كم كانت «خديجة» سعيدة عندما ألقت عن كاهلها ما كانت قد بدأت تنوء به من حمل مشاق الاشتغال بالتجارة، والتورط فى مفاجآتها، فأراحت نفسها من تحمل أعبائها، وعهدت بكل أمورها التجارية إلى زوجها الحبيب «محمد» فهو الكفء القادر على تدبير شئونها وهو الأمين على تنميتها، وتفرغت «خديجة» إلى مملكة بيتها تدبِّره بمهاراتها، وتعمل على راحة زوجها ومناط أملها، وعاش معها أولاد خديجة من زوجيها السابقين، يرعاهم جميعاً «محمد»، ويغمرهم بعطفه ومحبته، وقد أدرك ثلاثتهم الإسلام، ولعلنا نوفق فى الفصول التالية إلى ذكر شيء عن حياتهم على الرغم من ندرة المصادر التاريخية التى عنيت بالكلام عنهم، فقد تسلطت أضواء المؤرخين وكتاب السيرة والمغازى على أخبار النبى الكريم وأفعاله وأقواله، وحجبت أنوار الرسول صلى الله عليه وسلم ما عداها من الأخبار.

وهكذا كان «محمد» يقسم وقته بين رعاية شئونه والاتجار فى مال خديجة(٢)، باذلاً أقصى ما يستطيع من جهد وحكمة لتنميته، وبين ما تتطلبه

---

(١) هذه الأوصاف مستقاة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أوصاف السيدة عائشة أم المؤمنين له ووصف على بن أبى طالب، ووصف هند بن خديجة، كما سبق أن ذكرنا من قبل.

(٢) متفق عليه وانظر الذهبى: سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٨١ طبع دار المعارف بمصر.

حياة أسرته الجديدة، كما كان لا يغفل على أن يصل باقى أهله وعشيرته الأقربين، فكان يعطى كل فريق منهم حقه من وقته ورعايته.

واعترافاً بهذه النعمة التي ساقها الله إليه، وابتهاجاً بزفاف خديجة إليه، أعتق «محمد» حاضنته «بركة»، وكانت جارية حبشية ورثها عن أبيه، حضنته وسهرت على خدمته وراحته بعد وفاة أمه «آمنة بنت وهب» فنشأ يحبها حباً عظيماً، ولا يناديها إلا بقوله «يا أمه»، وكان إذا تحدث عنها يقول إنها بقية أهل بيته وكان حفياً بها، فلما أعتقها تزوجت «عبيد بن زيد من بنى الحارث» [1]، ولا شك أن «خديجة» أكرمتها عند زفافها إليه، وقد بكرت بأبنها «أيمن بن عبيد»، فكانت تكنى به وأصبحت تسمى «أم أيمن»، وكان «محمد» يحبه كثيراً، وقد كبر وكان من السابقين إلى الإسلام، وكانت له صحبة فقد كان ملازماً لخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد بطلاً وهو يحارب يوم حنين [2]، وكان يعتبر من أهل بيت النبى، فقد عناه «العباس» عم النبى عندما وصف صموده بجوار الرسول الكريم فقال: [3]

نصرنا رسول الله فى الدين سبعة　　وقد فر من قد فرّ عنه فأقشعوا [4]
وثامننا لاقى الحمام بنفسه　　بما مسه فى الدين لا يتوجع

والسبعة الذين صمدوا فى موقعة حنين وتحدث عنهم «العباس» كان خمسة منهم من أهل بيت الرسول الكريم وهم «العباس»، و«على بن أبى طالب»، و«الفضل بن عباس»، و«أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب»، و«أسامة بن زيد». وكان الأثنان الباقيان هما أقرب الصحابة إلى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما «أبوبكر الصديق»

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ٨ ص١٦٢ ـ ١٦٤ فى ترجمتها، وكذلك ترجمتها فى ابن الأثير: أسد الغابة جـ٧ برقم ٧٣٦٣ ص٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة رقم ٣٥٣ ص١٨٩.

(٣) المرجع السابق.　　(٤) أقشعوا: تفرقوا عنه فخذلوه.

و «عمر بن الخطاب» ؛ أما الثامن الذى خصه العباس بالبيت الثانى فهو «أيمن بن عبيد» من زوجته «بركة».

لقد عاش «محمد» فقيراً قبل الزواج، وكان الكثيرون غيره من شبان قريش يرفلون فى بحبوحة من العيش وينعمون بالطيبات من الرزق، وينغمس أكثرهم فى الترف حتى ينسيهم ذلك ما يجب أن يتجنبوه مما لا ينبغى لأمثالهم أن يقعوا فيه؛ ولكنه كان فى فقره راضى النفس طاهر الذيل، يعمل ليكسب قوته وهو قرير العين لم يدخل عليه حقد ولا حسد؛ وقد أنعم الله عليه وهو فى عنفوان قوته وعز شبابه بالعيش الهنى الرغد، فقد وفقته السماء إلى الزواج من سيدة عفيفة جميلة، تضفى عليه حنان الأم وحب الزوجة، فهو يتذوق بجوارها ما سبق أن حرمه القدر من سعادة روحية عندما فقد أمه صغيراً، وهما ينعمان معاً بعيشة سعيدة هنية يعطيها من شبابه وإخلاصه فى الكد والعمل بقدر ما تعطيه هى من عطفها وحنانها وحبها؛ ولكنه كان يسمو بفطرته فوق ما يتطلبه الإنسان العادى، ولا يكتفى، مثل أكثر الناس، بالعيش الهنى الذى توفره له المعيشة الزوجية السعيدة، فكان دائم التطلع إلى عالم الروح والتفكير فى خلق السموات والأرض وما بينهما، فلم يلبث أن أخبر «خديجة» أنه يريد أن يخلو إلى نفسه ليفكر فى هذا الكون، ويتأمل فى عظمة الخالق وجمال ما خلق بعيداً عن مظاهر الشرك والإباحية مما كان منتشراً فى أرجاء مكة، وأنه سوف يقصد لذلك غار حراء [1].

لم تدهش «خديجة» عند سماع هذه الرغبة، فقد درست حياة «محمد» وأخلاقه قبل أن تتزوج منه، وعرفت أنه كان يكره عبادة الأوثان منذ باكورة صباه، وأنه كان لا يسجد لها، ويبغض أن تقدم لها القرابين، فقد سمعت من حاضنته «بركة» أن عمه «أبا طالب» وعماته حاولوا كثيراً أن يغروه بعبادتها، والتقرب إليها، والمشاركة فى الأعياد التى تقام لها فى أيام معلومة من كل عام، ولكنه كان يأبى. وكانت قريش تعظم صنماً اسمه

---

(١) متفق عليه وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٣٥ — ٢٣٦.

«بوانة» ، فتقيم له كل عام عيداً في يوم معلوم ، وكان سادتهم يحلقون رؤوسهم عنده ، وينحرون أمامه الذبائح تقرباً وتزلفاً ، ويظلون في احتفالهم به والتضرع إليه طوال ذلك اليوم إلى الليل ، وكان رجال «بنى هاشم» ونساؤهم يشتركون فى ذلك ، وكان «محمد» يمتنع عن الذهاب معهم جرياً وراء عادته في الامتناع عن الاشتراك فى أعياد جميع الأوثان ، ولكن عمه «أبا طالب» دعاه مرة للذهاب معه ، فلم يستجب له على الرغم من إلحاحه في ذلك ، فغضب عمه ، وغضبت عماته يومئذ أشد الغضب ، وما زالوا به . يظهرون غضبهم لامتناعه عن المشاركة فى أعيادهم الدينية تارة ، ويحاولون استمالته وإغراءه تارة أخرى حتى وافق على الذهاب معهم ؛ ولكن السماء حفظته وصانته من عبادة الأوثان ، فإنه لم يتقدم مثلهم للتبرك بها ، ولم يسجد لكبيرها «بوانة» ، بل إنه ما كاد يصل إلى ساحتها حتى غاب عنهم ما شاء الله له أن يغيب ، ثم عاد إليهم وقد استولى عليه الرعب والفزع ، فلما ذهب عنه الخوف سألوه فى ذلك قال : «إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك «يا محمد» لا تمسه» [1] . وفى الحديث الشريف الذى رواه «على بن أبى طالب» ما يدل على أن الله سبحانه هو الذى حفظ رسوله وهداه بالفطرة منذ الصغر إلى النفور من كل ما كان يعبد من دون الله ، وأنه صانه وطهّره من كل رجس كان فى مكة قبل أن يبعثه مبشراً بالوحدانية وداعياً إلى مكارم الأخلاق ، فقد قال «على» : «قيل للنبى ــصلى الله عليه وسلمــ هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا . قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟ قال : لا ، وما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر ، وما كنت أدرى ما الكتاب وما الإيمان» [2] .

لقد أثار عزم «محمد» على ترك مكة وما فيها من أهل وأحباب ووسائل الترف التى يبيحها أكثر الناس لأنفسهم ، وذهابه إلى غار حراء ليخلو إلى نفسه حيث يفكر فى خلق السموات والأرض وما فيهن وسط تلك البيئة الصحراوية المنعزلة حيث المعيشة المتقشفة بعيداً عن أصنام قريش

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ١ القسم الأول عند ذكر علامات النبوة قبل الوحى ص١٠٣ .

(٢) الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد حـ٢ ص٢٠١ .

ومجونهم ، أثار ذلك فى نفسها ما جعلها تتذكر حديث غلامها «ميسرة» عقب عودته هو و«محمد» من رحلة الشام ، فأخذت تسترجع من ذاكرتها ما رواه لها عن ذلك الراهب المتعبد الذى أخبره أن «محمداً» هو نبى آخر الزمان، فهل فى انقطاعه عن الحياة العادية فى «مكة» تمهيد لتلك الرسالة التى أرادتها السماء ؟ وتذكرت «خديجة» وسط ما كانت تسبح فيه من سعادة أن ابن عمها «ورقة بن نوفل» وثلاثة آخرين من سادة قريش ومفكريها أعتزلوا عبادة الأوثان، وأخذوا يبحثون عن الدين الذى أنزل على أبيهم إبراهيم (١)، وأن بعضهم قد تنصر بعد الاطلاع على الكتب القديمة والتعمق فى دراستها ، ولذلك فقد زاد إكبارها واحترامها لزوجها «محمد» عندما رأته يعزف (٢) عن عبادة الأصنام ؛ وعندما أخبرها عن عزمه على الذهاب إلى غار حراء حيث يتعبد بعيداً عن أوثان قريش وعن المجتمع الفاسد الذى كان يملأ مكة ، فمن يدرى لعل هذه العبادة والتنسك صلة بما تنبأ به ابن عمها «ورقة» من أن «محمداً» هو نبى هذه الأمة !.

لقد كانت «خديجة» فى ذلك الوقت تشعر أنها فى أوج أنوثتها ، وكانت بحاجة إلى أن يقيم زوجها بجوارها ، فهى لم تقصر فى إسعاده ، وسعادتها لم تكن تكتمل إلا فى وجوده بجانبها بعد أن حَرمت نفسها من الزواج سنوات عديدة تقدم لها فيها الكثيرون من فتيان قريش ورجالاتها ، وكان كل منهم يحاول أن ينال رضاها بالزواج منه ، ولكن «خديجة» كانت امرأة عاقلة مجربة ، وكانت تسمو كثيراً فوق ما كانت تؤمن به أكثر نساء عصرها، فقد كانت ترى أن الحياة الزوجية هى «أسمى» ما يتطلع إليه الإنسان ، وقد أصبحت تؤمن أن إرادة السماء هى التى جعلت «محمداً» يسمو فوق المظاهر المادية وغيرها من الأفكار والمعتقدات التى كانت سائدة بين أهل «مكة» لما وهبته من رجاحة العقل ، وبعد النظر، وحسن الخلق ، وأن هذه الإرادة السماوية العليا هى التى صانته عن ضروب اللهو والمجون والخلاعة التى انتشرت فى هذه القرية وأقبل عليها أكثر شبان قريش

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ١ ص٢٢٢ ـــ ٢٣٢ .

(٢) يعزف عن : ينصرف عن .

وفتيانها، وأنها صرفته إلى البحث والتفكير فى ملكوت السماوات والأرض، ولذلك سارعت خديجة إلى الترحيب بتفكيره السديد، ويسرت له تحقيق رغبته، فأعدت له ما يحتاج إليه فى رحلته تلك من زاد وشراب.

ويذهب «محمد» إلى غار حراء، ويغيب عنها شهراً كاملاً وهو منقطع للعبادة، ثم يعود إلى مكة، فيبدأ بالطواف حول الكعبة، وينصرف بعد ذلك إلى بيت «خديجة»، فتستقبله فرحة مستبشرة وقد زالت عنها الوحشة عندما أهلّ عليها. ما أطول ذلك الشهر الذى غاب عنها فيه! لقد ملأت عودته عليها البيت بهجة وسروراً، فأصبحت راضية مرضية.

* * *

وتفد «حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية» مرضعة «محمد» لزيارة ابنها بعد زواجه، فتكرم «خديجة» وفادتها، ويفاجأ «محمد» عند دخول البيت بأمه «حليمة» وهى تحتضنه فى رفق، وتقبله فى حنان، فينشرح صدره، ويذكر وهو فى غمرة ابتهاجه مرتع طفولته، وباكورة صباه وهو فى بادية «بنى سعد» فى رعاية مرضعته وأسرتها، وتقيم فى بيت «خديجة» ضيفة معززة مكرمة، وتقص عليها، من بين ماتقص أن باديتها قد أصابها القحط فى العام المنصرم، فقد حبس عنها المطر، فهلك الزرع والضرع(١)، ونفق(٢) الكثير من الغنم والإبل والدواب، فرأى «محمد»، بأدبه وحكمته، أن يوصى بها «خديجة» خيراً، فلما أزمعت حليمة العودة للبادية قدمت لها «خديجة» هدية كريمة قوامها أربعون رأساً من الغنم وبعير(٣).

وكانت «خديجة» تزداد كل يوم سعادة فوق سعادتها، فقد كان «محمد» زوجاً مثالياً، وكان مهذباً حتى فى مداعبته إياها وتودده إليها، فكان خير الناس لأهله، ولم يكن يعوزها شىء إلا أن ترزقها السماء بذرية

---

(١) الضرع هو الثدى الذى يدر اللبن من الماشية.

(٢) نفق: فنى ومات.

(٣) ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول ص٧١، ومحمد بن يوسف الصالحى السامى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد المشهورة بالسيرة الشامية جـ١ ص٤٦٧.

تملأ عليها البيت بهجة وسروراً، فتتم سعادتها هى وزوجها؛ ولكن ها هو ذا عام كامل قد مر على زواجها ولم تبد بادرة تدل على أنها قد حملت فهل أصبحت بعد أن جاوزت الأربعين غير صالحة لإنجاب الذرية؟ لقد كانت تشعر أنها سليمة الجسم، قوية البنيان، وأن أنوثتها ماتزال كاملة؛ وأنها تحس بما يحس به النساء عندما تأتيها العادة الشهرية بانتظام مما يدل على أنها مستعدة للإنجاب؛ ولذلك فإنها تتذرع بالصبر منتظرة رحمة السماء. وينصرم العام الثانى وهى تمنى نفسها بالأمل، ولا تفقد الرجاء؛ ولكن الشك فى مقدرتها على الانجاب أخذ يتسرب إلى نفسها، فيفسد عليها، فى بعض الأوقات، مشاعر السعادة التى كانت تحيط بها، وأخذت الأفكار تساورها: لقد سبق لها أن أنجبت البنين والبنات فماذا حدث لها؟ إنها تؤمن أن السماء هى التى قدرت ارتباطها «بمحمد» فهل قدرت أيضاً أن لا تنجب منه أولاداً؟ وكانت تعرف أن «محمداً» شاب فى عنفوان شبابه، وهو جدير بأن تكون له ذرية، فماذا سيكون مصيرها إذا لم تعطه ما يصبو إليه من الولد؟ هل سيضطر إلى اختيار زهرة قرشية أخرى فى مقتبل العمر تلد له البنين والبنات فتعطيه ما عجزت هى عن إعطائه إياه؟ وأخذت هذه الفكرة تؤرقها طوال العام الثانى، ولكن إيمانها برحمة الله أقنعها أنها لا تملك إلا أن تتجلد صابرة وأن تخفى قلقها، وأن تضرع إلى خالق كل شيء أن يهب لها الذرية من «محمد». لقد حفظت نفسها، وظلت طوال عمرها نقية طاهرة تسارع إلى عمل الخير فهل تستجيب لها السماء؟ وتمر بضعة شهور أخرى من أوائل العام الثالث وقد أوشك صبرها أن ينفد، ولكن رحمة ربها الواسعة تداركتها فإنها لا تلبث أن تشعر بما يشعر به النساء فى بداية الحمل، فهلْ هى واهمة؟ ثم تزداد علامات الحمل وضوحاً ويبدأ الجنين بعد فترة يتحرك فى بطنها فتكاد تطير من الفرحة، ولا شك أنها تسارع إلى زوجها الحبيب فتزف إليه هذه البشرى، ويتلقى «محمد» الخبر وهو قرير العين، شاكراً الله على هذه النعمة المرتقبة.

ترى هل يكون هذا الذى يتحرك فى بطنها ذكراً أم أنثى؟ لا شك أن «خديجة»، مثل جميع نساء قريش، كانت تضرع إلى الله طوال فترة الحمل

أن يرزقها ولداً ذكراً تقر به عينها وعين أبيه، فقد كانت قريش تفرح لمولد البنين، ولم يكونوا يرحبون بمولد الإناث؛ وقد ظلت «خديجة» تترقب حتى حان موعد المخاض فاختارت إحدى المراضع لتتكفل بتغذية الجنين وتسهر على راحته جرياً على عادة قريش، فإذا جاء ميعاد الوضع استعدت قابلتها «سلمى»، وهي جارية «صفية بنت عبد المطلب» عمة «محمد»، للقيام بتوليدها (1). ثم نزل المولود فإذا به غلام فرحت به أمه فرحاً عظيماً، وبشرت القابلة أباه فأشرق وجهه من فرط الفرح والسرور وأجزل لها العطاء وحمد الله على ما أنعم به عليه، وسماه «القاسم»؛ ومنذ ذلك اليوم صار «محمد» يكنى «أبا القاسم» نسبة إلى أبنه الذى بكر به (2) عندما إقترب من التاسعة والعشرين من عمره، وفي اليوم السابع من مولده أمر «محمد» بحلق شعر رأس المولود، ووزنه بالفضة وتصدق بها على الفقراء والمحتاجين (3)، وأمرت «خديجة» بذبح شاتين وأطعمت تقرباً إلى الله (4)، وأطمأنت نفسها وأخذت السعادة تفيض عليها وهي ترقب نمو الطفل في صحة وعافية.

وكانت «خديجة» مثل نساء قريش ترى في كثرة الأولاد سعادة وعزاً، ولذلك كان القرشيات يتركن ما يلدنه للمرضعات حتي يفرغن للإنجاب السريع، فيملأن البيوت أطفالاً يسعد بهم الآباء والأمهات، وتعتز كل بطن

---

(1) ابن سعد: الطبقات جـ1 القسم الأول عند ذكر أولاد رسول الله ص85.

(2) المرجع السابق حيث قال إن أول من ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ثم ولد له زينب، وانظر ابن حجر: الإصابة جـ5 ترجمة رقم 7263 ص270 فقد ذكر أن القاسم هو بكره وأول مولود له.

(3) لم يعن مؤرخو السيرة والطبقات بذكر تفاصيل حياة النبى صلى الله عيه وسلم وزوجته خديجة قبل البعثة عنايتهم بذكر كل ما استطاعوا جمعه عنه بعد نزول الوحي، والذى ذكرناه هنا هو قياس ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في مناسبة مماثلة هي مولد ابنه إبراهيم.

(4) ابن سعد: الطبقات جـ1 القسم الأول عند ذكر أولاد رسول الله ص85. قد كانت العادة في الجاهلية أن يذبح في اليوم السابع ذبيحة تسمى «عقيقة» تقرباً إلى الآلهة، فلما كان الإسلام أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن تسمى «نسيكة» وهي ما يتقرب بها إلى الله.

من بطون القبيلة بما يولد لها من بنين وحفدة، وقد بسط الله الرزق «لخديجة» مما يساعد على أن تعيش فى رغد وبحبوحة مهما أنعم الله عليها من البنين، فهل تتحقق أمنيتها هذه؟ لقد رأيناها تعد قبل ولادتها المرضعة التى تكفلت بإرضاع «القاسم»، ولذلك فإنها لم تلبث أن شعرت بمبادئ حمل جديد بعد بضعة أشهر من مولده، فازدادت نفسها اطمئناناً، وصارت تتحمل آلام الحمل بنفس راضية وسعادة ما بعدها سعادة. ترى هل ستهبها السماء مولوداً ذكراً ثانياً يكون أخاً «للقاسم»؟ إنها لتضرع لله أن يهبها الكثير من البنين.

وتمر الأيام، وينمو القاسم نمواً حسناً، وكانت «خديجة» تهتز طربا كلما رأت الصبى يحبو على الأرض حتى ملأ البيت عليهم بهجة وفرحاً، وكان الحمل يسير سيراً عادياً ينشرح له صدرها، وكانت قد تعودت أن تكون دائماً على أهبة لاستقبال الحوادث، فتخيرت إحدى المراضع، ثم إذا كان اليوم الموعود عنيت قابلتها «سلمى» بتوليدها، فإذا حلت بها آلام الوضع ولدتها أنثى بعد أكثر من عام من مولد أخيها «القاسم»، وفرح بمقدمها «محمد» فرحاً عظيماً، وأخذ يلاطف زوجته وهو يهنئها بالسلامة وبمقدم هذه الضيفة الصغيرة، على عكس عادة رجال قريش الذين كانوا لا يرحبون بمولد الإناث، وأطلق عليها اسم «زينب» فكانت كبرى بناته، رزقه الله بها عندما بلغ الثلاثين من عمره[1]، وكانت «خديجة» قد قاربت الخامسة والأربعين، وابتهاجاً بمولدها أمرت «خديجة» بذبح شاة تقرباً إلى الله[2]، وأطعمت الأهل والأصدقاء، والمساكين والفقراء.

سعدت الزوجة أيما سعادة بحسن استقبال «محمد» لهذه الطفلة، وشعرت بارتياح كبير لكريم أخلاقه، لقد رزقها الله بالذكر من قبل، ثم رزقها بأخت له تعينها فى مستقبل حياتها، فكانا يملآن المنزل عليها سعادة وهناء. وسارت

(١) متفق عليه فى أغلب كتب السيرة والتراجم.

(٢) ابن سعد: الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ٨٥ عند ذكر أولاد رسول الله حيث ذكر: «أن خديجة كانت تعق عن كل غلام بشاتين وعن الجارية بشاة، وكان بين كل ولدين لها سنة».

حياة الأسرة رخاء لا تشوبها شائبة، فالزوج مشغول بتجارة زوجته، عامل على تنميتها، ومعنى بكل شئون أسرته الصغيرة هذه، وهو لا ينقطع فى الوقت ذاته عن صلة الرحم، ومواساة المكروب، معيناً على نوائب الدهر حتى انتشر شذى سيرته العطرة بين أهل «مكة». والزوجة منقطعة إلى تدبير شئون بيتها، ماضية فى رعاية زوجها وأبنائها بحنانها وعطفها، ترقب فى رضا وسعادة التوفيق الذى يلازم زوجها الحبيب في جميع خطواته، وتسعد لاحترام أهل مكة وحبهم له، ولم يكن يغيب عنها إلا شهراً كل عام حينما كان يذهب إلى غار حراء ليخلو إلى نفسه، وليتفكر ويتعبد الخالق السموات والأرض بعيداً عن ضلال أهل مكة الذين كانوا يخرون سجداً لحجارة نحتوها بأيديهم، ثم يتقربون إليها بنحر الذبائح وتقديم القرابين. وكان «محمد» فى اعتكافه وتأملاته في غار حراء يطعم من جاءه من الفقراء والمساكين من الطعام الذى كانت تعده وترسله إليه زوجته المخلصة «خديجة»(1)، وكان كلما انقضى الشهر عاد إلى «أم القرى» وبدأ كعادته بالطواف حول الكعبة ثم انصرف إلى بيته(2) حيث تستقبله زوجته بالترحاب، وتغمره بحبها بعد أن ظلت تترقب عودته طوال ذلك الشهر بفارغ الصبر.

ومرت الأيام على «خديجة» وهى تعيش فى كنف زوجها، وقد رفرفت السعادة بجناحيها عليها وعلى أولادها، ومر عام آخر كان «محمد» يشملهم فيه برعايته، ويفيض عليهم من أبوته، وكانت «زينب» تحبو وهى فرحة أثناء انتقالها داخل الحجرة؛ وكان «القاسم» قد شب قوى الجسم، وأخذ يمشى ويدب على الأرض فى أرجاء البيت وقد قارب الثانية من عمره، فكان مناط أملها، وينبوعاً من ينابيع سعادتها، وكانت تتطلع إلى ذلك اليوم الذى تراه فيه شاباً قوياً يقف إلى جوار أبيه؛ وكانت تطمع فى أن تجود عليها السماء بولد آخر يكون عوناً وعضداً لأخيه «القاسم» يسانده فى مستقبل حياته؛ ولكن العام كله قد انقضى، ولم تشعر بمعاودة الحمل لها؛ ولكن لا بأس عليها، فلعل السماء أرادت بها خيراً فمنحتها فترة تستريح فيها

---

(1) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٣٦.

(2) المرجع السابق.

وتستجم من عناء الحمل حتى يأتى المولود المنتظر قوياً، ولذلك فإنها تصبر على أمل، وتنتظر فى لهفة؛ ولكنها لم تكن تدرى ما خبأته لها المقادير، فإنها لم تلبث أن نزلت بها كارثة صدمتها صدمة عنيفة زلزلت كيانها، وهدت من قوتها؛ فقد اختُطِف «القاسم» فجأة، وتوفى بعد أن جاوز العامين من عمره وملأ البيت حبواً ومشياً[1]، فذهبت كل أمانيها وآمالها أدراج الرياح، وعقدت فداحة المصاب لسانها، وأسالت دموعها، وأخذت تقاسى مرارة ثكل أعز ما تملك من الأبناء، فما أشد فجيعتها فيه! وما أعظم مصابها!.

ودهم المصاب «محمداً» على حين غرة. ووقعت عليه الكارثة وقعاً شديداً فقد كان يرجو، مثل غيره من الرجال، أن يعيش بكريّة «القاسم» حتى يراه رجلاً يعينه فى معترك الحياة، ويخلفه فى رعاية الأسرة، ولكن الموت انتزعه من بينهم انتزاعاً بعد أن كان نموه القوى قد بشرهم بالخير، ومد لهم حبال الأمل: فما أعظم فجيعته فيه! وما أشد ما يقاسى الأب عندما تُختطف أعز فلذة من فلذات كبده! لقد كان «محمد»، مثل غيره من الناس، يرجو أن يرزقه الله الكثير من البنين والبنات، وكان مثل غيره من رجال قريش يتمنى أن يهبه الله ولداً ثانياً يكون لأخيه «القاسم» فى مستقبل الأيام صديقاً وعوناً، ويكون الأثنان لأبيهما عزة ومنعة، و«لبني هاشم» فخراً وغوثاً؛ ولكن الله يفعل ما يشاء، ويهب ما يشاء لمن يريد، وله حكمته التى لا يدرك كنهها بنو البشر! نعم، إنه هو القاهر فوق عباده، يفعل ما يشاء، وليس أمام الإنسان إلا أن يأخذ نفسه بالصبر، ويحملها على أن تتجلد للمصائب، وأن يروضها حتى ترضى بالقضاء والقدر، وتنحدر أثناء ذلك دموعه على خديه وهو سارح فى أحزانه، ولا يتمالك إلا أن يقول مثل ما قال بعد ذلك بعدة سنوات عند موت ابنه إبراهيم: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا لموتك لمحزونون».

وتمر الأيام بطيئة، و«خديجة» غارقة فى أحزانها مما أضفى على هذه

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول عند ذكر أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص٨٥ كما ذكرت كثير من الروايات أنه توفى وله سنتان ومنها رواية عن الزهرى رواها ابن الأثير فى أسد الغابة فى ترجمة القاسم وابن حجر فى ترجمة القاسم.

الأســرة ظـلالاً حـزينـة؛ ولكـن «محمداً» يتدارك الأمر بحكمته، فهو لا يدخر وسعاً فى محاولة إدخال السرور على فؤادها، ولا ينقطع عن مداعبة زوجته وبُنَيَّته كلما وجد من وقتـه فراغاً يخلو فيه إليها، فيختلسون سويعات من السعادة؛ ولكن سرعان ما تدرك «خديجة» أن العام قد أوشك أن ينتهى ولم تشعر بعد بالحمل، فهل ستعوضها السماء عن فقد ابنها «القاسم»؟ إنها لتصبر وتـصابر، وتُـمنِّـى نـفسها بالأمل تارة، وتشعر بالخيبة تارة أخرى طوال هذا الـعام الـثـانـى بـعـد موته، وهى تعمل جاهدة على إخفاء حزنها عن زوجها الحبيب الذى لم يكن ينى عن ملاطفتها، وإظهار حبه لها، فيسكن اضطراب نفـسها فترة ثم تعاودها الهموم والوساوس، وتقترب بداية العام الثالث فتشتد تلك الهواجس، تُرى هل أصبحت عقيماً ؟.

وتـرفـق الـسماء بهذه الأسـرة الكريمة، وتبدأ «خديجة» تشعر بما يشعر به الـنـسـاء فـى بداية الحمل، فيسرع إليها بصيص من الأمل، ثم يتأكد الحمل فـيـزداد نمو هـذا الـبـصـيـص حـتـى يـصـبـح أشعة تحمل معها الأمانى العذبة والابتهالات المـسـتـمـرة أن تجود عليها السماء بمولود ذكر تسعد بمقدمه، ويسعد أبـوه بمـولـده، وهـكـذا تعود إلى استقبال الحياة من جديد بروح ملؤها التفاؤل والأمـل، وتـتـرقـب فـى لهـفـة يوم الـوضـع، وتختار المرضع، فإذا حان الموعد المرتـقـب، وكـابدت آلام الولادة للمرة الثالثة، وأخبرتها قابلتها بمولد الأنثى سـكـتـت «خديجة»، وكانت فى صمتها متلهفة لمعرفة ما سوف يدور فى خَلَدِ «محـمـد» عـنـدمـا يـبـشر بـالأنثى؛ ولكن انتظارها لا يطول، فانه يتلقى الخبر بصدر منشرح، ويدخل على زوجته هاشّاً باشّاً، مهنئاً بسلامتها، ومرحباً بهذه المولودة الـتـى رزقـه الله بها وهـو فـى الـثـالـثة والثلاثين من عمره، وغمرته الـسـعـادة بمـقـدمـهـا كما غمرته من قبل عند مولد أختها «زينب» ثم أطلق عليها اسم «رقية»(١)، فـتـنـفـرج أسارير وجه «خديجة»، وتأمر بذبح شاة فى اليوم الـسـابـع تقرباً إلى الله الذى وهب لها هذا الزوج، وتقبل على الحياة راضية

---

(١) ابن عـبـد البر: الاستيعاب فى ترجمة رقية جـ٢ ص٧٤٧ ــ ٧٤٩ وأنها ولدت بعد أختها زينب بثلاث سنوات.

مطمئنة، فتعود إلى البيت بهجته وسعادته، وسرعان ماتشعر بالحمل يعاودها، فلا تنكر ماتتعرض له من آلام، بل إنها لتستعذبها أحياناً.

* * *

وكانت خديجة لا تدخر وسعاً في إدخال السرور والرضا على زوجها وفي المسارعة لإرضاء رغباته، ومن الأمثلة التي سجلها التاريخ من ذلك، أنها ذهبت يوماً لزيارة «حكيم ابن أخيها حزام بن خويلد» على أثر رجوعه من الشام بتجارة جلب فيها بضعة غلمان من الرقيق، فاختارت من بينهم غلاماً هو: «زيد بن حارثة» واشترته بأربعمائة درهم (١)، وكان زيد هذا ابن أحد سادة قبيلة بني كلب، وكان قد سافر وهو صبي مع أمه «سعدى بنت ثعلبة» من أشراف «بني معن بن طيىء» لزيارة أخواله؛ فأغارت على قافلتها في الطريق جماعة من الأعراب وانهالوا على القافلة سلباً ونهباً، وأخذوا زيداً الصبي أسيراً، وشب الصبي عند هؤلاء الأعراب لا يعرف أهله عنه شيئاً حتى أشرف على الثالثة والعشرين من عمره، فباعوه في الشام، واشتراه «حكيم» ابن أخي «خديجة». ورآه «محمد» فأعجب به وطلب من زوجته أن تهديه إليه فسارعت بالاستجابة وهي قريرة العين (٢)، وتقبله الزوج شاكراً، وكان يغمره بعطفه ومحبته، ويؤثره على الآخرين من مواليه، وصار منذ ذلك اليوم يعرف في مكة باسم «زيد بن حارثة» مولى «محمد بن عبد الله»، وكان يبادل سيده «محمداً» حباً بحب، وإخلاصاً بإخلاص.

* * *

وكانت «ثويبة» جارية «أبي لهب بن عبد المطلب» عم «محمد» أول من أرضع «محمداً» بعد أمه «آمنة»، وظلت ترضعه بلبن ابنها «مسروح» أياماً حتى قدوم «حليمة السعدية» وكان «محمد» يحبها كثيراً

---

(١) قصة زيد بن حارثة متفق عليها، وانظر: ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٤٧ ـ ٢٤٨ والنويري: نهاية الأرب: جـ١٦ ص١٨٣ ـ ١٨٦، وابن سعد: الطبقات عند ذكر ترجمة «زيد الحب.» جـ١ القسم الأول ص١٧٩.

(٢) المراجع السابق ذكرها.

ويصلها بين الحين والحين، فلما تزوج كان يكرم وفادتها عليه طوال إقامته فى مكة بما عرف عنه صلى الله عليه وسلم من الوفاء والكرم، وكانت «خديجة» تحسن استقبالها فى منزلها ولا تنقطع عن إكرامها، وقد أرادت أن تشتريها من «أبى لهب» حتى تستطيع أن تعتقها وتفك إسارها من هذه العبودية إكراماً ووفاء لزوجها الحبيب «محمد» ولكن «أبا لهب» أبى أن يبيعها، وآثر أن يحتفظ بها فى خدمته، وظلت كذلك حتى أعتقها بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى «يثرب»، فكان النبى الكريم يرسل إليها من المدينة الكسوة وما يسد حاجتها بما عرف به من الجود والوفاء، حتى توفيت سنة سبع من الهجرة بعد انتصار المسلمين فى خيبر، فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابنها «مسروح» وهو أخوه فى الرضاعة، فعلم أنه توفى قبلها وأنه لم يبق من قرابتها أحد (١).

* * *

وتتحمل «خديجة» آلام الحمل الرابع عن طيب خاطر، يحدوها الأمل أن تهب لها السماء مولوداً ذكراً يعوضها عن فقد «القاسم»، وتمر الأيام حتى يقترب موعد الولادة، فاستعدت لهذا اليوم الذى كانت تنتظره بفارغ الصبر، حتى إذا جاء الموعد المرتقب ولدت البنت الثالثة، فيستولى الوجوم على «خديجة» وهى ترقب وقع الخبر على زوجها عندما بلّغته القابلة؛ ولكنه كعادته تهلل بشراً وفرحاً ورضاء بما جادت عليه به السماء، فقد كان لا يعبأ بعادات الجاهلية وكراهية قريش لمولد الإناث، ولذلك فقد شكر الله، وهنأ زوجته بقدوم هذه البنيّة التى أطلق عليها اسم «أم كلثوم» (٢) فهدأت نفس «خديجة»، واطمأن بالها، وعادت إليها سعادتها، وأمرت فى اليوم السابع بذبح شاة، تقرباً إلى الله وأطعمت الأهل والمحتاجين.

* * *

وكانت الأمور تسير فى مكة سيرها الطبيعى، فتجارة «قريش» رابحة دائماً

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول فى ذكر من أرضع رسول الله، ونهاية الأرب للنويرى ص٨٠ ــ ٨١.

(٢) ترجمة أم كلثوم فى الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٨ ص١٦، وفى ابن عبد البر: الاستيعاب، وفى ابن حجر: الإصابة.

من رحلتى الشتاء والصيف، وهى تدر عليهم الأموال الطائلة، وكان الكثيرون منهم ينفقون أكثر هذه المكاسب على البيوت التى أقامها لهم بعض الروم، حيث يقبلون على الخمر، ويلهون بالاستماع إلى غناء المغنيات ورقص الراقصات إلى وقت متأخر من الليل. وحدث بعد مضى ما يقرب من عام مَن مولد «أم كلثوم» أن تدفق السيل على مكة، وداهم الكعبة فأحاط بها، وتصدعت بعض جدرانها، وخافت قريش أن ينهار البناء فأجمعوا أمرهم على هدم الجدران المتداعية، وأن يعيدوا من جديد بناء الكعبة، واتفقوا على أن تسهم كل بطون قريش فى العمل وفى تحمل النفقات بحيث لا ينفقون في ذلك إلا من كسبهم الحلال الطيب، ونشطت كل بطون قريش فى العمل على إقامة البناء، كل منها يجمع الحجارة وينقلها إلى جوار الكعبة ثم يبنى من الناحية المخصصة له، واشترك فى ذلك «محمد بن عبد الله» فكان يحمل الحجارة وينقلها مع أعمامه وأولادهم وعلى رأسهم «أبو طالب» و«العباس»، حتى ارتفع البناء ووصل إلى موضع الركن الذى سوف يوضع فيه الحجر الأسود؛ فأرادت كل بطن أن تحظى هى وأقرب البطون إليها بشرف وضع الحجر فى مكانه، وتنافسوا فى ذلك، ثم اختلفوا واشتد الخلاف والغضب حتى أصبحوا على وشك التطاحن والتقاتل، فأخذت كل جماعة منها تعد نفسها للحرب وتجمع حولها الأنصار والحلفاء الذين يشدّون أزرها، واستمروا فى هذا النزاع والتطاحن والاستعداد للحرب بضعة أيام، ولكن الله أراد بهم خيراً، فقام «أبو أمية بن المغيرة المخزومى» خطيباً، وكانت «قريش» تحترمه لفطنته وحسن تدبيره، ولكبر سنه ومكانته فى قومه، فأثنى على قريش وما قاموا به من جهود، وما قدموا من نفقة، وذكر أن عليهم أن لا يفسدوا هذا العمل المقدس بالشجار والتخاصم، واقترح عليهم أن يحكّموا بينهم أول داخلٍ من أحد أبواب المسجد المعروف بباب «بنى شيبة»، وهو الباب الذى يعرف الآن باسم باب السلام؛ فطابت نفوسهم جميعاً لهذا الاقتراح، ورضوا بما أشار به عليهم حكيمهم «أبو أمية بن المغيرة».

وساد سكون عميق، وأخذ القوم يترقبون وقد حبسوا أنفاسهم، وتطلعت

أبصارهم جميعاً إلى «باب بنى شيبة» فى انتظار أول داخل ؛ ولم يطل انتظار القوم طويلا فقد هلّ عليهم «محمد بن عبد الله» وهو داخل من «باب السلام» فصاحوا جميعاً مهللين فرحين : «هذا الأمين ! هذا محمد ! رضينا به حكماً » . وتقدم «محمد» نحوهم وسط مظاهر الفرح والابتهاج البادية على وجوههم ، فلما أخبروه الخبر أخذ يفكر فى طريقة يحسم بها هذا الخلاف الذى كان ينذر بشر مستطير، وهداه الله إلى فكرة يرضى بها جميع الأطراف المتشاحنة ، ويحفظ بها على كل بطن من بطون قريش كرامتها ، فقد خلع رداءه وبسطه على الأرض ، وحمل الحجر الأسود ووضعه عليه ، ثم طلب من رؤساء كل فريق أن يتقدموا ويمسك كل واحد منهم بطرف من أطراف هذا الرداء ، ثم أمر الرؤساء أن يحملوا جميعاً أطراف الرداء ويرفعوه معاً فى وقت واحد ، فلما وصلوا به إلى مستوى المكان الذى سوف يوضع فيه الحجر تناوله بيديه ثم وضعه فى المكان المخصص له ، وسوّى عليه ، فهدأت الأحقاد ، وطابت النفوس ، وانتشر الوفاق والسلام على يد رجل السلام «محمد بن عبد الله» . وقد وصف ذلك شاعر قريش «هُبيرة بن أبى وهب المخزومى» بقصيدة نقتطف منها : (1)

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة ... وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جدّ جده ... ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع ... يجيىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين «محمد» ... فقلنا رضينا بالأمين «محمد»

ولا شك أن خبر النزاع والتشاحن كان قد انتشر فى أرجاء مكة ، وعلم الناس أن كل فريق أخذ يجمع حوله الأنصار استعداداً للحرب والنزال ، فوجمت النساء والأولاد وأخذوا يتوقعون صراعاً شرساً قد لا يُبقى ولا يذر ؛ ولا شك أن «خديجة» بلغها ما بلغ سائر قريش فأخذ يتسرب إلى نفسها

---

(1) ابن هشام : السيرة جـ1 ص197 ، والصالحى : سبل الهدى والرشاد جـ2 ص232 ـ 233 .

الخوف على رجلها مما قد يصيبه من مكروه. واستمر الخوف مخيماً على أرجاء مكة كلها بضعة أيام، ثم انتشر خبر الاتفاق على التحكيم بسرعة البرق فهدأت النفوس بعض الشيء، ولم يلبث أن علم الناس أن العناية السماوية قد اختارت «محمداً» حكماً بين المتنازعين، فاستراح القوم لهذا الاختيار وأخذوا يترقبون النتائج، وكادت «خديجة» تطير فرحاً؛ ولكنها سرعان ما بدأت تفكر: ترى هل سينجح «محمد»؟ إنها تؤمن به، وتثق في مواهبه، وهي ترجو أن توفقه السماء إلى رأب الصدع وعودة المحبة والسلام إلى القلوب المتنافرة؛ ثم أذيع أن الأمين قد وُفق، وأن الحجر الأسود قد وُضع في مكانه، فسعدت كل البطون بانفراج الأزمة، وفرحت «خديجة» لهذا الشرف الذي نالها بنجاح «محمد»، ولهذه المنزلة الرفيعة التي رفعه الله إليها [1]، وتستقبله وقد كاد الفرح الذي طغى عليها أن ينسيها أنها كانت تعاني آلام الوضع للمرة الخامسة.

ويعود «محمد» إلى منزله شاكراً الله على ما حباه به من نجاح وتوفيق، فقد قبلته قريش حكماً، ثم أعانه الله على أن يحفظ على جميع البطون القرشية كرامتها، ويعيد بينها الوئام والسلام والمحبة، ويسرع إلى زوجته المحبوبة «خديجة»، فيقص عليها تفاصيل ما حدث وهي تصغي إليه وقد تهلل وجهها بشراً، وطارت نفسها فرحاً وفخراً بالتوفيق الذي أنعم الله به عليه؛ ولكنه سرعان ما يلاحظ أن قابلتها «سلمى» واقفة بجوارها وقد بدت عليها الحيرة، فيدرك أن «خديجة» في طريقها إلى الولادة، فيبتسم مشجعاً لها ثم ينصرف خارج الغرفة في انتظار ما ستجود عليه به السماء. ترى هل سيهبه الله ولداً؟ لا شك أن «محمداً»، كان كغيره من الرجال في ذلك العصر، يحب الكثير من البنين، وأنه، مثل جميع رجالات قريش، كان يرجو أن يهبه الله ابناً يعوضه عن فقد «القاسم»؛ ولكنه كان يعلم أن الله سبحانه

---

(١) قصة إعادة بناء الكعبة مذكورة في جميع مصادر كتب السيرة مع اختلاف في مدى ذكر كل منها للتفاصيل. انظر: ابن هشام: السيرة جـ١ ص١٩٢ ـ ١٩٧؛ وتاريخ الطبري جـ٢ ص٢٨٧ ـ ٢٩٠ والنويري: نهاية الأرب جـ١٦ ص١٠٢ ـ ١٠٤، وابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول ص٩٣.

هو المعطى الوهاب، وأنه هو الذى يمنح ويمنع، وأن له فى ذلك حكمة لا يمكن إدراكها، وقد رضى طوال حياته بكل ما مر به من أحداث، وصبر على ما امتحن به من حرمان، وشكر على ما أفاء الله عليه من خير ورزق وفير على يد «خديجة»، ولذلك فهو ينتظر ما يأتى به الله فى صبر وأمل ورضا.

ولسنا نعرف على وجه التحديد أطار انتظار «محمد» أم قصر؛ ولكنه كان ثابت الجنان، وقد أدرك حين رأى «سلمى» تسعى إليه بخطى وئيدة متثاقلة، أن «خديجة» قد وضعت أنثاها الرابعة، وأحس بذكائه وفطرته أنها تعانى من أنجاب الأنثى أكثر مما عانته من آلام الوضع، فيهرع إليها، ويحمل الطفلة بين يديه، فيشرق عليه وجهها المضىء، وينشرح لرؤيتها صدره، فتطمئن نفسه، ويطول حمله لها بين ذراعيه، ويطول نظره إلى وجهها ثم يبتسم ابتسامة عريضة تلمع لها أسنانه الفلج، واستقبل الوليدة بابتهاج أكثر مما استقبل به أخواتها الثلاث فيداعب البنيَّة ثم يناولها لأمها، فتحملها عنه بين ذراعيها، ولم تك قد حملتها حتى ذلك الوقت، وتنظر إلى وجهها الباسم، ثم تحدق فيه وقد استولت عليها الفرحة والعجب، ولم تتمالك نفسها وهى تقول مستبشرة: «أنظر يا محمد! إنها أشبه أخواتها بك. بل إنها أشبه الناس طرًا بطلعتك البهية(١) فما أجملها! وما أسعدنا بها!».

ويهرع «محمد» فيطعم الأهل والفقراء والمساكين، ويسميها «فاطمة» وينفح القابلة بجائزة سنية، ويشكر الله على أن وهبه هذه البنية الجميلة فى الخامسة والثلاثين من عمره بعد عشر سنوات كاملة قضاها بجانب «خديجة»، وبعد أن كانت «خديجة» قد بلغت الخمسين من عمرها(٢).

* * *

وكان «زيد بن حارثة»، مولى «محمد بن عبد الله»، قد التقى فى

---

(١) وصفتها السيدة عائشة أم المؤمنين بذلك.

(٢) كل مصادر هذا البحث متفقة على أن محمداً رزق بفاطمة وهو وخديجة فى هذا السن التى ذكرناها: انظر: الطبقات الكبرى جـ٨ ص١٦ وابن عبد البر: الاستيعاب جـ٢ ص٧٧ فى ترجمته لفاطمة.

موسم الحج بنفر من أهله من قبيلة «بنى كلب»، فتعرفوا عليه وتعرف عليهم، وأخبروه أن القبيلة ظلت تبحث عنه منذ فقدته صبياً، وأن أباه جزع عليه جزعاً شديداً ولكنه لم ييأس قط من العثور عليه، وأنه كثيراً ما بكاه، وأنشدوه بعض ما قال فى الحنين إلى ولده الذى ما زال يفتقده بشعر تحفظه القبيلة قائلين[1]:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحىٌّ فيُرجى أم أتى دونه الأجل؟
فوالله ما أدرى وإنى لسائل ... أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل؟
ويا ليت شعرى هل لك الدهر أوبة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل[2]
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزنى عليه وما وجل[3]
سأعمل نص العيس فى الأرض جاهدا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل[4]
حياتى أو تأتى علىّ منيتى ... فكل امرئ فانٍ وإن غره الأمل

واهتزت نفس «زيد» تأثرا عند سماع هذا الشعر الذى أودعه أبوه حشاشة قلبه، وعميق تأثره، وأسعفته سليقته العربية الخالصة فأنشدهم قائلا:[5]

أحن إلى قومى وإن كنت نائيا ... وإنى قعيد البيت عند المشاعر
فإنى بحمد الله فى خير أسرة ... كرامٍ معَدٍ كابرا بعد كابر

ولما سمع أبوه «حارثة بن شرحبيل» ذلك هرع إلى مكة هو وأخوه «كعب»، وأخذا يسألان عن «محمد بن عبد الله»، فوجداه فى المسجد العتيق، ورحب بهما أجمل ترحيب، ثم أخذا يعرضان عليه حاجتهما، ومما يؤثر فى ذلك قولهما له:

«يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله

(١) ابن هشام: السيرة: جـ١ ص٢٤٨.
(٢) البجل: الحسم.
(٣) الأرواح جمع ريح. والوجل: الخوف.
(٤) نص العيس: سير الإبل السريع.
(٥) الشعر وارد فى هامش السيرة تحقيق ابن هشام، وهو هنا عن النويرى: نهاية الأرب جـ١٦ ص١٨٥.

وجيرانه، تفكّون العاني(١)، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه».

وفكر «محمد» في الأمر سريعا، متذكرا أن من عادات العرب الموروثة أن الأب أحق بأبنه، وأن القبيلة أحق بكل فرد من أفرادها، ولكنه أحبّ زيدا حبا جما، ويعتقد أن زيدا يبادله حبا بحب، ولذلك فإنه يسائل نفسه: أليس من حقه أن يستبقيه معه بعد أن عاشا معا على هذا الحب بضع سنوات؟ ثم مر به خاطر سريع هو أنه: إذا كان للأب حق على ولده، أفليس للابن حق على نفسه؟ أليس الإنسان قد ولد حرا ومن حقه أن يختار لنفسه ما يحلو وما يرى فيه الخير والسعادة له في هذه الحياة؟ وهنا أضاء وجهه السمح بابتسامة حلوة، وصرح لهما، في لطف ورقة، أنه لا يجوز لمثله أن يقبل الفداء، ولكنه سيكرم وفادتهما، ويقترح حلا آخر يصون على قبيلة بني كلب كرامتها، ويضمن «لزيد» حقه في العيش الكريم. ولما طلبا منه المزيد من الإيضاح قال إنه سوف يستدعي زيدا على الفور أمامهم، ويخيّره في أمره، فإن اختار أن يذهب مع أبيه وعمه ليعيش بين قومه فهو لهما هدية منه دون فداء، ثم قال: «وإن اختارني فهو لي، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدا». وابتهج الأب والعم بهذا العرض الكريم، واعترفا أن محمدا قد أنصفهما من نفسه أكثر مما كان يدور بخلدهما وما كانا يأملان فيه. وجاء «زيد»، فلما تعرف على أبيه وعمه وحياهما أطيب تحية، قال له «محمد» في إيجاز: «أنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما» ولم يتردد «زيد» لحظة واحدة بل قال على الفور: «ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم».

وصعق الأب والعم لهذا الاختيار الذي لم يكن يخطر لهما على بال، وقالا في نفس واحد: «ويحك «يا زيد» أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟». ورد «زيد» عليهما على الفور بثبات وجرأة: «نعم! قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبداً».

---

(١) العاني: الأسير.

وهزت هذه الإجابة،الصادرة من أعماق نفس نبيلة ودودة ، قلب «محمد»، فهب واقفاً ، ونادى فى المسجد بأعلى صوته قائلا : «يا معشر من حضر، أشهدوا أن «زيداً» ابنى يرثنى وأرثه» فطابت نفس الأب والعم ، وهدأت ثورة غضبها ، وأصبح «زيد» حراً ، وصار من تلك اللحظة يدعى: «زيد ابن محمد بن عبد الله الهاشمى» وهو نسب من أرفع الأنساب قدراً ، وأكثرها مدعاة للفخر والاعتزاز، فقد أصبح قرشياً ، وظل كذلك حتى جاء الإسلام ، وكانت الهجرة الشريفة إلى يثرب ، وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (١)

وبذلك أبطل الإسلام التبنى ، وسُمِّى «زيد» وأمثاله بأسماء آبائهم ، فأصبح يُسَّمى «زيد بن حارثة» (٢).

وكانت «خديجة» قد سمعت بمقدم والد «زيد» وعمه ، وأنها قصدا «محمدا» يطلبان منه استرداد ولدهما ، وكانت تشفق على زوجها الحبيب أن يأخُذاه منه بحق الأبوة وتنفيذاً للعادات العربية الموروثة ، فقد كانت تعلم أن «محمدا» لن يعوضه عن مولاه «زيد» أى مبلغ من المال مهما كثر. لقد كان يحنو عليه وكأنه أحد أولاده ، وعاش معه بضع سنين ازداد فيها حبه له وتقديره إياه ؛ وظلت «خديجة» تنتظر أوبة زوجها الحبيب بفارغ الصبر، حتى إذا عاد إلى البيت وأنست به وأنس إليها ، وقص عليها تفاصيل ماحدث ، كادت تبكى من شدة الفرح ، فقد هداه الله إلى إكرام الزائرين اللذين قصداه ، وإلى المحافظة على كرامتها وكرامة قبيلة «بنى كلب» ، وإلى رفع مكانة زيد فأصبح ابنا «لمحمد بن عبد الله» ، ينسب إليه وإلى

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥ ، وانظر أبا الحسن النيسابورى: أسباب النزول ص ٢٠١ .

(٢) قصة زيد بن حارثة رويت فى أكثر كتب السيرة وكتب التراجم ، وعنى بعضها بذكر التفاصيل ، واختصر البعض الآخر فى ذلك . انظر ابن هشام : السيرة: جـ١ ص٢٤٧ ــ ٢٤٨ وابن عبدالبر: الاستيعاب: ترجمة زيد بن حارثة ، والنويرى: نهاية الأرب جـ١٦ ص١٨٣ ــ ١٨٦ ، وابن سعد: الطبقات: جـ٣ القسم الأول فى ترجمة زيد الحب ص٢٧ ــ ٣٢ .

«بنى هاشم» ، وأصبح تبعا لذلك ابنا لها بعد أن جاوز الخامسة والعشرين من عمره .

* * *

وانقضى عام أوأكثر على إعادة بناء الكعبة ، وسارت الأمور فى مكة سيرا غير طبيعى ، فأكثر شبان قريش وفتيانها ازدادوا إغراقا فى شهواتهم ، وانقطاعا إلى ملذاتهم ، وأصبحوا يرون أنهم هم السادة ، فيأنفون مباشرة الأعمال بأنفسهم ، ويأبون أن يقتطعوا من هذه السعادة البهيمية فترة يتحملون فيها عناء السعى لاكتساب مزيد من الرزق فذلك أصبح فى نظرهم أمرا لم يخلق له إلا العبيد والموالى ؛ وكان زعماء الأرستقراطية القرشية لا يأبهون لهذا الإنحلال الخلقى الذى أصاب أكثر شبانهم وأعز فتيانهم ، وكأن هذا الأمر لا يعنيهم فقد كانوا لا يهتمون إلا بتنمية ثرواتهم مستعينين فى ذلك بجهود طبقة العبيد والموالى حتى فسد المجتمع القرشى ، ولم ينتبهوا إلا وقد دهمتهم أزمة اقتصادية عاتية ، لم يذكر لنا المؤرخون أسبابها ، ولكنهم ذكروا أنها أكلت أكثر ما ادخره زعماء الأستقراطية القرشية ، وعانى منها أواسطهم وأكثرهم عيالا ، وطحنت هذه الضائقة فقراء مكة طحنا فقد ذاقوا شظف العيش ، ومرارة الحاجة ، ولم يفلت من شدتها إلا من هداهم الله فانقطعوا لإدارة أعمالهم وتجارتهم بأنفسهم ، وكان «محمد» من أبعد هؤلاء نظرا ، وأكثرهم حكمة وتوفيقا ، فلم ترهقة بشدتها ، ولم يصبه من كارثتها إلا النزر اليسير ؛ ولكنه كان إنسانا كريم النفس يشمل بعطفه كل من حوله ، ويتألم لآلامهم ، ويبذل جهده للتخفيف عنهم ، فلم يأل جهدا هو وزوجته «خديجة» فى البذل ومواساة الأهل والأقارب ، ومد يد العون للفقراء والمحتاجين الذين كانوا يقاسون مرارة العوز ، وألم الحرمان .

وكان من أكثر الناس تأثرا بتلك الأزمة الطاحنة عمه «أبو طالب بن عبد المطلب» ، شيخ «قريش وسيد بنى هاشم» . فقد ورث عن أبيه «أبى طالب» سقاية الحاج وزعامة «بنى هاشم» ، وكان هذا المركز الأدبى يكلفه إنفاق الكثير من ماله ، وكان يعول أسرة كبيرة قوامها خمسة من الأبناء

الذكور، وأربع من البنات وزوجتين بالإضافة إلى عدد من العبيد والموالى؛ وأخذ «محمد» يفكر فى أمر عمه هذا، وما يقاسيه فى تلك الفترة التى اشتدت فيها الأزمة، وكيف يمد له يد العون دون أن يجرح كبرياءه؟ لقد كان «أبو طالب» هو عمه الشقيق، وكان أحب الناس إليه، وأقربهم إلى قلبه، ولم ينس أن عمه هذا هو الذى كفله بعد جده «عبد المطلب»، وضمه إلى عياله فعاش بينهم منذ الثامنة من عمره[1] معززا مكرما، يقاسمهم رزقهم، ويشاركهم مرّ الحياة وحلوها، وكان عمه هذا يؤثره على عياله. ولكنه أصبح يعانى من وقع هذه الأزمة التى دهمتهم، وأخذت بخناق أهل «مكة». وهذه هى زوجة «أبى طالب» «فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف» وهى من أشرف بيوتات قريش حسبا ونسبا، تشاطر زوجها محنته، وتتألم وهى ترى أولادها لا يجدون ما يجب أن يجده أمثالهم من أبناء «قريش» إنَّ «محمداً» ليذكر أنها كانت أبرّ الناس به بعد عمه «أبى طالب»، فقد كانت الأم الحنون التى تبنته بعد موت أمه «آمنة بنت وهب»، فغمرته بعطفها وحبها مما خفف عنه آلام الإحساس باليتم. ثم يذكر أولاد عمه «أبى طالب» ألم يكونوا له خير إخوة؟ ألم يسعد بينهم كواحد منهم له ما لهم وعليه ما عليهم؟ لقد بذل الكثير فى هذه الأزمة ليواسى الفقراء والمحتاجين، ويخفف عن الأهل وغيرهم من المنكوبين، فهل يكفى ما كان يقدمه لأسرة عمه بين الحين والحين لدفع شر هذه الأزمة التى أجهدت الأغنياء والفقراء على السواء؟ كلا:! إن على «محمد» أن يقدم لهم أكثر من هذا، وأن يجد وسيلة ثانية أكثر فائدة تفرج كرب هذا العم العظيم وهذه الأسرة الكريمة.

ويمعن «محمد» فى التفكير، فيمر به خاطر تنفرج له أسارير وجهه، وتطمئن إليه نفسه، ويهرع إلى منزل عمه «العباس بن عبد المطلب»، وكان من أغنى أغنياء بنى هاشم، وقد أُثر عنه قوله له: (إن أخاك «أبا طالب» كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول عند ذكر أبى طالب ص٧٥ـــ٧٦.

إليه ، فلنخفف عنه من عياله ، فآخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنكفلها عنه) .

وكان العباس جوادا ، كريم النفس ، عالى الهمة ، فانشرح صدره لهذا الاقتراح الذى يخفف عن أخيه جزءا من نفقات عياله ، فأسرعا إلى «أبى طالب» ، وأخذا يرجوانه فى أن يعطى كل واحد منهما ولدا من أولاده يضمه إلى عياله ويرعاه نيابة عنه حتى تنجلى هذه الأزمة التى خنقت الناس ، وما زالا به يلحان عليه فى الرجاء حتى قبل ، فأخذ «محمد» «عليا» ، وأخذ «العباس» «جعفراً» (١) ، وهكذا شاءت إرادة الله أن ينتقل «على بن أبى طالب» ، وهو ما يزال طفلاً يناهز السابعة من عمره من بيت أبيه إلى العيش مع «محمد» وزوجته «خديجة» واحداً من أولادهما يقاسمهم جميعاً مايقابلهم من حلو العيش ومره ، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم .

وهكذا شاءت العناية الإلهية أن يرعى «محمد» «عليا» منذ صباه ، وأن يشرف على توجيهه وتربيته وينشّئه على الخلق الكريم ، ويبث فيه من روحه . وقد وجدت روح «محمد» وأفكاره فى هذا الصبى تربة خصبة ، فنمت بذورها ، وأنبتت نباتا حسنا سرعان ما أثمر وأينع فى السنوات الثلاث التى عاشها الصبى فى بيت «محمد» قبل الرسالة العظمى ، وأخذ الصبى يرى فى مرشده وأستاذه ، منذ صباه ، مثله الأعلى ينهج على منهاجه ، ويرتشف من ينابيع الخلق الكريم التى فجرها الله فيه ، فكان فى شبابه ورجولته يحذو حذوه ، ويقتدى به فى أفعاله ، ونمت فيه صفات الأمانة والصدق والشجاعة فى إبداء الرأى إلى جانب ما حباه الله به من قوة البنية والذكاء الفطرى .

أما «خديجة» فقد هزتها الفرحة عندما استجاب «أبو طالب» لرجاء «محمد» ورأت الصبى قادما مع زوجها ، فقد كانت تحترم «أبا طالب» وتحبه وتراه فى منزلة الوالد العطوف . أليس هو الذى كفل حبيبها «محمدا»

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ١ ص٢٤٦ ؛ وكذلك الطبرى : التاريخ جـ٢ ص٣١٣ ؛ والنويرى : نهاية الأرب جـ١٦ ص١٨١ .

منذ الصغر، ورعاه حتى صار أحسن فتيان قريش ثم أعطاها إياه رجلا ؟ أليست زوجته «فاطمة بنت أسد بن هاشم» هى التى سقت «محمدا» حنانها صبيا، وأحاطته بعطفها مراهقا ثم وهبته لها شابا فى ريعان الشباب ؟ ما أجمل «عليا» وما أذكاه! وما أشد حياءه وعزة نفسه! لقد أحبت «خديجة» هذا الصبى منذ أول وهلة. لقد عثرت فيه على أخ لبناتها الأربع يشاركهن حياتهن، ويغيّر وجوده بين الأسرة من لون الحياة فى البيت فيضيف إليها نشاطا وبهجة وسرورا، فهل كان هذا الحب الذى ألقاه الله فى قلبها تمهيدا لما سبق أن جرت به إرادة الله، سبحانه، من أن يشب هذا الغلام المبارك فى بيت النبوة، وأن تكون منه الذرية الصالحة النقية لخاتم الأنبياء والمرسلين من زوجته «خديجة بنت خويلد أم المؤمنين»؟.

أما البنات فحدث ولا حرج عن فرحهن بمقدم «على بن أبى طالب» إلى بيتهن، ومعيشته بينهن، فقد وجدن فيه أخا عطوفا على صغر سنه. كم كان رقيقا ومجاملا! إنه كان فى سن «زينب» التى كانت قد بلغت هى الأخرى السابعة من عمرها، فهى ترى فيه أخا فى سنها يستطيع أن يفهمها كما تفهمه، وتدور فى دهنه أفكار الصبية التى تدور فى ذهنها، فيمرحان معا مرح الأطفال. أما «رقية» و«أم كلثوم» فقد كانتا تنظران إليه بشىء من محبة واحترام الأطفال لمن لا يزيدون فى العمر عنهم إلا قليلا. كم كان لطيفا معهما فى عشرته، وكم كان رقيقا معهما فى مداعبته!.

أما «فاطمة» فإنها كانت ما تزال طفلة تعنى بها مرضعتها، ولعلها كانت على وشك الفطام فقد قاربت الثانية من عمرها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(سورة البقرة الآية ١٢٩)



الفصل الثالث

الرسالة الإلهية الكبرى

بدأت حياة «خديجة» تتخذ مسارا جديدا، فقد أخذ بناتها من «محمد» فى النمو السريع، وشرعن يتفتحن تفتح براعم الزهر النضير. لقد كانت حياتهن زاهية ناعمة بفضل عناية والدتهن وحنانها، وما كان يضفيه الوالد عليهن من العطف والرعاية، وما كان ينهض به من العمل المثمر لكسب الرزق الوافر. وأصبح على «خديجة» أن تواجه هذه الحالة الجديدة بما يجب عليها فى تربيتهن وإعدادهن لمستقبل الحياة، فكان عليها أن تشغل بتدريبهن على النهوض بتدبير أمور المنزل، وكان عليها أن تبدأ «بزينب» التى كانت قد قاربت الثامنة من عمرها، فأخذت تعودها بالتدريج على معاونتها فى كل شئون البيت، وتعهد إليها بالنهوض بنصيب فى رعاية إخوتها الثلاث وبخاصة صغراهن «فاطمة» التى كانت قد أخذت تدب وتمرح فى أرجاء البيت فتملأ البيت بهجة، وتجعل للحياة فيه طعما جديدا. وقد أقبلت «خديجة» على هذه الحياة الجديدة وشغلت نفسها بها حتى لم تعد تجد فراغا يعود بها إلى الحزن وتذكر مصيبتها بفقد ابنها «القاسم» إلا فى القليل بين الحين والحين، ولعل فى وجود «علىّ بن أبى طالب» معهم، وحبها له، وسعادة البنات باشتراكه معهن فى الحياة، وشعور «محمد» بالارتياح والغبطة لوجود «على» فى منزله، لعل فى ذلك كله ما خفف من حزنها، وأراح نفسها، وجعلها تُقبل على حياتها الجديدة بنفس مطمئنة راضية.

لقد كانت «خديجة» — منذ ألف وأربعمائة عام — تعيش فى بيئة

متأثرة تأثيرا كبيرا بعادات البدو وتقاليدهم التى توارثوها فى الجاهلية، فقد كانوا يقبلون على تزويج البنات فى سن مبكرة، فيزوجونهن فى التاسعة أوالعاشرة وقد يزوجونهن قبيل ذلك، ثم يزفونهن بعد الزواج بفترة وجيزة إلى بعولتهن، وقد شبت «زينب» جميلة قوية البنيان دمثة الخلق، وأوشكت على هذه السن، فمن ذا الذى سيسعد بزواجها؟ لا شك أن فتيان قريش كانوا ينظرون إلى «محمد» نظرة كلها إعجاب وإحترام، وأن آباءهم كانوا يرون نجاحه فى تدبير أمور تجارته، وأن الكثيرين منهم كانوا يطمعون فى أن يتزوج أولادهم من بنات «محمد». وكانت الفتيات القرشيات غير محجبات فلا شك أن الكثير من الفتيان قد عرفوا «زينب» ورأوا أن عودها قد نما وترعرع، وأن أنوثتها قد أخذت تتفتح، وأن منهم من يرغب فى التزوج بها، فمن هو السعيد الذى سيختاره «محمد» ليكون بعلا لها؟ وهل سيختاره من بين شبان بنى هاشم؟ وهل تترك «خديجة» الأمور تجرى على أعِنَّتها؟ وهل تدعه على خطورته للمصادفة؟

لسنا نشك أن هذه الأفكار وغيرها دارت بمخيلة «خديجة»، وأنها رأت أن من واجبها أن تعمل على إسعاد بنتها. لقد كان لها أخت اسمها «هالة بنت خويلد»، وقد رزقت من بين أولادها بشاب قوى، أخذت مكة تتحدث عن كرمة وأمانته، ونجاحه فى تجارته، وكان الناس يأتمنونه على أموالهم، ويعطونها له ليتجر لهم فيها مع أمواله، وله فى مقابل ذلك نصيب فى الربح، وقد وصفه «ابن إسحق» بقوله: (كان «أبو العاص» من رجال مكة المعدودين: مالا وأمانة وتجارة)[1] وتحدث ابن هشام كذلك عن أمانته، ووفائه فقال: (إن «أبا العاص بن الربيع» لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين، قيل له: هل لك فى أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين؟ فقال «أبو العاص»: بئس ما أبدأ إسلامى أن أخون أمانتى)[2]، وكانت «خديجة» تحب ابن أختها هذا لما أتصف به من جميل

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٦٥١ وقال مثل ذلك عنه الطبرى: التاريخ جـ٢ ص٤٦٧.

(٢) ابن هشام: المرجع السابق جـ١ ص٦٥٩، وهذا الحادث بعد الإسلام ولكن استشهدنا به دليلاً على خلقه الكريم.

الصفات، ولعلها رأت فيه بعض الشبه بما كانت قريش تصف به محمدا فى شبابه فكانت تضعه فى منزلة ولدها[1]، وكان يزور خالته بين الحين والحين، فكانت ترحب به أجمل ترحيب، وكان يجلس مع الأسرة كلها للسمر أحيانا، ولاحظت أن زوجها الحبيب يرتاح إليه، ويرحب به، فشجعته على تكرار زياراته. وكان «أبو العاص» يزداد إعجاباً وتعلقا «بمحمد» كلما كثرت زياراته حتى آخاه وصافاه[2]. وقد لاحظت «خديجة» بنظرها الثاقب وإحساسها المرهف، أن «زينب» كانت تستمع بإعجاب لما كان يقال عن «أبى العاص»، وما يذكر عن صفاته التى كان يتحلى بها، وكانت تستملح حديثه، وكان يبدو عليها الخفر والحياء إذا وجه إليها أثناء مسامراتهم حديثا، وقد رأت «خديجة» فى ذلك بشيرا بقبولها له، وموافقتها على الزواج منه إذا تقدم لطلبها.

وتستولى على «أبى العاص» حيرة شديدة وهو يناجى نفسه، لله در هذه الأسرة التى لا يعرف لها مثيلا فى مكة كلها، ما أسعدها! وما أقوى تمسكها بالأخلاق الكريمة! وما أطيب أن يعيش الإنسان واحدا من أفرادها! وما أسعد هذا الصبى «على بن أبى طالب» وهو يعيش هانئا معها! لقد بدأت علاقاته معها بزيارات مجاملة لخالته التى كان يحبها كما كان يحب أمه «هالة بنت خويلد» وكان يحترم «محمدا» احترامه لأبيه، فإذا به يتعلق به ويزداد له حبا وتقديرا فصافاه وآخاه[3]، ثم أخذ الإعجاب «بزينب» يدب إلى نفسه، والتقدير لحسن أخلاقها وكريم طباعها يسرى بين ضلوعه رويدا رويدا حتى أصبح حبا، فهل سيرضى به «محمد» زوجا لها؟ وهل سيفضله على نظرائه من شبان بنى هاشم؟ لا شك أن «أبا العاص»، فى حيرته هذه، لم يجد أمامه سبيلا إلا أن يلجأ لخالته، فأفضى إليها بما كان يجيش

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب فى ترجمة أبى العاص جـ٢ ص٦٩١ـ ٦٩٣؛ وابن هشام: السيرة: جـ١ ص٦٥١.

(٢) الطبرى: التاريخ جـ٢ ص٤٦٧ وابن عبد البر: الاستيعاب فى ترجمة أبى العاص ص٦٩١ـ٦٩٣.

(٣) المراجع السابقة.

فى صدره من عواطف التقدير والإعجاب بهذه الأسرة الكريمة، ومن عاطفة الحب الشريف «لزينب» ورغبته فى الزواج منها، فأحاطته «خديجة» بحنانها وعطفها، وبثت فى نفسه الرجاء والطمأنينة، وانتهزت أول فرصة مواتية فأخذت تطرى لحبيبها «محمد» «أبا العاص بن الربيع» بما هو أهل له، وتشيد بكريم عاداته وخصاله وبما يتمتع به من مركز مرموق فى «مكة»، ثم ترجوه، وتلح فى الرجاء أن يقبله زوجا لابنتها «زينب» فيظهر على وجه «محمد» الارتياح، ويستجيب لرجاء زوجته الحبيبة التى كان لا يخيب لها رجاء[1]، فتستدعى «أبا العاص» وتشجعه على مقابلة «محمد» حتى ينال ما يتمنى.

ولسنا ندرى إذا كان قد ذهب فى وفد من آله وأقربائه، أم أنه أراد أن يستغل محبة «محمد» له، فذهب وحده لمقابلته، ولكنا نشعر أن «محمدا» لا بد أن يكون قد رحب به أجمل ترحيب، واستجاب له أكمل استجابة فزوجه كبرى بناته «زينب» وكانت قد جاوزت التاسعة من عمرها ببضعة شهور وذلك فى العام السابق لنزول الوحى.

وتغمر السعادة «خديجة» حتى تنسى كل همومها وأحزانها، فتأمر الجوارى بدق الدفوف، وتحمل الريح مع صوت الطبول نبأ زواج «أبى العاص بن الربيع» ابن أخت «خديجة» «بزينب» بنت «محمد بن عبد الله الهاشمى»، ويصبح الخبر حديث القوم فى كل المنتديات والبيوت. ويرى أكثر رجال قريش «أبا العاص بن الربيع» من خير شبان «مكة» ومن أكثرهم همة وأمانة وشرفا، وأنه جدير برضا «محمد»، وكفء لابنته «زينب»، ولكن أغلب فتيان بنى هاشم كانوا يرون أن «أبا العاص» ليس أحق من شبان «بنى هاشم» بزواج «زينب»، فإن أبناء العم فى عرفهم وفى عرف العرب أحق ببنات أعمامهم، وأن «زينب» كانت ما تزال

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٦٥١، والطبرى جـ٢ ص٤٦٧، وابن عبد البر والاستيعاب فى ترجمة زينب وترجمة أبى العاص، وابن حجر: الإصابة فى ترجمة زينب وترجمة أبى العاص.

صغيرة، ولكنه اغتنم الفرصة ونالها قبلهم، وكان ذلك فى نظرهم بتدبير من خالته «خديجة».

وتنزيد فرحة «خديجة» وهى تراجع نفسها، وتحاسبها فتشعر أنها قد نجحت فى التخطيط لزواج أكبر بناتها من «محمد» نجاحا استراح له ضميرها، واطمأن له بالها، وأنها ضربت بذلك للأمهات أحسن الأمثال، فإن عليهن أن يعملن على ضمان إسعاد بناتهن، فيفكرن فى إعداد الزوج المناسب الذى يستطيع أن يملأ حياة بناتهن بالبهجة والسعادة، وأن يعتمدن فى هذا الاختيار على وزن الأمور بالحكمة والتفكير المتئد الذى لا يشوبه التسرع، وألا يسمحن للعاطفة أن تسيطر على هذا الاختيار، فإنها لم تنتخب هذا الزوج لأنها تحبه أو لأنه ابن اختها فقط، ولم يكن الباعث لها على هذا الاختيار هو كثرة ماله، ولكن كان أهم عنصر بنت عليه رأيها هو الخلق الكريم الذى امتاز به وجعل الناس فى «مكة» يحبونه ويحترمونه، ولم يكن المال وحب الخالة إلا عاملا مساعدا.

ويُعجِّل «أبو العاص» فى طلب الإسراع بالزفاف، ويستجيب له «محمد»، وتزداد فرحة «خديجة»، ويأخذون جميعا فى الإعداد لهذا اليوم الموعود. وتهدى «خديجة» لابنتها «زينب»، من بين ما أهدت، قلادة كانت تتزين بها، وكانت تؤثرها على غيرها مما كانت تقتنيه من وسائل الزينة لأن «محمدا» كان يعجب بها، وتوصى ابنتها أن تحرص عليها. وقد شاء الله سبحانه أن يكون لهذه القلادة شأن فى حياة «زينب»، وفى حياة زوجها «أبى العاص»، وصار لها ذكر فى التاريخ الإسلامى بما يشهد للمسلمين ونبيِّهم صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على الود، والحرص على الوفاء مهما طال الزمن، ونحن نستميح القارئ فى أن نخرج عن التخطيط الذى رسمناه لهذا البحث فترة قصيرة، لنذكر فى إيجاز خبر تلك القلادة التى حرص المؤرخون على ذكرها، فإن التاريخ يروى أن «أبا العاص» وقع أسيرا فى أيدى المسلمين فى غزوة بدر الكبرى، وأن النبى صلى الله عليه وسلم، قبل الفداء فى الأسرى، فأرسلت «زينب بنت محمد» — وكانت لا تزال بمكة

عند زوجها ــ أرسلت مع شقيق زوجها مايفتدى به أخاه، وكان من بين ما أرسلت هذه القلادة، فما كاد يراها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى حَنّ لذكرى «خديجة»، أول من أسلم، وأول أم للمسلمين، فقد تذكر زوجته المخلصة التي وهبته كل شيء، وأسبغت عليه حنانها وعطفها، وآزرته وثبتته وكانت أول وزيرة له، ونتم القصة بما روته السيدة «عائشة أم المؤمنين» عن هذه القلادة حيث قالت: «فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم، رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها، فأفعلوا».

وكان ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتة كريمة لم يفت مغزاها على أصحابه الكرام، فهو لم يستعمل صيغة الأمر فى مخاطبتهم فى الوقت الذى أظهر فيه ما هو أهل له من الكرم والوفاء، وبلغ من تأثرهم أن قالوا فى صوت واحد: «نعم يارسول الله»، فأطلقوا سراحه دون حاجة إلى فداء وردوا على زينب مالها وقلادتها [1]، فكانوا بهذا الصنيع خير تلاميذ لخير معلم وأفضل مؤدب. وقد كان لهذا الصنيع أثره فى نفس «أبى العاص»، فلما وصل إلى مكة جهز زوجته «زينب» للسفر، وطلب إليها أن تلحق بأبيها فى يثرب، وهكذا فإن النفوس الكريمة تقابل الجميل بمثله، والصنيع الحسن بالوفاء لفاعله، وقد اضطررنا إلى ذكر هذا الخبر عن هذا التاريخ العاطر، فالحديث ذو شجون، ولكنا اختصرناه أشد الاختصار حتى لا نبعد كثيرا عن التحدث فى الموضوع الذى نحن بصدده.

وترقب «خديجة» ابنتها «زينب» بعد زفافها بعين ساهرة يراودها قليل من القلق، ولكن رعاية «أبى العاص» لها كانت عظيمة، وشفقته بها كانت تظل منزلها، وأخذ حبه لها ينمو ويزداد يوما بعد يوم، حتى إنه كان إذا اضطر إلى السفر والغياب عنها لرعاية أمور تجارته، يشتد حنينه إليها، ويكثر هيامه بها ويعبّر عن مشاعره الفياضة بما يُلْهَم به من الشعر الذى

(١) قصة زواج أبى العاص من زينب، وقصة القلادة واردة فى أكثر كتب السيرة وكتب التراجم وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص٦٥١ ــ ٦٥٣ والطبرى: جـ٢ ص٤٦٧ ــ ٤٦٩.

ينظمه في حبها ، وشاع هذا الشعر وذاع بين أهله وأصدقائه ، ومن ذلك ما أثر عنه في سفر إلى الشام حيث قال :[1]

ذكرت «زينب» لما أدركت إرما ... فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة ... وكل بعل سيثني بالذي علما

ولم تمض بضعة أشهر على هذا الزواج السعيد ، حتى ظهرت أولى ثماره ، فقد أخذت «زينب» تشعر بأعراض غريبة ومتاعب لم تألفها من قبل ، فخشيت أن تكون بها علة أومرض مفاجيء ، ولكن أمها طمأنتها ، وزفت إليها البشرى بحمل بدأ يدب في حناياها فيتهلل وجهها سرورا وبشرا ، وتهرع إلى زوجها «أبي العاص» لتزف إليه البشرى في خفر وحياء ، فيكاد يطير من الفرحة .

* * *

وما كادت «خديجة» تستريح من عناء ما بذلت من الجهود أثناء الاحتفال بزفاف «زينب» ، حتى فوجئت ذات يوم بوفد من «بني هاشم» جاء لزيارتهم على غير موعد سابق ، وكان على رأسهم «أبو لهب ابن عبد المطلب» ، ولم يكن «أبو لهب» يفد عليهم إلا نادراً على الرغم من أن داره كانت تجاور دارهم ، فأسرع «محمد» إلى الترحيب بعمة ومن جاء معه . وتبدأ الأفكار تتوارد على «خديجة» وهي تسائل نفسها : ما سر هذه الزيارة المفاجئة ؟ ولِمَ اصطحب «أبو لهب» معه هذا الوفد الكبير؟ وطالت جلسة الضيوف ثم دخل «محمد» إلى «خديجة» فأنبأها أن عمه «أبا لهب» وهذا الوفد الهاشمي قد جاءوا ليخطبوا «رقية» وأختها «أم كلثوم» إلى «عتبة» و«عتيبة» ، وهما أكبر أولاد «أبي لهب» . ويسكت «محمد» برهة وهو يتطلع إلى وجه زوجته ثم يقول إنه لا يرى مانعا من عقد هذا الزواج ، فالشابان من أكفأ فتية قريش ، وهما من أحق «بني هاشم» بزواجهما ، ولكن «محمدا» قال إنه لن يقطع في الأمر دون أخذ رأي البنتين ، لأن من حقهما

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ، ترجمة زينب .

عليه أن يختارا فلا يتم من ذلك شيء تكرهانه ، ثم طلب إلى «خديجة» أن تتبسط معهما ، وتسألهما عن رأيهما .

وتتزاحم الأفكار بسرعة على مخيلة «خديجة» وهى فى طريقها إلى البنتين ، فتحدث نفسها وكأنها تتساءل : علام هذه العجلة والفتاتان صغيرتان ، فإن «رقية» كانت قد قاربت السابعة من عمرها ، أما «أم كلثوم» فإنها كانت قد بلغت السادسة ؟ (١) . إن «أبا لهب» هو عم «محمد» ، وله عليه حقوق ، وهو من أغنى «بنى هاشم» ، ولكن زوجته «أم جميل» امرأة متعجرفة تفرض سلطانها عليه وعلى أولادها جميعا ، ولعلها هى التى أشارت بالسعى لهذا النسب أملا فى السيطرة على بيت «محمد» ! أما «عتبة» و«عتيبة» فإنها لا عيب فيهما ، ولكن سلطان أمهما وسيطرتها يخيمان عليهما فليس لهما بجوار رأيها رأى ، فما الحيلة ؟ و«أم جميل» ، فوق ذلك ، امرأة حادة المزاج ، سريعة الغضب والانفعال ، سليطة اللسان ، فماذا تصنع « خديجة » ؟ .

وتجلس «خديجة» مع البنتين وتحاول أن تدللهما ثم تطلعهما على جلية الخبر ، فتتفاجآن بهذه الخطبة التى لم تخطر لهما على بال من قبل ، فيعم الوجوم ويخيم على ثلاثتهن السكون فترة ، فماذا كان يدور فى تفكير البنتيت ؟

أما «رقية» فلا شك أنها كانت تعرف «عتبة بن أبى لهب» ، فقد كانت تراه أحيانا بحكم الجوار وكانت فتيات قريش غير محجبات ، ولم تعلم فيه عيبا ، ولكنها فى الوقت ذاته لم تعرف له ميزة تميزه عن أمثاله من شبان «بنى هاشم» . لقد كانت تتجنب «أم جميل» وأولادها وتتفادى الاتصال بهم ، فماذا سيكون حالها مع «أم جميل» ؟ إنها بلا شك ستكون فى حماية أبيها ولذلك فإنها تفوض أمرها إليه راضية بما تدبره لها السماء . أما

---

(١) ذكر ابن عبد البر فى ترجمة رقية فى الاستيعاب أنها ولدت والرسول صلى الله عليه وسلم فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وأن أختها أم كلثوم كانت أصغر منها بعام واحد ، ومن المتفق عليه أن عقد زواج البنتين تم قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنها لم تزفا قط إلى أولاد أبى لهب .

«أم كلثوم» فإنها كانت طفلة لا تستطيع أن تقطع فى مثل هذا الأمر بشىء، وكل ما تدريه أن بنات قريش كلهن يتزوجن، وأن الآباء يدبرون أمر هذا الزواج، فإذا دبر لها أبوها زوجا فإنها ستتزوج كما تتزوج مثيلاتها من بنات «بنى هاشم».

وتعيد «خديجة» السؤال على «رقية»، فتسكت برهة أخرى ثم تجيب وقد هدأت نفسها بعض الشيء، وذهب عنها الوجوم الذى لحقها من أثر المفاجأة غير المنتظرة، فتقول، إن الأمر كله بيد أبيها يبرم فيه بما يشاء ويختار، وتسأل «خديجة» «أم كلثوم» فتسكت «البنية حياء وخجلا» وهى لا تدرى إن كانت سعيدة أم لا، ثم تقول فى سذاجة الأطفال إن أباها سيحميها من «أم جميل»، وتسأل فى براءة: أليس كذلك؟ وإنها ستكون مع «رقية» فى بيت واحد، ثم تعود وتسأل: أليس كذلك؟ وتذهب «خديجة» بخطى متثاقلة، إلى زوجها وتقول وهى ساهمة: إن البنتين توكلان أمرهما إليك تبرم فيه ما تشاء، والسماء تسأل أن ترعاهما وتحفظهما فيعود «محمد» إلى ضيوفه ويزوج «رقية» إلى «عتبة بن أبى لهب»، و«أم كلثوم» إلى شقيقه «عتيبة»، وتقدم للزائرين التحية المناسبة.

لقد فوجئت «خديجة» بأمر هذا الزواج المبكر الذى لم يخطر لها على بال من قبل، ولكن زوجها «محمدا» قد أبرمه فليس لها أن تعترض على ما أنجز، فإنها كانت تعتمد فى كراهيتها إتمام هذا الزواج على ما كانت تعرفه من حماقة «أم جميل» وما جبلت عليه من حب السيطرة على الغير[1]؛ ولكنها كانت تؤمن أن عناية السماء التى طالما حمتها هى وزوجها من كل مكروه، وجنبتها الكثير من المتاعب، سوف ترعى «محمدا» وبناته، وتحميهم من كل شر، فالسماء وحدها هى منبع كل نعمة وكل خير. وبمثل هذا التفكير انقشعت سحابة الحيرة والقلق التى خيمت على «خديجة» وبنتيها،

(١) اعتمدنا عند وصفنا لأم جميل على ما وصفها به المؤرخون وكتاب السيرة أنظر ابن هشام: السيرة وكذلك الطبرى: التاريخ.

وعاد إلى البنات الثلاث مرحهن، ولا شك أنهن كن يستقبلن بعد ذلك «عتبة وعتيبة» عند زيارتها للأسرة استقبالا يليق بما يجب أن يفعله بنات «محمد» من «خديجة»، وأن الأسرة كلها كانت ترحب بهما، وبهذا كانت «خديجة» مثلا صالحا فى احترام الزوجة لزوجها والرجوع إلى الحق، وعدم التمادى فى الانسياق وراء العاطفة.

وعادت حياة «خديجة» وبناتها إلى سيرتها الأولى، فهى مشغولة بالعناية بأمور زوجها وأولادها جميعا، منصرفة إلى تدريب «رقية» و«أم كلثوم» على النهوض بتدبير أمور المنزل، ثم يمرحن جميعا إذا فرغن من أعمالهن، وقد يذهبن لزيارة «زينب» فى بيتها، أوقد تأتى «زينب» لزيارة منزل أبيها فتنصرف الأسرة كلها إلى السمر بعد عودة «محمد» من عمله، فيروحون عن أنفسهم، وينهلون من السعادة ما شاء الله لهم أن ينهلوا حتى إذا تقدم الليل انصرفوا إلى مخادعهم وقد رضيت نفوسهم وطاب عيشهم، وهذا هو ما أوصى به الرسول الكريم أمته فى حديثه الشريف رغبة منه فى تعليمهم كيف يُسعدون أنفسهم بأنفسهم حيث قال: «روّحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة... فإن القلوب إذا كلت عميت» (١)

* * *

واقترب شهر رمضان، وهو الشهر الذى اعتاد «محمد» الحبيب أن يقصد فيه إلى غار حراء، فأخذت «خديجة» تفكر فى إعداد ما يجب أن تعده حتى تضمن له الراحة والهدوء، ولكنها تفاجأ بأن «محمداً» قد حبب إليه الخلوة، وأنه عزم على المبادرة بالخروج إلى الخلاء قبل الموعد المعتاد، وخرج إلى حيث يسبح فى أفكاره ويتأمل فى ملكوت الله ليالى كثيرة العدد قبل أن يرجع إلى «خديجة» فيتزود بما هو فى حاجة إليه ثم يعود ثانية إلى غار حراء (٢)، وبينما كان يسير يوما عند أجياد مفكراً فيما خلق الله، مؤمنا

---

(١) انظر سمر الرسول مع زوجاته فى السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين لمحب الدين الطبرى، الطبعة الثانية، مكتبة التراث الإسلامى بحلب، ص١٠.

(١) متفق عليه.

بقدرته وعظمته، إذ رأى ملكا واضعا إحدى رجليه على الأخرى فى أفق السماء يصيح : «يا محمد أنا جبريل! يا محمد، أنا جبريل»(١) فذعر «محمد»، وكان كلما رفع رأسه إلى السماء يرى الملك فى هذا الوضع، فازداد فزعه، ورجع مسرعا إلى «خديجة» فأخبرها الخبر وقال: «يا خديجة والله ما أبغضت بغض هذه الاصنام شيئا ولا الكهان، وإنى لأخشى أن أكون كاهنا». قالت : «كلا يا ابن عم لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وإن خلقك لكريم»(٢).

وانطلقت «خديجة» إلى «ورقة ابن نوفل»، وأخبرته ما أخبرها به «محمد»، ففرح فرحا عظيما، وتهلل وجهه مستبشرا وقال: «والله إن ابن عمك لصادق، وإن هذا لبدء نبوة، وأنه ليأتيه الناموس الأكبر، فريه أن لا يجعل فى نفسه إلا خيراً». فاطمأنت «خديجة»، ولا شك أنها أخبرت «محمدا» بذلك فهدأت نفسه. وكان إذا نام يرى الرؤيا الصادقة، حتى إذا استيقظ حدث كل ما رآه فى منامه، وجاء مطابقا لأحلامه(٣)، فازدادت ثقته بنفسه، ولكنه كان إذا عاد إلى الخلاء مفكرا متعبدا سمع أصواتا، فأنكرها، وكان إذا سار فى الظلام رأى نورا، فعادت إليه الظنون، وظن أن ما يراه وما يسمعه ليس من الحقيقة فى شىء، بل هى أوهام أوضرب من الجنون، فقال: «يا خديجة، إنى أسمع صوتا، وأرى ضوءا، وإنى أخشى أن يكون بى جنن» فقالت : «لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله»(٤) ومازالت به تطمئنه وتسرى عنه، حتى سكن جأشه وهدأ باله.

وبينما كانت علامات النبوة وبشائرها قبل نزول الوحى تترى، كان أكثر

---

(١) الطبقات الكبرى جـ١ القسم الأول ص١٢٩ ــ ١٣٠. وأجياد ضاحية من ضواحى مكة.

(٢) المرجع السابق.

(٣) عن عائشة أم المؤمنين، وقد ورد فى أغلب المراجع انظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٣٤ والطبرى: التاريخ جـ٢ ص٢٩٨.

(٤) ورد فى كثير من المراجع وانظر الطبقات الكبرى جـ١ القسم الأول، ص١٣٠.

قريش منصرفين إلى لهوهم ومجونهم، مقبلين على الاستمتاع بملذاتهم غير آبهين إلا إلى المحافظة على العادات التى ابتدعها لهم أجدادهم، فكانوا يقبلون على تقديم القرابين إلى الأصنام المرصوصة حول الكعبة وفوقها فى مواسم الاحتفال بأعياد كل منها، فإذا نزلت ببعضهم نازلة تقربوا إليها طالبين منها العون، ومقدمين لها فى مقابل ذلك القرابين كل على قدر ثروته حتى ترضى عنهم، وتستجيب لهم، فمنهم من ينحر جزورا، ومنهم من يذبح بقرة، ومنهم من يقدم بين يديها شاة أوعنزاً، ومنهم من يكثر من القرابين والذبائح، فهم يسجدون لها، ويتضرعون إليها فى الملمات كما فعل آباؤهم وأجدادهم من قبل، ولم يخطر على بال أحد منهم أن هذه الأصنام ليست إلا حجارة نحتها أولئك الأجداد، ثم أطلقوا على كل صنم منها اسما اخترعوه من عند أنفسهم أونقلوه عن بعض جيرانهم من الأمم التى كانت غارقة فى عبادة الأوثان، فهى حجارة لا تسمع ولا تضر ولا تنفع.

ودخل شهر رمضان، فى العام الخامس من بناء الكعبة ومولد «فاطمة الزهراء»، فخرج «محمد» إلى غار حراء كما كان يفعل كل عام، ومعه أهله[1]، وكان يسير وحده بين شعاب مكة وبطون أوديتها[2]، مفكرا فى عظمة الله سبحانه، وفى عظيم قدرته، متأملا جمال ما صنع، وجلال ما خلق، لاجئا إلى غار حراء إذا اشتد الحر وحميت الهاجرة، حتى إذا كانت الليلة المباركة التى أرادت العناية الإلهية أن ترحم فيها عباده، وتكرم نبيه، سمع صوتا قويا يجلجل مناديا إياه وكأنه آت من قمة الغار، وإذا بشخص مهيب يملأ الغار وقد أحاطت به هالة من نور ساطع وهو يقول: «يا محمد أنت رسول الله»، فجثا «محمد» على ركبتيه وهو يرتجف ارتجافا شديدا من هول المفاجأة[3]، ثم ناداه ثانية وهو يقول: «يا محمد، أنا «جبريل» وأنت رسول الله». ثم قدم له كتابا ملفوفا فى قماش من حرير وقال:

---

(١) متفق عليه فى كل المصادر. انظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٣٦.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٣٤.

(٣) الطبرى: التاريخ جـ٢ ص٢٩٨.

«اقرأ» فرد «محمد» قائلا: «ما أنا بقارئ»[1]، فضمه «جبريل» إليه ضما شديدا وكأنه يعصره عصرا ثم تركه وقال: «اقرأ»، فرد عليه ثانية بقوله: «ما أنا بقارئ»، فحضنه جبريل للمرة الثانية، وضمه بقوة شديدة أتعبته ونال منه الجهد حتى ظن أنه الموت ثم قال له: «اقرأ»، فخاف «محمد» أن يعود «جبريل» إلى ضمه مرة أخرى فقال: «ماذا أقرأ؟» فأخذه «جبريل» وضمه إليه ثالثة كما فعل فى المرات السابقة حتى كادت روحه تزهق ثم قال له:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [2]

فقرأها «محمد» وكأنها نقشت بحروف من نور على قلبه[3].

أحب «محمد بن عبد الله» الخلوة والتأمل مثل أبيه «إبراهيم» الذى أقبل على التفكير فى ملكوت السموات والأرض، واستغرق فى تأملاته، فسمت روحه، وصفت نفسه، وأنار الله بصيرته، فأبت فطرته السليمة أن يعبد مايعبد الناس حوله من دون الله. وطال تأمل إبراهيم وتفكيره، فلما استعصى عليه الأمر وطالت حيرته لجأ إلى الخلاق العظيم وتضرع إليه طالباً التوفيق والهداية وهو يقول:

﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [4]

---

(١) المعنى هو: أننى لا أعرف القراءة.

(٢) سورة العلق: الآيات ١ ــ ٤.

(٣) ذكرت كل كتب السيرة والتراجم والتاريخ مبعث الرسول، وعنى بعضها بسرد كل ما استطاع جمعه من روايات الصحابة والتابعين، واختصر البعض الآخر هذه الروايات أو أعتمد على بعضها دون الآخر، وقد استرشدنا هنا بأهم كتب السيرة والتاريخ الإسلامى وبخاصة: سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٣٦ ــ ٢٣٩، وبالطبرى: التاريخ جـ٢ ص٢٩٨ ــ ٣٠٣، وبابن عبدالبر: الدرر ص٣٠ ــ ٣٧.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٧٧.

فتداركته رحمة الله، وهداه إلى صراطه المستقيم، وجعله للناس إماماً.

ولما اطمأنت نفس «إبراهيم» لحلاوة الإيمان بالله الواحد الأحد طمع في أن يهتدى قومه من بعده إلى السعادة الأبدية، فابتهل إلى مولاه أن يجعل من ذريته أئمة يهدون الناس إلى الله، ويدعونهم إلى الخير، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فأكرمه المولى عز وجل واستجاب لدعائه. ولما عهد الله سبحانه إلى «إبراهيم» وابنه «إسماعيل» أن يطهرا بيته بمكة للطائفين والعاكفين والركع السجود (١)، تضرع أبوالأنبياء إلى ربه أن يجعل هذه القرية بلداً آمناً وأن يرزق أهلها من الثمرات (٢)، ودعا هو وابنه «إسماعيل» قائلين:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣)

كذلك هدى الله «محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم» إلى سلوك الطريق الذى هدى إليه أباه «إبراهيم»، فسار على المنهج الذى سلكه أبوالأنبياء من قبل، وأبت عليه فطرته أن يسجد لغير الله كما كان يفعل الناس من حوله، وحبب الله إليه الخلوة والاستغراق فى التفكير والتأمل فى السموات والأرض وما بينهما وما فيهن، وأخلص وهو يضرع إلى الخلاق العظيم أن يهديه ويرشده، وطال تأمله، وشعر بالحيرة وهو يتلهف على معرفة الدين الحق حتى يعبد ربه على المنهج الصحيح، إلى أن شملته العناية الربانية بعطفها فى تلك الليلة المباركة، ومنّ الإله الواحد عليه بكرمه فهداه إلى ما هدى إليه أباه «إبراهيم» من قبل، وملأ قلبه بحلاوة الإيمان بالله الخلاق العظيم، وأشرقت عليه أنوار النبوة، فاجتباه ربه واصطفاه وحمّله الرسالة الكبرى إلى الناس كافة شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعله للناس إماماً، وللأنبياء والمرسلين خاتماً، وبذلك

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٦.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

حققت العناية الربانية فى تلك الليلة المباركة دعوة أبى الأنبياء «إبراهيم» وضراعته إلى مولاه بقوله:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١)

وكانت خديجة تنتظر عودة زوجها بفارغ الصبر، فلما طال غيابه أخذت تفزعها الهواجس، ولم تطق على ذلك صبراً، فأرسلت رسلها فى طلبه، فلم يعثروا عليه، وظنوا أنه قد ذهب إلى «مكة» ليطوف بالبيت، فهرعوا إلى هناك، و«خديجة» على أحر من الجمر، وعادوا أدراجهم قائلين إنهم لم يجدوا له هناك أثراً (٢)، وإذا به عائد إليها شاحب الوجه ينتفض جميع جسمه من الفزع وهو يقول: «دثرونى. دثرونى» (٣). فتسرع «خديجة» إليه وتضمه إلى صدرها فى رفق، وهى تقول بصوتها الحنون: «أين كنت يا أبا القاسم»؟ ويأنس إليها فيذهب بعض ما به من فزع وهو يقول إن ما حل به هو وهم وخيال مما يعرض للشعراء، أو ضرب من الجنون، فتضمه ثانية مشفقة وهى تقول فى ثقة وهدوء: «كلا! أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم. ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك، وعظيم أمانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك! وما ذلك يا ابن عم؟ لعلك رأيت شيئاً؟» ويبث صوتها الواثق فى نفسه الطمأنينة فيسكن بعض ما أفزعه ويقول: «نعم!» ثم أخذ يحدثها حديث هبوط «جبريل» وقوله له «اقرأ» ثم ضمه له أكثر من مرة ضماً ظن أن فيه الموت، وانطباع هذا الكلام فى قلبه وكأنه نقش فيه أو كتب عليه.

ويزحف عليه الوجوم ثانية فيتغير لون وجهه، ويسيل منه العرق، فأخذت «خديجة» تغمره بحنانها حتى هدأ عنه الروع، فتقول له: «فلم تأخرت

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٣٧ـ٣٣٨.

(٣) الطبرى: التاريخ جـ٢ ص٢٩٨.

يا أبا القاسم » ؟ فيجب قائلاً : « خرجت(١)، حتى إذا كنت فى وسط من الجبل، سمعت صوتاً آتياً من السماء يقول : يا « محمد » ، أنت رسول الله وأنا « جبريل » ! ؛ فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا « جبريل » فى صورة رجل صافٍ قدميه فى أفق السماء يقول : « يا محمد » أنت رسول الله وأنا « جبريل » ؛ فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصْرِف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك»(٢). وذكر لها أنه ظل واقفاً فى مكانه لا يبرحه حتى انصرف الملك فعاد هو راجعاً إليهم؛ ثم قال إنه أشفق على نفسه ألا يقوى على مقاومة هذا الأمر، ولا يقدر على حمل أعباء الوحى فتزهق نفسه(٣).

ويظهر البِشْر على وجه « خديجة » وهى تطمئنه أن من كان متصفاً بصفات الخير مثله لا يخزيه الله أبداً، ثم ذكرت له بعض صفاته وسجاياه الحسنة التى كان يتحلى بها ، ومما يؤثر عنها أنها قالت له : (٤) « أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل(٥) وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق » (٦)، وعندئذ يسكن جأشه قليلاً، ولكنه يعود فيتذكر ما حدث له تلك الليلة ، فتتملكه الرعشة، ويهتز هزاً عنيفاً ، فيعود إلى قوله : « زملونى، زملونى ! » فتسحب « خديجة » عليه الغطاء، وما زالت به وهى تسَرّى عنه حتى أغرق فى نوم عميق.

وقامت الزوجة المخلصة على الفور، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت قاصدة

---

(١) المقصود أنه خرج من الغار.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص٢٣٧؛ والطبرى: التاريخ: جـ٢ ص٣٠١.

(٣) تفسير الأمانى فى شرح الفتح الربانى.

(٤) الطبرى: التاريخ جـ٢ ص٢٩٨ ــ ٢٩٩ وسير أعلام النبلاء جـ٢ فى ترجمة خديجة.

(٥) إنك تعطى صاحب العيال ما يريحه من ثقل مؤونة عياله.

(٦) تعين من نصيبه نائبة من نوائب الدهر.

بيت ابن عمها «ورقة بن نوفل»(1) وكان قد تقدمت به السن، وأصبح شيخاً هرماً، وفقد بصره، فاستقبلها استقبالاً كريماً، فلما قصت علية القصص، انفرجت أسارير وجهه، وظهر عليه البشر والابتهاج ولم يتمالك نفسه فاستجمع قواه وهب واقفاً على قدميه وهو يقول: «قدوس قدوس(2)! لئن كنت قد صدقتيني «يا خديجة» لقد جاءه الناموس(3) الأكبر الذى كان يأتى «موسى»، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت»(4).

وتعود «خديجة» مسرعة، فإذا استيقظ الرسول غمرته بعطفها، وأخذت تسرد عليه ما أنبأها به ابن عمها «ورقة»، فسرّى ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم(5)، وتدرك الزوجة الوفية ذلك على الفور فتقول ما معناه: «نعم لقد أكد لى أنك رسول الله إلى هذه الأمة، فأثبت يا رسول الله!» ويظهر البشر على وجهه فتقول ثانية: نعم! أنت رسول الله!؛ بأبى أنت وأمى أنت يا رسول الله إنى أصدقك، وأومن بالله وبك رسولاً» فينشرح صدره، وينظر إليها شاكراً؛ فقد آنست من وحشته، وأذهبت عنه بعض ما به من وجل فاشتدت عزيمته. وهكذا كانت «خديجة» أول من آمن به، ووقفت إلى جواره، تهون عليه الأمر، وتذلل أمامه كل صعب، وما وهنت من أول يوم من أيام رسالته، وما ضعفت، وكان يقص عليها كل أخباره، ويشاورها فى كل أموره فكانت أول وزيرة له(6).

وتتلطف «خديجة» فتقول له: «هيا بنا يا رسول الله إلى ابن عمى «ورقة ابن نوفل» لتسمع بنفسك حديث الكتب المنزلة»، فتطيب نفسه، حتى إذا استأذنا عليه وجداه فى انتظارهما وكأنهما كانا على موعد سابق معه، ويرحب بهما أكرم ترحيب، ويستمع من «محمد» تفاصيل ما وقع له،

---

(1) متفق عليه، وانظر ابن هشام: السيرة جـ1 ص238.
(2) من تقديس الله سبحانه: أى أن الله مقدس طاهر.
(3) أى جاءه الملك الأعظم.
(4) ابن هشام: السيرة، جـ1 ص238 والطبرى: التاريخ جـ1 ص302.
(5) الطبرى: المرجع السابق.
(6) متفق عليه فى جميع المصادر؛ وانظر المرجعين السابقين.

فيبتهج «ورقة» وكأنه كان يسمع لحناً موسيقياً عذباً هابطاً من السماء، ويشعر بنشوة حلوة لم يشعر بمثلها من قبل إلا أيام شبابه، ويؤكد لهما أن ما هبط على «محمد» هو كبير الملائكة الذى أنزله الله من قبل على «موسى»، وأن الشيطان لا يمكن أن يظهر على هيئة «جبريل»، ويشد من عزيمة النبى، ويدعوه إلى الثبات بعزم الأنبياء، وإلى تحمل عداوة قومه ومحاربتهم له حتى يخرجوه من «مكة»، فيتعجب «محمد» من كلامه ويسأله فى لهفة: «أو مخرجىّ هم؟» فيبتسم ورقة ويشجعه ويقول له إن كل الأنبياء الّذين أرسلوا قبله آذاهم قومهم، ثم يعده أن يهبّ لمناصرته إذا امتد به العمر حتى ذلك اليوم.

وجدير بنا أن نقتبس فى هذا المقام بعض ما ورد إلينا من ذلك الحوار التاريخى الذى رواه لنا الكثيرون من الرواة والمحدثين المشهود لهم بتوخى الدقة، معتمدين فى ذلك على رواية الحافظ ابن عبدالبر: قالت «خديجة»: أى ابن عمى، اسمع من ابن أخيك. فقال «ورقة بن نوفل»: يا ابن أخى ما ترى (١)؟ فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بما رأى. فقال «ورقة»: هذا الناموس الذى نزل على «موسى»، يا ليتنى أكون فيها حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجىّ هم؟ فقال «ورقة بن نوفل»: نعم! إنه لم يأت أحد بما جئت به إلا عودى وأوذى. وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً (٢)، ولم يلبث «ورقة» أن أدركه الموت بعد ذلك بقليل.

وتطيب نفس النبى صلى الله عليه وسلم وقد زاده قول «ورقة» ثباتاً، كما تطيب نفس «خديجة»، ويعودان إلى منزلهما، حيث تبذل قصارى جهدها لتدخل السرور إلى نفسه، وتسرى عنه، ولكنه كان غارقاً فى تأملاته، تجول بفكره الخواطر، وكأنه كان يستعرض كل ما مر به من أحداث عظيمة منذ الليلة الماضية، فهو يذكر أن «جبريل» قال له مراراً:

---

(١) فى البخارى ومسلم: ماذا ترى.

(٢) الدرر فى اختصار المغازى والسير ص ٣٤ ــ ٣٥.

« يا محمد » ، أنت رسول الله ، وأنا « جبريل » فهذه هى الرسالة الإلهية الكبرى التى نزل بها إليه الناموس الأكبر، كما أسماه « ورقة » ، وهو الذى أنزله الله على الأنبياء والرسل من قبل ، لقد أبلغه أول ما أنزل الله عليه من كلامه العزيز، يأمره بالقراءة فهى مفتاح طلب العلم والحكمة ، وأن تكون هذه القراءة باسم الله وفى طاعته ، فالله هو مصدر العلم والمعرفة ، ثم أمره ان يذكر للناس أن الله هو الخلاق العظيم خالق كل شىء ، وأن أشرف ما خلق هو الإنسان ، خلقه من أصل ضعيف هو العلق ، ثم عاد فكرر له الأمر بالقراءة والكتابة تأكيداً منه سبحانه على ضرورة المداومة عليها ، فهى الوسيلة التى هدى الله الإنسان إليها ليدوّن بها كافة العلوم التى يعلّمها الله للناس كرماً منه ورحمة ، وبوساطتها يجمع الإنسان شتات تلك العلوم ويدوّنها حتى يمكن الرجوع إليها فيعيد دراستها والتفكير فيها ، وبذلك يوفقه الله إلى استنباط العلوم والمعارف الجديدة ، وهكذا أبان له « جبريل » أن الله لم يترك الإنسان دون إرشاد ، ولكنه أكرمه وعلّمه بالقلم ما لم يكن يعلم . ما أحلى هذه الآيات الكريمة وما أبلغها ! وما أكبر ما تحمل من معان سامية على قصرها (١) ! سبحانك اللهم ! لقد أرسل الله الأنبياء من قبل هدى للناس ورحمة ، فلماذا عاداهم الناس ولماذا آذوهم ؟ ولماذا يعاديه قومه ويخرجونه من هذه القرية التى أحبها وأحب جوار بيت الله فيها ؟ أيكون ذلك من أجل أحجار نحتوها ثم عبدوها من دون الله ؟

وتدرك « خديجة » ما يجول بفكره من الخواطر، فتأخذ بيده وتتجه نحو المكان الذى اعتاد أن يضطجع فيه وهى تقول ما معناه : « لقد بعثك الله بالحق بشيراً ونذيراً ، والله سيحميك وينصرك حتى تؤدى رسالته ، فنم يا رسول الله ، وخذ حظك من الراحة فى هذه القيلولة » .

واستيقظ « محمد صلى الله عليه وسلم » وقد لبس ثوب العافية والرضا ، فذهب إلى الكعبة واطّوف بها ، ثم خرج إلى الخلاء وسار ما شاء الله له أن يسير وهو يدعو الله ويتعبد له حتى كاد النهار ينصرم ، وسمع صوتا يناديه ،

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ٨ ص٢٨٧ .

فنظر عن يمينه وعن شماله فلم ير أحدا، وعاد المنادى يناديه فنظر خلفه وقدامه فلم ير شيئا، واستمر الصوت فى النداء وكأنه آت من السماء فنظر فوق رأسه فإذا هو الملاك الذى هبط عليه فى الليلة الماضية، جالسا على كرسى بين السماء والأرض، فخاف منه وارتعب (١)، وعاد مسرعا إلى منزله والفزع مايزال مستوليا عليه وهو يقول: «زملونى! دثرونى!» وأسرعت إليه «خديجة» تغطيه وتحاول أن تهدئه، ولكن وجهه كان يزداد شحوبا وامتقاعا، وكان العرق يتصبب من جبينه، وزاد به الكرب (٢) فأخذ يحرك شفتيه وكأنه كان يقول شيئا (٣)، فذعرت «خديجة»، ولكنها ملكت نفسها، ثم أخذ الرسول يهدأ رويدا رويدا حتى زال ماحلّ به، فقص عليها أنه رأى الملك الذى جاءه بحراء، ففزع منه حتى هوى على الأرض (٤) وهرع إلى منزله، فلما دثرته خديجة سمع صوتا مثل صلصلة الجرس، ثم أتاه «جبريل» فأنزل عليه آيات حفظها عن ظهر قلب. وترفقت به «خديجة» وسألته عما أنزل الله إلى نبيه فقال:

«بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ (٥)

ونزلت هذه الآيات على قلب نبى الله وقلب زوجته المخلصة برداً وسلاماً، فقد سبق أن أنزل الله عليه فى الغار آيات كريمة يخبره أنه قد

---

(١) ابن عبد البر: الدرر ص٣٧.

(٢) هكذا وصف نزول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ما روى بعضه عن أم المؤمنين عائشة وانظر: ابن سعد: الطبقات جـ١ القسم الأول عند ذكر شدة نزول الوحى ص١٣١ ــ ١٣٢.

(٣) روى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحرك شفتيه فى بداية نزول الوحى حتى لاينسى مايوحى إليه إلى أن أنزل الله تعالى قوله: «لاتحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه» انظر ابن سعد: المرجع السابق.

(٤) ابن كثير: التفسير جـ٨ ص٨٧.

(٥) سورة المدثر: الآيات ١ ــ ٥.

اصطفاه وخصه بالنبوة، ثم أنزل عليه فى هذه اللحظات آيات بينات تعلمه أنه قد أصبح نبيا مرسلا، وعليه أن يبلغ رسالته، فينذر الناس، وأن يكبر الله الواحد ويعظمه، وأن يتطهر ولا يفعل إلا الأعمال الطاهرة، وألا يحفل بعبادة الأوثان، وأن يدعو إلى نبذ عبادتها (١).

ولما دخل «على بن أبى طالب» دعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بالواحد الأحد، وأن يعظمه ويكبره، وأن يطهر نفسه وعمله وثيابه من كل ما يشوب، وأن ينبذ عبادة الأصنام، فآمن هذا الصبى ابن عشر سنوات (٢) على الفور وكبّر كما كبرت خديجة من قبل، وشهد أن «محمدا» نبى الله، وأنه قد آمن بما جاء به، فكان هذا الصبى المبارك أول من آمن بالله ورسوله من الذكور(٣)، ولم يسبقه من الناس أحد إلا «خديجة» أم المؤمنين، ويؤثر عنه أنه افتخر بذلك فيما بعد فقال:

سبقتكمُ إلى الإسلام طرا غلاما ما بلغت أوان حلمى (٤)

ويشرق وجه نبى الله صلى الله عليه وسلم ويفترّ ثغره عن ابتسامة الرضا أنْ صدق هذا الصبى وآمن بالله ورسوله وهو ما يزال صبيا فى العاشرة من عمره. وتبتهج السيدة «خديجة» أن غمر نور الإيمان قلب هذا الصبى، فما أكرمه! وما أذكاه! وما أشجعه! إنه سيكون بلا شك للنبى خير رفيق، وأفضل معين.

والروايات كثيرة تؤيد أن «عليا» هو أول من أسلم من الذكور، وأول من صلى منهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما رواه «ابن

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى وتفسير ابن كثير.

(٢) كثر اختلاف الرواة فى السن التى أسلم فيها على بن أبى طالب، فذكروا سبع سنوات، وعشراً، وإحدى عشرة وثلاث عشرة. وقد رجحنا رواية ابن إسحق فى السيرة جـ١ ص٢٤٥ وابن عبدالبر فى الدرر ص٤٠ـــ٤٤ والطبرى: التاريخ جـ٢ من ٣٠٩ــ٣١٠.

(٣) ابن عبد البر: الدرر ص٤٤.

(٤) تاريخ أبو الفدا عند ذكر أول من أسلم من الناس.

إسحق» في السيرة ووافق عليه ابن هشام وكذلك مارواه الطبراني بسند صحيح عن «ابن عباس»، وكذلك روى «الطبراني» بسند عن «أبي ذر» وعن «سلمان» قالا: (أخذ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بيد «علي» فقال: إن هذا أول من آمن بي)(١)، وقد مدح الشاعر المخضرم «كعب بن زهير» «عليا» فقال: (٢)

إن عليا لميمون نقيبته | بالصالحات من الأعمال مشهور
صهر النبي وخير الناس مفتخرا | فكل من رامه بالفخر مفخور
صلى الطهور مع الأمي أولهم | قبل المعاد ورب الناس مكفور

وبكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطواف حول الكعبة، ثم توجه خارج مكة، فكان لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: «السلام عليك يا رسول الله» فيتلفّت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله، فلا يرى إلا الشجر والحجارة(٣)، فينكر ذلك أشد الإنكار، ولكنه لا يلبث أن يسمع من يُقرِيه السلام ثانية وثالثة ورابعة، وهو ينظر في كل مرة حواليه فلا يرى أحدا! فماذا يقول الناس إذا أخبرهم بذلك؟ إنهم بلا شك سيقولون إن «محمدا» لمجنون، فهل يرضيه ذلك؟ كلا! ولكن كيف يكون مجنونا وقد جاءته النبوة، وأرسله الله وأمره أن ينذر الناس؟ إنه في حيرة من أمره، وإنه ليرجو أن يهبط عليه «جبريل» ليفسّر له هذه الظواهر! كم هو في شوق لرؤية «الناموس الأعظم» كما سماه «ورقة ابن نوفل»! ويزيد اضطرابه كلما سمع تلك الأصوات وهي تسلم عليه حتى كاد أن يفقد وعيه ويلقي بنفسه من أعلى الجبل، ولكنه يتجلد ويهرع إلى بيته، وما كاد يستقر

(١) السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي تحقيق عبد الوهاب عبداللطيف جـ٢ ص٢٢٦.

(٢) المرجع السابق ص٢٢٧.

(٣) ابن هشام جـ١ ص٢٣٤ ــ ٢٣٥؛ وابن الأثير: أسد الغابة جـ١ في ذكر محمد صلى الله عليه وسلم.

به المقام حتى يسمع صلصلة مثل صلصلة الجرس ، فيمتقع وجهه ، ويتفصد [1] جبينه عرقا ، ويتلو عليه جبريل قوله تعالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ [2]

ثم ينجلى عنه الوحى فأخذ يعود شيئا فشيئا إلى حالته الطبيعية ، وشرح الله بهذه الآيات الكريمة صدر رسوله فطابت نفسه . لقد أمرته الآيات الأولى التى أنزلت عليه بالقراءة التى جعلها الله وسيلة العلم ، وعلّمته أن الله سبحانه هو منبع جميع العلوم ، وأنه هو الذى علم الإنسان ما لم يعلم فضلا منه وكرما ، والله سبحانه ، أنزل عليه الآن آيات كريمة أخرى ، أقسم فيها بالقلم الذى هو أداة تدوين كافة العلوم ، ثم أقسم ، سبحانه ، بكل ما سطره وبما سوف يدونه الإنسان من العلم الصحيح الذى يهديه الله إليه . تفضل الله سبحانه فأقسم هذا القسم العظيم . ليقرر أن رسوله متمتع بنعمة العقل السليم ، وأنه والحمد لله ليس بمجنون ، وأن له عند الله أجرا عظيما لا ينقطع جزاءً له على تبليغ رسالة ربه إلى الناس ، وعلى احتمال ما سوف يلقاه من مشقة ، وصبره على إنكار قومه لرسالته وأذاهم له ، ثم أثنى الله سبحانه على الخلق العظيم الذى فطره الله عليه ، وأنزل عليه دينا عظيما يحض على مكارم الأخلاق [3] .

وترتاح نفس «خديجة» عندما تلا عليها النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآيات الكريمة ، فقد أكرم الله رسوله وزكاه ، ونفى عنه مظنة الجنون بقسم عظيم ، ووعده بأطيب الأجر وأحسن الجزاء ، وامتدح ما يتحلى به من مكارم الأخلاق ، وقد حياه الخلاق العظيم بهذه الآيات أكرم تحية فلا عليه بعد

---

(١) تفصد : سال .

(٢) سورة القلم ــ أو سورة ن : الآيات ١ ــ ٦ .

(٣) ابن كثير : التفسير جـ٨ ص٢١٠ ــ ٢١٦ .

ذلك من سماع تحية الشجر، وسلام الحجر، فقد أنطقها الله تكريماً لرسوله؛ وتدرك «خديجة» أن عليها أن تداوم على مساندته وتأييده حتى يسهل عليه أن يثبت ويصمد، فهي شريكة حياته، وأول من آمن به وبما أنزل عليه.

ويستأذن «زيد بن حارثة» في الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعرض عليه النبي الدخول في دين الإسلام، وأن يؤمن بالله الواحد الأحد ولا يشرك به شيئاً، وأن يؤمن برسالة «محمد بن عبد الله»، ويتخلى عن عبادة الأوثان، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق فلا يعمل إلا العمل الصالح، ويطهر بذلك نفسه وعمله، فيستجيب «زيد» إلى رسول الله الذي أكرمه من قبل وتبناه، ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن «محمداً» رسول الله، فيبتهج لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرح «خديجة» أنْ هدى الله «زيد بن محمد» إلى الإيمان.

وتعمد «خديجة» إلى بناتها الأربع فتبلغهن أن الله قد اختار «محمداً» نبياً لهذه الأمة، وأنه أمره أن ينذر الناس ألاّ يعبدوا إلا الله مخلصين له الدين، وإن الإسلام يأمر بمكارم الأخلاق، فآمنَّ به جميعاً وشهدن أن لا إله إلا الله، وأن «محمداً» رسول الله، وصدقن بما جاء به وبذلك أصبح كل من في بيت «محمد» من المسلمين، يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ويؤمنون برسوله [1].

وكان «أبو بكر بن أبي قحافة» في اليمن عندما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أخبر بذلك الصحابي الجليل «عبد الله بن مسعود» صاحب رسول الله وخادمه وأحد كتاب الوحي، أخبره «أبو بكر» أنه قابل هناك شيخاً كبيراً من قبيلة الأزد كان من أهل العلم بالكتب المنزلة السابقة لدين الإسلام، وأن هذا الشيخ أخبره أن نبياً من «قريش» قد حان أوان بعثه في «مكة المكرمة»، وقد رأى الشيخ في «أبي بكر» علامات تدل على أنه من أكبر الذين سيعينون هذا النبي على تبليغ رسالته، ثم أوصاه بقوله: «إياك

---

(١) متفق عليه وانظر: ابن هشام: السيرة جـ١ ص٦٥٢ ومتفق عليه كذلك في جميع الكتب التي ترجمت لبنات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والميل عن الهدى، وتمسك بالطريقة المثلى الوسطى، وخف الله فيما خولك وأعطاك».

ولما أراد «أبو بكر» العودة من اليمن إلى مكة، ذهب ليودع هذا الشيخ، فأنشده أبياتاً من الشعر مدحاً فى النبى المنتظر، وأوصاه أن يحفظها عنه، ويلقيها على مسامع هذا النبى عندما يبعثه الله.

ولما رجع «أبو بكر» إلى مكة فوجىء بجماعة من صناديد قريش كان فيهم «أبوجهل» و«أبوالبخترى»، فوجىء بهم يزورونه فى منزله فور رجوعه دون انتظار التقائه بهم فى ناديهم على ما جرت العادة، فقال لهم وقد بدت عليه الدهشة: «هل نابتكم نائبة أو ظهر فيكم أمر؟ قالوا: يا أبا بكر، أعظم الخطب، يتيم «أبى طالب» يزعم أنه نبى. ولولا أنت ما انتظرنا به، فإذ قد جئت فأنت الغاية والكفاية».

وهكذا فقد كان هؤلاء الذين سماهم «أبو بكر» صناديد قريش كانوا يبيِّتون أمر القضاء على نبى الله صلى الله عليه وسلم منذ أول ما سمعوا أن «محمداً» قد بعث نبياً، فقد كان الكبْر يملأ نفوسهم، والغيرة تعمى بصيرتهم إذ كيف تكون النبوة فى يتيم «عبد المطلب» دونهم وهم من سادة قريش ومن أكثرهم مالاً، وأعزهم نفراً؟ لقد كانوا فى انتظار عودة «أبى بكر» وكانوا يطمعون فى أن يثنى صديقه «محمداً» عن هذا الأمر!.

وتلطف «أبو بكر» حتى صرفهم، ثم سأل عن «محمد»، فقيل له إنه فى منزل «خديجة»، فأسرع إليه، وقرع الباب عليه، فلما خرج إليه بادره بالسؤال عن السبب الذى جعله يترك دين آبائه وأجداده؛ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر، إنى رسول الله إليك، وإلى الناس كلهم، فآمن بالله». فقال «أبوبكر»: «وما دليلك على ذلك؟» قال: «الشيخ الذى لقيت باليمن». قال «أبوبكر»: «وكم من شيخ لقيت باليمن؟(١). قال النبى: «الشيخ الذى أفادك الأبيات» قال «أبوبكر»:

---

(١) قصة إسلام أبى بكر بعد رجوعه من اليمن رويناها عن ابن الأثير: أسد الغابة فى ترجمة عبد الله بن عثمان أبى بكر الصديق برقم ٣٠٦٤. والمقصود أنه لقى شيوخاً كثيرين فى اليمن فأيهم يقصد بقوله.

«ومن خبّرك بهذا يا حبيبى؟» قال: «الملك الذى يأتى الأنبياء قبلى». قال «أبوبكر»: «مدّ يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسول الله».

وقد رُوى أن «خديجة أم المؤمنين» كانت تسمع تحاورهما وهى خلف الباب، فقالت: «الحمد لله الذى هداك يا ابن أبى قحافة». وفى ذلك ما يدل على أنها فرحت لاستجابة «أبى بكر» ودخوله فى دين الله، فقد كانت تعرف له منزلته فى قريش، وحب الناس له، وكانت تأمل أن يكون خير معين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا حفظ لنا التاريخ رواية الصحابى الجليل «عبد الله بن مسعود» عن إسلام «أبى بكر» كما رواها له «أبوبكر» نفسه، وهى رواية تختلف عن بعض ما ورد من الروايات فى هذا الصدد، ولكنا أخذنا برواية «ابن مسعود» لمنزلته فهو من أوائل الذين دخلوا فى دين الله، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد وصف أسبقيته إلى الإسلام بقوله: «لقد رأيتنى سادس ستة، ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا» (١) وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد ألحقه به ليقوم على خدمته. ولذلك فقد قال عنه الصحابى «أبوموسى الأشعرى»: «لقد قدمت أنا وأخى من اليمن، وما نرى إلا أن «عبد الله بن مسعود» رجل من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبى صلى الله عليه وسلم» (٢) ولذلك فقد كان «ابن مسعود» من أعلم الصحابة بتاريخ الإسلام فى فجر نزوله، وقد رضينا روايته لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «رضيت لأمتى ما رضى لها «ابن أم عبد»، وسخطت لأمتى ما سخط لها ابن ام عبد» (٣).

---

(١) المقصود أنهم كانوا ستة غير أهل بيت رسول الله. وانظر ابن الأثير: أسد الغابة جـ٧ ترجمة عبد الله بن مسعود برقم ٣١٧٧.

(٢) المرجع السابق والبخارى الحديث ٣٣٤٨ جـ٦ ص١٣٩.

(٣) أم عبد هو اسم والدة عبد الله بن مسعود، وعن مكانة ابن مسعود انظر البخارى الأحاديث ٣٣٤٥، ٣٣٤٦، ٣٣٤٧، جـ٦، ص١٣٨ـــ١٣٩.

وتثبت رواية «عبد الله بن مسعود» أن «أبا بكر» صدق برسالة «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم دون تردد بعد عودته من اليمن، فكان بذلك ثاني رجل يدخل في دين الله بعد «زيد بن حارثة»، وثالث ذكر يشهد أن لا إله إلا الله وأن «محمداً رسول الله» وذلك لسابقة إسلام «علي بن أبي طالب» عليهما، وهو رابع إنسان على وجه الأرض صلى خلف النبي بعد أن سبقتهم جميعاً لذلك السيدة «خديجة» أم المؤمنين، وقد استحق «أبوبكر» بذلك ثناء النبي الكريم حيث قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر، إلا «أبا بكر» ما عتم حين ذكرته له: ما تردد فيه» (١). «وجمع بعض المحققين بين الاختلاف بالنسبة إلى «علي وأبي بكر» بأن «أبا بكر» أول من أظهر إسلامه، وأن «علياً» أول من أسلم بعد «خديجة» (٢).

وقد ذكر «المحب الطبري»، متابعاً في ذلك «لابن الصلاح»، أن التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها ممكن إذا آمنا أن: «أول من أسلم مطلقاً: «خديجة»؛ وأول ذكر أسلم «علي بن أبي طالب» وهو صبي لم يبلغ، وكان مخفياً إسلامه؛ وأول رجل أسلم وأظهر إسلامه «أبوبكر ابن أبي قحافة»؛ وأول من أسلم من الموالي «زيد». وقال هذا متفق عليه لا خلاف فيه، وعليه يحمل قول «علي» وغيره: «أول من أسلم من الرجال «أبوبكر». أي من الرجال البالغين» (٣) من غير أهل بيت الرسول الكريم.

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة أبي بكر السابق الإشارة إليها.
(٢) الصالحي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد جـ٢ ص٤٠٧.
(٣) المرجع السابق.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

(سورة الأحزاب الآيات ٤٥ - ٤٨)



الفصل الرابع

بداية انتشار الإســلام

حُبِّبَت الخلوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يخرج من مكة. ويتنقل بين شعاب الجبال ووديانها وهو يشكر الله على نعمه وجزيل فضله، ووافاه في أحد الأيام «جبريل» وهو فى واد من الأودية، فضرب بجناحه الأرض، «فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه، ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى «جبريل» توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته، ثم أنصرف «جبريل» عليه السلام» (١).

وهكذا تعلم النبى صلى الله عليه وسلم فى الأيام الأولى من مبعثه، ركنين من أركان الإسلام: كان الركن الأول هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن «محمداً» رسول الله، وأمره أن يبلغ ذلك للناس وينذرهم به، ثم تعلم الركن الثانى من أركان الإسلام، فأراه «جبريل» كيفية التطهر قبل الوقوف بين يدى الله للصلاة والعبادة، وكانت هذه الصلاة عند بدايتها ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء (٢)، وعاد النبى صلى الله عليه

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٢٤٤. وهو خبر متفق عليه فى كل روايات السيرة وكتب التاريخ وكتب الرجال، وهذه الصلاة هى غير الصلوات الخمس التى فرضت فى الإسراء والمعراج.

(٢) المرجع السابق.

وسلم إلى بيته قرير العين، فقد تعلم كيف يعبد الله ويناجيه، وحببت إلى نفسه هذه العبادة؛ وكان أول ما بدأ به عند عودته أن علم زوجته ما علمه الله، «فقد توضأ ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه «جبريل»، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله، عليه الصلاة والسلام، ثم صلى بها كما صلى به «جبريل» فصلت بصلاته»(1) وهكذا كانت «خديجة» أول من تعبد لله سبحانه وصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم،فكان لها بذلك السبق في الإيمان بوحدانية الله سبحانه، وبرسالة نبيه وذلك عندما أدت الركن الأول من أركان الإسلام بالنطق بالشهادتين، كما ثبت لها السبق في أداء ثاني ركن من أركان هذا الدين الحنيف وهو إقامة الصلاة.

وفي اليوم التالي، تعلم «علي بن أبي طالب» الصلاة، فكان إذا حضرت الصلاة تقدم النبي صلى الله عليه وسلم ووقف خلفه «علي»، رضي الله عنه، ثم وقفت خلفهما «خديجة»، رضي الله عنها، وصليا خلف النبي الكريم، وبذلك حاز هذا الصبي ابن العاشرة من عمره قصب السبق على جميع الذكور في تأدية ركنين من أركان الإسلام.

وصلى بعد ذلك «زيد بن حارثة»، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقف إلى جوار «علي بن أبي طالب» خلف النبي صلى الله عليه وسلم فكان «زيد» بذلك أول رجل بالغ أدى الركن الثاني من أركان الإسلام، وثالث من صلى خلفه.

وكان بنات النبي الأربع قد أسلمن بفضل دعوة أمهن «خديجة» وحسن توجيهها، فقد أدين الشهادة بوحدانية الله سبحانه، وصدقن برسوله، وآمن بما جاء به، فأقمن الصلاة (2)، وبذلك كان أول بيت في مكة كله من المسلمين الموحدين هو بيت نبي الله صلى الله عليه وسلم وزوجته «خديجة أم المؤمنين».

---

(1) متفق عليه والاقتباس من ابن هشام: السيرة جـ1 ص 244.

(2) متفق عليه وانظر ابن هشام: السيرة جـ1 ص 651 ـ 652، والطبري التاريخ جـ2 ص467.

لقد كان أول ما نزل عليه من القرآن الكريم هى الآيات الخمس الأولى من «سورة العلق»، وهى آيات كريمة وجهها الله سبحانه إلى شخص النبى الكريم، فقد كانت تدعو إلى القراءة بوصفها السبيل إلى العلم، وأن يكون طلب العلم باسم الله الخلاق العظيم الذى خلق كل شيء، وخلق الإنسان بقدرته من أصل ضعيف، ثم تكرم فعلّمه أن الإنسان يسجل بالقلم كل ما فتح الله عليه به من العلم حتى يصونه وينميه. وبعد ذلك ناداه جبريل من السماء وأخبره أن الله الكريم قد اصطفاه وكرمه فاختاره نبياً. ثم أنزل الله عليه «سورة المزمل»، وهى أول آيات أمره الله بها أن يبلغ الرسالة ويدعو الناس إلى عبادة الله وحده، وأن يهجروا عبادة الأصنام، وأن يتطهر ويطهر ثيابه وهذا كناية عن أن يطهر نفسه فلا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا صالحاً، ولا يلبس إلا طاهراً، فهو دين يدعو إلى مكارم الأخلاق، ولذلك كان عليه منذ البداية ألا يدعو إلا النفوس الكريمة التى يسعدها أن تعمل وفق هذه المثل العليا، حتى يكونوا دعاة صالحين، ويصبحوا هم القدوة الحسنة التى سوف يقتدى بها كل من يتبعهم، ويدخل فى هذا الدين بدعوتهم.

لقد كانت «مكة» فى ذلك الحين تزخر ببيوت الدعارة التى ترفع على أبوابها الرايات الحمراء، وكانت تنتشر فيها حانات الخمر التى تقدم أجود أصنافه وأعتقها، وكانت تستعين بالترويج لبضاعتها بالمغنين والمغنيات، والراقصين والراقصات حيث يقضى أكثر أغنياء قريش وشبانها ليلهم بين اللهو والمجون إلى ساعة متأخرة من الليل، ولذلك كان على النبى صلى الله عليه وسلم أن يلتزم الحذر والحيطة عند اختيار الروّاد الأول للدخول فى هذا الدين؛ ولذلك آثر أن لا يعجل بالدعوة، وأن يتئد فى الاختيار، وأن يحيط الدعوة بالسرية الكاملة حتى يشتد عودها وتنمو نمواً حسناً؛ ولهذا كله بدأ بدعوة آل بيته، ثم اختار «أبا بكر بن أبى قحافة»، وكان أقرب أصدقائه إلى نفسه، ليكون له وزيراً ومساعداً يشدد به أزره، وكان من أكرم الناس خلقاً، ومن أكثرهم حكمة، وكان محبوباً فى قريش، وكان الناس

يألفونه كثيراً «وكان محبباً سهلاً، كما كان أنسب قريش لقريش (١)، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه» (٢)؛ ولكنه كان حذراً أشد الحذر، فكان يتلطف في دعوته فلا يشعرن بها إلا من يثق في صفاء نفسه، وذكاء عقله، وقدرته على تفهم المعاني السامية التي جاءت بها هذه الرسالة التي تقوم على عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، والتمسك بمكارم الأخلاق مما كانت تدعو إليه الآيات القرآنية الكريمة التي كانت تنزل على النبي الكريم بعضها في إثر بعض، وبذلك ضمن «أبو بكر» بقاء الدعوة سائرة في الطريق السري الذي رسمه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك كان بعض الصحابة، وخاصة الذين أسلموا على يدي «أبي بكر»، يعتقدون أنه أول من أسلم من الرجال، وأنه كذلك أول من صلى منهم خلف رسول الله، لأنه كان أول من أعلن لهم إسلامه (٣)، كما أن بعض التابعين الذي آمنوا بالله استشهدوا بقول «حسان بن ثابت» شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم: (٤)

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك «أبا بكر» بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجد في «أبي بكر» صديقاً وفياً، ووزيراً مخلصاً يحبه الناس، ويستمعون إليه، ويثقون به، أما «علي ابن أبي طالب» و«زيد بن حارثة» فإنهما كانا من أهل بيت رسول الله، لم يعلنا إسلامهما في بدء الدعوة احتفاظاً بسريتها، وهي الخطة التي

(١) أي أعلم رجال قريش بأنسابها.

(٢) متفق عليه وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٣٥٠ والطبري جـ٢ ص٣١٧.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة عند الكلام عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٤٩، والصالحي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد جـ٣ ص٤٠٦.

(٤) الطبري: التاريخ جـ٢ ص١٣٤، وابن عبد البر: الدرر ص ٤١.

رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنعود إلى بيان ذلك عندما نذكر إعلان إسلام «على بن أبى طالب» في موضعه .

وكان أول الذين لهم سبق إلى الدخول فى دين الإسلام ، بعد الأربعة الذين ذكرناهم ، ثمانية نفر، ليس من اليسير أن نذكرهم مرتبين وفق أسبقية استجابة كل منهم إلى دين الوحدانية ، نظراً لأن الحذر الشديد والسرية التى ضربها نبى الله صلى الله عليه وسلم عند بداية الدعوة ، جعلا كل واحد من هؤلاء الرواد الأوائل لا يعرف على وجه التحديد من الذى سبق منهم أخاه إلى دين الله ، ويؤيد هذا تضارب الروايات التى وردت إلينا منسوبة إليهم ، يذكر فيها كل واحد منهم ترتيب دخوله فى الإسلام ؛ ولذلك نكتفى بذكر بعض الروايات كما وصلت إلينا دون محاولة تصحيح هذا الترتيب .

كان أول من أسلم على يدى «أبى بكر بن أبى قحافة» خمسة من أصدقائه وخلصائه القرشيين وهم : «عثمان بن عفان» من بنى أمية ، و«الزبير بن العوام بن خويلد» ، وهو ابن أخ أم المؤمنين «خديجة» وأمه هى «صفية» عمة رسول الله ، و«عبد الرحمن بن عوف» من بنى زهرة بن كلاب ؛ و«سعد بن أبى وقاص» من بنى عبد مناف ، وهو ابن عم «آمنة بنت وهب» أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ و«طلحة بن عبيد الله» من بنى تيم بن مرة . وكان كلما استجاب «لأبى بكر» أحدهم جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الرسول يقرأ عليه القرآن، ويعرض عليه مبادئ الإسلام وما يدعو إليه من الإيمان بالله الواحد الأحد، وبرسوله «محمد بن عبد الله» ، وبطاعة الله ورسوله ، ونبذ عبادة الأوثان ، وإقامة الصلاة ، وعمل الخير، والعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وكان يَعِدُه الكرامة عند الله ، فآمن الخمسة بما جاء من عند الله، ونطقوا بالشهادتين ثم صلوا (١) .

وكان من أوائل السابقين كذلك إلى الإسلام من قريش «خالد بن

---

(١) متفق عليه وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ : وابن سعد الجزء الثالث عند ترجمة البدريين من المهاجرين : والطبرى : التاريخ جـ٢ ص٣١٧ .

سعيد بن العاص »[١]، وقد حرص النبى أن يتصل اتصالاً مباشراً بهم وأن يلقنهم بنفسه مبادئ الإسلام، وبذلك أصبح للإسلام من القرشيين سبعة من الدعاة[٢] يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام تحت إشراف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثبت التاريخ أن هؤلاء السبعة كانوا من أطهر الناس قلباً، وأحسنهم خلقاً، وأتقاهم وأعدلهم نفساً، وأخلصهم للإسلام ديناً، وأشجعهم فى الذود عنه والدعوة إليه والاقتداء بنبيه، وأكثرهم صبراً وتحملاً للمشاق والمتاعب فى سبيله، وأجودهم بما يملكون فى سبيل نشره، وأكثرهم طاعة لأوامر النبى الكريم.

وقد شاءت إرادة الله سبحانه، أن يكون للإسلام فى بدايته دعاة من قبائل العرب الأخرى من غير قريش، نذكر من أوائلهم اثنين كانا من السابقين الأولين إلى الإيمان بالله، والتصديق برسالة «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم، ولعل أسبقهما هو «أبوذر الغفارى» من قبيلة غفار، وقد كان «لعلى بن أبى طالب» يد فى إرشاده إلى الإسلام، وذلك أن «أباذر» كان يكره عبادة الأوثان، ولا يستريح إلى تعظيم حجارة نحتها الإنسان؛ فوفد على مكة، ووجده «على بن أبى طالب» نائماً فى البيت العتيق، فأخذه «علىٌّ» معه إلى منزله حيث أكرمه ليلتين متتاليتين لا يسأله عن شيء، وفى الليلة الثالثة تباحثا فشرح له «علىّ» حقيقة الإسلام، وعبادة الله الواحد الأحد، وشرح الله قلب «أبى ذر» للإسلام فطلب من «على» أن يوصله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وفدا عليه، كان «أبوذر» أول من ألقى عليه تحية الإسلام قائلاً «السلام عليك يا رسول الله» ورد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم التحية، ثم عرض عليه الإسلام، فاستجاب وشهد بالشهادتين، وكان مما قاله له النبى الكريم: «ارجع إلى بلاد قومك وأخبرهم، وأكتم أمرك عن أهل مكة فإنى أخشاهم عليك»[٣]؛

---

(١) الطبرى: التاريخ جـ ٢ ص ٣١٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ١٩٧.

(٣) قصة إسلام أبى ذر مذكورة فى كثير من المصادر، وقد لخصناها عن النويرى: جـ١٨ ص٢ ــ ٧.

وكان أول من أسلم على يديه أخوه «أنيس الغفارى» الشاعر، وأمهما «رملة» الغفارية؛ ولما عاد إلى قومه أخذ ينشر الدعوة حتى أسلم نصف قبيلة غفار قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، وأسلم معهم سيدهم يومئذ «خفاف بن إيماء الغفارى»؛ ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم أسلم بقيتهم، كما أسلمت بإسلامهم قبيلة «أسلم» وقالوا: «يا رسول الله! إخواننا، نسلم على الذى أسلموا عليه» فأسلموا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»(١). وقد قال «أبو ذر» عن نفسه، كما روى البيهقى: «كنت ربع الإسلام، أسلم قبلى ثلاثة نفر، وأنا الرابع» ويضرب «بأبى ذر» المثل فى الصدق حتى قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم: «ما أقلّت الغبراء، ولا أظلّت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر» (٢).

كذلك كان من الرعيل الأول الذين كانت لهم سابقة إلى الإسلام من العرب من غير قريش «عمرو بن عبسة»، وقد ورد عنه قوله: «رغبت عن آلهة قومى فى الجاهلية، ورأيت أنها باطلة... فلقيت رجلاً من أهل الكتاب، فسألته عن أفضل الدين فقال: يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها، وهو يأتى بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه»؛ فلما وفد عمرو إلى مكة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً، تلطف فى الدخول عليه، فسلم ثم سأله قائلاً: «من أنت؟ قال «نبى الله» قلت: وما النبى؟ قال: «رسول الله» قلت: من أرسلك؟ قال: «الله» قلت: بم أرسلك؟ قال: «أن توصل الأرحام، وتحقن الدماء، وتؤمّن السبل، وتكسر الأوثان، ويعبد الله وحده لا يشرك به شىء». فقلت: نعم ما أرسلت به! أشهدك أنى قد آمنت بك وصدقتك. أمكث معك أم ما تأمرنى؟ قال: «قد رأيت كراهية الناس لما جئت به، فامكث فى أهلك، فإذا

---

(١) نفس المرجع.

(٢) مجد الدين بن الأثير: المرصع فى الآباء والبنات.. تحقيق السامرائى ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

سمعت أني خرجت مخرجاً فاتبعني(١)، وقد لحق بالنبي بعد هجرته إلى يثرب، وروى عن نفسه أنه كان رابع الذين آمنوا بالله الواحد الأحد، وبرسوله «محمد النبي» الأمي صلى الله عليه وسلم.

كان هؤلاء هم الدعاة الأوائل الذين نهضوا للدعوة بدين الوحدانية، وكانت «مكة» هي أول ميدان عني النبي صلى الله عليه وسلم بالعمل فيه سرّا على اكتساب الرواد الأوائل الذين يعاونونه، وكان أول من ساعده وشد من أزره، وثبته في تحمل أعباء رسالته السيدة «خديجة بنت خويلد»، فكانت أول وزيرة له، كما كانت أول أم للمؤمنين؛ وقد يسر الله للوقوف بجانبه «علي بن أبي طالب»، فكان له على صغر سنه نعم المعين، وهدى الله «أبا بكر بن أبي قحافة» فصدّق به وكان له نعم الوزير، كما هدى الله، بعد فترة من الزمن، الستة الذين ذكرناهم من القرشيين الذين آمنوا بالله ورسوله، ووهبوا أنفسهم لنشر دعوته، كما وقف من خلف رسول صلى الله عليه وسلم حِبه «زيد بن محمد»، وبذلك بدأت الدعوة تسير في الطريق التي رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم سيراً متئداً، فقد أخذ هؤلاء الدعاة يتخيرون بحذر الذين يأنسون فيهم الخلق الطيب والصلابة في الحق، والإيمان بالمثل العليا؛ وكان «جبريل» ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بالآيات الكريمة يأتي بعضها في اثر بعض، فيبلغه ما أمره الله سبحانه بإبلاغه، ويعلمه مما أراد الله له أن يعلمه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أصبح يألف نزوله، ويسعد لمباحثته في أمور هذا الدين، حتى اعتبره النبي صلى الله عليه وسلم أخاً له فكان يقول عنه «أخي جبريل». وقد حدث في إحدى زيارات جبريل لنبي الله صلى الله عليه وسلم في منزله أن قال له: «يا محمد. أقرئ «خديجة» السلام من ربها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا خديجة»، هذا «جبريل» يقرئك السلام من

---

(١) قصة إسلام عمرو بن عبسة رواها ابن عبد البر في الاستيعاب وهذا الجزء الذي اقتبسناه عن النويري: نهاية الأرب فقد روى قصة إسلامه كاملة جـ١٦ ص ١٩٢ ــ ١٩٤، وكذلك ابن الأثير: أسد الغابة عند الترجمة له في جـ٤ ترجمة رقم ٣٩٧٨.

ربك[1]» فكانت تلك أحسن تحية للسيدة «خديجة» لأنها جاءت من رب العزة جزاء لها على إخلاصها لله ولرسوله، وللدور العظيم الذى كانت تقوم به فى مساندتها للرسول الكريم بمالها وحكمتها. ولما كان الله سبحانه هو السلام، وكان السلام على الأرض نعمة من نعم الرحمن، فقد هدى الله «أم المؤمنين» إلى رد هذه التحية الكريمة بما أنعم الله عليها من ذكاء وفطنة حيث قالت: «الله هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام».

* * *

لقد مر على مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة أشهر شهدت «خديجة» خلالها هبوط الوحى ونزول أسمى رسالة سماوية إلى الناس، وإيمان بضعة نفر من المسلمين، فامتلأ قلبها بنور الإيمان، وأصبحت ترى فى متابعة حياة النبى الكريم، ومراقبة ما يلم به من أحداث، وما يجتازه من صعاب، واجباً مقدساً حتى تعمل على محاولة التخفيف عنه، وتشجعه على تحمل أعباء هذه الرسالة العظيمة، وتهون عليه المصاعب التى تعترض سبيله، وأصبح ذلك فى نظرها ضرباً من ضروب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وواجباً ألقاه على عاتقها، وشرفاً خصها به دون سائر نساء قريش؛ ولكنها تفاجأ فى ذلك الوقت بأوجاع ليست غريبة عليها فتستنكر حدوثها فى هذه السن فقد تخطت الخامسة والخمسين من عمرها. لقد شعرت «خديجة» وهى فى هذه السن المتقدمة بما يشبه الآلام التى تحس بها المرأة عادة فى بداية عهدها بالحمل، فهل يكون ذلك حملاً حقيقياً؟ لقد مر عليها منذ ميلاد «فاطمة» أكثر من خمسة أعوام لم تشعر خلالها بالحمل مع شدة تلهفها عليه، وعظيم رغبتها فيه، وكبير أملها فى حدوثه، فهل هذا الذى تتحمله الآن من أوجاع بشير بمولد طفل لها من زوجها وحبيبها «محمد» نبى الله صلى الله عليه وسلم؟ ترى هل هذه آلام حمل حقيقى أم هى ناتجة عن مرض أصابها وهى واهمة فى ما تشعر به؟ كلا! إنها لا تزال قوية الجسم، سليمة البنيان،

---

(١) هذه التحية من الله سبحانه رويت فى البخارى وغيره بعدة صيغ، وقد اخترنا الصيغة الواردة فى سيرة ابن إسحق برواية ابن هشام جـ١ ص٢٤١.

وهى لاتزال صالحة للإنجاب مثل غيرها من النساء، فهى لم تفقد الأمل فى كرم الله وفضله. ويتسع أمام مخيلتها ميدان الأمل فتذكر أن الله جلت قدرته، عندما أراد أصلح لجدها «إبراهيم» زوجته وكانت عجوزاً عقيماً، فوهبها على الكبر «إسحق»، وليس بعزيز على الله أن يهب رسوله «محمداً» منها غلاماً زكياً، ويزداد أملها فى عطف الله الذى أكرم زوجها فاجتباه وبعثه للناس هادياً ورسولاً، ووعده بالعطاء الكريم والثواب العظيم، أن يمن على نبيه بولد يكون لهما على مستقبل الأيام معيناً، وعلى الكفاح فى سبيل الله مساعداً؛ ولكنها مع تصديقها بكل ماتمنى به نفسها من آمال تقرر أن تكتم هذا السر، وأن تتحمل فى صبر وجلد أوجاعها حتى ينجلى الأمر، وتتبين حقيقة هذه الآلام(١).

* * *

وظلت «خديجة» تسبح فى هذه الأفكار التى كانت تضفى عليها السعادة، وتمنيها بالآمال، ولكنها تفاجأ مفاجأة أنستها كل تلك الآمال العذبة، وجعلتها تنصرف إلى شد أزر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انقطع هبوط الوحى فجأة، وحزن النبى لذلك حزناً شديداً، فأكثر من الطواف حول الكعبة مستغفراً، وإلى الخروج إلى البادية حيث يهيم على وجهه متضرعاً إلى الله، راجياً عفو مولاه، وظل على تلك الحال بضعة أيام، لايهنأ له عيش، ولاتغمض له عين، فبذلت «خديجة» كل ماتستطيع من جهد للتسرية عنه، والتهوين عليه، وتشجيعه على الصمود والصبر، ذاكرة أن الله الكريم لن يهمله بعد أن اجتباه واصطفاه، وأنه لن يخزيه بعد أن خصه بالرسالة، فكان يسكن إليها، ويطمئن إلى حديثها؛ ولكن أخاه «جبريل» لاينزل إليه، وكأنه، لأمر ما، قد حبس عنه، فتتناوبه الهموم، وتكثر عليه الهواجس، ويعود إلى الإكثار من الصلاة والاستغفار، وكان الخوف من

---

(١) أجمعت المصادر الموثوق بها على أن خديجة أنجبت عبد الله بعد مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك فقد لقب بالطاهر وبالطيب. وانظر ابن سعد: الطبقات، جـ١ القسم الأول، أولاد النبى.

غضب الله وخشية سخطه يملآن عليه كل جوارحه، فيخرج إلى بطاح مكة ووديانها، ويتنقل بينها طالباً من الله رضاه، حتى إذا استولى عليه اليأس صعد إلى ذروة جبل شاهق، وهمَّ أن يلقى بنفسه من فوقه تخلصاً من الهواجس التى استولت عليه، ولكن «جبريل» كان يتبدى له فى السماء وهو يقول: «يا محمد إنك رسول الله حقاً»(1) فتهدأ نفسه، ويسكن روعه، ويعود إلى «خديجة»، فتلقاه مرحبة به، حانية عليه، فإذا أفضى إليها بما يجيش به صدره، هونت عليه الأمر، فآنست من وحشته، وأزالت ما علق به من هموم، وبعثت فيه من ثقتها وإيمانها برسالته اطمئناناً وثقة، ورضى بقضاء الله وقدره؛ وهكذا أنار الله بصيرتها بما وهبها من عقل راجح، وتفكير متزن، وبما غمر به قلبها من إيمان، وما فطرها عليه من إخلاص، وأضاء الله بهذا الخلق الكريم بصيرتها فجعل لها نوراً تهتدى به فى نصرتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووهبها طاقة على الصبر وتحمل المشاق، ونفاذ البصيرة عند الشدائد، وسداد الرأى فى الملمات؛ وبذلك ضربت المثل الأعلى فى التفانى فى مناصرة الحق، والوقوف إلى جانب زوجها وحبيبها، باذلة فى ذلك كل ما وهبها الله من قوة الحجة، والحزم عند اتخاذ الرأى، والإخلاص عند بذل المشورة؛ فكانت بذلك نعم الزوجة التى تشاركه حياته، ونعم الوزيرة المخلصة الناجحة.

وطال انحباس الوحى (2)، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، وأخذ يتضرع إلى الله مستعيناً بالصبر والصلاة، وكثرة الابتهال إلى مولاه، طالباً منه العفو والرضا؛ ولكن سرعان ما تعود إليه الظنون: ترى هل تركه الله وجفاه بعد أن اصطفاه؟ وهل أبغضه بعد أن شمله برعايته وأسبغ عليه حبه؟ وهل فقد رضاه بعد أن قرَّبه إليه وبعثه وهداه؟ وتستمر هذه الحيرة والخوف من غضب الله ما يقرب من أربعين يوماً كان كلما استولى

---

(1) متفق عليه، وانظر النويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ١٧٦.

(2) اختلف فى مدة انحباس الوحى فقيل اثنا عشر يوما، وقيل خمسة عشر، وقيل خمسة وعشرون، وقيل أربعون، وقيل أكثر من ذلك.

عليه خلالها القنوط ، وبلغ مرحلة اليأس ، وهم أن يلقى بنفسه من فوق جبل من الجبال ، رأى «جبريل» مطلاً عليه من السماء وهو يقول : «يا محمد ، إنك رسول الله حقاً».

ولما كان اليوم الأربعون لانقطاع الوحى ، ظن (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لامهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ إلا بالاحتماء به والتسليم له ، فأكثر من الطواف حول الكعبة مستغفراً ، ثم هام على وجهه فى السهول والهضاب باكياً متضرعاً ، وأكثر من الصلاة والتسبيح والدعاء ، والابتهال والرجاء ، ملقياً كل أمله على الرحمن الرحيم ، سائلاً مولاه الغفور الرحيم ، ثم عاد إلى المنزل يتنازعه اليأس ويحدوه الرجاء ، وتستقبله «خديجة» وقد أضناه التعب ، وأنهكه الخوف من أن يكون قد حل به غضب الواحد الأحد ، فتحاول أن تزيل ما به من هم ، وتبعد عنه ما اعتراه من ألم وغم ، وإذا برحمة الله الواسعة تهبط عليه من السماء ، فتطن فى أذنه صلصلة مثل صلصلة الجرس ، ويتدفق العرق على جبينه ، ويغيب عن كل من حوله ، ويهبط عليه الناموس الأعظم (٢) ، فيلقى عليه من السموات قولاً كريماً يطبعه الله على قلبه بحروف من نور ، ثم ينصرف عنه فيفيق رويداً رويداً ، ويشرق وجهه بنور الرضا وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، ثم رتل :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿ وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ * وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ * أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ * فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ * وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ (٣)

---

(١) ظن بمعنى أيقن كما فى قوله تعالى: «الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم».
(٢) هكذا رويت كيفية نزول الوحى فى كثير من المصادر كما ذكرنا من قبل.
(٣) سورة الضحى.

لقد أقسم الله، سبحانه، بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل وما نشر فيه من الظلام أنه منذ اصطفاه ماتركه، ومنذ أحبه لم يبغضه، ثم بشره بآية جامعة لكل أنواع الكرامة والسعادة التى أسبغها وسوف يسبغها عليه، ومختلف أنواع الإنعام الذى خصه به فى الدنيا والآخرة، فوعده بقوله: «ولسوف يعطيك ربك فترضى». وليس يطمع إنسان فى أكثر من هذا الوعد الكريم من أكرم الأكرمين، ثم تفضل الله، سبحانه، فذكّره أنه شمله فى جميع أطوار حياته بعنايته ولم يهمله منذ كان صبياً يتيماً، فقد أنزل محبته فى قلب عمه «أبى طالب» فآواه بعد موت جده «عبد المطلب»، ولم يزل عمه يحوطه برعايته ويرفع من قدره حتى شب وكبر، ثم إن الله وجده حائراً متلهفاً على معرفة الدين الحق، فهداه إلى الوحدانية، ملة أبيه «إبراهيم» وجعل القرآن له نوراً يهتدى به ويهدى به الناس إلى صراط مستقيم، وأرسله هادياً ومبشراً للناس، ثم إن الله الكريم كفاه شر الفقر والعوز، فوهبه نعمة الرضا والقناعة، وأنزل محبته فى قلب «خديجة بنت خويلد»، فأخلصت له وتركته يتجر فى مالها، وكفاه الله شر الحاجة فأغناه هو ومن يعول وأصبحوا فى بحبوحة من العيش، ثم أمره الله تعالى أن يحسن إلى اليتامى ويتلطف بهم كما أحسن الله إليه، وأمره أن يبش فى وجه من يسأله فى العلم ويلين جانبه لمن يريد أن يسترشد به، ثم أنهى الله هذه السورة الكريمة بالتحدث بما أنعم الله عليه من النبوة، وأمره بشكر هذا الإكرام الذى خصه به، وذلك بالدعوة إلى عبادة الله الذى لا شريك له، وإلى أمر الناس بالمعروف والنهى عن المنكر لأن ذلك هو خلاصة دين الإسلام(١).

ولما أنزل الله سورة الضحى ابتهج الرعيل الأول من الرواد السابقين إلى الإسلام بما أنعم الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وأيقنوا أن ذلك نصر وإكرام له ولمن اتبعه، وأخذوا ينشطون فى نشر رسالة ربهم، فأخذ بعض الناس يدخلون فى دين الله ونحن نكتفى بذكر بعض من أسلم ممن كان له أثر يذكر فى نشر الدعوة من السابقين فى الإسلام.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٨ ص ٤٤٥ ــ ٤٥٠.

أسلم من القرشيين «أبو عبيدة بن الجراح»، و«أبو سلمة المخزومي»، و«الأرقم بن أبي الأرقم»، و«عثمان بن مظعون» وأخوه «قدامة»، و«عبيدة بن الحارث»، و«سعيد بن زيد، و«عمير بن أبي وقاص»، و«عبد الله بن مسعود»، و«جعفر بن أبي طالب» (١).

ونذكر من السابقات من قريش إلى دين الله، «أسماء بنت أبي بكر»، و«هند المخزومية» زوجة أبي سلمة، و«فاطمة أخت عمر بن الخطاب»، و«أمينة بنت خلف» زوجة «خالد بن سعيد بن العاص»، و«أسماء بنت عميس» زوجة «جعفر بن أبي طالب» (٢).

وقد رأى العبيد والموالي أن هذا الدين يبشر بالمساواة بين الناس لا فضل لعربي على أعجمي ولا فضل لسيد على عبيده إلا بالتقوى، فأقبلوا على الدخول في الإسلام وكان من السابقين منهم «بلال بن رباح»، و«ياسر» وابنه «عمار»، و«صهيب الرومي»، و«عامر بن فهيرة» مولى «أبي بكر».
وأسلمت من نسائهم «بركة أم أيمن» مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣). و«سمية أم عمار»، و«زنيرة» و«أم عبيس» (٤).

وبدأ الحديث يكثر بين الناس في بيوتهم وفي أنديتهم عن أن ديناً جديداً قد ظهر، وأن بعض الناس قد دخلوا فيه، وأنهم لا يسجدون للأوثان التي كان أهل «مكة» جميعاً يخرون لها ساجدين؛ وكان رؤساء قريش وسادتهم يسمعون ذلك؛ ولكنهم كانوا لا يكترثون له، ولا يأبهون به، وكان شبانهم غير مبالين، ولا ينكرون ما يسمعون وكانوا جميعاً «إذا مر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم في مجالسهم حول الكعبة أشاروا إليه قائلين: إن غلام «بني المطلب» ليكلّم من السماء» (٥).

---

(١) ، (٢) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٥١ ــ ٢٦٢. وابن عبد البر: الدرر ص ٤٠ ــ ٤٢.
(٣) المرجعان السابقان.
(٤) المرجعان السابقان.

(٥) متفق عليه وانظر الطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول، ص ١٣٣؛ والنويري: نهاية الأرب جـ١٦ ص ١٩٦.

وهكذا أخذت الدعوة الإسلامية تنتشر ببطء، ورأى النبى بسامى حكمته أن يتخذ لها مقراً يجتمع فيه مع المسلمين حيث يعلمهم بنفسه مبادئ هذا الدين الحنيف، ويحفظهم ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم التى أخذت تتنزل عليه، فكان يشرح لهم معانيها، ويبين لهم أحكامها، ويأخذهم بتنفيذ تلك الأحكام وتطبيقها. وكان هذا التأنى فى نشر الدعوة سبباً فى رسوخ تعاليم الإسلام فى قلوب الرواد الأوائل من المؤمنين، وانطباع نفوسهم على اتباع أوامره، وتجنب ما ينهى عنه، وقد اختار النبى صلى الله عليه وسلم هذا المقر فى بيت عند الصفا يملكه «أبو عبد الله الأرقم ابن أبى الأرقم» (١)، وظلت تلك الاجتماعات سرية لا يعرف غير المسلمين عنها شيئاً، ولا يعلمون عن هذا المقر خبراً.

* * *

وكانت فرحة أم المؤمنين «خديجة» بنزول سورة الضحى لا تعدلها فرحة أخرى، فقد أيقنت، كما أيقن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم نبيه، وأسبغ عليه فضله وإعزازه، وأنه سبحانه أقسم على ذلك قسماً عظيماً؛ وبذلك انتهت، بعطف الله وكرمه، تلك المرحلة الحرجة التى عاشت فى خِضَمّها ما يقرب من أربعين يوماً انصرفت فيها إلى رعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد أزره حتى نسيت، من فرط إخلاصها فى تأدية هذا الواجب المقدس. تلك الأوجاع التى كانت تنتابها، ولم تنتبه إلا وقد بدأ الجنين يتحرك بين أحشائها، فأدركت أنها لم تكن واهمة ولا مريضة عندما بدأت تحس بها، وتأكدت أن هذا الذى يدب بين جوانحها هو جنين وهبه الله لها، فغمرتها موجة من السعادة ملكت عليها من جديد كل جوارحها، وعادت تراودها من جديد آمالها وأحلامها، وأخذت تضرع إلى الخلاق العظيم أن يهب لها من كرمه غلاماً يكون لها قرة عين، وخطر ببالها أن تهرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راجية متوسلة أن يدعو الله الكريم حتى

---

(١) متفق عليه فى كل المراجع.

يهب لهما من فضله غلاماً زكياً، فأسرعت تزف إليه البشرى، وتتوسل إليه أن يشاركها في الابتهال والدعاء.

وكان «محمد» صلى الله عليه وسلم إنساناً كاملاً، يفرح لما يفرح له الناس إذا أصابهم الخير، ويحزن لما ينزل بهم من الكوارث والمحن، ولكن الله فضّله على سائر عباده بما خصه به من خلق كريم فجعل أفعاله وأقواله يرتقيان إلى مستوى المثل العليا التي أدب الله بها أنبياءه ورسله، وكان هؤلاء الرسل يشاركون غيرهم من البشر في العواطف النبيلة التي تجيش في صدورهم، وفي الآمال الكريمة التي تملأ نفوسهم، ولذلك كان «محمد» صلى الله عليه وسلم، مثل سائر الأنبياء، يحب أن يهب الله له البنين والبنات، وأن يبارك له فيهم فيجعل منهم الذرية الصالحة، وتلك هي الفطرة التي فطر الله سبحانه عليها عباده منذ خلق «آدم» وأسكنه هذه الأرض، فقد وصف الخلاق العظيم هذه المشاعر الإنسانية في كتابه العزيز بقوله:

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١)

ولذلك فإننا لا نشك أن «محمداً» صلى الله عليه وسلم ابتهج لهذا النبأ السار الذي زفّته إليه زوجته المخلصة، وأنه تطلع إلى السماء راجياً أن يشمله الله هو وزوجته بكرمه وعطفه، وأن يهب لهما من لدنه غلاماً زكياً.

* * *

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أكرم حاضنته «بركة» عند زواجه من «خديجة» فأعتقها، فتزوجت «عبيد الله بن زيد من بني الحارث بن الخزرج»، فولدت له ابنه «أيمن»، وكانت تكنى به، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبها حباً عظيماً، فلما مات زوجها أشفق عليها وقال: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن» وسمع ذلك «زيد بن محمد»، وكان يحب أن يسارع إلى إرضاء النبي الكريم، فتقدم إليه طالباً

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.

أن يزوجه منها ، فسر النبى بذلك وزوجها إياه [1] ؛ ولا شك أن « أم المؤمنين خديجة » سرها هذا الزواج ، فقد كانت تحبها حب النبى لها ، وكان إكرامها « لزيد » قد زاد بعد أن تبناه الرسول الكريم .

* * *

ومضت الأيام حتى قارب العام الأول لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقضى فشعرت « أم المؤمنين خديجة » أن أيام الحمل قد أوشكت على نهايتها ، فأخذت تستعد لليوم الموعود وتترقب مجيئه ، وقد فتح الإيمان أمامها باب الأمل على مصراعيه ، فكانت تقضى أكثر أوقاتها فى الابتهال والعبادة والصلاة والدعاء ، راجية أن يهبها الرزاق الكريم غلاماً يشرح بمجيئه صدرها ، ويعوّضها عن فقد ولدها « القاسم » ، حتى إذا أقبل اليوم المنتظر كانت كلها ثقة فى عطف الله واستجابته ، فاستسلمت لقضاء الله وقدره ، وتحملت ما تحملت من آلام تنوء بمثلها الأمهات فى ريعان شبابهن ، ثم تداركتها عناية الرحمن الرحيم ، فجاء المولود ، وما تكاد قابلتها « سلمى » تتلقاه حتى تكاد تطير من الفرحة وهى تبشرها بمولد غلام ، ثم تهرع إلى النبى صلى الله عليه وسلم لتزف إليه البشرى ؛ ولكنه كان قد أدرك ، عندما رأى البشر والابتهاج على وجهها ، أن الله قد استجاب له و« لخديجة » فأنعم عليهما بغلام [2] ، فيرفع رأسه ناظراً إلى السماء ، شاكراً الله على ما أنعم به عليه ، وما غمره به من إكرام ، ثم أسرع بالدخول على الوالدة وقد أشرق وجهه بنور الرضا ، وافتر ثغره عن بسمة الفرحة ، وأخذ يهنىء زوجته ، ثم حمل الصبى وأسماه « عبد الله » ، ووصل القابلة ، ولما كان اليوم السابع أمرت خديجة بذبح شاتين تقرباً إلى الله ، وأولمت وأطعمت الأهل والمساكين ، وأمر رسول الله

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٨ فى ترجمة أم أيمن بركة مولاة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ص ١٦٢ .

(٢) من المتفق عليه أن عبد الله ولد فى الإسلام ؛ وانظر ترجمة خديجة فى الطبقات الكبرى وفى أسد الغابة ، وانظر كذلك صفوة الصفوة لجمال الدين بن الجوزى عند ذكر أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صلى الله عليه وسلم بحلق رأس المولود، وتصدق بوزن شعره فضة على الفقراء والمحتاجين (١).

وأحست «أم المؤمنين خديجة» بالرضا يغمر كل مشاعرها، وبالطمأنينة تملأ كل حياتها، فقد أصبح الحلم الذى طالما تمنته حقيقة واقعة بعد طول الانتظار، وتحقق الأمل الذى طالما تضرعت إلى الله أن يحبوها به، فأكثرت من شكر الله على نعمته، وانصرفت للعناية بتدبير شئون بيتها وأسرتها، ورعاية المولود الجديد، ومتابعة نمو الدعوة الإسلامية، وكانت قد قاربت السادسة والخمسين من عمرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قارب الحادية والأربعين.

* * *

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخرج إلى شعاب مكة، ومعه «على بن أبى طالب»، «مستخفياً من عمه «أبى طالب» وجميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا على هذه الحال ما شاء الله لهما أن يمكثا» (٢).

وبينا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغرقاً فى صلاته هو و«على بن أبى طالب» فى إحدى تلك الشعاب، عثر عليهما «أبوطالب»، فاستولت عليه الدهشة، ووقف يراقبهما وهما يركعان ثم يسجدان، ويقفان ثانية ثم يعودان إلى الركوع والسجود؛ فلما انتهيا من صلاتهما قال الشيخ لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يا بن أخى، ما هذا الدين الذى تدين به؟» وأخذ النبى الكريم يشرح لسيد «بنى هاشم» أن هذا الدين يدعو إلى عبادة الله الواحد، الذى

---

(١) الوصف هنا مقتبس مما ورد عند الترجمة لخديجة فى المراجع السابق ذكرها وما حدث عند مولد إبراهيم.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، والطبرى: التاريخ جـ ٢ ص ٣١٣، والصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٢ ص ٤٠٤.

خلق السموات والأرض وما بينهما، وألا يُشْرَك به شيئاً، وأن يُنبذ ما عدا ذلك فتتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام، وتحقن الدماء، وتؤمن السبل، ويدعو إلى كل ما هو خير وإلى نبذ كل ما هو شر(١)، ومما يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه الشيخ بعد ذلك: «أى عم، هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا «إبراهيم»؛ بعثنى الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه، وأعاننى عليه» (٢).

وساد الصمت والترقب فترة ليست بالقصيرة، وغاص الشيخ فى تفكير عميق؛ ثم ظهرت على وجهه بوادر التأثر، وتكلم فى تؤدة؛ ولكن فى صوت غلب عليه الحنان والحب قائلاً:

«يا بن أخى، إنى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى وما كانوا عليه» وسكت الشيخ برهة ثم استأنف حديثه فى قوة وحزم قائلاً: «ولكن، والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما حييت» (٣).

لم يؤمن شيخ «بنى هاشم وبنى المطلب»؛ ولكن كان فى صوته وفى الصيغة التى رد بها ما يبعث على الأمل فى أن يصدق يوماً ما بعد تفكير وروية؛ وقد وعد الشيخ وعداً صريحاً بعزمه على حماية ابن أخيه طول حياته من كل ما يكره، بحيث لا يعترض طريقه معترض ولا تمتد إليه يد أثيمة، وأصبح النبى صلى الله عليه وسلم منذ تلك اللحظة، فى حمى أكبر رجالات قريش وأكثرهم احتراماً ومنعة وذلك بفضل رعاية الله لرسوله.

وساد الصمت مرة أخرى؛ ولكن سرعان ما قطعه الشيخ وهو ينظر إلى ابنه «على» ويوجه حديثه إليه قائلاً: «أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه؟».

---

(١) هذا الشرح لمقاصد الدين الإسلامى مقتبس من بعض ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم عندما كان يدعو الرواد الأوائل مما أشرنا إليه من قبل.

(٢) متفق عليه وانظر سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٤٧ والطبرى: التاريخ جـ٢ ص٣١٣ والصالحى سبل الرشاد فى سيرة خير العباد جـ٢ ص٤٠٤.

(٣) المراجع السابقة.

وأجابه الصبى على الفور دون تردد قائلاً : «يا أبت، آمنت بالله وبرسوله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه واتبعته».

وهكذا أعلن الصبى إسلامه فى شجاعة نادرة المثال، مما جعل أباه الشيخ ينظر إليه نظرة فيها كثير من العطف والحب وظهر ذلك فى رده عليه بقوله :

«أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه»(١) وبذلك صرح أكبر رجال قريش مقاماً لابنه الصبى أن يؤمن بهذا الدين الجديد، وأن ينبذ عبادة الأوثان، كما اعترف ضمناً أن ما عرضه عليه ابن أخيه من أمر هذا الدين إنما هو دعوة إلى الخير، ولذلك فلا بأس على ابنه من أن يتبع ابن عمه فيما يدعو إليه من الخير.

ويعود «محمد» صلى الله عليه وسلم إلى مكة وهو يشعر بشىء من الظفر، فيطوف بالكعبة على عادته، ثم يعود إلى منزله، وتلقاه أم المؤمنين «خديجة» بما فطرت عليه من الحنان والمودة، ويقص عليها ما حدث، فتطرب لذلك أشد الطرب، وتقول: إنها بشرى عظيمة، وإن الشيخ سوف يوفقه الله إلى الدخول فى دينه إن عاجلاً أو آجلاً، وتشيد بما بذل من الوعد بحماية ابن أخيه مما يمهد لسير الدعوة فى طريقها دون أن يمس الرسول صلى الله عليه وسلم أذى، فيطمئن النبى صلى الله عليه وسلم إلى قولها.

وأطمأن الذين آمنوا بالله ورسوله لهذه الحماية التى أسبغها شيخ «بنى هاشم وبنى المطلب» على ابن أخيه، فهى حماية كريمة هدى الله «أبا طالب» أن يتطوع للوعد بها، ولا شك أنه بنفوذه وجاهه سوف يستطيع أن يحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيوخ البطون القرشية الأخرى وفتيانها إذا حاولوا التصدى له أو الاعتداء عليه، مما يتيح للنبى الكريم حرية السعى لنشر الدعوة الإسلامية دون أن يخشى كيد المشركين؛ ولذلك فقد رأى

---

(١) قصة عثور أبى طالب على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه على وهما يصليان وردت فى كثير من المصادر، وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، والطبرى: التاريخ جـ٢ ص٣١٣.

المؤمنون أن هذا الوعد كان نصراً كبيراً من الله لدينه ، وسيكون عوناً على تبليغ الرسالة عندما يأذن الله بالجهر بالدعوة .

واستمر الرواد الأوائل من المؤمنين في الدعوة سراً إلى عبادة الله الواحد الأحد تحت إشراف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهدى الله لنوره نفراً من شبان قريش فآمنوا بدين الوحدانية وبرسالة « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وسلم ، كما شرح صدور بعض المستضعفين من العبيد والموالى عندما عرفوا المبادىء السامية التى جاء بها الإسلام فأقبلوا على الدخول فى هذا الدين الجديد . وكان هؤلاء المؤمنون يستخفون من قريش فلم يعلنوا على الملأ إسلامهم ، وكانوا يخرجون للصلاة فى شعاب الجبال والأودية المحيطة « بمكة » ، وظلوا كذلك طوال العام الثانى من مبعث النبى الكريم . واستمروا كذلك حتى أوشك العام الثالث أن ينصرم ؛ ولكن حدث أن خرج « سعد بن أبى وقاص » على رأس جماعة من المؤمنين للصلاة فى أواخر العام الثالث ، فظهر عليهم نفر من مشركى قريش أثناء الصلاة ، فأخذ المشركون ينكرون على المؤمنين خروجهم عن دين آبائهم وأجدادهم ، ثم تمادوا فى تعنيفهم وصاروا يعيبونهم ويعيبون صلاتهم حتى حمى الجدال ونشب النزاع بين الفريقين ، فتماسكوا بالأيدى ، واعتدى المشركون على المسلمين ، فضرب « سعد بن أبى وقاص » أحد المشركين فشج رأسه وسال منها الدم غزيراً ، فكان ذلك أول دم أهرق فى الإسلام ، كما كان إيذاناً بقرب نهاية عهد الدعوة السرية (١) .

وحدث أثناء ذلك أن حم القضاء وتوفى فجأة « عبد الله » ابن الرسول الكريم قبل أن يتم مدة الرضاع ، فأصيبت « خديجة » بصدمة عنيفة أقضت مضجعها وعصفت بسعادتها . لقد كانت فرحتها عظيمة عندما وهبها الله إياه بعد طول انتظار وترقب ، فحمدت الله على هذه النعمة العظيمة ، ولكن الفرحة لم تطل فقد اختطفه الموت منها بعد أن كان قد نما عوده وشب قوياً ،

---

(١) متفق عليه ، وانظر ابن هشام : السيرة جـ١ ص ٢٦٣ .

وكان مصدراً من مصادر سعادتها، وكانت لاتنى تضرع إلى الله أن يمنحه القوة ويبقيه حتى يصير رجلاً يقف إلى جوارها عند الكبر، ويعوضها عن فقد ابنها «القاسم»، وكانت ترجو أن تكون منه الذرية الصالحة التى تخلد ذكرها، وتتوارث أمجاد «محمد» صلى الله عليه وسلم، وتعمل على نشر ما أوحى به الله إليه؛ ولكن فقده قضى على آمالها، ومزق فؤادها، فحزنت ما شاء الله لها أن تحزن، وبكت ما شاء الله لها أن تبكى. على أن إيمانها بقضاء الله وقدره كان قد ملأ قلبها نوراً، فأسلمت أمرها إلى خالق السموات والأرض وما فيهن. لقد شاءت إرادة الله ألا يكون لها من «محمد» صلى الله عليه وسلم أبناء من الذكور، ولا شك أن ذلك كان لحكمة أرادها الله العزيز الحكيم، وهى إذ تعجز عن إدراك كنه هذه الحكمة، لا تملك إلا أن تتجلد وتصبر وتسلم أمرها إلى خالقها يقضى فيه بما يشاء فهو القاهر فوق عباده، بيده الأمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

أما «محمد» صلى الله عليه وسلم فقد كان بشراً، وكان يؤمن كما كانت تؤمن البيئة القَبَلِيّة التى كان يعيش فيها، أن المال والبنين زينة الحياة، وأن الولد الذكر هو خير معين لأبيه عند الكبر، وأن كثرة البنين ترفع من شأن الأب والأسرة والقبيلة، وتدفع عنهم غارات الأعداء وتصون لهم أعراض النساء، وتساعد على كسب العيش وتنمية الأموال؛ وكان يتمنى أن يهبه الله من لدنه ولياً يرثه ويكون له ولزوجته «خديجة» قرة عين، وتكون منه الذرية الصالحة التى تتمسك بالإسلام وتعين على نشره؛ ولكنه كان يعلم أن الله هو الخلاق العظيم، وأنه هو الوهاب الكريم:

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ (١)

وكان إيمانه بقضاء الله وقدره لا يعدله إيمان، ولذلك فقد سالت دموعه، فى صمت معبرة عن حزنه الدفين وألمه العميق؛ ثم قال، وما تزال دموعه تنهمر، مثل ما قال عند موت ابنه إبراهيم: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بك يا عبد الله لمحزونون» (٢).

---

(١) سورة الشورى: آية ٤٩.

(٢) مقتبس مما فعل الرسول الكريم عند موت ابنه إبراهيم.

أما المشركون فقد فرحوا فرحاً عظيماً، واستبشروا بهذا الذى أصاب النبى صلى الله عليه وسلم، وكانت شماتتهم كبيرة فقد أشاع سفهاؤهم أن موت «عبد الله» قد ترك «محمداً» لا عقب له ولا ذرية من الذكور ترثه بعد وفاته، وأنه لذلك لا يلبث أن ينقطع ذكره فى الحياة الدنيا التى يؤمنون أن لا حياة بعدها، فقد التقى أحد سفهاء قريش بعد وفاة «عبد الله» مع النبى صلى الله عليه وسلم عند باب «بنى سهم»، وهو أحد أبواب المسجد الحرام، وتحدث إليه، فلما دخل إلى ناديه، وجلس مع أصحابه من الأرستقراطية القرشية، سألوه عمن كان يتحدث معه، فرد عليهم قائلاً: «ذلك الأبتر»، وكان يسره أن يعيد هذا الوصف، وكان كلما جاء ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذكره، واسترحتم منه»، وكان كلما مر بالنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «إنى لأشنؤك، وإنك لأبتر من الرجال»، فأنزل الله سبحانه وتعالى «سورة الكوثر» (١) يخبر فيها «محمدا» صلى الله عليه وسلم أنه أعطاه نهراً فى الجنة اسمه «الكوثر»، له حوض ترد عليه أمته فترتوى منه، وأنه أعطاه فى الدنيا والآخرة الخير الكثير من النبوة والقرآن الكريم والشفاعة، ثم أمره أن يداوم على الصلاة خالصة لوجه الله، وأن ينحر الذبائح شكراً لله تعالى على ما أولاه من نعم وخصه من خير وكرامة. أما هذا الكافر الذى أبغضه وشمت فيه فقد وصفه الله تعالى بأنه هو الأبتر الذى انقطع عن كل خير فانقطع بذلك ذكره. وأوجز الله سبحانه هذه البشارة فى ثلاث آيات بليغة هى أقصر سور القرآن جميعاً حيث قال:

(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ (٢)

وبهذه السورة الكريمة نصر الله سبحانه النبى على أعدائه وانتصف له

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول عند ذكر أولاد رسول الله ص ٨٥، وكذلك النيسابورى: أسباب النزول جـ٢ ص ٢٦٠.

(٢) سورة الكوثر.

منهم، فقرت بذلك نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وانشرح لها صدره، وكانت نعمة الله جزاء له على صبره وإيمانه بقضاء الله وقدره فقد روى عن «أنس بن مالك» أنه قال: «بينما ذات يوم بين أظهرنا [1]، إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا له: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت على آنفاً سورة [2]، ثم قرأ سورة الكوثر».

ولم يكتف النبى صلى الله عليه وسلم أن يأخذ نفسه بالصبر على فقد فلذة كبده، ولكنه كثيراً ما أوصى المسلمين بالصبر عند فقد أعز ما يملك الإنسان وهو الولد، فقد روى «أبوهزيرة» أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدى المؤمن جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه [3] إلا الجنة» [4] أى أن العبد إذا صبر على فقد أحد أبنائه وهو صفيه فى الحياة الدنيا حِسْبَةً لوجه الله تعالى أدخله الله الجنة. وكذلك روى أبوموسى الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدى؟ فيقولون: حمدك واسترجع [5]. فيقول الله: ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة، وسموه بيت الحمد» [6].

لقد بشّر الله سبحانه بهذه السورة رسوله صلى الله عليه وسلم، أن النبوة لم تجعله أبتر كما ادعى المشركون ولكنها ادامت على مر الأيام وكر الليالى ذكره، ورفعت منزلته، وجعلت منه أبا لكل المؤمنين يعلمهم ويزكيهم ويهديهم إلى الإيمان بالله وإلى عمل الخير، ويبشرهم برضوان ربهم الذى

---

(١) الإشارة هنا إلى الرسول الكريم أى بينما كان النبى صلى الله عليه وسلم جالسا بيننا.

(٢) أخرجه النسائى فى سننه باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم جـ٢ ص ٣١٣ انظر الأحاديث القدسية الجزء الأول، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص ٢٨٦.

(٣) أى قال حسبى الله ونعم الوكيل.

(٤) أخرجه البخارى من كتاب الرفاق باب العمل يبتغى به وجه الله جـ٨ ص٩٠ وانظر الأحاديث القدسية جـ١ ص٢١٣.

(٥) استرجع أى قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) أخرجه الترمذى فى أبواب الجنائز جـ١ ص ١٩٠: وانظر أيضاً الأحاديث القدسية جـ١ ص٢١٥.

خلقهم، وهو بجانب أبوته يخفض لهم جناحه ويرأف بهم ويرحمهم، وقد كان عند موت ابنه «عبد الله» وشماته الكفار أباً لنفر من المؤمنين من رجال قريش ونسائهم ولفيف آخر من العبيد والموالى، وكانت زوجته «خديجة» أما لهؤلاء المؤمنين جميعا تفرح لفرحهم، وتحزن لما يصيبهم:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ (١)

وقد كان هؤلاء المؤمنون هم الرواد الذين تحملوا أعباء الدعوة إلى الإسلام ونهضوا بها تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاهدوا فى سبيل نشر كلمة التوحيد حتى نصرهم الله ودخلوا مكة، وهدى الله مشركى قريش فدخلوا فى دين الله أفواجا، وأصبحوا بعد فتح مكة أبناء نبى الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن هؤلاء المؤمنين والمؤمنات هم الذين تتلمذوا على «محمد» صلى الله عليه وسلم ونشروا تعاليم القرآن وأحاديث الرسول بعد وفاته بين الناس كما قادوا المسلمين إلى النصر فى الفتوح فى صدر الإسلام، وعنهم أخذ التابعون، كما أخذ ويأخذ جميع التابعين بإحسان إلى يوم الدين، وبجهود هؤلاء جميعا أصبح «محمد» صلى الله عليه وسلم أباً ومعلما ومبشرا لأكثر من ثمانى مائة مليون مسلم ومسلمة ينتشرون الآن فى أرجاء المعمورة، وصارت «خديجة» أول أم من أمهاتهم، وهؤلاء المسلمون جميعا يشيدون بذكر نبيهم «محمد بن عبد الله» صلى الله عله وسلم، ويصلون عليه استجابة لأمر الله سبحانه بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٢)

ويحبون «خديجة» ويعرفون لها فضلها وجهادها فى سبيل الله ورسوله.

لقد أكرم الله نبيه «محمدا» صلى الله عليه وسلم وعوضه عن صبره على

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

ما أصابه فى فقد ولده وفلذة كبده «عبد الله» ، وكذلك فإن الله سبحانه وتعالى كان حفيا بأم المؤمنين «خديجة» فهى أول من آمن برسالته فور علمها بها فى اليوم الأول من مبعثه دون تردد أوشك أوجدال . لقد جاء إليها فى ذلك اليوم يرجف فؤاده ، وتضطرب نفسه من شدة الفزع والروع الذى لحقه عندما نزل الوحى لأول مرة ، فما زالت به تهدئ من فزعه ، وتطمئن من نفسه ، وتذكّره بما أنعم الله به عليه من الخلق الكريم وحب الخير، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين من أمثاله فهو لن يتخلى عنه ، وبذلك كانت له أول وزيرة حكيمه تدبر معه الأمر، وتمحضه النصح ، وتشحذ من عزيمته ، تشبته وتعاونه على تحمل أعباء الرسالة التى أوكلها الله إليه ، وكانت له المحبة المخلصة التى توفر له الهدوء والراحة والطمأنينة التى كانت لازمة لنجاحه فى تأدية هذه الرسالة ، وتُذْهب ما به من ضجر وتعب ، وتهوّن عليه ما يقابله من مصاعب وما يلقاه من عناء المشركين ، فكان لا يسمع منهم شيئاً يكرهه من رد عليه ، واستهزاء به ، وتكذيب له مما كان يؤلمه ويحزنه حتى يفرج الله عنه بفضل رعايتها وعطفها ورجاحة عقلها (١). ولم تكتف فى مؤازرته بفكرها وحنانها ، ولكنها جعلته هو المتصرف فى كل مالها ، وقاسمته السراء ، وصبرت معه على الضراء دون ما كلل أوملل بفضل نور الإيمان الذى ملأ الله به جوانحها ، ولذلك فإن الله الكريم الذى لا يضيع عنده أجر عامل ، أمر نبيه أن يقرأ على «خديجة» السلام من ربها ، وطلب منه «جبريل» أن يبلغها منه السلام ، وأن يبشرها أن الله قد أعد لها بيتا فى الجنة من القصب (٢) وقد وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته «فاطمة» بأنه من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت ، وهو بيت تنعم فيه اول أم للمؤمنين بالهدؤ والراحة والسعادة الأبدية التى لا يشوبها خوف من شقاء ، ولا تجد فيها ما يعكر عليها صفو حياتها الأخرى من ضوضاء ، ولا تشعر فيه بتعب أونصب بل هى السعادة الشاملة التى لا ينغص فيها على المرء فقد حبيب أومرض عزيز، وقد أجل النبى صلى الله عليه وسلم هذه البشارة

---

(١) متفق عليه وانظر ابن عبد البر. وابن حجر فى ذكر خديجة .

(٢) القصب هو اللؤلؤ.

الكريمة فى أبلغ عبارة فقال: «أتانى جبريل فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك تحمل معها إناء فيه إدام أوطعام أوشراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المناقب، باب تزوج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من خديجة، كما أخرج مثله فى كتاب التوحيد باب قوله تعالى: «يريدون أن يبدلوا كلام الله» جـ٩ ص ١٤٤. كما روت مثل ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين. والرواية التى أثبتناها هنا من السيوطى فى جمع الجوامع برقم ٣١ـــ٢٤١ ص ٨٦ـــ٨٧.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾

(سورة الشعراء الآيات ٢١٤ ـ ٢١٧)



الفصل الخامس

الجهر بالدعوة

شاءت إرادة الله ، سبحانه ، أن يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة الإسلامية ، وأن يبلغ الناس كافة ما أنزل إليه من ربه بعد مرور ثلاث سنوات على مبعثه ، وأن لا يكتم منه شيئا خوف اعتداء المشركين عليه ، فإن الله حافظهُ ، فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

وأمره في آية أخرى أن يجهر بالدعوة لدين الله ، ولا يلتفت إلى ما يفعله المشركون ، ولا يعبأ بما يقولون فأنزل سبحانه :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

فاستجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر ربه ، واعتلى صخرة الصفا بالقرب من المسجد الحرام ، وراح ينادى بأعلى صوته الذين كانوا يسمرون فى أنديتهم حول الكعبة ، وأخذ ينادى على جميع بطون قريش وفروعها ، فلما

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ ؛ وانظر النويرى : نهاية الأرب جـ١٦ ص١٩٦ .

(٢) الحجر : الآيتان رقم ٩٤ ــ ٩٥ وانظر ابن هشام : السيرة جـ١ ص٢٦٢ ــ ٢٦٣ والطبرى : التاريخ جـ ٢ ص ٣١٨ .

اجتمعوا حوله فاجأ الحاضرين منهم بأمر لم يخطر لهم على بال، أمر يهدم كل معتقداتهم الدينية رأسا على عقب، فقد دعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وأنذرهم عذابا شديدا إذا استمروا على شركهم، وقد تجلت براعته فى طريقة عرض هذه الدعوة بخطبة رائعة، بدأ فيها بأن أثار فى نفوسهم حبهم واحترامهم له، وإيمانهم بأمانته وصدق حديثه، وكان للخطابة فى الجاهلية تأثير كبير على النفوس، ولذلك كان لخطبته صدى بعيدا فى نفوسهم، فهى وإن لم تنجح النجاح الذى كان يرجوه لها بسبب تصدى عمه «أبى لهب» له، واعتراضه عليه، فإن معانيها قد تركت فى نفس من سمعها، ونفس من نقلت إليه تأثيرا لا يسهل محوه، ومهدت السبيل لما تلاها من أحداث.

لقد صدمت هذه الخطبة، التى افتتح بها رسول الله صلى الله عليها وسلم دعوته لدين الله، الرجل العادى صدمة عنيفة فى عقيدته الدينية، فقد كان سكان «مكة» جميعا يعبدون ما تعبد قريش، وقد تعودوا الانقياد، دون تفكير، لما فرضته عليهم من عبادة عدد كبير من الأصنام وفق طقوس فرضتها، ولكنه رأى اليوم بعينيه، وسمع بأذنيه، رجلا من أوسط قريش نسبا، وأعلاهم حسبا، يقف فى رائعة النهار أمام جمع من سادة قريش ورؤسائها وهو يبشر بدين جديد، وعبادة إله واحد لا شريك له، وينذرهم عذابا شديدا إذا لم يستجيبوا له، وقد صدرت هذه الدعوة الجريئة عن رجل كانت قريش كلها، كما كان أهل مكة جميعا يحبونه ويؤمنون بصدقه، ويثقون فى أمانته، ولا شك أن هذه الصدمة جعلت أهل مكة جميعا ينساقون منذ ذلك اليوم إلى التفكير فيما قاله «محمد» الأمين، وإلى أن تقارن عقولهم بين ما دعا إليه فى ذلك اليوم المشهود وبين ما ورثوه عن آبائهم الأقدمين من معتقدات، ولم ينقطعوا عن التحدث عن ذلك فى بيوتهم وعند لقاء بعضهم البعض.

أما من استمع إلى هذه الخطبة من شيوخ الأرستقراطية القرشية وشبانها، ومن نقلت إليهم أخبارها، فقد أفقدتهم الحزم الذى اشتهر به كثير منهم، وانقسموا فريقين: الفريق الأكثر عددا. والأعز نفرا هالهم أن يقف «محمد»

بتلك الشجاعة ويخطب فى الجماهير من قريش ومن غيرها، عارضا عليهم دينا جديدا يقوم على عبادة إله واحد ونبذ عبادة الأصنام، وقد بلغت به الشجاعة أن ينذر الذين لا يتبعونه بالعذاب الشديد، وكان أكثر هؤلاء لا يهتم فى قرارة نفسه بأمر الدين، ويقبل على الاستمتاع باللهو والإغراق فى الملذات، وكان كل ما يحرص عليه هو أن تظل الطقوس التى أقرها أجدادهم لعبادة الأوثان مسيطرة على عقول أهل مكة، وعلى جميع قبائل العرب، وكان ذلك فى نظرهم هو مصدر ثروة قريش، والأساس الذى كانت تبنى عليه مكانتها فى شبه الجزيرة العربية كلها، حيث كان العرب يعظمونهم ويوقرونهم بوصفهم حماة الأصنام العديدة المرصوصة حول الكعبة، ولذلك كانت التجارة التى تحملها القوافل القرشية فى رحلتى الشتاء والصيف مصونة لا يفكر عربى فى الاعتداء عليها، وفات هؤلاء أن العرب كانت تحترمهم وتجلهم بوصفهم حماة الكعبة المشرفة، وبذلك خلطوا بين الوظيفة الشريفة التى ورثوها عن جدهم «إبراهيم وأبيهم إسماعيل» اللذين أقاما الكعبة، وبين تلك الأوثان التى استعار عبادتها أجدادهم تقليدا لبعض الشعوب الوثنية التى كانت تجاورهم. وقد ظل هذا الفريق يتحدث بأمر «محمد» كلما اجتمعوا فى نواديهم، ولكنهم كانوا لا يأبهون بهذه الدعوة ولا يظنون أنه ستقوم لها قائمة، وصور لهم كبرياؤهم أنه لا خطر منها ولا من صاحبها.

أما الفريق الثانى، وكانوا أقلية ضئيلة، فقد أثارت شجاعة «محمد» وحكمته وبعد نظره فى نفوسهم إعجابا شديدا، وكانوا يرون أنه لا يليق بالإنسان أن يعبد صنما نحته أحد أجداده فهو حجر لا خير فيه ولا غناء، وكان من بين هؤلاء النفر القليل أولئك الذين استجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا بالوحدانية، ولكنهم جميعا لم يكونوا يجرؤون على إعلان ذلك.

ولأهمية هذه الخطبة التى افتتح بها النبى الكريم دعوته لدين الله، رأينا أن ننقل للقارئ الكريم ما ورد إلينا منها:

صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا وقال: يا معشر

قريش ! فقالت قريش : «محمد» على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا : ما لك «يا محمد» ؟ قال : أرأيتكم لوأخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني (١) . قالوا : نعم . أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط . قال :

«فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد» .

ثم هتف بأعلى صوته مناديا كل بطون قريش وقال :

«يا بني عبد المطلب» يا بني عبد مناف ! يا بني زهرة ! يا بني تميم ! يا بني مخزوم «يا بني أسد»

«إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله»

وهنا انبرى له عمه «أبو لهب» وقال : «تبًّا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟» ثم قام «أبو لهب» وانصرف ، فانصرفت الناس (٢) .

وكان الله قد أنزل على رسوله يأمره أن ينذر الأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته ، وأن يخوفهم ما ينالهم من عذاب إذا لم يؤمنوا بالله الواحد ، وأن يتبرأ منهم ومن أعمالهم إن عصوه ولم يتبعوه ، وأن يرفق ويعطف على من يتبعه من المؤمنين ، وأن يفوض أمره إلى الله فهو وحده العزيز القادر على قهر أعدائه وعلى نصر دينه ، بقوله سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (٣)

---

(١) المقصود هل إذا أخبرتكم أن خيلاً من الأعداء جاءت لتغير عليكم وهي الآن بسفح الجبل فهل كنتم تصدقوني ؟ .

(٢) متفق عليه مع خلاف طفيف في بعض الألفاظ ، وانظر ابن سعد : الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ١٣٣ ، والطبري : التاريخ جـ ٢ ص ٣١٩ ، والنويري : نهاية الأرب جـ ١٦ ص ١٩٧ ؛ والبخاري ، الحديث ٣١٥٣ جـ ٦ ص ١٩ .

(٣) سورة الشعراء : الآيات ٢١٤ ــ ٢١٧ .

وامتثالا لأمره تعالى قرر أن يوجه دعوة خاصة لأقرب الناس إليه وهم بنو جده «عبد المطلب» حيث تتاح له الفرصة للتحدث معهم ودعوتهم للدخول في دين الإسلام، وكان يرجو أن يستجيبوا جميعا له أو أن يستجيب له أكثرهم. فيشدون أزره ويكونون عونا له على تبليغ رسالته، ولذلك أمر «عليّ بن أبي طالب» أن يدعوهم إلى طعام وشراب من لبن في بيت «خديجة»، وكانوا يومئذ حوالي أربعين رجلا، فيهم أعمامه أبو طالب، وأبو لهب والعباس وحمزة. فلما أكل القوم وشربوا همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم، ولكن عمه «أبا لهب» سبقه إلى الكلام فقال ما معناه: إن صاحبكم يريد أن يسحركم. فتفرق القوم قبل أن يتحدث إليهم النبي (1) صلى الله عليه وسلم.

وتأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه؛ لم ييأس أن يهديهم الله إلى دينه فيكونوا له نعم العون، ولذلك أمر «عليا» أن يدعوهم ثانية، وأن يعد لهم وليمة أخرى، وحمل الطعام من بيت «خديجة» إلى بيت «أبي طالب» حيث اجتمع بنو «عبد المطلب»، فأكلوا وشربوا حتى ارتووا، وتكلم النبي الكريم، فشرح لهم مبادئ الإسلام والغايات السامية التي يدعو إليها، ثم قال:

«يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم بخاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذا الأمر ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟» فلم يقم إليه أحد، وساد صمت عميق حتى نهض «علي بن أبي طالب»، وهو الغلام الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة، وقال في شجاعة أمام أبيه وأعمامه وأولادهم وكلهم أكبر منه سناً: «أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه» فبهت القوم وسكتوا، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أجلس».

وأعاد النبي عرض الدعوة إلى الإسلام ثم وجه إليهم السؤال ثانية: «أيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟» فاستمر القوم في

(1) الطبري: التاريخ جـ2 ص319 ـ 320.

وجوههم ، وساد الصمت ثانية ولم يقم إلا هذا الغلام الشجاع مرة ثانية وقال : «أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه» .

وللمرة الثانية أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالجلوس ، ثم أعاد عرض أمر رسالته عليهم . ووجه إليهم السؤال نفسه طالبا مؤزارته ، ولكنهم صمتوا وأحجموا عن الاستجابة إلى دعوته ، فاندفع الغلام المؤمن واقفا وواجه الحاضرين جميعا وهو يقول فى شجاعة : «أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه» .

وفى رواية ثانية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم : يا بنى عبد المطلب ، إنى والله ما أعلم شابا فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به ، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى (١) على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيتى وخليفتى فيكم ؟ فأحجم عنها القوم جميعا ، ووقف «على بن أبى طالب» وهو الغلام ابن الثالثة عشرة ، وقال فى شجاعة وإيمان : «أنا يا نبى الله ، أكون وزيرك عليه . فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم برقبة «علىّ» ثم قال : «إن هذا أخى ، ووصيتى ، وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا» (٢) .

وهنا نهض القوم وقد أدهشهم ما حدث ، وأخذ بعض كبارهم يهزأون من «علىّ» وقد ظهر عليهم الغيظ ، واستولت روح السخرية والاستهزاء على بعضهم وهو يقول لشيخهم «أبى طالب» : «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع !» (٣) .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يجهر بعبادته ، فيذهب إلى البيت العتيق حيث يصلى ، ويصلى خلفه «على بن أبى طالب» ، وتصلى خلفهما «خديجة» أم المؤمنين ، وقد وردت عن ذلك الروايات الكثيرة الموثوق بها نذكر من بينها قول «عفيف بن قيس الكندى» ، وهو تاجر يمنى أسلم بعد

---

(١) المقصود من ينهض معى بأعباء الدعوة ؟ .

(٢) الطبرى : التاريخ جـ٢ ص ٣٢١ ــ ٣٢٢ .

(٣) المصدر السابق .

ذلك، قال: «جئت في الجاهلية إلى مكة، فنزلت على «العباس بن عبد المطلب». قال: فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة، أقبل شاب، فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام، فقام عن يمينه. قال: فلم يلبث حتى جاءت امرأة، فقامت خلفهما، فركع الشاب، فركع الغلام والمرأة، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخر الشاب ساجدا فسجدا معه، فقلت: «ياعباس»، أمر عظيم! فقال: أمر عظيم! أتدرى من هذا؟ فقلت: لا. قال هذا «محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب» ابن أخى. أتدرى من هذا معه؟ قلت: لا. قال: هذا «على بن أبى طالب بن عبد المطلب»، ابن أخى. أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما؟ قلت: لا. قال: هذه «خديجة بنت خويلد»، زوجة ابن أخى. وهذا (١) حدثنى أن ربك رب السماء، أمرهم بهذا الذى تراهم عليه، وايم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة (٢).

ويتضح من هذه الرواية أن السرية الكاملة التى كان قد فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية نشر الدعوة طوال الثلاث السنوات الأولى من مبعثه، جعلت كبار زعماء قريش لا يعرفون على وجه التحديد من هم الذين دخلوا فى هذا الدين الجديد، حتى أن «العباس بن عبد المطلب»، وهو عم النبى، لم يكن يعلم أن الإسلام قد انتشر بين أهل مكة، وأنه قد آمن به نفر من قريش رجالا ونساء، كما آمن به غيرهم ممن ليسوا من قريش.

وكانت صلاة النبى صلى الله عليه وسلم ومن خلفه «على بن أبى طالب» والسيدة «خديجة أم المؤمنين» جهرا فى البيت العتيق، أمام الكعبة المشرفة تعتبر تحديا كبيرا لعبادة الأصنام المختلفة الأحجام التى كانت مرصوصة حول الكعبة المشرّفة وفوقها، مما كان يغيظ المشركين ويزيد من

(١) الإشارة هنا إلى ابن أخيه محمد: الطبرى: التاريخ جـ٢ ص ٣١١.
(٢) المرجع السابق.

سخطهم، ولذلك كثيرا ما نهاه «أبو جهل» عن الصلاة فى المسجد الحرام، واعترضه مرة قائلا: «ألم أنهك عن هذا؟»، فانصرف إليه النبى صلى الله عليه وسلم فزجره وتوعده، فقال أبو جهل مفتخرا بنفسه وبكثرة أعوانه: «يهددنى «محمد» وقد علم أن ما بها رجل أكثر ناديا منى!»(١) وإزاء هذا الاعتزاز بالنفس وبكثرة الأعوان والأتباع أنزل الله سبحانه وتعالى قوله الكريم:

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾

إلى أن قال سبحانه: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (٢)

وأطاع النبى صلى الله عليه وسلم أمر ربه، فكان يصلى جهارا فى كل الأماكن، وبخاصة فى تلك التى يؤمها الناس أيام الحج، وكان يصلى خلفه «على بن أبى طالب» وأم المؤمنين «خديجة»، ومن ذلك مارواه «عفيف الكندى» حيث قال: (كان «العباس بن عبد المطلب» لى صديقا وكان يختلف إلى اليمن يشترى العطر فيبيعه أيام الموسم(٣)، فبينما أنا عند «العباس بن عبد المطلب» بمنى، فأتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ

---

(١) ما بها أى ما بمكة. أكثر ناديا أى أكثر أتباعاً وأعواناً، والمعنى العام: أنه أراد أن يقول: أيهددنى محمد وهو يعلم أنه لا يوجد فى مكة رجل أكثر منى أتباعاً وأعواناً؟.

(٢) سورة العلق. وانظر السيرة لابن هشام جـ١ ص ٣١١؛ وابن عبد البر؛ الدرر، ص٤٨.

(٣) المقصود: فى موسم الحج.

الوضوء (١) ثم قام يصلى، فخرجت امرأة فتوضأت وقامت تصلى، ثم خرج غلام قد راهق (٢) فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلى. فقلت ويحك يا عباس ما هذا؟ قال: هذا ابن أخى «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب»، يزعم (٣) أن الله بعثه رسولا، وهذا ابن أخى «على بن أبى طالب» قد تابعه على دينه. وهذه امرأته «خديجة ابنة خويلد» قد تابعته على دينه) (٤).

وقد قابل المشركون جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء إلى الله والصلاة فى الكعبة وفى غيرها من الأماكن بالاستهزاء والسخرية منه، والعيب فيه، وكان يعز على النبى صلى الله عليه وسلم ما يلاقى من الكفر بالله والعيب فى رسوله والاستهانة برسالته، وكانت السيدة «خديجة» فى كل مرة تهون عليه أمرهم، وتسفه عقولهم، وتحط من قدرهم، وما تزال به تسرى عنه حتى تهدأ نفسه، ويذهب ما به من غيظ وألم، وكانت تذكر له دائما أن الله يرعاه وسوف ينصره عليهم. وسوف نقتصر فى هذا المجال على ذكر بعض الحوادث حتى لا يتسع بنا المجال.

روى «مالك بن دينار» قال: حدثنى «هند بن أبى هالة» (٥) ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن السيدة «خديجة»، أن النبى صلى الله عليه وسلم مر «بالحكم أبى مروان» فجعل «الحكم» يغمزه ويذمه ويعيب فيه مشيرا إليه بأصبعه حتى التفت صلى الله عليه وسلم إليه وتطلع إلى السماء ودعا عليه قائلا: «اللهم اجعل له وزغا» فاستجاب السميع

---

(١) أسبغ الوضوء: وفِىّ كل عضو حقه من الماء أثناء الوضوء.

(٢) فى سن المراهقة.

(٣) لم يكن العباس قد أسلم حين قال ذلك.

(٤) الطبرى: التاريخ، جـ٢ ص ٢١١، ٣١٢؛ وابن عبد البر: الاستيعاب، جـ٢ ص ٤٧٠.

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ٥، ترجمة هند بن هند بن أبى هالة برقم ٤٠٥ ص ٤١٩، وقد ورد هذا الخبر كذلك فى ابن حجر: الإصابة وقد اقتبسنا بعض الألفاظ منها، أما دعاء النبى صلى الله عليه وسلم عليه فأثبتناه كما ورد فيها.

العليم، فرجف «الحكم أبى مروان» مكانه، وارتعش على الفور، واهتزت يداه وبعض أجزاء وجهه اهتزازا غير إرادى، وأصبح لا يستطيع التحكم فيهما (١) .

وازداد استهزاء المشركين وعيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر عدد المستهزئين، وحدث مرة أثناء اجتماع جبريل مع النبى صلى الله عليه وسلم أن مر بهما خمسة من هؤلاء السفهاء واحدا فى إثر واحد، فشكا الرسول صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من سفاهتهم، وقبح ما يقذفونه به من قول، واستمع الله السميع إلى شكواه، فأهلكهم جميعا بأنواع مختلفة من البلاء والعمى قبل الهجرة (٢)، وأنزل قرآنا كريما وعد فيه بحماية رسوله من هؤلاء المشركين الذين يسخرون منه حتى لا يستطيعوا أن يحولوا بينه وبين تبليغ رسالته والدعوة إلى دينه، ووصفهم بأنهم قوم قد ضعفت عقولهم فاتخذوا مع الله الواحد الأحد آلهة أخرى من الأوثان، وأنه سوف يعاقبهم على شركهم بالله فيصب عليهم العذاب يوم القيامة، ثم ذكر، سبحانه، أنه يعلم ما يشعر به النبى صلى الله عليه وسلم من آلام نفسية، وأنه ليضيق صدره مما يقولون بألفاظ الشرك بالله والاستهزاء والاستهانة برسوله، وأمره أن يلجأ إلى الله إذا شعر بالضيق والألم، وأن يتجه إليه، وأن يستعين بالصلاة فهى تشفى غليل الصدور، وأن يلتزم عبادة الله الخلاق العظيم، فهو وحده الذى سيحفظه منهم حتى يوم الحساب، حيث ينال كل إنسان جزاء ما قدمت يداه، قال تعالى:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (٣)

---

(١) الوزغ هو مرض الرعشة التى تصيب أجزاء من الجسم . انظر ابن حجر: الإصابة فى ترجمة هند بن أبى هالة برقم ٩٠٠٦ ؛ رجف: اضطرب وارتعش .

(٢) ابن عبد البر: الدرر ص ٤٩ .

(٣) سورة الحجر: الآيات ٩٥ ــ ٩٩ .

وقد شجعت صلاة النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه، ودعوته الناس جهرا إلى عبادة الله الواحد خالق كل شيء، ونبذ ما عدا ذلك، شجعت بعض المسلمين على إظهار نبأ إيمانهم بالله. لقد كانوا قبل ذلك يخفون اعتناقهم للإسلام ولا يعرفهم إلا إخوانهم الذين آمنوا معهم، ولكنهم رأوا أن يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويستنوا بسنته، فجهر بعضهم أمام الملأ من قريش بإسلامهم، وكان أول من أذاع نبأ إيمانه منهم سبعة نفر هم: «أبو بكر، وسعد بن أبى وقاص، وعمار وأمه سمية، وصهيب وبلال، والمقداد»، وأخذوا يدعون جهرا للإسلام كلٌّ فى محيطه.

واجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليبه وسلم، وتدارسوا أمرهم بينهم، فرأوا أن قريشا لم تستمع إلى ما أنزل الله من القرآن الكريم كما يجب أن يستمعوا إليه، وأن من الخير أن يُجهر لها به حتى تستمع إليه لعل فى ذلك صلاحا لبعضهم، كما يكون فى ذلك حجة على من لا يريد أن يؤمن منهم، ثم تساءل المؤمنون من يقوم بقراءة القرآن عليهم؟ وانبرى «عبد الله بن مسعود»، وكان من الرواد الأوائل الذين أسلموا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضمه إليه، فأصبح أحد أفراد أسرته، وعهد إليه بالقيام على خدمته، فانبرى «عبد الله» وتطوع لأداء هذه المهمة الصعبة، ولكن أصحابه رأوا أن فى ذلك خطرا عليه إذ قد يناله المشركون بسوء ولذلك فقد كانوا يفضلون أن يتطوع لها رجل من إحدى عشائر قريش حتى تحميه من أذى المشركين. وأصر «عبد الله» أن يكون هو أول من يؤدى هذه الرسالة معتمدا على حماية الله القوى العزيز، فهو وحده القادر على حمايته من شرهم. ولما كان اليوم التالى قصد «عبد الله ابن مسعود» المسجد الحرام فى الضحى وهو موعد تجمع جماعات قريش فى أنديتها، وجلس فى مقام إبراهيم واستقبل الكعبة ثم رفع صوته وهو يرتل:

(بسم الله الرحمن الرحيم. الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان)

واستمر فى ترتيله بأعلى صوته، وقد استولت الدهشة على المشركين، ثم جعلوا يتأملون وأخذوا بعد ذلك يتساءلون «ما يقول ابن أم عبد؟» وردّ

بعضهم «إنه يتلو بعض ما جاء به محمد»، كل ذلك و«عبد الله» مستمر في تلاوة سورة الرحمن، ولم تدم مفاجأة المشركين طويلا، فهجموا عليه وأوسعوه ضربا ولكما في وجهه، وهو مستمر في قراءته لا يعبأ بما يناله من أذى حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ من آيات هذه السورة الكريمة ثم انصرف إلى أصحابه، وقد ظهرت على وجهه آثار اللكمات واللطمات التي أصابته، فقالوا: «هذا هو الذي خشينا عليك منه»، ولكنه كان منشرح الصدر راضيا بما تحمل في سبيل الله، فقد كان يرى أن ما ناله من أذى إنما هو شيء يسير بالنسبة لما أقدم عليه في مواجهة أعداء الله، وقال إنه عرف مبلغ ما يستطيعون أن ينالوه به من أذى فهان عليه أمرهم، ولذلك كان على استعداد إذا أراد أصحابه أن يفاجيء المشركين ثانية بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، ولكن أصحابه خافوا عليه وقالوا: «يكفيك ما فعلت فقد أسمعتهم ما يكرهون» (١).

* * *

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على تبليغ الدعوة إلى سادة قريش وزعمائها كلما سنحت له الفرصة، فقد كان يرجو أن يهديهم الله إلى دينه، وكان يرى أن اعتناقهم للإسلام سوف يكون فاتحة خير إذ يقتدي بهم أهلهم وأتباعهم وباقي سكان مكة، ويكون لذلك أثره بين القبائل العربية كلها. وحدث أن التقى في المسجد الحرام بلفيف من سادة قريش كان من بينهم «عتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس ابن عبد المطلب، وأبي بن خلف وأخوه أمية» فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم أن الإسلام هو دين أبيهم «إبراهيم»، وأنه يسمو بهم فوق ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، وبينما هو منصرف كل الانصراف إلى شرح مبادىء الإسلام، إذ «بابن أم مكتوم»، وهو من قدامى المسلمين (٢)، جاء إليه وأخذ يناديه

---

(١) متفق عليه بروايات اخترنا من بينها رواية الطبري: التاريخ، جـ٢ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ورواية ابن الأثير: أسد الغابة في ترجمة عبد الله بن مسعود برقم ٣١٧٧ جـ٣.

(٢) من بني لؤي القرشي العامري.

طالبا منه أن يرشده ويعلمه مما علمه الله، وكان الرجل أعمى فلم يدرك أن النبى الكريم كان مشغولا بدعوة بعض زعماء قريش، ولم يفطن أنه قطع عليه حديثه معهم، فعبس رسول الله صلى الله وسلم وانصرف عنه إلى ما كان مشغولا به. ولم يكن الإسلام ليسمح بالتفرقة بين الناس، فإنه دعوة عامة موجهة لهم جميعا لا فرق فى ذلك بين رئيس ومرءوس، ولذلك فقد أنزل الله، سبحانه، قرآنا (١) وصف فيه انشغال رسوله صلى الله عليه وسلم بدعوة بعض سادة قريش الذين يظنون أنهم قد استغنوا بثرواتهم وجاههم، فآثروا الحياة الدنيا، وأعرضوا عن دين الله، ثم عتب على النبى صلى الله عليه وسلم عبوسه وانصرافه عن «ابن أم مكتوم» الذى سعى إليه، وهو يخشى الله، طالبا العلم والهداية، وقد يفتح الله عليه فيطّهر ويتعظ فتنفعه الموعظة، ثم ينهى الله النبى صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك لأن الله سبحانه يزكى من عباده من يشاء، وينزل الآيات الكريمة تذكرة وموعظة لجميع خلقه (٢).

وسرى الخبر فى جميع أرجاء مكة، وعلم القوم أن الدين الجديد يسوّى بين الناس جميعا، وأن «رب محمد» لم يرض له أن يؤثر سادة قريش باهتمامه، وأنه عاتبه لأنه انصرف من أجلهم عن «ابن أم مكتوم» وهو رجل أعمى من عامة قريش آمن «بمحمد» ودخل فى دينه، وأن «محمدا» صار، بعد ذلك، يكرم وفادة «ابن أم مكتوم» فيرحب به على مسمع ومرأى من أصحابه وكان يقول له: «أهلا بمن عاتبنى فيه ربى»(٣). وفرح

---

(١) سورة عبس: الآيات من ١ ـ ١٥؛ وانظر تفسير القرطبى جـ١٩ ص ٢١١ ـ ٢١٧ وتفسير ابن كثير.

(٢) متفق عليه فى كتب التفسير والسيرة؛ وانظر أسباب النزول للنيسابورى ص ٢٥٢.

(٣) المراجع السابق ذكرها.

المؤمنون بهذه الآيات التى وضعت أساسا جديدا للحياة فى المجتمع الإسلامى ، فقد قررت مبدأ المساواة بين الناس وقضت بذلك على جميع أنواع التمييز بسبب العنصر أوالحسب والنسب أوالغنى والفقر، وفرح العامة والمستضعفون من العبيد والموالى فقد رفع الله سبحانه من قدرهم ، وأعلى منزلتهم ، وأصبح الناس لا يمتازون أمام الله إلا بالعمل الصالح ، فأقبل بعضهم على الدخول فى دين الله ، وسعدوا بحفظ قوله تعالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ (١)

وتحوى هذه الآيات الكريمة التى نزلت بمكة قبل الهجرة النبوية ، من بين ما تحوى من الإعجاز القرآنى نبوأةً بشّر الله بها نبيه الكريم تفيد أن الله سبحانه قد يزكى هذا العبد المؤمن الذى يرغب فى طلب العلم ، وقد تحققت هذه النبوأة بعد هجرة الرسول ؛ إذ أبصر هذا الكفيف بنور الإيمان والعلم بالقرآن وبأحكام الشريعة الإسلامية ، فوهبه الله أصالة الرأى وحسن التدبير، ولذلك استخلفه النبى صلى الله عليه وسلم على المدينة عدة مرات عند خروجه فى بعض مغازية (٢).

---

(١) سورة عبس : الآيات ١ ـ ١٥ .

(٢) متفق عليه فى كتب السيرة ، والتاريخ الإسلامى والتراجم ؛ وانظر أسد الغابة ترجمة ٤٠٠٥ جـ ٤ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ؛ وكذلك تخريج الدلالات السمعية للخزاعى ص ١١٤ .

وإرساء لمبدأ المساواة بين المسلمين، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤاخي بين بعض من أسلم من سادة قريش وبين بعض إخوانهم في الإسلام من العبيد والموالي، ونحن نذكر بعض الأمثلة معتمدين على رواية الحافظ «يوسف بن عبد البر»: آخى النبي بين «حمزة بن عبد المطلب»، عم رسول الله، «وزيد بن حارثة» مولى الرسول الكريم الذي كان قد اشتراه ثم أعتقه، وآخى بين «الزبير بن العوام» ابن عمة النبي المصطفى «وعبد الله بن مسعود» خادم أكرم المرسلين، كما آخى بين «عبيدة بن الحارث» القرشي «وبلال بن رباح» مولى «أبي بكر» الذي كان اشتراه ثم أعتقه. آخى بينهم على الحق والمواساة في أول مؤاخاة بين المسلمين بعضهم وبعض (1).

أما رؤساء الارستقراطية القرشية فقد كانت لهم آراء أخرى في كل ما حدث منذ جهر «محمد» بأنه نبي أرسله الله إلى الناس، فقد كان كل واحد منهم يفكر بينه وبين نفسه في هذا الذي يقول به «محمد» وفي كل ما كان يدعو إليه، وكانوا يفكرون ويتناقشون معا في ذلك كلما اجتمعوا في نواديهم، وكانت لهم آراء وأفكار يختلفون فيها أحيانا، ويتفقون فيها أحيانا أخرى حتى انتهى بهم المطاف إلى أن يتفقوا على محاربته هو وأتباعه حربا لا هوادة فيها، ولا بد من أن نجمل تلك الأفكار إجمالا نتوخى فيه شدة الاختصار حتى نعرف لماذا وقفوا منه ومن تعاليمه الموقف الذي سنبينه فيما بعد.

لقد كان شيوخ الأرستقراطية القرشية يرون أن «محمد بن عبد الله» من أوسطهم نسبا، ومن أعزهم نفرا، تحميه «بنو هاشم وبنو المطلب» وعلى رأسهم عمه «أبو طالب بن عبد المطلب»؛ وكان في بعض الأحيان يجهر بترتيل ما يسميه قرآنا أثناء صلاته أو أثناء جلوسه في المسجد الحرام، وقد كانوا يحتملون ذلك منه على مضض أو يعترضون عليه في الحدود التي يسمح بها جوار عمه «أبي طالب» وحمايته له، أما أن يجلس أحد أتباعه من

---

(1) الدرر في اختصار المغازي والسير ص100، الطبعة الأولى. وانظر سبل الهدى والرشاد جـ3 ص527.

المكلفين بخدمته فى «مقام إبراهيم» مستقبلاً الكعبة ثم يرتل بأعلى صوته بعض ما جاء به «محمد» فى رابعة النهار وعلى مسمع ومرأى من رجالات قريش وهم فى منتدياتهم، ثم يستمر فى تلك التلاوة غير عابئ بما كان يكيله له القرشيون من ضربات، فهذا أمر لا تطيقه قريش ولا يحسن السكوت عليه.

وكان من رأيهم أن «لمحمد بن عبد الله»، هو وزوجته «خديجة بنت خويلد»، وابن عمه «على بن أبى طالب»، لهم أن يصلوا أويتعبدوا أمام الكعبة أوفى أماكن أخرى مادام ذلك كان مقصورا عليهم وحدهم، ولذلك تركوهم وشأنهم، أما أن يكون «لمحمد» أتباع يدينون بما استحدث من دين، ويستخفُون فى عبادتهم، فإذا فاجأهم بعض القرشيين أثناء صلاتهم، بلغت بهم الجرأة أن يناضلوا ويكافحوا عن عقيدتهم تلك بالقوة حتى شج «سعد بن أبى وقاص» رأس أحد القرشيين، فإن هذا يصبح أمرا لا يستهان به ولا يمكن قبوله.

وأما أن يتكاثر هؤلاء الأتباع فإن معنى ذلك أن يختل توازن مراكز الزعامة بين عشائر قريش، ويصبح «بنو هاشم وبنو المطلب» أكثرهم نفرا، وأعزهم مكانة، وتخضع لهم ولنبيهم بقية عشائر قريش وفروعها بعد أن كان هناك دائما توازن متفق عليه فى السلطة والنفوذ بين كل تلك العشائر بحيث لا تستأثر واحدة منها بالنفوذ، ولا تعلو فوق الآخرين، ولذلك فيجب أن يعود هؤلاء الأتباع إلى دينهم ودين آبائهم، لأن بقية فروع قريش الأخرى لن تسمح بأن يعلو عليها «بنو هاشم وبنو المطلب» مادام فيها عرق ينبض، فإذا تجرأ بعض أتباع «محمد» وجهروا بإسلامهم دون خوف أووجل، فهذا أمر يجب أن يوقف على الفور.

وكيف يسوى هذا الدين الجديد بين سادة قريش وبين العبيد الذين اشتروهم بأموالهم؟ وكيف تصلح الحياة إذا لم يكن هناك عبيد يُسَخَّرون وسادة يأمرون فيطاعون؟ بل كيف يكون من العدل، كما يقول المسلمون، أن يتساوى الفقراء مع الأغنياء؟ إن تقاليد الجاهلية الموروثة تقدم الغنى

على الفقير، والقوى على الضعيف، فالرياسة والزعامة عندهم للغنى والقوى، وعلى الفقير الطاعة والرضا بما هو فيه، فكيف تنبع إذن المساواة من العدل عند المسلمين؟ وكيف تصبح المساواة عندهم عقيدة وخلقاً ونظاماً؟ إن عقول قريش وعقول العرب فى الجاهلية لاتستسيغ هذه الدعوة التى تقلب حياتهم الاجتماعية رأسا على عقب، فإن العبيد والفقراء والضعفاء هم الذين كانوا ينهضون فى المجتمع العربى بأشق الأعمال وأصعبها، وليس للعبيد حقوق إلا مايتفضل به عليهم سادتهم، ولا يستطيع القرشيون وزعماء القبائل العربية أن يرضوا عن هذه المساواة التى تقول إن الناس سواسية كأسنان المشط ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، ولذلك فسوف يتكاتفون ويحاربون هذا الدين حتى يقضوا على كل هذه التعاليم التى أفسدت العبيد والمستضعفين، فأصبحوا يرتبون لأنفسهم حقوقاً مثل سائر البشر.

وهكذا نرى أنه لم يكن عند زعماء قريش الذين حاربوا الإسلام من بعد النظر مايفسح أمامهم المجال للتفكير السليم، ولم تكن عندهم القدرة على التحلل من إسار العادات والتقاليد الموروثة، ولكن الله أضاء بصيرة السيدة «خديجة» أم المؤمنين ومنحها من بعد النظر وقوة العزيمة ماميزها على كثير من زعماء قومها، فقد رأيناها تضرب بالعادات والتقاليد الجاهلية عرض الحائط وتنبذها فى شجاعة، فتقدم دون تحرج على اختيار الزوج الصالح الذى تعتقد أنه سوف يسعدها ويحافظ عليها وعلى مالها، ولم يكن فقر هذا الزوج مانعا ولا عائقا دون اختياره، ورأيناها كذلك تدبر لاختيار الزوج المناسب لأكبر بناتها زينب، ولم تكن قرابته منها، ولا وفرة ماله هما السبب الأساسى الذى شجعها على ذلك، ولكن كان خلقه ورجولته هما اللذان شجعاها على أن تطلب من زوجها أن يوافق على اختياره. ورأيناها تسارع إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وتنبذ عبادة الأصنام، فكانت بذلك أول من آمن بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وأول من وقف بجواره تؤازره وتشجعه وتخفف عنه كل مايعترض سبيله من مصاعب، وتهون عليه كل مايقابله من متاعب ومايناله من أذى. كذلك رأيناها تكرم «زيد بن

حارثة» الذى اشترته بمالها ووهبته لزوجها، ويصبح لها بمنزلة الابن بعد أن تبناه «محمد» صلى الله عليه وسلم؛ ورأيناها تكرم «ثويبة» جارية أبى لهب التى كانت أول من أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحاول جاهدة أن تشتريها لتعتقها وتمنحها حريتها، كما رأيناها تكرم «حليمة السعدية» مرضعة رسول الله، وتكرم حاضنته «أم أيمن».

وكان مشركو قريش،فوق هذا كله، يرون أن «محمد بن عبد الله» يدعو إلى عبادة إله واحد لا شريك له، ويزعم أن الأصنام التى يسجدون لها حجارة لا تسمع، فهى لا تغيث ولا تضر ولا تنفع، ولذلك فهو يطالب بنبذ عبادتها وتكسيرها. وكانوا يؤمنون أن ماهم فيه من ثروة وجاه وسلطان نابع من قيامهم بالمحافظة عليها وعلى مراسم وطقوس عبادتها، فإليها كان جميع العرب يحجون خاشعة قلوبهم حاملين معهم نذورهم ومحاصيلهم فيبيعون ما يحملون من متاع، ويبتاعون من مكة ما هم فى حاجة إليه، وبسببها كان العرب جميعا يحترمون قريشا، ويحافظون على قوافلها فى رحلتى الشتاء والصيف وهى أهم مصدر من مصادر ثرواتهم الضخمة، وهكذا خلط مشركو قريش بين واجبهم المقدس فى حماية الكعبة المشرفة التى أمر الله «إبراهيم وإسماعيل» بإقامتها وتوارثوا سدنتها وحراستها، وبين تلك الحجارة التى صنع بعض أجدادهم منها أصناما ثم عبدوها مع الله.

وكان فريق منهم لا يستطيعون أن ينكروا أن ما نزل على «محمد بن عبد الله» هو الدين الحق، ولكنهم كانوا يظنون أنهم إذا آمنوا به خرج العرب جميعا عليهم، وتمسكوا بمعتقداتهم الموروثة، واتحدوا فى محاربة قريش، وقريش لا قبل لها بحربهم جميعا، وقد اعترف بذلك أحد سادتهم وهو «الحرث بن عثمان بن عبد مناف»، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنا لنعلم أن الذى تقول هو الحق، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم»(١)، فأنزل الله فى

(١) أبو الحسن النيسابورى: أسباب النزول ص ١٩٤.

ذلك قرآنا يذكرهم فيه أنه جعل مكة بلدا آمنا تجبى إليه كل الثمرات ، فقال عز من قائل :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وقد هال زعماء قريش أن الدين الذى يبشر به «محمد» يقرر أن الناس جميعا يبعثون بعد الموت ، وأنهم يحاسبون يوم القيامة على ما قدموا فى الحياة الدنيا ، فمن آمن منهم بالله ورسوله وعمل صالحا يدخله الله جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومن كفر يرمى فى جهنم وبئس المصير، وقد توعد «محمد» «أبا جهل»، وهو زعيم من زعمائهم، بالزبانية يجرونه إلى الجحيم ، كما سفه أحلام القرشيين وسخر من عقولهم التى لم تعرف كيف تفرق فى عبادتها بين السجود لإله واحد والسجود لحجارة نحتوها ثم عبدوها مع الله الخالق لكل شىء ، ولم يستطيع تفكيرهم القاصر السقيم أن يعرف أن الله هو الذى يدبر الأمر وحده ، وهو القاهر فوق عباده ، فليس لأحد أن يدعو إلا الله ليكشف عنه ما قد يمسسه من ضر، ولا أن يبتهل لغيره موسطا إياه طلبا لنعمة أورحمة ، وكانوا يقولون :

﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٢)

وكذلك سخر «محمد» من عقولهم التى لم تستطع أن تدرك أن الله الذى خلقهم وخلق آباءهم قادر على أن يحيى الموتى وأن يبعثهم من جديد ؛ وهكذا كان العيب فيهم وفى آبائهم يجرح كبرياءهم ، ويحط من كرامتهم ،

---

(١) سورة القصص : الآية ٥٧ .

(٢) سورة ص : الآية ٥ .

ويجعلهم سخرية (١) بين قبائل العرب الأخرى، وهذا أمر لا يرضونه لأنفسهم، ومذلة لا يقبلونها لما يعتقدون أنه دينهم ودين آبائهم، ولذلك يجب أن يوقفوا انتشار هذا الدين الجديد بالقوة مادام فيهم عرق ينبض.

وهكذا أصبح النزاع، بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ومن معه من ناحية، وبين زعماء المشركين من قريش ومن تبعهم من ناحية أخرى، أصبح نزاعا بين الخير الذى أصاب الإنسانية عن طريق الإسلام وتعاليمه فارتفع بها وسما بالناس جميعا، وبين الشر الذى ورثته الجاهلية من عادات وتقاليد وأخلاق يحط الكثير منها من قدر الإنسان الذى كرمه الله وجعله خليفته على الأرض، ولذلك امتلأت قلوب المشركين حقدا وكراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما أتى به من تعاليم، وهموا به يريدون أن يمنعوه عن الاستمرار فى أداء رسالته، وعن سبهم وتسفيه عقولهم وأحلامهم أو أن يقتلوه، وكذلك اشتدت كراهيتهم لمن علموا بإسلامه من أهلهم، فوثبوا عليهم يعذبونهم أشد العذاب، وينكلون بهم أشد التنكيل محاولين أن يفتنوهم ويعيدوهم إلى عبادة الأصنام. ولن يتسع المقام فى هذا البحث لذكر أكثر ما لاقاه النبى صلى الله عليه وسلم من أذى، وما تحمله المسلمون الأولون من عذاب، فهذه أمور تحتاج إلى مجلدات ضخمة، ولذلك فسنكتفى بضرب بعض الأمثلة التى تصور الاضطهاد الذى كان يعيش فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وزوجته «خديجة» ومن تبعه من المؤمنين فى هذه السنوات الثلاث التى بدأت بالجهر بالدعوة إلى الإسلام.

لما أظهرت قريش البغض والكراهية لنبى الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا يكيدون له، حفظه الله من كيدهم، وقيض له الحماية من غدرهم، فأنزل محبته فى قلب عمه «أبى طالب»، وألهمه العمل على رعايته وصيانته. وكان «أبو طالب» شيخا عاقلا يحسن تدبير الأمور بين رجال

---

(١) اتفقت جميع المصادر على أن التنديد بعبادة الأصنام، وتقرير البعث والحساب، والعيب فيهم وفى آبائهم كان ذلك كله من أهم أسباب اشتداد عداوة قريش للإسلام والمسلمين.

«بني هاشم وبني المطلب» سلالة «بني عبد مناف»،فجمع كبارهم وتحدث فيهم عن مكانتهم من قريش، وعن مكانة ابن أخيه «محمد» بينهم، فذكر أنه منهم، وأنهم منه، وأن في نجاحه نجاحا لهم، ولذلك فإن عليهم حمايته والذود عنه، فاستجابوا له، وتعاهدوا جميعا على ذلك، ولم يشذ منهم إلا «أبو لهب»، فلما رأى «أبو طالب» ذلك منهم جعل يمدحهم، ويفخر بفضلهم ومكانتهم، ويشيد بفضل ابن أخيه «محمد» فيهم، ومكانه منهم، وأنشد يقول: (١)

إذا اجتمعت يوما قريش لمَفْخرة ... فعبد مناف سرها وصميمها (٢)
وإن حُصّلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فَخَرتْ يوما فإن محمدا ... هو المصطفى مّن سرّها وكريمُها
تداعت قريش غثُّها وسمينُها ... علينا فلم تظفروطاشت (٣) حلومها
وكنا قديما لا نقر ظُلامة ... إذا ماثَنَوْا صُعْر الخدود نُقيمها (٤)

وكان إجماعهم نصرا من الله لرسوله، وإن لم يكن من المستطاع في كثير من الأحيان أن يمنعوه ويحموه من سفاهة بعض القرشيين وأذاهم، فلم يكن من الميسور مثلا أن يمنعوا عنه حماقات عمه «أبي لهب بن عبد المطلب» الهاشمي، الذي امتلأ قلبه حقدا وكراهية لابن أخيه، فأخذ يتصدى له منذ اليوم الأول الذي بدأ فيه بالجهر بالدعوة إلى الله، فكان يعترضه ويقبّحه عندما تحدث إلى أهله من«بني هاشم وبني المطلب»، وكان يقاطعه ويسفه أقواله كلما دعا الناس إلى الاسلام في المسجد الحرام، وكانت تغريه وتشجعه على ذلك زوجته «أم جميل بنت حرب بن أمية»، عمة «معاوية ابن أبي سفيان»، فقد كانت تكره رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية شديدة، وكانت تجمع الشوك وتلقيه في طريقه، كما كان قلبها قد امتلأ غلا

(١) ابن هشام: السيرة، جـ١ ص٢٦٩ .
(٢) سرها: وسطها.
(٣) طاشت: ذهبت هباء.
(٤) صعر الخدود: إذا أمالوا خدودهم. كناية عن الكبرياء والغطرسة؛ نقيمها: نصححها.

وحسدا لأم المؤمنين «خديجة» فكانت ترمى بالقاذورات والشوك على بيتها وأمام بابها من بيت «أبى لهب» الذى كان يجاور بيت «خديجة»، وقد ضاق النبى صلى الله عليه وسلم بها ذرعا، وكان يعجب من عدم تقديرهما لحق الجار على جاره ويقول: «أى جوار هذا يا بنى عبد مناف» (١) وأنزل الله سبحانه سورة المسد يتوعد فيها «أبا لهب» بالخسران المبين فى الدنيا والآخرة، وينذره سوء العذاب فى نار جهنم يوم القيامة حيث لا يغنى عنه ما كان يجمع من مال، ولا ما كان فيه من جاه وعز وسط أولاده وأتباعه. كما توعد الله سبحانه زوجته أم جميل، وخصها بما تستحق من العذاب: بحبل يلتف حول رقبتها تجذب به إلى نار جهنم جزاء اعتدائها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه وتعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ (٢)

وازداد غيظ «أبى لهب»، وإزدادت حماقاته، وازداد للدين الإسلامى محاربة، وللنبى صلى الله عليه وسلم كراهية، فصار يتبعه إلى الأماكن التى يذهب إليها، وازداد تصديه له كلما تحدث إلى الناس حتى يصرفهم عنه، ومن ذلك أنه اتبعه عندما ذهب إلى سوق «ذى المجاز» وهى السوق الثالثة (٣) التى كان يقيمها أهل مكة فى هلال ذى الحجة من كل عام

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٤١٦.

(٢) سورة المسد، وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٥٤ ــ ٣٥٥ والطبرى: التاريخ جـ٢ ص٣١٩ والنويرى: نهاية الأرب جـ١٦ ص١٩٧.

(٣) فى الأيام العشرة السابقة على هذا السوق كانت تقام سوق «مجنة» وقبلها كانوا يعقدون سوق عكاظ عشرين يوماً. انظر أيضاً: ابن عبد البر: الدرر هامش ص٣٩.

ترويجاً للتجارة، وكان يهرع إليها القبائل العربية، حيث يتنافسون فى ميدان البلاغة والفصاحة، ويحكم الحكام بين الشعراء والخطباء والفصحاء فيجيزون أفصحهم، ويشيدون بأبلغهم وأشعرهم. فلما قصد النبى هذه السوق، وطاف بالناس، كان كلما أخذ يتحدث إلى جماعة منهم مبينا مبادئ الإسلام وداعيا إلى عبادة الله وحده وألا يشركوا به شيئا، كان ينبرى له أبو لهب قائلا: «أيها الناس: هذا ينهاكم أن تدينوا دين آبائكم، فلا يصدنكم عن دينكم ودين آبائكم» فكان الناس ينصرفون ويتفرقون [1].

أما أم جميل، زوجة «أبى لهب»، فإنها حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن جن جنونها، وثارت ثورة عاتية، وأسرعت إلى المسجد الحرام حاملة ملء يديها حجرا صلدا، وجعلت تفتش بين الحاضرين حتى رأت «أبا بكر»، وكان جالسا بجوار النبى صلى الله عليه وسلم، ولكن الله سبحانه أعماها عن رؤية رسوله، فكانت لا ترى إلا «أبا بكر» فقالت: «يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر [2] فاه. أما والله إنى لشاعرة» ثم أخذت ترتجز شعرا تهجو به النبى صلى الله عليه وسلم قائلة:

مُذمّما عصينا وأمره أبينا

ودينه قلينا

لقد حمى الله رسوله من هذه المرأة الحاقدة، وأعماها ومنعها من أن تراه وتصيبه بذلك الحجر الكبير، فلما انصرفت «قال أبو بكر» وقد استولت عليه الدهشة: «يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى» [3] وكان المشركون يذمون النبى صلى الله عليه وسلم ويسبونه، ويسمونه مذمما، ولذلك فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول:

---

(١) ابن عبد البر: الدرر ص ٣٩، رواها عن وجوه كثيرة كلها صحيحة.

(٢) الفهر هو الحجر الصلب الذى يملأ اليد.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٥٥ ــ ٣٥٦، والبخارى جـ ٦ الحديث رقم ٣١٥٧ ص ٢٢.

«ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبون مذمما، وأنا محمد»(1) أي أن الله سبحانه قد صرف عنه أذى قريش فكانوا يوجهون شتائمهم وذمهم إلى شخص سموه مذمما، وحمى الله اسمه صلى الله عليه وسلم من سبابهم.

ولم يقف حقد «أبي لهب» وامرأته «أم جميل» عند هذا الحد، بل دفعهما إلى التفكير في الكيد والإغراق في العداوة، وانضم إليهما في التدبير بعض أشقياء مشركي قريش، فأجمعوا أمرهم على النيل من بنات النبي صلى الله عليه وسلم وإفساد حياتهن وذلك بالسعي إلى تطليقهن حتى يشغلوه هو وزوجته بهمومهن فقالوا: «إنكم قد فرغتم محمدا من همه. فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن»(2) واجتمع المتآمرون، وطلبوا من «عتبه» وأخيه «عتيبة» ولدى «أبي لهب» أن يطلقا «رقية» و«أم كلثوم»، وأغروهما بتزويج كل واحد منهما ممن يختارها من أكرم بنات قريش وأجملهن، وانبرى لهما «أبو لهب» قائلا: «رأسي من رأسيكما حرام إن لم تفارقا ابنتي محمد»(3) وقالت لهما أمهما «أم جميل» بصوت الآمر: إن «رقية» و«أم كلثوم» قد صبتا فطلقاهما(4). فخضعا لأمرها فلم يكونا يستطيعان أن يخالفا لها أمراً، وطلقا زوجتيهما قبل أن يدخلا بهما.

وقد أساء هذا التدبير إلى «أبي لهب» وولديه، فهو تدبير تشمئز منه عامة الناس كما تحتقره النفوس الكريمة، وعمل يأباه أشراف قريش وبخاصة «بنو هاشم»، فقد كانوا أكثر الناس محافظة على مكارم الأخلاق وعلى صلة الرحم، ولكنها كانت مؤامرة غير غريبة من «أبي لهب» الذي كان قد أسلم قياده إلى امرأة حاقدة لا عقل لها وفقد بذلك كثيرا من كرامته واحترامه

---

(1) المرجع السابق.
(2) متفق عليه وانظر ابن هشام: السيرة جـ1 ص652. والطبري جـ2 ص467.
(3) ابن عبد البر: الاستيعاب في ترجمة رقية وترجمة أم كلثوم. وكذلك أعلام النبلاء في ترجمة رقية جـ2 برقم 129.
(4) صبت المرأة: أي فارقت دينها. انظر ابن الأثير: أسد الغابة في ترجمة أم كلثوم برقم 7573.

لنفسه وللخلق الكريم، وقد عبر عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن تعبير بقوله لربيبه «هند ابن خديجة» عندما سأله عن ذلك فقال: «إن الله أبى أن أتزوج أوأزوج إلا إلى أهل الجنة»(١).

وقد فوجئت أم المؤمنين «خديجة» بهذه المؤامرة الدنيئة، فلم يكن يخطر ببالها أن تمتد عداوة «أم جميل» وحقد «أبى لهب» إلى هاتين الزهرتين اليانعتين اللتين ظلتا حوالى أربع سنوات فى انتظار زفافهما، ولكن الله الرحمن الرحيم قد أبى أن يتم هذا الزفاف. لقد كانت «أم المؤمنين» تشعر فى قرارة نفسها بالقلق وعدم الرضا كلما تذكرت أن البنتين ستذهبان يوما ما إلى بيت «أبى لهب»، وأنهما سوف تعيشان تحت سقف واحد مع «أم جميل»، فقد كانت تعرف كبرياء هذه المرأة وجبروتها وسلاطة لسانها، كما كانت تعلم سيطرتها على زوجها وعلى كل أولادها، ولكنها كانت ترجو أن يفلح «عتبة» وأخوه «عتيبة» فى الإفلات من إسار هذه السيطرة الغاشمة، وأن يصلح الله أمرهما ويهديهما سواء السبيل حتى يصبحا زوجين صالحين، وظلت تنتظر حدوث هذه المعجزة طوال السنوات الأربع الماضية، ولكن العناية الإلهية الكريمة قد شملتها هى وبنتيها بالعطف والرعاية، فخلصت أسرة «محمد» صلى الله عليه وسلم من هذا النسب، وهى إذ تشكر الله على ذلك يمرّ ببالها خاطر يقلقها، فهى تذكر أن كبرى البنتين «رقية»(٢) قد جاوزت الحادية عشرة من عمرها، وأنها تعيش فى بيئة بدوية يتزوج فيها البنات فى سن التاسعة أوالعاشرة، وتزف العروس بعد ذلك بقليل إلى زوجها فما الحيلة فى هذا الأمر الخطير؟ إنها لم تحسب حسابا لهذه المفاجأة، ولكن الله يلهمها الرضا بالقضاء والقدر فتسلم أمرها وأمر ابنتيها إلى الله.

لقد غفلت «خديجة» بقلبها الطيب عن توقع مثل هذا الغدر وتلك

---

(١) ابن حجر: الإصابة فى ترجمة هند بن أبى هند برقم ٩٠٠٨.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب عند الترجمة لرقية، فقد ذكر أنها ولدت وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث وثلا تون سنة.

المفاجأة، ولكن الله لا يغفل عما يعمل الظالمون، وهو وحده الذى يجعل لمن يؤمن به ويتّقيه من كل هم وغم مخرجا، ومن كل ضيق فرجا، فسرعان ما فوجئت «بعثمان بن عفان» وقد تقدم إلى «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم راجيا أن يزوجه من كريمته «رقية» كبرى البنتين.

كان «عثمان بن عفان» شابا قد اكتملت له قوة الشباب، ورجاحة العقل، وهو من أعلى قريش نسبا وحسباً وأكثرهم مالا، وكان جوادا حسن السيرة، كما كان من أظرف شبان مكة، وأكثرهم حياء ولذلك أحبه الناس، وكان من العشرة الرواد الأوائل الذين آمنوا بالله ورسوله، كما كان من أحب المؤمنين إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه «أروى» «بنت ربيعة بن عبد شمس»، من أوائل النساء اللاتى دخلن فى دين الإسلام[1]، وهى بنت «أم حكيم» عمة النبى الكريم. وما إن سمع «عثمان بن عفان» بطلاق «رقية» حتى كاد يطير من الفرح، وهرع من فوره إلى حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم راجيا أن يصهر إليه فيزوجه من ابنته «رقية»، فرحب به الرسول الكريم أجمل ترحيب، وزوجه منها، وسرعان ما بنى بها فدقت الطبول، وزفت زهرة من أجمل زهرات قريش إلى أطيب الفتيان، وغنت النساء:

أحسن شخصين رأى إنسان   «رقية» وبعلها «عثمان»[2]

وسعدت بهذا القران «خديجة» أم المؤمنين، وانشرح صدرها، وزال ما كان يساورها من قلق على مصير ابنتها، فشكرت الله على ما يسّر وما أنعم.

لقد تم هذا الزواج فى وقت أخذ الصراع فيه يتصاعد بين الخير والشر، بين طغاة الكافرين الذين يعبدون الأوثان وكانوا هم الكثرة الباغية التى تحكم مكة، وبين القلة القليلة التى آمنت حتى ذلك الحين بالله ورسوله، فكان ذلك تنبيها إلى أن الله سبحانه لن يترك عبده ورسوله لبطش الطغاة

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة رقم ٦٦٩٥.

(٢) ابن عبد البر: الدرر ص ٥١.

ولا لكيد السفهاء فقد جعل له بعد العسر يسرا ، ومما كاد له السفهاء نجاة ومخرجا .

وقد أراد الله أن يمن على رسوله مرة أخرى وسط هذا الصراع ، وكان قد انقضى أكثر العام الأول فى الكفاح لنشر الدعوة للإيمان بالله الواحد الأحد ، إذ جاء البشير من عند «أبى العاص بن الربيع» ليبشر أم المؤمنين «خديجة» أن «زينب» تعانى آلام المخاض ، فأسرعت الأم الحنون إلى كريمتها ، ولسنا نعلم كم لبثت بجوار كبرى بناتها حتى يسر الله لها ، فوضعتها أنثى كانت مبعث سعادة وهناء لوالديها فأسماها أبوها «أمامة» . وقد أحبها جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم حبا كبيرا ، فكان يحمل حفيدته وهو واقف يصلى ، فإذا ركع أوسجد تركها ، وإذا قام حملها ثانية ، وقد روى كثير من الصحابة أنه كان يخرج من المنزل وهو يحملها تدليلا لها (١) . وكم كانت سعادة أم المؤمنين «خديجة» وهى تحمل أول حفيدة لها بين ذرعايها ! وزاد من سعادتها أنها رأت حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعطفه عليها ، وملأ الاطمئنان قلبها عندما رأت الحب الكبير والفرحة العظيمة التى استقبل بها والد الطفلة مقدمها ، فقد اغتبط ورحب بمولدها مما كان يبشر باستمرار السعادة والهناءة يرفرفان على منزل ابنتها «زينب» التى كانت قد جاوزت الرابعة عشرة من عمرها .

وكان زواج «رقية» من «عثمان» درسا لسفهاء مكة ، فقد أحبط الله مكرهم ، ولكنهم لم يخجلوا ، وأعمى الحقد بصيرتهم وتمادوا فى الدس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقوا إلى «أبى العاص بن الربيع» ، وسعوا عنده حتى يطلق «زينب» أسوة بما فعل «عتبة» وأخوه «عتيبة» عندما طلقا زوجتيهما من قبل ، وأخذوا يزينون له هذه الفعلة النكراء ، ويغرونه بتزويجه ممن يختار من أشرف بنات قريش وأكثرهن جمالا ، ولكنه برغم عدم إيمانه

---

(١) متفق عليه وانظر الطبقات الكبرى جـ ١ عند ترجمته لبنات الرسول ص ٢٦ وكذلك ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة أمامة بنت أبى العاص برقم ٦٧١٧ .

برسالة «محمد» حتى ذلك الوقت، كان رجلا كريما، يحترم نفسه، ويوفى بعهوده، وكان محبا لزوجته ومخلصا لها، سعيدا فى عيشته معها، قرير العين بابنته «أميمة»، كما كان شديد الاحترام والمحبة «لمحمد بن عبد الله»، وكان يحب خالته «خديجة» حبا كبيرا، ولذلك رفض فى كبرياء أن يستجيب لهؤلاء السفهاء الدساسين الذين ارادوا أن يقوضوا سعادته دون حياء أوخجل و واختقر محاولاتهم لإغرائه بالزواج من أخرى، ولذلك فقد رد عليهم قائلا: «إنى لا أفارق صاحبتى، وما أحب أن تكون لى بامرأتى امرأة من قريش». وقد استحق بذلك ثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال إنه كان صهرا كريما قام بالوفاء بحق زوجته وحق أهلها (١) ولا شك أن السيدة «خديجة» كانت تساورها الشكوك فقد كانت قبل ذلك تخشى أن يستجيب «أبو العاص» إلى هذا النفر من ضعاف الأخلاق فيخضع لإلحاحهم وينسى حق زوجته وحق ابنته عليه، أوأن ينسى عطف خالته وحبها له، ولذلك فقد كان فرحها عظيما عندما رد الله كيد سفهاء قريش إلى نحورهم فرجعوا بغيظهم لم يضروا النبى وابنته «زينب» شيئا.

وازداد سفهاء المشركين مقتا وكراهية للرسول الكريم، وجعلوا يدبرون ليكيدوا له، ولا يتسع المقام هنا لذكر ما نالوه به من أذى وتكذيب فاحش واستهزاء حقير، ولكننا سوف نوجز فى سرد بعض الأمثله مما نال به طغاتهم وسفهاؤهم نبى الله صلى الله عليه وسلم.

كان رسول الله يتعبد يوما فى المسجد الحرام، وكان رهط من سفهاء قريش يسمرون حول الكعبة، فأخذوا يتغامزون ويسخرون من النبى الكريم، وجعل أبو جهل يحرضهم على أن يلقى أحدهم بسَلا جزور(٢) نتن على أكتافه وهو ساجد، فذهب أشقاهم، وهو «عقبة بن أبى معيط» وحمل

---

(١) متفق عليه، وانظر: ابن هشام: السيرة: جـ١ ص٦٥٢ والطبرى: التاريخ جـ٢ ص٤٦٧ ــ ٤٦٨.

(٢) سلا الجزور هو كرش الجمل المذبوح ويمكن تأنيثه فيقال: الكرشة وهو التعبير الشائع فى مصر.

الكرشة بما فيها من قاذورات، وانتظر حتى سجد النبى ووضعها على ظهره بين كتفيه، فأخذ هؤلاء السفهاء يتضاحكون ويتمايل بعضهم على بعض من فرط السرور والابتهاج، وكان «عبد الله بن مسعود» يشاهد هذا العمل الحقير، ولكنه لم يجرؤ على الدنو ورفع القذارة عن كتفى الرسول وهو ساجد يعبد ربه. وسرعان ما وصل الخبر إلى أم المؤمنين «خديجة»، فهرعت «فاطمة الزهراء» إلى المسجد العتيق، وكانت ما تزال طفلة تناهز العاشرة من عمرها، ورفعت القاذورات عن ظهر أبيها، ثم أقبلت نحوهم تسير مرفوعة الرأس فى عزة وأنفة، وكانت أشبه الناس بأبيها جمالا وبهاء وفصاحة لسان[1]، ثم وقفت أمامهم بشجاعة نادرة، وأخذت توبخهم توبيخا شديدا، فألجم الله ألسنتهم جميعا، ولم يجرؤ واحد منهم على أن يرد عليها بكلمة واحدة[2]، ولم يستطع واحد منهم أن ينهض من مكانه. ولا شك أن الزهراء أسرعت بالعودة إلى أمها حتى تطمئنها، فقد كانت «خديجة» تحنو على زوجها حنو الأم على ولدها، وتعطف عليه عطف الأخت المخلصة على شقيقها، وتحبه حب الزوجة الوفية لزوجها.

أما النبى الكريم فإنه «لما قضى صلاته، رفع رأسه واستقبل الكعبة فحمد الله وأثنى عليه ثم دعا عليهم» وكرر الدعاء عليهم ثلاث مرات[3]، فلما سمعوه اختفى المرح من وجوههم وحل محله الوجوم، ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد وقد بدا على وجهه التأثر الشديد، وسار قاصدا بيت «خديجة»، فلقيه فى بعض الطريق «أبو البخترى» وقد أمسك فى يده سوطا، وكان رجلا شهما وسيدا من كبار سادات قريش، فلما رأى وجه النبى الكريم أدرك على الفور أنه قد حدث له ما أغضبه فتأثر لذلك،

---

(١) هكذا وصفتها أم المؤمنين عائشة، وهو وصف متفق عليه فى كل تراجم الزهراء.

(٢) عنيت أكثر المصادر بذكر ما لاقاه الرسول فى هذا الحادث، ومن ذلك رواية ابن هشام فى السيرة وابن الجوزى فى صفوة الصفوة، وقد اقتبسنا بعض ألفاظه من الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ٢ ص ٥٧٤؛ وانظر البخارى جـ٦ الحديث ٣٤٢٠ ص١٧٨.

(٣) البخارى جـ٦ الحديث ٣٤٩٧ ص ٢٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودار بينهما حوار يدل على ما كان يتحلى به القرشي الأصيل من صفات النجدة والمروءة إذا لم يشبه التعصب الأعمى، ونحن نثبت هنا بعض ما وصل إلينا من هذا الحوار:(1)

لما رأى «أبو البختري» رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنكر وجهه فقال: ما لك؟ فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، خلّ عني. قال: علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك فقد أصابك شيء. فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه غير مخل عنه أخبره قال: إن «أبا جهل» أمر فطرح علىّ فرث. قال «أبو البختري»: هلم إلى المسجد فأتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم فدخلا المسجد، ثم أقبل «أبو البختري» على «أبي جهل» فقال: يا أبا الحكم أنت الذي أمرت بمحمد فطرح عليه الفرث؟ فقال: نعم. فرفع السوط، فضرب به رأسه، فثار الرجال بعضهم إلى بعض وصاح «أبو جهل»: ويحكم إنما أراد «محمد» أن يلقي بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه. وهكذا أراد الله القوي العزيز أن ينتقم من أبي جهل وأن يخزيه وهو جالس بين أهله وأصحابه، وعلى مرأى ومسمع من جميع الحاضرين في المسجد الحرام، فإن الله القوي العزيز لم يمهله كثيرا بل سخر أبا البختري لنصرة نبيه ونجدته، واضطر «أبو جهل» أن يزدرد الإذلال والمهانة صاغرا على يد أحد رؤساء بطون قريش، كما اضطر إلى احتمال الإذلال والمهانة قبل ذلك بقليل على يد فاطمة الزهراء(2).

وازدادت كراهية «عقبة بن أبي معيط» لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولم تكن عنده الشجاعة للصراع معه وجها لوجه، ولكنه كان يتحين الفرصة التي يراه فيها مستغرقا في عبادة الله سبحانه فيسئ إليه، وقد لحق مرة أخرى بالنبي وهو قائم يصلي في المسجد الحرام في حجر الكعبة، فخلع

---

(1) نقلاً عن الصالحي رواية عن البزار والطبراني في الأوسط: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد جـ2 ص574 ـ 575.

(2) البخاري جـ6 الحديث 3420 ص178.

«عقبة» ثوبه، ولفه حول عنق الرسول الكريم، وخنقه بأقصى ما يستطيع من قوة حتى كاد أن يقضي عليه، فهرع إليه «أبو بكر» ودفعه بقوة بعيدا عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم»(١).

واستمر نبي الله صلى الله عليه وسلم مثابرا على أداء رسالته، متغاضيا عن سفاهة المشركين، صابرا كما صبر من قبل أنبياء الله ورسله، ولكن كان استهزاؤهم به، وأذاهم له، يزدادان يوما بعد يوم، حتى أنه خرج في أحد الأيام من بيته داعيا إلى الله «فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا فرق في ذلك بين حر وعبد»(٢) فعاد إلى بيته حزين النفس، ضيق الصدر، واستقبلته «خديجة» رضي الله عنها فما زالت به تغمره بعطفها حتى خفف الله عنه، «فقد كان لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها»(٣).

وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعادته إلى المسجد الحرام، وجلس مع «الوليد بن المغيرة» ومن يلتف حوله، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام مبينا لهم ما جاء به من فضائل، وأن الله أنزله رحمة للناس، فعرض له «النضر بن الحارث» وأخذ يجادله بغير الحق، فما زال النبي صلى الله عليه وسلم به حتى أفحمه، ولكنه على الرغم من ذلك لم يرتدع وتطاول عليه، فأنذرهم الرسول نارا وقودها الناس الذين لا يؤمنون بالله، والحجارة التي يعبدونها من دون الله سبحانه(٤) وتلا عليهم قوله تعالى:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٥)

---

(١) متفق عليه، وانظر ابن عبد البر: الدرر ص ٤٥، والبخاري جـ٦ الحديث ٣٤٢١ ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٢٩١. (٣) متفق عليه في كتب السيرة والتراجم والطبقات.

(٤) ابن هشام: السيرة ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩. (٥) سورة الأنبياء: الآيات ٩٨ ـ ١٠٠.

وكان أشد المشركين عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين «أبو جهل»، فقد كان أكثرهم سفاهة وتعرضا للنبى صلى الله عليه وسلم. وكان كلما اشتد عناده ركب رأسه، ووسوس له شيطانه أن يمد يده إليه بالأذى، حماه الله منه ورده مخذولا مدحورا أمام جمهرة المشركين. وقد حدث مرة أن اجتمع نفر كبير منهم فى المسجد الحرام، فأخبرهم أنه قد اعتزم أن يتربص برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يضربه بحجر كبير وهو ساجد أثناء الصلاة حتى يهشم رأسه ويقضى بذلك عليه ولقريش أن تحميه بعد ذلك من «بنى عبد مناف» أو تسلمه إليهم ليأخذوا بثأرهم منه، فوعده زعماء قريش بالوقوف خلفه وحمايته، وقالوا: «والله لا نسلمك لشىء أبداً، فامض لما تريد» (١).

وفى صباح اليوم التالى بكر «أبو جهل» فى الذهاب إلى المسجد العتيق وقد أعد حجرا كبيرا لا يستطيع حمله إلا بشق النفس، وبكر عدد كبير من مشركى قريش، وأخذوا ينتظرون قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدم طاف كعادته بالكعبة ثم قام يصلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود مستقبلا المسجد الأقصى، فلما سجد حمل أبو جهل الحجر وسار نحوه بخطى ثقيلة وهو يكاد لا يستطيع حمله، وما كاد يقترب منه حتى قذف الله فى قلبه الرعب، وتيبست يداه على الحجر، وأخذ يرتعش خوفا وفزعا، فرمى بالحجر بعيدا عن النبى صلى الله عليه وسلم وعاد نحوهم مهزوما مدحورا لا تكاد تقوى قدماه على حمله، وقد امتقع وجهه من شدة الرعب الذى استحوذ عليه.

وهرع إليه أصحابه مدهوشين مذعورين وهم يسألون: «ما لك يا أبا الحكم؟».

وسكت «أبو جهل» فترة ليست بالقصيرة وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه ثم أخذ يقص عليهم ما حدث له، فقال إنه اعتزم أن ينفذ وعيده الذى ردده بالأمس، ولكنه ما كاد يقترب من «محمد» حتى أقبل نحوه فحل ضخم من

---

(١) النويرى جـ١٦ ص٢١٧.

فحول الإبل لم ير مثله من قبل فى ضخامة جسمه ، وعظيم حجم رأسه ، وطول رقبته ، وأخذ يدنو منه وقد فتح فاه فبرزت له أنياب كبيرة ضخمة لم ير لها طول حياته مثيلا ، فلما اقترب منه هم أن يفترسه فذعر منه ، ولم ينج من شره إلا بعد إلقاء الحجر بعيدا عن «محمد».

وانتشر الخبر بسرعة البرق فى أرجاء مكة كلها ، وفرح المؤمنون جميعا ، وعلى رأسهم أم المؤمنين «خديجة» بنجاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلموا أن الله القوى العزيز هو الذى حماه ، وهو الذى سيحميه من غدر المشركين ، وعلمت مكة كلها ، من آمن منها ومن لم يؤمن بعد ، أن السماء حفظت «محمدا» من كيد «أبى جهل» ، وحمته من غدره [1] ، وامتلأ قلب «أبى جهل» رعبا وفزعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فازداد له كراهية ولمن تبعه بغضا وحقدا ، وصمم على الكيد لهم جميعا ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وحدث أن وفد على مكة تاجر إراشى [2] ومعه قطيع من الإبل ، اشتراها منه «أبو جهل» ، وبعد أن استولى على الإبل أخذ يماطله فلم يدفع له ثمنها ، وكلما ألح التاجر فى طلب حقوقه ، ماطله «أبو جهل» ، فذهب الإراشى إلى المسجد الحرام ، وأخذ يستجير بالمجتمعين فى أندية قريش راجيا أن يدلوه على رجل يستطيع أن يأخذ له حقه من «أبى الحكم» ، وظن بعض المشركين أنهم يستطيعون أن يسخروا من النبى صلى الله عليه وسلم وكان جالسا فى الناحية المقابلة لهم من المسجد ، فأشاروا إليه وقالوا إن هذا الرجل هو الذى يستطيع أن يأخذ لك حقك منه .

وأسرع الإراشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يا عبد الله ،

---

(١) هذه القصة رويت فى أكثر كتب السيرة وقد اعتمدنا على ما رواه النويرى فى نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

(٢) إراشى : رجل من فروع قبيلة خثعم .

إن «أبا الحكم» قد غلبنى على حق لى قبله، وأنا غريب وابن سبيل، ولقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه (١)، فأشاروا إليك، فخذ لى حقى منه يرحمك الله) (٢).

ونهض النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «انطلق إليه» وخرج قاصدا بيت «أبى جهل» يتبعه الإراشى. واستولت الدهشة على المشركين فقالوا لرجل منهم: «اتبعهما فانظر ماذا يصنع».

وضرب الرسول باب «أبى جهل» فقال: من هذا؟ فقال: «محمد، فاخرج إلى». فخرج وقد انتقع لونه فقال له الرسول بصوت الآمر: «اعط هذا الرجل حقه» فقال وقد استولى عليه الذعر، «نعم، لا يبرح حتى أعطيه الذى له». ودخل المنزل، فخرج بحقه فدفعه إليه، وعندئذ انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن قال للإراشى: «الحق بشأنك».

وكان الإراشى وفيا فلم يرض أن ينصرف إلى العناية بشأنه قبل أن يعلن على الملأ أن هذا الرجل الذى دلوه عليه، ولم يكن يعرفه من قبل، قد استنقذ له كل حقوقه، فقصد إلى نادى المشركين، ووقف عليهم سعيدا وهو يقول: «جزاه الله خيرا، فقد والله أخذ لى حقى». وجاء الرجل الذى بعثوه خلفهما فروى لهم ما رأى وما سمع.

واستولى العجب على المشركين، وأصابهم شىء من الخوف، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكتموا سخريتهم من «أبى جهل» عندما جاء إليهم يجر رجليه خزيا قائلين: «ويلك! والله ما رأينا مثل ما صنعت قط!» قال: «ويحكم! والله ما هو إلا أن ضرب على بابى، وسمعت صوته، فلثت رعبا، ثم

---

(١) أى يأخذ لى حقى منه.

(٢) قصة الإراشى مذكورة فى كثير من كتب السيرة، وقد اعتمدنا على رواية النويرى جـ١٦ ص٢١٨ ــ ٢١٩.

خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلا ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلني» (١) .

ولم يلبث أن انتشر الخبر في أم القرى وذاع ، ووصل إلى جميع الأسماع ، وازداد إيمان المسلمين أن الله حافظ نبيه من كل شر حتى يُبلّغ رسالته ، وأنه سبحانه سيخزى الذين ظلموا ، ويرد كيدهم فى نحورهم كما أخزى وأذل «أبا جهل» أمام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك فقد انشرحت صدورهم واطمأنت نفوسهم ، وسعدت السيدة «خديجة» بهذه الرعاية الكريمة التى أسبغها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وأيقنت أن الله حافظه وجاعل له من كل شر مخرجا ، ومبطل كيد المشركين .

وازدادت عداوة «أبى جهل» لرسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد بغضه له ، فمر به يوما عند الصفا ، فوقف قبالته وأخذ ينهره ويهزأ منه ويعيبه ويعيب دينه ، ويحقر من شأنه ، والنبى جالس تحف به المهابة ، صابر على أذاه كما صبر من قبل أولو العزم من الرسل على ما أصابهم من سفهاء قومهم ، ورأى أن من الحكمة أن لا يرد على هذا المشرك الذى ملأ الله قلبه حقدا على رسوله ، فوقف بالقرب منه ولم يجرؤ أن يدنو منه . وانصرف المشرك إلى المسجد ليسمر مع أعوانه وأقرانه ، ورجع النبى إلى بيته حيث كانت أم المؤمنين ترحب به ، وتعطف عليه وتواسيه بحنانها وتهون عليه أمر جميع المشركين حتى يزيل الله بفضلها ما كان يشعر به من ألم وهم .

وكانت جارية «لعبد الله بن جدعان» ترى وتسمع من منزلها عند الصفا سفاهة «أبى جهل» وعدوانه على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم تلبث أن مر بها «حمزة بن عبد المطلب» عائداً إلى مكة من رحلة للصيد وقد تقلد قوسه ، وحمل سهامه فقالت له : «يا أبا عماره» ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك

---

(١) نهاية الأرب : جـ١٦ ص٢١٩ . هامته : رأسه ، قصيرته : رقبته . والمعنى أنه لو امتنع عن أداء حق الإراشى لأكله الفحل ولم يبق عليه ، وانظر ابن هشام : السيرة جـ١ ص٣٨٩ ـــ ٣٩٠ .

«محمد» آنفا من أبى الحكم بن هشام : وجده هاهنا جالسا ، فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه «محمد» صلى الله عليه وسلم .

واستولى الغضب على «حمزة»، ولكنه أسره فى نفسه، وأسرع نحو المسجد العتيق، وكان من عادته أن يطوف بالكعبة إذا عاد من الصيد قبل أن يرجع إلى منزله، وكان من عادته كذلك أن يقف على كل ناد من أندية قريش فيسلم عليهم، ويتحدث إليهم، ولكن السخط والغضب كانا قد اشتدا به هذه المرة، فلم يفعل، وأخذ يجول ببصره باحثا عن «أبى جهل» حتى وجده جالسا فى قومه، «فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه[1] رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة» ثم قال: «أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فَرُدّ على ذلك إن استطعت» . وسال الدم غزيرا من رأس «أبى جهل» ، وبهت قومه من «بنى مخزوم» لهذه المفاجأة، ولكنهم سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم ، فهبوا لنجدة أحد زعمائهم ، ولكن «أبا جهل» احتمل الألم والإهانة ، وخشى نشوب صراع دموى بين قومه «وبنى عبد مناف» فقال لأتباعه : «دعوا أبا عمارة، فإنى قد سببت ابن أخيه سبا قبيحاً»[2] .

وسرى الخبر بسرعة الريح الخاطفة فى أرجاء «أم القرى» ، وعلم كل من فيها أن «حمزة بن عبد المطلب» قد ثأر لابن أخيه من «أبى جهل» الذى آثر احتمال الإهانة ورد أهله وأتباعه عن «حمزة»، أعز فتى فى قريش كلها ، وأشدهم شكيمة وأنفة وانتصارا للحق . وأن «حمزة» لم يكتف بالنيل من «أبى جهل» على مرأى ومسمع من أهله من «بنى مخزوم» ، بل أعلن أمام المجتمعين فى نوادى قريش أنه اعتنق الإسلام وترك عبادة الأصنام، فلم يجرؤ أحد على الاعتراض على ذلك .

---

(١) المقصود وقف أمامه مباشرة .

(٢) إسلام حمزة روته كل كتب السيرة ، وقد اعتمدنا على رواية ابن هشام جـ١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .
شج رأسه شجه منكرة : جرحه جرحاً غائراً .

وتركهم «حمزة» وانصرف معززا مكرما إلى داره ، فلما خلا إلى نفسه جعل يفكر في أمره ، وبات طوال تلك الليلة يؤرقه الندم لتسرعه في إعلان إسلامه وترك دين آبائه ، حتى إذا أصبح الصباح بكر بالطواف حول الكعبة متضرعا إلى الله أن يهديه الصراط المستقيم، فشرح الله صدره للإيمان بالوحدانية ، ومما يؤثر عنه في ذلك قوله : «لما احتملني الغضب ، وقلت أنا على قوله أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي ، وبت من الشك في أمر عظيم ، لا أكتحل بنوم (1) ، ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق ، ويذهب عني الريب ، فما استتممت دعائي (2) حتى راح عني الباطل وامتلأ قلبي يقينا ، فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من أمري ، فدعا لي بأن يثبتني الله . ورُوى أنه قال: أشهد إنك لصادق ، فأظهر يا بن أخي دينك ، فوالله ما أُحب أن لي ما أظلته السماء وأني على ديني الأول» . فلما ثبت الإيمان أنشد أبياتا نتقطف منها (3) :

حمدت الله حين هدى فؤادى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تُليت رسالته علينا ... تحدر دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينة الحروف

وهزت هذه الأخبار المجتمع كله في مكة في العام الخامس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (4)، وانتشر هذا الشعر في جميع أرجائها ، وأصبح ذلك كله حديث الناس في بيوتهم ، وفي منتدياتهم وكان لكل فريق منهم رأيه .

(1) المراد أنه لم يذق طعم النوم .
(2) أى لما أتم دعاءه .
(3) الصالحي ، سبل الهدى والرشاد جـ٢ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .
(4) هو العام الثاني من الجهر بالدعوة وانظر: أسد الغابة جـ٢ ترجمة حمزة برقم ١٢٥١ ص ٥١ ؛ ونهاية الأرب : جـ١٦ ص ٢٠٩ .

أما المؤمنون فقد رأوا أن إسلام «حمزة» كان نصرا مبينا أعز الله به نبيه، وإكراما أراد به الله لرسوله زيادة فى الحماية والمنعة، كما أراد به لدينه الانتشار بين الناس، فقد أخذ «حمزة» يدعو علانية لدين الإسلام (١)، ولا شك أن آل البيت جميعا، وعلى رأسهم «خديجة» أم المؤمنين، كانوا أسعد الناس بإيمان «حمزة»، وأنهم رأوا فيه بشرى بنصر لدين الله الواحد الأحد.

ورأى طغاة المشركين أن إسلام «حمزة بن عبد المطلب» كان نصرا كبيرا لهذا الدين الجديد، وأن «محمدا» قد ازداد به عزا ومنعة وليس من اليسير أن ينالوه بالأذى بعد ذلك اليوم، كما أن فى إسلامه شحذا لعزائم المسلمين، وتقوية لنفوس المستضعفين منهم، وتشجيعا لغيرهم على اللحاق بهم واعتناق دينهم، وفى ذلك أسوأ نذير لقريش بانتشار الإسلام إذا لم يتداركوا الأمر ويعملوا على إحباطه على الفور، ولذلك فقد قرروا أن يوغلوا فى تعذيب كل من علموا بتركه عبادة الأصنام، وخاصة من كان منهم من العبيد أو من الموالى أو من المستضعفين من قريش الذين لم تحمهم عشائرهم وتركوهم لينال منهم المشركون، وأن يشتطوا فى ذلك وينزلوا بهم أشد أنواع العذاب والتنكيل حتى يفارقوا دين «محمد» ويعودوا إلى ما كان عليه آباؤهم.

وقد قابل المسلمون فى البداية هذا الطغيان بالعودة إلى إخفاء إسلامهم، وكانوا يستخفون فى دار «أبى عبد الله الأرقم بن أبى الأرقم» بجوار الصفا، فهناك كانوا يلتقون برسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث يقيمون الصلاة، ويحفظهم ما ينزل من آيات القرآن فور نزولها.

﴿ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

---

(١) متفق عليه وانظر الطبقات الكبرى جـ١، القسم الأول ص ١٣٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥١.

ثم يسهر على الإشراف عليهم وهم يعملون بما علمهم وينفذون تعاليم الإسلام. فكانت هذه الدار أول مدرسة إسلامية يقترن فيها طلب العلم بالعمل الصالح تحت إرشاد المعلم الأول للمسلمين «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم، فهناك رباهم تربية دينيه علميه خلقية، فكان لهم أبا رؤوفا رحيما، ومعلما وموجها صادقا أمينا. الجميع كانوا أبناءه، يتساوى فى ذلك الغنى والفقير، والقوى والضعيف، والحر والعبد، فهم جميعا سواسية لديه كأسنان المشط، لا فضل لعربى منهم على أعجمى إلا بالتقوى. يغرس فيهم حب طلب العلم، ويدعوهم إلى التفكير فى خلق السماوات والأرض وما فيهن كما أمرهم الله بذلك فى كتابه الكريم، ويربيهم على مكارم الأخلاق ويعودهم عليها ضاربا بنفسه المثل فهو لا يقول إلا صدقا، ولا يفعل إلا خيرا، شعاره الإيمان بالله والحب والعفو، ويتعاون ويتشاور معهم فى أمور دنياهم كواحد منهم، وألف الله بين قلوبهم حتى أصبح هو وتلاميذه ومن تبعهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله ولا يحيدون عن الحق والعدل، وهكذا أعدهم فى هذه المدرسة ليكونوا خير دعاة للإسلام، وبذلك استطاعوا تحت قيادته الحكيمة أن يوحدوا الأمة العربية ويبعثوها من سباتها، وأن يكونوا منها فى حياته أمة تعبد إلها واحدا، ولها حكومة مركزية واحدة، وأن يكونوا منها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمة سادت جميع الأمم المتحضرة بفضل حسن قيادتهم، ولذلك فلا غرو أن ينبغ من بين رجال هذه المدرسة علماء أفذاذ مثل «عبد الله ابن مسعود» وأن يتألق من بينهم ساسة وأبطال عظماء فى الحرب والسلم مثل «أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب» الذى قاد جيش المسلمين إلى النصر على يهود خيبر ومثل «أبى عبيدة بن الجراح» أمين الأمة الإسلامية الذى انتهت إليه قيادة جيوش المسلمين فى فتح الشام، و«سعد بن أبى وقاص» قائد جيوش المسلمين فى فتح فارس وبطل القادسية.

واجتمع نفر من طغاة المشركين فى حجر إبراهيم بجوار الكعبة، وأخذوا يكيدون كيدهم، وقد هالهم أن «محمدا» قد بدأ يذيع أمره، وينتشر دينه،

وأنه عاب دينهم، وشتم آلهتهم، ووصف زعماءهم الذين يعبدون الأصنام بأنهم قوم لا يفقهون، وأنه ليست لهم عقول يميزون بها، وبعد طول جدال ونقاش أجمع هؤلاء النفر على أنه لا توجد وسيلة للخلاص من «محمد» إلا بقتله والقضاء على دعوته في مهدها مهما تحملوا في سبيل ذلك من حرب طاحنة يشنها عليهم «بنو عبد مناف» ومن يناصرهم، فلما انتهوا إلى هذا الرأى، وجدوا أن الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هى أن يتجمعوا ويتحدوا رجلاً واحداً، فإذا دخل «محمد» المسجد الحرام التفوا حوله وانهالوا عليه جميعا طعنا وضربا حتى يخر قتيلا. واطمأنت نفوسهم الشريرة إلى هذا التدبير الحقير، وتعاقدوا عليه، وأقسموا على تنفيذه وأشهدوا على ذلك أصنامهم المرصوصة حول الكعبة.

هكذا دبروا أمرهم، ومكروا مكرهم، ومكر الله الذى يحمى رسوله، والله خير الماكرين، فأحبط مكرهم، وأفسد تدبيرهم، فقد سمعت «فاطمة الزهراء» ما كانوا يدبرون، فعادت مسرعة إلى بيت أبيها، وما كادت تدخله حتى انفجرت باكية، وألقت بنفسها فى حضن السيدة «خديجة» أم المؤمنين، وكلما حاولت الأم أن توقف بكاء طفلتها زاد نحيبها، حتى دخلتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلقاهما كعادته هادئ النفس مما أشاع فيها الطمأنينة، وأخذت الطفلة التى لم تكن قد بلغت بعد الحادية عشرة من عمرها تحدثه قائلة: «هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك! فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك» (1).

وتلقى النبى صلى الله عليه وسلم الخبر فى هدوء الواثق من نفسه، المطمئن إلى نصرة ربه، فطلب من بنيته أن تأتيه بماء ليتوضأ، وازداد اطمئنان الصبية، وأسرعت فأحضرت له ما طلب. فلما توضأ خرج متجها

---

(1) العبارة مما رواه الإمام أحمد. انظر الفتح الربانى جـ ٢٠ ص ٢٢٣، وانظر كذلك المنتخب من السنة النبوية الشريفة: المجلد الأول، القسم الثانى، الباب الثالث ص ١٠٣ ــ ١٠٤.

ناحية الكعبة وقد أحاطت به هالة من المهابة والجلال، فلما دخل عليهم المسجد انتقعت (١) وجوههم وغاض منها الدم، وخفضوا من مهابته أبصارهم، وأفقدتهم الدهشة تذكر ما تعاقدوا عليه فلم يستطع أحدهم أن يرفع بصره إليه بل خفضوا رءوسهم حتى بلغت أذقانهم صدورهم، وأذهلتهم المفاجأة فلم يتحرك أحدهم من مكانه على حين كان رسول الله مستمرا فى السير نحوهم فى خطى متئدة، حتى إذا وقف على رءوسهم تجلت قوة شخصيته ومهابته «فأخذ قبضة من التراب وقال: «شاهت الوجوه (٢) ثم حصبهم بها (٣). فما أصاب رجلا منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافرا» (٤).

وليس يخامرنا شك فى أن «أم المؤمنين خديجة» و«فاطمة الزهراء» لم يهدأ لهما بال حتى عاد إليهما نبى الله سالما غانما، فقد تجلت شجاعته وقوة شخصيته التى وهبها الله له فى هذا الحادث، وفى كثير غيره من الحوادث المشابهة له التى تآمر فيها عليه شياطين قريش مما لا نستطيع هنا إلا أن نكتفى بذكر بعضه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستخدم هذه المواهب الربانية إلا عندما تستفحل المخاطر وتتأزم الأمور. ومن أمثلة احتماله صلى الله عليه وسلم للأذى وصبره على السخرية كما صبر الأنبياء من قبل، ما سبق أن رويناه، عندما تصدى له وآذاه «أبو جهل» عند الصفا فقد احتمل الأذى صابرا ولم يرد عليه، مما أثار عطف عمه «حمزة بن عبد المطلب» وكان سببا من أسباب هداية الله له ودخوله فى دين الإسلام، والثأر لنبى الله من «أبى جهل».

ولابد لنا من وقفة أخرى عند هذا الحادث، فقد كانت «الزهراء» فى

---

(١) انتقع وامتقع بمعنى واحد.

(٢) المعنى قبح الله وجوهكم.

(٣) حصبهم بها أى قذفهم بها.

(٤) العبارة مما رواه الإمام أحمد، وهى بقية العبارة السابق ذكرها.

ذلك الوقت في مرحلة الطفولة ولم تكن قد بلغت بعد الحادية عشرة من عمرها، فهل كان ذهابها للمسجد الحرام من باب المصادفة، أم أن أمها «خديجة» هي التي رأت، بما كانت توصف به من بُعد النظر وحسن التدبير، أن تعرف ما كان يدور في نوادي قريش قبل موعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام حتى تطمئن ألا يصيبه مكروه مما يدبره له شياطين الوثنيين؟ إننا نميل إلى ترجيح أن الله سبحانه قد هداها إلى ذلك محافظة على رسوله الكريم، فالله، سبحانه هو الذي هداها، بما حباها من صفاء النفس ونورانيتها، وشفافية الروح وقوة بصيرتها، وهو ما نطلق عليه في زماننا هذا بالحاسة السادسة التي يهبها الخلاق العظيم لمن يشاء ممن يصطفيهم.

إننا نرجح أن الله سبحانه وتعالى هو الذي هدى «أم المؤمنين خديجة» إلى إيفاد «الزهراء» تستطلع الأخبار وتقف على ما يدور في مجالس الكفار، و يدعونا إلى ترجيح ذلك ايماننا بقوله تعالى:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ (١)

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(سورة النساء الآية ١٠٠)



الفصل السادس

صراع بين قوة الحق وقسوة الطغاة

ومضى أكثر من عام على بدء هذا الصراع، وكان النبى طوال هذه الفترة منصرفا إلى الجهر والكفاح فى سبيل تبليغ رسالته متوكلا على الواحد الديان، ومستعينا بالصبر والإيمان، وكان يسانده فى ذلك كل من آمن بالله واليوم الآخر، وكان موسم الحج قد اقترب، فاجتمع أساطين الأرستقراطية القرشية، وأخذوا يتدارسون أمرهم بينهم، فماذا سيقولون لزعماء القبائل العربية عندما يفدون إلى مكة؟ وكان «الوليد بن المغيرة المخزومى» أكبر المجتمعين سنا، ومن أكثرهم مالا وولدا، ومن أعلمهم بالشعر العربى القديم، ولذلك كانوا يجلونه ويحترمونه، فقال لهم: «يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع»[1] فأخذ كل واحد منهم يختلق وصفا «لمحمد» يتفقون على إذاعته بين القبائل العربية، وكثرت المقترحات، وطال الجدل بينهم «والوليد» يستمع إليهم ويفند تلك المقترحات الواحد تلو الآخر، وكان من بين ما عرضوه عليه قول أحدهم: «نقول إنه كاهن» فرد عليه

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٢٧٠.

«الوليد»: «والله ما هو بكاهن، فإنه لا يتمتم تمتمة الكهان، ولا يسجع مثل سجعهم». وقال آخر: نذيع أنه مجنون، فقال الوليد: «ما هو بمجنون، فقد رأينا الجنون وعرفناه، وليست به صفة من صفاته». وقال ثالث: نقول شاعر، فقال الوليد: «لقد عرفنا كل ضروب الشعر وأنواعه، ولقد نظرنا فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلوا ولا يُعلى عليه».

وهنا أُسقط في يد الأرستقراطية الوثنية، وشعروا بشيء من الضيق فسألوه وقد نفد صبرهم، فماذا سوف نقول للقبائل عندما تأتي للحج ؟.

وتريث «الوليد»، وأخذ يفكر وهو يحاول أن يختلق شيئا آخر، وأطال التفكير، وتروَّى فيه، ثم قَطَب جبينه وكأنه كان يعتصر رأسه، فركبه الكبرياء وعدل عما وصف به القرآن من الحلاوة والطلاوة، وأنه يعلو ولا يعلى عليه فقال: «إن أقرب القول أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته» (١).

واستراح زعماء الأرستقراطية الوثنية إلى هذا القول، واتفقوا فيما بينهم أن يذهب كل فريق منهم إلى طريق من الطرق المؤدية إلى مكة إذا حان موسم الحج، فإذا مر بهم أحد حذروه «محمدا»، وخوفوه من مقابلته ومن الاستماع إليه حتى لا يناله بسحره. وقد أنزل الله في «الوليد بن المغيرة المخزومي» قوله: (٢).

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٢٧٠ ــ ٢٧١

(٢) سورة المدثر: الآيات ١١ ــ ٢٧، وانظر أبا الحسن النيسابوري: أسباب النزول ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ وتفسير ابن كثير لسورة المدثر.

لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾

وخشى «أبو طالب» أن يكون لتآمر قريش تأثير على جماهير العرب الوافدين على مكة فى موسم الحج، فتصيب بعض تلك الحشود «محمدا» بمكروه، فأنشد قصيدة عامرة، تعوذ فيها بالكعبة المشرفة، وبما يقدمه هو و«بنو هاشم» من خدمات فى سقاية الحج وخدمة البيت الحرام، ثم عتب على زعماء قريش وقوفهم ضد «محمد»، وتحاملهم عليه، وأعلن عزمه هو، «وبنو هاشم» على بسط حمايتهم على ابن أخيه، وانهم لن يتركوه، ولن يسلموه لأحد ما داموا على قيد الحياة، ونحن نختار منها قوله: (١).

ولما رأيت القوم لا ود فيهمُ ... وقد قطعوا كل العُرَى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوما علينا أظنة ... يعضون غيظا خلفنا بالأنامل

فأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل(٢)

أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أومُلحٍّ بباطل

ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق فى الدين ما لم نحاول

وبالبيت، حق البيت، من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل(٣)

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ ... وهل من معيذ يتقى الله عاذل

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٧٢ ــ ٢٨٠.

(٢) المقصود أنه تعلق مستجيراً بأستار الكعبة.

(٣) اكتنفوه: أحاطوا به.

إلى أن يقول :

كـذبتم وبـيـت الله نُبزى محـمدا ... ولمـا نـطاعن دونه ونناضل(١)

ونـسـلـمـه حـتـى نُصرَّعَ حوله ... ونـذهـل عـن أبنـائنـا والحلائل

إلى قوله :

وكـان لـنـا حـوض السـقـايـة فيهم ... ونحـن الـكُدى من غالب والكواهل (٢)

شـبـاب مـن المـطَّـيـبين وهـاشـم ... كـبيض السيوف بين أيدى الصياقل

إلى قوله :

لـقـد عـلـمـوا أن ابـنـنـا لا مـكـذَّبٌ ... لـديـنـا ولا يُـعْـنَـى بـقـول الأبـاطـل

فـأصـبـح فـيـنـا أحمدٌ فى أرومَةٍ ... تُـقـصِّـرُ عـنـه سَـوْرَةُ المـتـطـاول

حـدِبْـت بـنـفـسـى دونـه وحميته ... ودافـعـت عنه بالذرا والكلاكل(٣)

وأخـذ شـعـر «أبـى طـالـب» يـنـتـشر فـى مكة كلها ، وكان رواة الشعر وحـفـاظه يذيعونه بين الوافدين على مكة من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، فـكـان الـعـرب يـستملحونه ، ويستعيدون إنشاده ، وقضى الشعر على أراجيف الأرسـتـقـراطية القرشية ، فطاشت سهامهم . لقد أرادوا أن ينفّروا العرب جميعا من «محمد» ومن دعوته ، ولكنهم أصبحوا وسيلة من وسائل الإعلام عن ظهور ديـن جـديـد ، وأن حـامـل لـوائـه هـو «محـمد ابن عبد الله بن عبد المطلب» الهاشمى ، وبذلك أسهموا عن غير قصد فى نشر هذا الخبر بين القبائل ، حتى صـار هـذا الـديـن حديث القوم طوال موسم الحج ذلك العام ، فلما عاد القوم انـتـقـل معهم خبر هذا الدين الجديد إلى مواطنهم ، فذُكر لأول مرة فى مدينة يـثـرب ، وكـان بـداية لعلم قبيلتى الأوس والخزرج بظهور النبى المنتظر الذى

---

(١) المـقـصود : كذبتم عندما قلتم إننا سوف نقهر محمداً ، ولكننا سوف نطاعن ذوداً عنه ولن نسلمه كما هو وارد فى البيت التالى .

(٢) نحن الكدى : أولوا بأس وعزة . الكواهل : السند .

(٣) حدب : عطف .

طالما حدثتهم عنه أحبار اليهود الذين كانوا يستوطنون تلك المدينة[1] منذ عهد بعيد.

ومرت بضعة شهور من العام الثاني للجهر بالدعوة، والنبي المجاهد ماض في طريق تبليغ دعوة ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، محتملا في سبيل ذلك ما يلاقيه من إيذاء المشركين، والاستهزاء به، والتكذيب لرسالته، وكان يحز في نفسه ما يراه من تعذيبهم لأتباعه بصورة بشعة محاولين أن يردوهم عن دينهم، والسيدة «خديجة» ترقب ذلك كله، وتتابع ما يحدث أولا بأول، باذلة أقصى ما تستطيع للتخفيف عن رسول اله صلى الله عليه وسلم ومساندته، وكلها ثقة في توفيق الله له ونصره إياه، وفي أن قوة عزيمة زوجها وصبره ستكونان له عونا حتى يبلّغ الرسالة ويؤدى الأمانة.

واستمر النبي الكريم يجاهد في سبيل الله، ويبذل أقصى ما يستطيع لنشر الدعوة إلى الإسلام، ونبذ عبادة الأوثان، غير عابئ بما يقابله من صعاب ومشقة، وكان عمه «أبوطالب» يحميه ويقف من وراء عمه «بنو هاشم» و«بنو المطلب»، ويشد من أزره كل مَنْ آمن بالله واليوم الآخر، وكانت أكثر بطون قريش في بداية الجهر بالدعوة تحمى كل من تعلم بإسلامه من رجالها محافظة على حُرمة صلة الرحم، واعتزازا بكرامة العشيرة أن يصيب أي فرد من أفرادها هوان أو مذلة، وهي عادة كان العرب يفخرون بالمحافظة عليها، فلما أقبل الناس على الدخول في الإسلام، وانتقم «حمزة ابن عبد المطلب» من «أبي جهل» جزاء اعتدائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخاذل «أبو جهل» ولم يردّ الإهانة التي لحقته وهو جالس في ناديه بالبيت الحرام على مسمع ومرأى من أهله وأنصاره، ثارت ثائرة شيوخ قريش وشبانها، وفقدوا صوابهم، ووثبت كل بطن من بطونها على من علموا دخولهم في دين «محمد» من أفراد عشيرتهم، وأخذوا

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

يعذبونهم وينزلون بهم من صنوف التنكيل أبشعها آملين أن يردوهم إلى ملتهم وأن يسجدوا للأصنام التي طالما سجد لها آباؤهم وأجدادهم، وأن يكفروا بدين «محمد» [1].

وقد كان «أبو بكر بن أبي قحافة» أول هدف أصابه المشركون، فقد كان أصدق صديق لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأكبر أعوانه.

ويكفي أن نشير، في إيجاز، لبعض ما ناله من شياطينهم، ذلك أن قومه كانوا قد قاموا بحمايته في بداية ظهور الإسلام، لكنهم أسلموا أمره إلى المشركين يفعلون به ما يشاءون بعد أن أعلن إسلامه، ودعا إلى الإسلام مناصرا دين «محمد»، فلقيه يوما أحد سفهاء قريش، وحثا على رأسه التراب على مرأى من بعض رؤساء العشائر، فقال «أبو بكر» لأحدهم: «ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟» فرد عليه في جفاء متشفيا: «أنت فعلت ذلك بنفسك» [2]. فلجأ «أبو بكر» إلى ربه قائلا: «رب ما أحلمك! رب ما أحلمك!» ولم يقف الأمر عند هذا الحد لكن «نوفل بن خويلد بن أسد»، وهو أحد شياطين المشركين قام فأوثق كتاف «أبي بكر» بالحبال، وأوثق معه «طلحة بن عبيد الله» في حبل واحد، ولذلك أطلق عليهما لقب «القرينين» [3].

وكان «عثمان بن عفان» شابا في العشرين من عمره، وكان واسع الشراء، فانقض عليه عمه «الحكم بن العاص» [4]، وقال له: أترغب عن ملة آبائك إلى دين «محمد»؟ والله لا أدعك حتى تترك ما أنت عليه. ثم حبسه وشد وثاقه بالحبال، ولكن «عثمان» أبى أن يفارق دين الله الذي

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٦٨ ــ ٢٦٩.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٧٤.

(٣) ابن سعد جـ٣ القسم الأول، ترجمة طلحة، ص١٥٣.

(٤) الحكم بن العاص هو والد مروان بن الحكم.

آمن به، ورفض أن يكفر بعد أن ذاقت نفسه حلاوة الإيمان بالله الواحد الأحد، واطمأنت روحه إلى تعاليم حبيبه «محمد» صلى الله عليه وسلم.

وقد أعمى الحقد بعض سفهاء المشركين من بنى مخزوم، فهموا بقتل بعض من أسلم من قبيلتهم، فأزمعوا قتل «سلمة بن هشام»، «وعياش ابن أبى ربيعة»، وعزموا على أن يقتلوا معهما الوليد بن الوليد بن المغيرة، فذهبوا يستأذنون فى ذلك أخاه «هشام بن الوليد»؛ ولكنه أبى أن يقتلوا أخاه، ولم يسمح لهم إلا بمعاتبته، وحذرهم من أن يمسوه بسوء، ومما يؤثر عنه أنه قال لهم: «عليكم به فعاتبوه، وإياكم ونفْسه»(١) وأنشأ يقول:

ألا لا يقتلن أخى عييس فيبقى بيننا أبدا تلاحى(٢).

ثم أنذرهم ثانية بقوله: «أحذروا على نفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا»(٣) وهكذا اضطر هؤلاء السفهاء الحاقدون إلى العدول عن قتله فنجا ونجا معه من كانوا يزمعون قتله ممن أسلم من قبيلتهم.

وكان «الزبير بن العوام بن خويلد»، وهو ابن أخى «أم المؤمنين خديجة»، من أوائل الذين آمنوا بالله ورسوله وحسن إسلامهم، فأخذه عمه فحبسه وعذبه أشد أنواع العذاب و ولكنه صبر وأبى أن يرتد عن الإسلام وكان يقول: «والله لا أكفر أبدا»(٤).

لقد افتتنت كل بطن من بطون الأرستقراطية القرشية فى التنكيل بمن أسلم منها، فكانوا يحبسونهم فى الظلام، ويقيدونهم بالحبال، ويحرمونهم من الطعام والشراب، وكانوا يعذبونهم بالضرب، وما يزالون يذيقونهم من ألوان العذاب «حتى ما يقدر الواحد منهم أن يستوى جالسا من شدة الضرّ الذى

---

(١) أى إياكم أن تقتلوه.

(٢) القصد: تبقى بيننا العداوة أبد الدهر. انظر ابن هشام السيرة جـ١ ص ٣٢١.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٣٢١.

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة الزبير جـ٢ ص ٢٤٩ ــ ٢٥٢ ترجمة رقم ١٧٣٢.

نزل به» فيقولون له: «اللات والعزى إلهك من دون الله فيقول نعم»[1] وذلك اتقاء لمزيد من العذاب ينزلونه به. وكان «أبو جهل» يغرى بالمزيد من العذاب والاضطهاد، فإن كان المسلم من أشراف قريش وله جاه وسلطان أنبه وخزاه، وهدده بالحط من كرامته وضياع هيبته وسلب سلطانه، وإن كان تاجرا هدده بكساد تجارته، وضياع ماله، وإن كان من ضعفائهم أوممن تخلى قومه عن حمايته، أهانه وعذبه، واشتد فى ذلك ثم أغرى به سفهاء قريش فتعقبوه بالعذاب[2]، وهكذا ساد بين قريش جو من الإرهاب والعسف أملا أن يعيدوا من أسلم إلى مِلّتِهم، «فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الإسلام، فافتتن من أفتتن، وعصم الله منهم من شاء»[3].

أما العبيد والموالى فقد نكّل بهم زعماء الأرستقراطية الوثنية تنكيلا تقشعر منه الأبدان، وترجف من هوله الأنفس، وكانوا يسوون فى التعذيب بين الرجال والنساء، فقد ألبسوهم دروع الحديد وصهروهم فى الشمس المحرقة،[4] وقد تحمل الكثير منهم بصبر وجلد وإيمان كل ما ابتلوا به من العذاب، فهذا «بلال بن رباح» جعلوا فى عنقه حبلا، وأعطوه للغلمان يلعبون به ويجرونه ويطوفون به أثناء لهوهم فى شعاب مكة، حتى أثّر الحبل فى عنقه وهو صابر وقد هانت عليه نفسه فى سبيل الله. وكان «أمية بن خلف» يخرجه إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ويطرحه على ظهره فوق رمال الصحراء فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة التى تتوهج من شدة حرارة أشعة الشمس فتوضع على صدره ويقول له: والله لاتزال هكذا حتى تموت أوتكفر «بمحمد» وتعبد اللات والعزى، فيقول بلال وهو يتنفس بمشقة: «أحد. أحد». وقد ظل كذلك صامدا صادق الإسلام،

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٢٠.

(٢) المصدر السابق، والنويرى: نهاية الأرب جـ١٦ ص٢٣١.

(٣) الطبرى: التاريخ جـ٢ ص٣٢٨.

(٤) متفق عليه وانظر ابن عبد البر: الدرر ص٤٣ ــ ٤٤.

طاهر القلب، صابرا على هذه المحنة، وما يقاسي من البلاء حتى وُفِّق «أبو بكر» إلى شرائه، فأخذه وأعتقه لوجه الله تعالى، وبذلك استرد حريته، وأصبح حراً يتعبد كيف يشاء[1].

أما الموالى فإنهم كانوا أحرارا، ولكنهم كانوا من المستضعفين الذين يحتمون بالقبائل القرشية، وقد لقى من أسلم منهم الكثير من العذاب بوحشية لا تدانيها وحشية، وقسوة لا يباشرها إلا من فقد الشعور بالإنسانية ولم يذق قلبه طعم الرحمة، فهذه أسرة «ياسر» التى لاقت من هول التعذيب ما لا يمكن أن يطيقه إلا أشد النفوس قوة، وأكثرها تحملا وجلدا، فقد صبرت وصابرت وأعانها على تحمل العذاب إيمان عميق بالله وحب صادق لرسوله. لقد كان «ياسر» من الموالى حليفا لبنى مخزوم[2] وقد تزوج بجارية يقال لها «سمية»، فلما آمن بالله ورسوله هو وزوجته وابنهما «عمار»، كان بنو مخزوم يقيدونهم بالحبال والسلاسل ويضربونهم بالسياط، ويأخذونهم إلى الصحراء المحرقة، ويكوون أجسامهم بالحجارة ويغطون رؤوسهم فى الماء ثم يرفعونهم ليعيدوا تعذيبهم، ويجبرونهم على المناداة أنهم على دين اللات والعزى. ومرّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعذبونهم، فتألم أشد الألم لما يلاقونه ورق لحالهم وهو يقول: «صبرا آل ياسر موعدكم الجنة»[3].

ومر رسول الله يوما على عمار بن ياسر وهو يبكى، فلما سأله، علم منه أنه يبكى لأنهم عذبوه أشد العذاب حتى اضطر أن يقول إن اللات والعزى أرباب من دون الله. فأشفق عليه النبى الكريم، وتألم لما كان يكابده من العذاب ثم قال: «إن عادوا فقل كما قلت» ثم توجه رسول الله صلى الله

---

(١) تعذيب بلال مذكور فى كلّ كتب السيرة: ابن هشام: جـ١ ص٣١٨. وابن عبد البر: الدرر، ص٤٤.

(٢) بنو مخزوم بطن من بطون قريش منهم خالد بن الوليد.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٢٠

عليه وسلم إلى ربه داعيا وهو يقول: «اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»(١).

وكان العذاب يشتد على آل ياسر حتى يخرجوا عن وعيهم فلا يدرون ما يقولون؛ ووقف «أبو جهل» ذات يوم وهو يسرف فى تعذيب «ياسر» ويأمر بالمزيد ومازال به حتى قضى نحبه، فانفجرت زوجته «سمية» من شدة الحزن والغيظ، وراحت تسب «أبا جهل» وتلعنه، وتستمطر عليه غضب الله القوى العزيز، فتناول حربة ماضية، وطعنها طعنة قوية، فماتت لساعتها ولحقت بزوجها، وكانت بذلك أو شهيدة فى الإسلام(٢).

وكان النبى الكريم يسمع، وهو فى شدة الألم، بما ينصب من العذاب على من آمن من القرشيين، وكان يرى ويسمع ما يصيب العبيد والموالى من التنكيل الذى تنخلع له القلوب، فكان يحزن أشد الحزن لما يصيبهم، ويبتئس لما ينزل بهم، حتى كانت فتنة شديدة أصاب زلزالها الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، فافتتن من هولها بعض الضعفاء الذين كانوا لم يثبتوا بعد على الإسلام، وعصم الله من شرها من صبر(٣)، وكان أكثر هؤلاء من السابقين الأولين إلى اعتناق دين الله، وكان الرسول طوال هذه الفتنة يلجأ إلى الله القوى العزيز مستغيثا، ويدعوه متضرعا أن يجعل للمؤمنين من أمرهم يسرا، ومن هذا العذاب مخرجا، وأن يكفيهم شر الطغاة المتكبرين، ولم ييأس فى الوقت نفسه من أن يطلب من الله أن يهدى أولئك القساة الذين أفقدتهم الكراهية والحقد صوابهم، وأعماهم الكبرياء فضلوا سواء السبيل، فكان لا ينفك يدعو الله أن يوفقهم إلى عبادته وطاعته و والدخول فى دينه، فقد

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة عمار برقم ٣٧٩٨. جـ ٤.

(٢) المرجع السابق؛ وكذلك فى ترجمة ياسر بن عامر، جـ٥ ص٤٦٨.

(٣) متفق عليه وانظر الطبرى: التاريخ جـ٢ ص٣٢٨، وابن هشام: السيرة جـ١ ص٣١٧ ـ ٣٢١.

كان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ (١)

وازداد الوثنيون قسوة وطغيانا حتى شمل العذاب كل من علموا بإسلامه ولم ينج منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآل بيته، فقد كانت رعاية الله تحوطهم، وييسر لهم حماية أبى طالب الذى أجارهم ونجح فى أن يجمع حوله «بنى عبد مناف»، لم يتخلف أحد منهم، سواء فى ذلك من أسلم أومن لم يكن قد هداه الله بعد إلى الإسلام، ولم يشذ منهم أحد سوى «أبى لهب» (٢)، وكان إسلام «حمزة» مشجعا لهم على تحمل أعباء هذه المسئولية أمام جميع بطون قريش الأخرى.

ولما رأى النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه غير قادرعلى حماية المسلمين، لجأ إلى الله راجيا أن يهديه إلى وسيلة تنجى أصحابه مما كانوا يقاسونه من البلاء، وتضفى عليهم الأمان والطمأنينة، وأخذ يمعن فى التفكير فوجد أنه لا مفر من هجرة المؤمنين من مكة فرارا بدينهم حتى يجدوا ملجأ يعتصمون به حيث يمارسون حرية العقيدة، ويعبدون الله الواحد الأحد وهم آمنون على أنفسهم، ولكن إلى أين يهاجرون؟ لقد كانت القبائل العربية تحترم قريشا، وتُسلم إليها قيادتهم فى الأمور الدينية لأن القرشيين كانوا سدنة البيت العتيق الذى يحج إليه العرب، كما كانوا يحافظون على الأصنام التى تتعبّد لها تلك القبائل فهى لذلك لن تعادى قريشا ولن تجير أحدا من أعدائها، كما أنها لن تحمى الذين يدعون إلى عبادة إلّه واحد يدبّر أمور هذا الكون وحده، ولا يشرك الأصنام معه فى النفوذ والسلطة، ولذلك فلم يكن فى شبه الجزيرة كلها مكان يستطيع المسلمون أن يأمنوا على أنفسهم فيه إذا هاجروا إليه، ولم يكن هناك مفر من أن تكون الهجرة إلى بلد خارج شبه الجزيرة العربية كلها.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٩٦ والطبرى جـ٢ ص٣٢٧ ـ ٣٢٨.

وكان الأكاسرة يملكون شرقي بلاد العرب وما يلي ذلك من بلاد فارس، وكانوا يدعون الألوهية، وكان رعاياهم يسجدون لهم من دون الله، وكان بعضهم يسجد للنار والبعض الآخر للكواكب والنجوم، فلن يستطيع الذين يؤمنون بالله الواحد العظيم أن يجدوا هناك مأوى لهم يشعرون فيه بالأمن والأمان. وكان القياصرة يحكمون الشام شمالي شبه الجزيرة العربية، ومع أنهم كانوا يدينون بالمسيحية إلا أن حرية العبادة كانت قاصرة على أتباع الكنيسة البيزنطية فكانوا يعذبون المسيحيين المصريين الذين خالفوا تلك الكنيسة؛(1) وكان ذلك كافياً لعدم الاطمئنان إلى هجرة المؤمنين إلى هناك خوف البطش بهم، أو خشية أن يسلموهم إلى زعماء قريش إذا طالبوا بردهم إليهم.

وبعد تفكير عميق، هدى الله نبيه الكريم، فنصح المؤمنين أن يضربوا في الأرض فراراً بدينهم، حتى يصبحوا أحرارا يعبدون الله في أرض الله الواسعة إلى أن يأذن الله بعودتهم منتصرين إلى بلدهم، فقال لهم: «تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم» قالوا: «أين نذهب؟» قال: «هاهنا، وأشار إلى أرض الحبشة، وكانت أحب الأرض إليه أن يهاجر قِبَلها»(2) وكانت هناك صلات كثيرة بين الحبشة وبلاد العرب، ولم يكن يفصلها عنها سوى البحر الأحمر، وكانت متجرا رابحا لقريش(3)، وكانت الديانة المسيحية منتشرة هناك، وكان يحكمها ملك عادل، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع أتباعه بالهجرة إليها، ومما يؤثر عنه قوله لهم: «لوخرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»(4).

---

(1) هذه حقيقة تاريخية مشهورة.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ1 القسم الأول عند ذكر هجرة من هاجر إلى أرض الحبشة، ص136 وابن عبد البر: الدرر ص 50.

(3) الطبري: التاريخ، جـ2 ص328.

(4) ابن هشام: السيرة جـ1 ص 321 ـ 322.

وكم يشق على النفس البشرية أن تلجأ مضطرة إلى الهجرة عن وطنها طلبا للحرية! وكم يعز على النفس الأبية أن تجد أن لا سبيل أمامها لكى تعيش آمنة مطمئنة إلا أن ترحل عن بلدها وأن تترك وراءها الأهل والأصدقاء وكل عزيز عليها، متخلية عما لا تستطيع حمله من مالها الذى ورثته عن آبائها أوجمعته بكدها واجتهادها، وأن تنتقل رغم أنفها إلى بلد ليس لها فيه صديق أوقريب من ذوى رحمها! وكم تألم بعض هؤلاء المؤمنين الذين أزمعوا الهجرة لأنهم سيتركون خلفهم أمهاتهم المؤمنات اللاتى كن لا يستطعن السفر، ولا يجرؤن على ركوب البحر!.

وكم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألم وهو يرى المؤمنين يتسللون سرا واحدا بعد الأخر خارجين من مكة! وكم كان الأسى يحز فى قلب أم المؤمنين «خديجة» وهى تحس أن أولادها المسلمين يفرون خفية إلى بلد غريب لم يزره إلا القليل منهم من قبل، وليس لأكثرهم معرفة باللغة التى يتكلمها أهل الحبشة! لقد كانت تشعر فى قرارة نفسها أن المشركين سيبذلون أقصى جهد فى تعقبهم بغية اللحاق بهم وإعادتهم إلى سيطرتهم، وكان قلبها يرتجف كلما تذكرت ذلك فلا تجد أمامها إلا أن تضرع إلى الله أن ينجيهم من هؤلاء الطغاة. وقد كان من بين المهاجرين «عثمان بن عفان» وزوجته ابنتها «رقية» التى أبت إلا أن ترافقه وأن تتحمل معه مُرّ الحياة كما ذاقت معه حلوها وذلك على الرغم مما كانت تعانية من آلام الحمل التى كانت تتحملها بصبر وشجاعة. وكان من بينهم كذلك «الزبير» ابن أخيها «العوام بن خويلد»، وكانوا يزمعون أن يركبوا البحر مع زملائهم المهاجرين، وسوف يتعرضون لمخاطره التى كان العرب يتهيبونها، فإن نجوا من ملاحقة المشركين لهم فلا يعلم إلا الله مصيرهم وما سيتعرضون له من ركوب البحر! وماذا سيكون مصير الحمل الذى تشعر به ابنتها رقية [1] عندما

---

(١) روى ابن سعد «أن رقية كانت فى الهجرة الأولى قد أسقطت من عثمان سقطاً» وهذه الهجرة دامت بضعة شهور. الطبقات الجزء الثامن القسم الأول عند ذكر رقية ص ٢٤.

تتعرض لوعثاء السفر ومخاطر البحر؟ هذه خواطر لابد أن تكون قد جالت بخلد «خديجة» الأم والزوجة، ولكن إيمانها بالله كان كبيرا، فاستجمعت شجاعتها وتجلدت وشجعت ابنتها على الهجرة فى سبيل الله، وأخفت ما يجول بنفسها من هذه الخواطر عن الجميع وبخاصة عن زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت تبدى الرضا بقضاء الله مستعينة بالصبر والتوكل على الله المعين، وكانت لاتنفك تضرع إليه أن يبدّل خوف المهاجرين أمنا، وأن يعوضهم عن الأذى سلاما، وأن يرزقهم ويحبب الناس فيهم.

تكتم المؤمنون أخبار عزمهم على الهجرة تكتما شديدا، وخططوا للتسلل خفية خارج مكة تخطيطا دقيقا، ثم فروا بأنفسهم لا يحملون معهم من أموالهم إلا ما خف حمله وغلا ثمنه، ولا يصحب بعضهم إلا زوجته التى أبت أن تترك زوجها وحده فى هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، وكان أول من تسلل منهم «عثمان بن عفان» وزوجته «رقية» بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) تاركا وراءه أمه المؤمنة «أروى بنت كزبر» حفيدة «عبد المطلب» (٢)، ثم تبعها تسعة رجال آخرون كان من بينهم «الزبير بن العوام بن خويلد»، و«عبد الرحمن بن عوف» وكان من أغنى أغنياء قريش، وقد ترك وراءه أمه المؤمنة «الشفا بنت عوف»، «وأبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة»، وقد خلف وراءه أمه المؤمنة «برة بنت عبد المطلب»، وهى أخت أبى طالب، و«عبد الله بن مسعود»، «وأبو حذيفة بن عتبة» هاربا من أبيه ومعه زوجته «سهلة بنت سهيل بن عمرو» فارة بدينها من تعذيب أبيها فولدت له بأرض الحبشة «محمد بن أبى حذيفة، وكان يرأسهم «عثمان بن مظعون الجمحى» (٣).

---

(١) متفق عليه وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٢٢ وابن عبد البر: الدرر ص٥٧ والنويرى: نهاية الأرب جـ١٦ ص٢٣٢.

(٢) هى أروى بنت كزبر وأمها أم حكيم بنت عبد المطلب. روى ابن الأثير فى أسد الغابة أنها من أوائل من أسلمن هى وأم عبد الرحمن بن عوف ترجمة رقم ٦٦٩٥.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٢١ـ٣٢٣، وابن سعد: الطبقات الكبرى القسم الأول جـ١ ص١٣٦ـ١٣٧.

أسرع المؤمنون العشرة متسللين نحو البحر، وكان برفقتهم أربع من نسائهم، وهم لا يطمعون إلا فى حماية الله لهم، ولا يرجون إلا أن يأتيهم بالفرج من عنده، وأن يكفيهم شر شياطين قريش، ولكن هؤلاء كانوا لهم بالمرصاد، فقد نمى إليهم أن بعض أتباع محمد قد تسللوا فرارا من مكة، فتجمع نفر منهم وأسرعوا يقتفون أثرهم، فكان بين الفريقين سباق هرع فيه المظلومون الذين لا ناصر لهم إلا الله الواحد الأحد، وجدّ فى اللحاق بهم الطغاة الظالمون الذين بغوا فى الأرض وقد ملأهم العناد والكبر، وكانت جائزة هذا السباق الرهيب إما حرية للمظلومين، ونجاة لهم من الذل والعبودية والعذاب، وإما أن يعلو الظالمون فيرجعون بالمظلومين إلى ذل الإسار فى مكة، ويذيقونهم من العذاب ألوانا، أويعيدونهم إلى عبادة الأوثان.

كان المؤمنون يهرعون وهم فى طريقهم إلى البحر الأحمر، وكانت عين الله الساهرة ترعاهم، وكان بعضهم يمتطى ما تيسر له من الدواب، وكان الآخرون يستحثون السير على الأقدام (١)، وكلهم كانوا يضربون فى سبيل الله ابتغاء فيض من رحمته حتى وصلوا إلى «ميناء الشعيبة» على ساحل البحر الأحمر، وكان توفيق الله يحالفهم، فقد وجدوا سفينتين للتجار على وشك الإقلاع، فركبوا فيها بنصف دينار، وأبحرت السفينتان إلى عرض البحر بسلام. ووصل المشركون وهم يستحثون دوابهم إلى شاطىء البحر فلم يدركوا من المؤمنين أحدا (٢) فعادوا مدحورين وقد امتلأت نفوسهم حقدا وصدورهم غيظا. وانتشر خبر فشلهم فى أرجاء مكة بسرعة البرق، وفرح المسلمون جميعا لنجاة إخوانهم وأخذ الاطمئنان يتسرب إلى قلب السيدة «خديجة أم المؤمنين».

ووصل المهاجرون إلى أرض الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك فى العام الثانى من الجهر

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى: المرجع السابق؛ والطبرى جـ٢، ص ٣٢٩.

(٢) المرجعان السابقان.

بالدعوة، وقد روى عنهم قولهم: «قدمنا أرض الحبشة فجاورنا فيها خير جار، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نُؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه»[1] ولما أطمأنوا على أنفسهم، وذاقوا طعم الحرية، انطلق شعراؤهم يتغنون بالشعر، ونحن نقتطف هنا بعض ما قالوه، ونبدأ ببعض ما قاله رئيسهم «عثمان بن مظعون» يعاتب ابن عمه «أمية بن خلف» الذى كان يؤذيه حتى أخرجه من مكة[2]:

أأخرجتنى من بطن مكة آمنا وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع[3]
وحاربت أقواما كراماً أعزة وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوما ملمة وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

ووصل الشعر إلى أهل مكة، فقرت عيون الأمهات المؤمنات لنجاة أولادهن، وفرحن حينما علمن أنهم سعداء بجوار النجاشي وأهل الحبشة وأنهم أحرار يعبدون الله فى أمان، وقرت عين أم المؤمنين «خديجة» بسلامة أولادها وأبنتها «رقية» وزوجها «عثمان بن عفان» وابن أخيها «الزبير بن العوام»، وشجعت تلك الأخبار بعض المسلمين على اللحاق بإخوانهم فتتابعوا مهاجرين إلى الحبشة وكان من بين هؤلاء «جعفر بن أبى طالب»[4]، فلما أمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحدا، وقد أحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به، أخذ شعراؤهم يتغنون بالحرية، وهذا بعض ما قال «عبد الله بن الحارث بن سهم»[5]:

يا راكبا بلِّغنْ عنى مغلغلة[6] من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهور ومفتون

---

(١) المرجعان السابقان.
(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٣٣٢.
(٣) المعنى أقمت بمكة آمناً وأخرجتنى أسكن بجوار قصر النجاشي.
(٤) المرجع السابق ص٣٢٣.
(٥) المرجع السابق ص ٣٣٠ ــ ٣٣١.
(٦) المغلغلة هى الرسالة من بلد إلى آخر.

إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجى من الذل والمخزاة [1] والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ى الممات وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا قول النبى وعالوا [2] فى الموازين

رأى المشركون أنهم، برغم إسرافهم فى تعذيب المسلمين، لم يستطيعوا أن يردوا إلى دينهم إلا القليلين من المستضعفين، وتحمل باقى المسلمين العذاب الذى انصب عليهم بصبر وإيمان عجيبين، وعلى الرغم من ذلك أيضا نجح «محمد» فى أن يدخل فى دينه، أثناء هذا الكفاح المرير بين الحق والباطل، لفيفا آخر من أعرق قريش نسبا، وأكثرهم حسبا، كان من بينهم «سلمة بن هشام» شقيق «أبى جهل» أشد أعداء «محمد»، و«الوليد ابن الوليد بن المغيرة» وهو أخو «خالد بن الوليد»، و«أبو حذيفة بن عتبة ابن ربيعة» [3]، ثم آثر عشرة رجال من أعز قبائل قريش، ومعهم أربع من صفوة القرشيات، الهجرة مؤثرين ترك الأهل والمال والوطن على العودة إلى السجود إلى «هُبَل» وغيره من الأصنام، وقد شملهم الله جميعاً برعايته وتوفيقه حتى نجحوا فى الوصول إلى الحبشة ولم يتمكن مشركو قريش من اللحاق بهم.

وكذلك رأى المشركون أن «أبا طالب» حمى «محمدا» فلم يستطيعوا أن يقضوا عليه حتى يستريحوا منه، وأنه قد عز كثيرا بإسلام «حمزة بن عبد المطلب». لقد كانت كل هذه الأمور سببا يحملهم على التفكير لعلهم يجدون وسيلة أخرى تمكنهم من التغلب على «محمد» والقضاء على دعوته، أوتساعدهم على أن يوقفوه عند حده فيسكت عن ذم آلهتهم وعن ذكر قصور تفكيرهم، وأصبح ذلك شغلهم الشاغل، فقد كان كل واحد منهم يقدح زناد فكره فيه كلما خلا إلى نفسه، وكانوا يتباحثون فيه سويا إذا اجتمعوا حول الكعبة فى منتدياتهم، ولكنهم كانوا كلما أوغلوا فى التفكير فيه وجدوا

(١) المخزاة: الخزى. (٢) أطرحو: تركوا، عالوا: خانوا.
(٣) ابن عبد البر: الدرر ص ٤٧.

أنفسهم عاجزين عن تدبير هذا الحل الذى أصبح أملا يرجون تحقيقه مهما بذلوا من جهود فى سبيل ذلك.

وحدث، بعد إسلام حمزة، أن كان بعض زعمائهم مجتمعين فى ناديهم، وكان بينهم «عتبة بن ربيعة»، وهو أحد ساداتهم، ورأى عتبة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جالسا وحده عند الكعبة فقال لأصحابه: «يا معشر قريش، ألا أقوم إلى «محمد» فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ فقالوا: بلى يا «أبا الوليد»، قم إليه فكلمه»(1) وقام عتبة من فوره حتى جلس بجوار النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ يقول له قولا لينا فيه كثير من المجاملة التى يستحقها، فذكره بحسبه ونسبه فى قريش، وأنه على الرغم من ذلك قد عاب قومه وما يعبدون، وأخذ بعض شباب القرشيين يتبعونه، ففرق بذلك بين أفراد كل عشيرة، ثم انتقل «عتبة» إلى محاولة إغراء «محمد» بالمال والجاه وكل ما قد تتوق النفس البشرية إليه من السلطة حتى عرض عليه الملك، ومما يؤثر عنه فى ذلك قوله مخاطبا رسول الله(2):

«يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة(3) فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت فيه دينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا لعلك تقبل منها بعضها» فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل يا «أبا الوليد»، أسمع». قال «الوليد»: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا؛ وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك(4)، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب؛

---

(1) ابن هشام: السيرة، جـ1 ص 293.

(2) المرجع السابق. (3) السطة: الشرف.

(4) المقصود جعلناك فينا سيداً حتى لا نفصل فى أمر إلا بمشورتك.

وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه»[1].

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فوق كل هذه العروض الدنيوية، فلم يكن يغريه كل ما يخطر على ذهن البشر من المتع وزينة الحياة الدنيا، وقد أراد بحكمته أن ينتهز هذه الفرصة ليسمع «عتبة» بعض ما نزل من القرآن الكريم، فقد كان من كبار مفكرى قريش، ومن أذكيائهم، كما كان من أفصح قريش وأكثرهم علما وتذوقا للشعر والأدب، فلما فرغ «عتبة»، قال الرسول الكريم: «أفرغت يا «أبا الوليد»؟ قال: نعم، قال فاسمع منى، قال أفعل. فبدأ النبى الكريم يرتل من كلام الله آيات بينات من سورة فصلت تبين بجلاء أن الله أنزل القرآن رحمة للناس، وجعله عربيا ليبشّر به الرسول قوما يستطيعون فهمه، وينذرهم عذابا شديدا إذا تمادوا فيما هم فيه من الشرك بالله، ثم ذكر إعراضهم عنه وعملهم على محاربة من آمن به، كما أوضح أن «محمدا» عبد من عباد الله وإنسان مثلهم، أرسله الله ليبلغهم أنه لا إله إلا هو، وأمرهم بالإيمان برسالته وطاعته، وذكّرهم بقدرة الله الذى خلق السماوات والأرض، واليوم الآخر الذى يلقى كل إنسان فيه جزاءه: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ ثم أنذرهم عذابا مثل عذاب من سبقهم من الأمم التى كفرت بأنعم الله، واتخذت له شركاء. وأخذ الرسول يتلو قوله تعالى: [2].

(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ

---

(١) رئيا ما يخيل للإنسان أنه مس من الجن. حتى نبرئك: حتى تبرأ أو يزول هذا المس من الجن.

(٢) سورة فصلت: الآيات ١ ــ ٦.

ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾

وانبهر عتبة بفصاحة ما كان يستمع إليه، وأثرت فى نفسه حلاوة الآيات الكريمة فأغرق فى الإنصات بكل جوارحه، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليهما حتى وصل الرسول إلى قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١)

فسجد النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال: «قد سمعت يا «أبا الوليد» ما سمعت، فأنت وذاك». وأفاق «عتبة» من استغراقه فى الإنصات والتأمل، ونهض عائدا إلى أصحابه؛ فتفرسوا فى وجهه وهو مقبل عليهم، وكانت لهم فى العلم بالفراسة مقدرة عظيمة، فقال بعضهم لبعض: «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به». ولما جلس، قالوا: «ما وراءك يا «أبا الوليد»؟ قال «عتبة»: «ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط: والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فلكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به» (٢).

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٧.

(٢) هذه القصة رويت فى أكثر كتب السيرة وقد اعتمدنا على ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

كان «عتبة بن ربيعة» رجلا من رجالات قريش المعدودين، وكانت أخلاق التجار التى ورثها عن آبائه تجرى فى دمه، ولذلك فقد كانت الدنيا عنده أخذا وعطاء، ولم يكن يستطيع أن يسمو إلى مقام النبوة، ولا أن يدرك الرسالة السامية التى تدعو إليها، ولذلك رأى أن ينصح قومه باتباع إحدى الطريقتين، فإما أن يهادنوا محمدا وأن يغروه بالمال وبما يشاء من المتاع الدنيوى حتى تطيب نفسه، وإما أن يتركوه وشأنه مع قبائل العرب الأخرى، فإن فشل معها فعليه فشله، وقد يكون فى ذلك هلاكه بعيدا عن قريش كلها، أما إذا قدر له النجاح وانضمت القبائل تحت لوائه ودخلت فى دينه، فإن قريشا تنتهز الفرصة وتنحاز إليه حتى تستفيد من نجاحه ويكون ذلك فوزا وشرفا لها.

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى إيفاد قريش «لعتبة بن ربيعة» بادرة توحى أنهم بدأوا يحسون بالحاجة إلى المهادنة، ولذلك طمع فى أن يكون ذلك بداية لهدايتهم إلى اتباع دين الله، فقد كان يرجو أن يعز الله بهم الإسلام فيصبحوا هم دعاته، ويكون على أيديهم انتشاره، وقد قوى هذا الأمل عندما رأى أن المشركين قد أخذوا يتقربون منه، وبدأوا يكفُّون عن تعذيب الداخلين فى الإسلام، ولم يطاردوا من أراد منهم اللحاق بإخوانه الذين سبقوه إلى بلاد الحبشة، ولذلك فقد أخذ يدنو منهم كما دنوا منه (١)، وأخذ الاطمئنان يتسرب إلى نفوس المؤمنين فى مكة، وبدأت الطمأنينة تدب إلى أهل البيت وعلى رأسهم أم المؤمنين «خديجة» وأخذوا جميعا يشكرون الله على ذلك راجين أن يتم نعمته عليهم، وسرعان ما انتقلت هذه الأخبار الطيبة إلى الحبشة مع من استطاع الوصول إليها من المهاجرين الجدد، ففرح المسلمون هناك واستبشروا خيرا.

* * *

وبعد الهجرة الأولى للحبشة فى شهر رجب من العام الخامس، جاء

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٣٣.

البشير يوما إلى أم المؤمنين، أن «بركة أم أيمن» حاضنة رسول الله تعانى آلام المخاض، فأسرع إليها زوجها «زيد بن حارثة»، ولما عاد كان وجهه يتهلل بشرا وسرورا، وزف إلى أم المؤمنين أن الله قد مَنَّ عليه بغلام أسماه «أسامة»، ففرحت بمولده، [1] ولا شك أنها أكرمت أم المولود، وقد أحب النبى الكريم هذا الغلام حبا كبيرا، وكان كثيرا ما يدعو له هو وحفيده «الحسن ابن على» من «فاطمة الزهراء» قائلا: «اللهم أحبهما فانى أحبهما» [2]، وقد أكرمه يوم الفتح الأعظم فأردفه خلفه على راحلته عندما نزل من أعلى مكة حتى أناخ فى المسجد الحرام ثم اصطحبه عندما دخل الكعبة المشرّفة ومكثا فيها نهارا طويلا [3].

* * *

ورأى زعماء الأرستقراطية المشركة أن «عتبة بن ربيعة» لم ينجح النجاح الذى كانوا يأملونه فقالوا له: «سحرك والله «يا أبا الوليد» بلسانه»، ورد عليهم بقوله: «هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم» [4]؛ ولكنهم على الرغم من ذلك أخذوا يتدبرون ما قال لهم «أبو الوليد عتبة بن ربيعة»، ويمعنون التفكير فيه، فرأوا أن فيه شيئا كثيرا من الصواب، وأنهم يجب أن لا ييأسوا من الاقتراب من «محمد» لعله يقبل موادعتهم، ولذلك ذهب فريق منهم إلى «الحصين بن عبيد بن خلف الخزامى» [5]، وكان شيخا كبيرا، وسيدا فى قومه، وكان ابنه «عمران» قد أسلم وحسن إسلامه، فكان يجتمع مع من أسلم فى بيت «خديجة أم المؤمنين حيث يعلمهم الرسول مما علمه الله فى

---

(١) بذلك يكون مولد أسامة فى العام الخامس من مبعث الرسول الكريم ويكون قد عاش بمكة حوالى ثمانى سنوات قبل الهجرة النبوية إلى يثرب.

(٢) البخارى جـ ٦ الحديث ٣٣٢٧ ص ١٢٨.

(٣) البخارى جـ ٧ ص ١٢.

(٤) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٩٤.

(٥) ترجمة الحصين أو حصين فى ابن الأثير: أسد الغابة المجلد الثانى برقم ١١٨٥ وترجمة ابنه عمران فى نفس المرجع الرابع برقم ٤٠٤٢؛ وانظر ابن سعد: جـ ٢ القسم الثانى ص ١٢٥ عند الكلام عن عمران.

أول مدرسة اتخذها لتعليم أصحابه، وشكا زعماء المشركين إلى «الحصين» مهاجمة «محمد» لهم، وعيبه في دينهم، فذهب معهم إلى دار «خديجة» فجلسوا خارج البيت ينتظرون عودته إليهم، ودخل «الحصين»، فرحب به النبى صلى الله عليه وسلم قائلا: «أوسعوا للشيخ» ودار حوار بينهما، نثبت هنا بعض ما ورد منه:

قال حصين: «ما هذا الذى بلغنا عنك: أنت تشتم آلهتنا؟».
الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا حصين كم تعبد اليوم إلَهًا؟»[1]
حصين: «سبعة: ستة فى الأرض[2]، وواحد فى السماء»
الرسول- صلى الله عليه وسلم: «فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك؟».
حصين: «الذى فى السماء».
النبى- صلى الله عليه وسلم: «فإذا أصابك الضر، فمن تدعو»؟
حصين: «الذى فى السماء».
النبى- صلى الله عليه وسلم: «فإذا هلك المال، فمن تدعو؟»
حصين: «الذى فى السماء».

النبى صلى الله عليه وسلم: «يا حصين، يستجيب لك وحده وتشرك معه غيره[3]؟ يا حصين، أسلم تسلم. يا حصين. أما إنك لو أسلمت لعلمتك كلمتين ينفعانك».

وزالت الغشاوة التى كانت على عينى الشيخ، وهداه الله لعبادته، وأضاء قلبه بنور الإسلام، فأبصر طريق الحق وأسلم لله وحده، ومدّ يده مبايعا الرسول وشاهدا بوحدانية الله ورسالة «محمد» صلى الله عليه وسلم. ونهض ابنه عمران، فأقبل على رأس أبيه وأخذ يقبله وانهال على يديه تقبيلا، فرق لهما قلب النبى صلى الله عليه وسلم وامتلأت عيناه بالدموع؛ وقد قال فى ذلك عندما سأله بعض المؤمنين: بكيت من صنع

---

(١) السؤال عن عدد الآلهة التى كان يتعبد لها حصين.
(٢) أى كان حصين يعبد ستة أصنام حول الكعبة ويقدم لها القرابين والنذور.
(٣) المعنى: يستجيب لك الذى فى السماء وحده، فكيف تشرك به وتعبد معه آلهة غيره؟.

«عمران»: «دخل «حصين» وهو كافر، فلم يقم له «عمران»، ولم يلتفت إليه، فلما أسلم قام إليه ووفى بحقه». وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المسلمين ويوجههم إلى مكارم الأخلاق.

لقد ألهَمَ الله النبى فأتى بالحجة البالغة، فإن الله وحده هو الخلاق العظيم الذى خلق كل شيء، وإنه وحده هو النافع الضار وليس لذى عقل أن يعبد معه من لا يضر ولا ينفع؛ وقد أجمل الله، سبحانه، هذه المعانى السامية فى أبلغ عبارة حيث قال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١)

ولما أسلم «حصين» قال: «يا رسول الله. علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى». قال رسول الله: «قل: اللهم ألهمنى رشدى، وأعذنى من شر نفسى»، وفى رواية أخرى أنه قال له «قل: اللهم قنى شر نفسى، واعزم لى على أرشد أمرى (٢). اللهم أغفر لى ما أسررت وما أعلنت، وما أخطأت وما عمدت وما جهلت».

ولما أراد «حصين» الخروج قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «شيعوه إلى منزله» فخرج وقد أحاط به نفر من المؤمنين، ولا شك أن ابنه «عمران» كان فى مقدمتهم. ورأتهم جماعة المشركين الذين كانوا ينتظرون خارج بيت أم المؤمنين «خديجة» فأيقنوا أن الشيخ قد دخل فى دين

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣٨.

(٢) أى هب لى قوة وصبراً لأبلغ أرشد الأمر.

«محمد»، وقالوا وقد شعروا بالخيبة: «صبأ الشيخ»[1] وتفرقوا مخذولين. لقد أختاروا هذا الشيخ وكانوا يرمون إلى أحد أمرين، فإما أن يوقعوا بينه وبين «محمد» لسابق إسلام «عمران» وخروجه عن طاعة أبيه، وإما أن يتغلب الشيخ عليه فيثنيه عن مهاجمة قريش وعن ذكر تفاهة مايعبدون من دون الله، فإذا بالشيخ يترك عبادة أصنامهم ويصبح من أنصار «محمد»! ولازم ابنه «عمران» الرسول الكريم وحفظ عنه الأحاديث والسنن حتى وصفه «محمد بن سيرين» بقوله: (كان «عمران بن الحصين» يعد من ثقات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث»[2].

واعتقد المسلمون أن هذا الذى حدث كان توفيقا من الله هدى إليه رسوله صلى الله عليه وسلم فنحه الصبر والحكمة فى الحوار مع هذا الشيخ الكبير حتى أضاء الله قلبه للإيمان، وكان آل البيت، وعلى رأسهم «أم المؤمنين خديجة»، أكثر المسلمين شكراً لله على هذا التوفيق، ولدخول شيخ من شيوخ قريش فى دين الله فى الوقت الذى كان لايزال بعض المؤمنين مضطرين للفرار بدينهم إلى الحبشة.

وكانت هذه الموادعة والمهادنة تصل مبالغا فيها من التجار والمهاجرين الجدد إلى بلاد الحبشة، فزاد استبشار المسلمين هناك، وحمدوا الله، وأخذ الأمل ينتعش فى نفوسهم بقرب العودة إلى أرض الوطن إذا استمرت الأمور تسير على هذا المنوال، وصاروا ينتظرون بفارغ الصبر العودة ولقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعيش فى بيوتهم بين أهلهم وأقاربهم فوق أرض الوطن.

وغضب سادة الارستقراطية الوثنية لفشل محاولات المدنّة مع «محمد»، ولاستمرار إقبال الناس على الدخول فى دينه، فاجتمع لفيف منهم بعد

---

(١) أى خرج من دين أهله.

(٢) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى جـ ٢ القسم الثانى ص ١٢٥.

غروب الشمس عند ظهر الكعبة، وكانوا يمثلون جميع بطون قريش [1]، وأخذوا يتشاورون وقد بدا على بعضهم نفاد الصبر، واستقر رأيهم على أن يبعثوا إليه ليجتمع معهم وأن يكلموه لعله يقبل منهم المهادنة، وإلا فإنهم يخاصمونه ويصبحون فى حل من القضاء عليه؛ وكان من بينهم «عتبة بن ربيعة»، و«أبوسفيان بن حرب»، و«أبو البخترى بن هشام»، و«الوليد بن المغيرة»، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء[2]، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم [3]. فلما جلس إليهم كلموه بمثل كلام «عتبة بن ربيعة»، وحاولوا إغراءه بكل ما أغراه به «عتبة» من الشرف والجاه والملك والزواج ممن يطمع فيها، وغير ذلك مما يتوق إليه أمثالهم من متع الحياة الدنيا ومباهجها؛ وكان رده عليهم نبيلا وكريما مما يليق بأمثاله من الأنبياء والمرسلين الذين يؤدون رسالات ربهم ولا يطمعون فى شىء من عَرَض الدنيا، وكل ما كان يرجوه هو أن يؤمنوا وقومهم فيعبدوا ربهم، ويرتقوا إلى مستوى الحياة الفاضلة؛ ولذلك فقد قال لهم: «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلّغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» [4]. وأنزل الله سبحانه فى ذلك قرآنا سجل فيه أن النبى، مثله فى ذلك مثل جميع من سبقه من الأنبياء، لا يريد من الناس جزاء ولا شكورا، فالثواب

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٩٥ – ٢٩٧؛ والنويرى: جـ ١٦ نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢١٤ – ٢١٦.

(٢) المقصود: أنه صلى الله عليه وسلم، ظن أنهم قطعوا برأى فيما قاله لمن أرسلوه إليه.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٩٥ والنويرى، نهاية الأرب ص ٢١٤.

(٤) المرجعان السابقان.

والمغفرة ستكون لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا تصديقا برسالة الرسول، وأما أجر النبى وثوابه فإنه يكون على الله الذى بعثه بالهدى، قال تعالى:

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١)

واستمر الحوار بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين متكبرى المشركين مدة طويلة، فالكفار من ناحيتهم لايقيسون المسائل كلها إلا بمقياس مادى، ولاينهضون بعمل من الأعمال إلا إذا كان لهم من ورائه مغنم كبير، ولذلك فإنهم يطلبون من «محمد» أن يسأل لهم ربه أن يزيح عنهم الجبال التى تحيط بمكة حتى تصبح فى واد منبسط تجرى فيه أنهار كأنهار الشام والعراق، ثم تغالوا فى مطالبهم فطلبوا أن يبعث الله لهم حكماء العرب الذين ماتوا ليسألوهم فى هذا الأمر (٢)، ووصف الله سبحانه هذه المطالب بأبلغ عبارة فى قوله الكريم:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ ﴾ (٣)

واستمروا فى عنادهم، واشتطوا فى مطالبهم بما وصفه الله تعالى بأفصح الآيات فى قوله (٤):

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ

---

(١) سورة سبأ: الآية ٤٧.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٩٦.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣١.

(٤) سورة الإسراء الآيات ٩٠ ـ ٩٦ وانظر السيرة جـ ١ ص ٣٠٩ وانظر النويرى جـ ١٦ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا * قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا أسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه [1]. فقد كان يؤلمه أشد الألم أن قومه تولوا عنه، كما كان يشق عليه هذا العناد الذى بدا منهم، وأن يطلبوا من نبيهم هذه المطالب التى لا يطلبها عاقل. ولا شك أن زوجته المؤمنة استقبلته بصدر رحب، وأنصتت إليه وهو يقص عليها ما حدث، وأنها بذلت كل ما تستطيع حتى تسرى عنه، وأن تزيل عنه بعض ما كان يشعر به من حزن عميق، ذاكرة له أن الله وعد بنصر دينه.

واشتد الخلاف بين المشركين، فقد كان الغلاة منهم، وعلى رأسهم «أبو جهل»، يرون ضرورة التخلص من «محمد» والقضاء عليه حتى تخلو لهم مكة ويسهل بعد ذلك القضاء على أتباعه؛ وكان نفر منهم يرون، برغم عداوتهم «لمحمد» وما جاء به، أن المبادرة بقتله ستجر عليهم الوبال،

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٩٨ والنويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢١٦.

وستكون سببا فى حرب طاحنة بين قبائل قريش مما لا طاقة لهم به، ولذلك فقد كان من رأيهم أن يتريثوا، وأن يصبروا حتى يجدوا فسحة من الوقت يدبرون فيها أمرهم لعلهم يجدون وسيلة أخرى تضمن مهادنة «محمد» لهم، وكان من بين هذا النفر «النضر بن الحارث» الذى وقف بيهم خطيبا يذكرهم بما كانوا يصفون به «محمدا» من الخلق الكريم فى شبابه، ثم أخذ ينصح لهم بالصبر فى معالجة هذا الأمر، وكان مما قاله: «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد؛ فقد كان «محمد» فيكم غلاما حَدَثا أرضاكم فيكم(١)، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب(٢)، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر. لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم(٣). وقلتم كاهن؛ لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم. وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه. وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم)(٤).

وذاعت كل هذه الأخبار فى مكة بسرعة البرق، ومنها انتشرت فى أرجاء شبه الجزيرة العربية كلها ثم انتقلت مع التجار المسافرين إلى بلاد الحبشة فعلم بها المؤمنون الذين هاجروا بدينهم إلى هناك.

---

(١) المقصود أنكم كنتم ترضونه.

(٢) حتى إذا شب وأصبح رجلاً عاقلاً.

(٣) رأينا أعمال السحرة وطرقهم.

(٤) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠، والنويرى نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

(سورة التوبة الآيتين ١٢٨ ـ ١٢٩)



الفصل السابع

تصاعد الكفاح وثبات النبى والمؤمنين

رأى زعماء الأرستقراطية القرشية أن «محمدا» قد تحطمت أمام صبره وتجلّده كل الوسائل التى دبروها للنيل منه، فهو لم يأبه لما كالوه له من تكذيب وسخرية واستهزاء وفحش فى القول، ولم يحفل بكل ما ناله من أذى منذ بدأ يجهر بدعوته هذه وقد مضى عليه قرابة العامين؛ كما تحطمت أمام صبر أتباعه وقوة احتمالهم ما صبوه عليهم من ألوان العذاب وصنوفه حتى فَضَّل بعضهم الهجرة إلى الحبشة فى شهر رجب من العام الثانى لجهر «محمد» بدعوته وهو يرفض بإباء كل ما عرضوه عليه من سلطان وجاه ومتاع يبهر أعين أشد الناس صلابة وأكثرهم عزوفا عن متاع الدنيا، فلما أعيتهم هذه الوسيلة أخذوا يفكرون لعلهم يهتدون إلى حيلة أُخرى ينجحون فى صرف «محمد» عن دعوته، وبعد جهد كبير وإعمال فكر، هدتهم عقولهم إلى ضرورة اللجوء إلى عمه «أبى طالب» يستعينون به على «محمد» حتى يكفّه عنهم ويمنعه من الاستمرار فى نشر هذه الدعوة. أليس هو الذى كفله صغيرا ورعاه حتى أصبح رجلا له شأنه بين بنى عبد مناف؟ ثم أليس هو الذى يمنعه ويحميه من قريش ومن يناصرها؟ إن «أبا طالب» كان وما يزال على دينهم الذى ورثوه عن آبائهم، و«محمد» يعيب هذا الدين كما يعيب أجدادهم الذين عكفوا على عبادة الأصنام وتقديم النذور والقرابين إليها فلا بد من تذكير «أبى طالب» بذلك حتى يغضب لآبائه ولما يعبد من آلهة

وبذلك يفرقون بينه وبين ابن أخيه. ولما ارتاحت نفوسهم إلى هذه النجوى، وظنوا أن شيخ بني هاشم سوف يستجيب لهم، أوفدوا نفرا من زعماء الأرستقراطية الوثنية وأشرافها إلى «أبي طالب»، فشكوا إليه «محمدا»، ولم ينسوا أن يذكروا له إصرار ابن أخيه على التشهير بآلهتهم التي عبدها أجدادهم من قبل، وأنه يسيء إلى هؤلاء الآباء والأجداد و.يقول إنهم كانوا يعيشون في ضلال، وطلبوا من «أبي طالب» أن يكُفَّه عن كل ذلك، أو أن يتخلى عن حماية ابن أخيه ويخلي بينه وبينهم. وأكرم «أبو طالب» وفادتهم، فاستمع إليهم، ثم «قال لهم قولا رفيقا، وردهم رداً جميلا» (١).

وكانت الأحوال قد هدأت في مكة منذ أخذت قريش تهادن الرسول صلى الله عليه وسلم، فأمسكوا عن تعذيب المؤمنين الذين دخلوا في دين الله بعد هجرة أتباعه الأولى إلى الحبشة في شهر رجب، وشعر الناس بشيء من السلام يعود إلى هذا البلد المقدس و وطمع العقلاء من زعماء قريش في أن يستمر هذا الهدوء، وكانوا يأملون أن يتخذ «أبو طالب» خطوات ناجحة في سبيل إقناع «محمد» بالتصالح مع أهله وعشيرته القرشية، ولكن «أبا طالب» اكتفى بأن أحسن استقبالهم؛ ولذلك أخذوا يفكرون في وسيلة أخرى يضغطون بها على هذا الشيخ حتى يستجيب لهم، فأجمعوا أمرهم على أن يوفدوا وفدا آخر إليه، وأن يكون حديثهم معه مزيجا من الترغيب في الموادعة والمسالمة، وقدرا كبيرا من الترهيب والإنذار بالصراع معه حتى الفناء، وكان من بين ما قالوه له في هذه المناسبة: «يا أبا طالب، إن لك سِنًّا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا (٢)، وعيب آلهتنا، حتى تكُفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين» (٣).

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٦٥، والطبري: التاريخ جـ ٢ ص ٣٢٣.

(٢) أحلامنا: عقولنا.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ والطبري جـ ٢ ص ٣٢٣ والنويري جـ ١٦ ص ١٩٩ ــ ٢٠٢.

فعظم على «أبى طالب» فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خذلانه، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى وقالوا لى كذا وكذا، فأبق على وعلى نفسك، ولا تحمّلنى، من الأمر ما لا أطيق» (١).

وظن النبى صلى الله عليه وسلم أن عمه قد ضعف عن نصرته، وأنه سيخذله ويسلمه إلى أعدائه، فقال فى شجاعة المؤمن وعزم الأنبياء وحزمهم: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام وهم بالخروج، فناداه «أبو طالب» فقال: «أقبل يا بن أخى، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا» (٢).

وعاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهله راضيا مرضيا، ولا شك أن أهل البيت جميعا قد أسعدهم أن ينشر «أبو طالب» مظلة من حمايته على ابن أخيه، فحمدوا الله على ما أفاء على نبيه من الفضل، وانتشر الخبر بين أهل مكة جميعا، فعرفت قريش كما عرف المسلمون أن «أبا طالب» قد أبى أن يخذل ابن أخيه، ففرح المؤمنون وشكروا الله على رعايته نبيه؛ وأسقط فى يد المشركين، وأخذوا يدبرون، فهداهم تفكيرهم وتدبيرهم الذى تعودوه فى تجارتهم أن يذهبوا مرة أخرى إلى «أبى طالب» ويعرضوا عليه أن يعطوه شابا من أحسن شبان قريش عقلا، وأقواهم جسما، وأجملهم شكلا هو «عمارة بن الوليد بن المغيرة» ليتخذه ولدا يكون له سندا ونصيرا، وأن يسلمهم (٣) فى مقابل ذلك ابن أخيه ليقتلوه فيستريحوا منه، ويقضوا بذلك

---

(١) المراجع السابقة. بإسلامه: خذلانه وتمكينهم منه.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) يسلمهم: أى يمكنهم منه فيفعلوا به ما يشاءون.

على هذا الدين الجديد الذى يبشر به ؛ وقالوا «لأبى طالب» إنهم ينصفونه بهذا العرض لأنهم إنما يعطونه رجلا من أعز رجالهم هو «عمارة بن الوليد ابن المغيرة» مقابل رجل يأخذونه من بنى هاشم هو «محمد بن عبد الله» ، وهو أمر تعودوا أن يفعلوه فى التجارة أثناء المبادلة بالمحاصيل ، ولذلك تهكم بهم «أبو طالب» وهو يرد عليهم ردا أفحمهم وأسقط به حجتهم قائلا : «والله لبئس ما تسوموننى ! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبدا» (1).

وفى رواية أخرى قال ابن سعد إنهم «مشوا إلى «أبى طالب» حتى دخلوا عليه فقالوا : «أنت سيدنا وأفضلنا فى أنفسنا ، وقد رأيت الذى فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا ، وطعنهم علينا ، وتسفيهم أحلامنا» . وجاءوا «بعمارة بن الوليد بن المغيرة» فقالوا : قد جئناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة وشعراً (2) ، ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه ، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله فإن ذلك أجمع للعشيرة ، وأفضل فى عواقب الأمور مغبة . فقال «أبو طالب» : والله ما أنصفتمونى ، تعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابن أخى تقتلونه ؟ ما هذا بالنصف و تسوموننى سوم العير الذليل» (3) .

واستشاط زعماء الأرستقراطية القرشية غضبا إذ كيف يرفض «أبو طالب» هذه المبادلة والمقايضة التى تعودتها قريش فى تجارتها ؟ إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن هذا التعامل التجارى إذا جاز فى أمور البيع والشراء فإنه لا يمكن أن يصلح فى مثل هذه الحالة ، لأن الإنسان الحر الكريم المنبت ليس سلعة تباع وتشترى ، ولكن الكبرياء كان قد أعمى بصيرتهم ، وكانت

---

(1) ابن هشام : السيرة جـ 1 ص 266 ـ 267 والطبرى : جـ 1 ، التاريخ جـ 2 ص 326 ، والنويرى : جـ 16 ص 200 ـ 201 .

(2) هو أخو خالد بن الوليد . والنهادة : الكرم .

(3) الطبقات الكبرى جـ 1 القسم الأول ص 134 . تسوموننى : تهينوننى . العير : الحمار.

كراهيتهم «لمحمد» ورسالته قد أفسدت عليهم تفكيرهم، ودفعهم ذلك كله إلى أن يغلظوا فى القول لهذا الشيخ الذى طالما بجلوه واحترموا آراءه، فأسرفوا فى مهاجمته ومنابذته قبل أن ينصرفوا من عنده(١).

ولما خلا المشركون إلى أنفسهم وجدوا أنهم قد ضلوا السبيل، وأفسدوا على أنفسهم مادبروه، فقد تعمدوا بعد نجاح بعض المسلمين فى الهجرة، مهادنة «محمد» فترة من الزمن، وكانوا يطمعون أن يكسبوا خلال ذلك هذا الشيخ الكبير فيضموه إلى جانبهم حتى يستعينوا به على ابن أخيه، فهو وحده الذي يستطيع أن يمنعه عنهم، ولكنهم غاضبوه ونابذوه قبل أن ينصرفوا من عنده. وعادوا يقلّبون الأمر من جديد على وجوهه، فرأوا أن يسارعوا إلى إرضاء الشيخ، وأن يعرضوا عليه أنهم يقبلون أن يحكّموه بينهم وبين ابن أخيه راجين أن ينصفهم منه، وهم يقترحون على شيخ عبد مناف أن يكف ابن أخيه عن شتم آلهتهم، وعيب دينهم فى مقابل أن تتركه قريش يعبد إلّهه كما يشاء؛ وكانوا يرون فى هذا الاقتراح أكبر إنصاف «لمحمد» ولهم، وليس فيه، فى نظرهم، غضاضة على أى من الطرفين لأنه عرض مبنى على مبدأ تبادل المنفعة وهو مبدأ كانت تؤمن به قريش فى حياتهم الاجتماعية وعلاقاتهم مع القبائل العربية الأخرى.

وحدث أن مرض أبو طالب فى تلك الفترة، فرأى زعماء قريش أنها فرصة تتيح لهم زيارته ليعودوه فى مرضه ثم يعرضوا عليه هذا الأمر، ومما يؤثر عنهم فى ذلك قول بعضهم لبعض: «انطلقوا بنا إلى «أبى طالب» فنكلمه فيه، فلينصفنا فيه، فيأمره فليكف عن شتم آلهتنا؛ وندعه وإلّهه الذى يعبد؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء فتعيرنا العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه»(٢).

---

(١) متفق عليه أنظر المراجع السابقة ابن هشام: السيرة، والطبرى: التاريخ، والنويرى: نهاية الأرب.

(٢) الطبرى: جـ ٢ ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤ والنويرى: نهاية الأرب: جـ ٢ ص ٢٠١ ــ ٢٠٢.

وأسرعوا فبعثوا رجلا منهم فاستأذن لهم على «أبى طالب»؛ فلما دخلوا عليه قالوا: يا «أبا طالب»، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فره فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه.

وأرسل «أبو طالب» إلى ابن أخيه، فلما دخل عليهم أخبره بما يعرضه عليه عمومته من أشراف قريش طالبين من عمه أن ينصفهم منه. ورأى النبى صلى الله عليه وسلم أن فى ذلك فرصة تتيح له أن يعرّفهم بما يكسبونه إذا دخلوا فى دين الإسلام لأنهم حريصون على أن يكسبوا شيئا فقال: «أى عم. أوّلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها(١)؟» قال: «إلام تدعوهم؟» قال: «أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة يدين لهم بها العرب ويملكون العجم» فأسرع من بين القوم «أبو جهل» وقال: «ماهى وأبيك؟ لنعطينّكها وعشرا من أمثالها»(٢). وفى رواية أخرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطى كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم؟» فقال «أبو جهل»: «إن هذه لكلمة مربحة، نعم وأبيك لنقولنها وعشرا أمثالها» فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا: «لا إله إلا الله» فأُلجموا فترة وأبدوا اشمئزازهم ونفورهم من قولها، وقالوا «سلنا غيرها» فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها»(٣) فغضبوا، وقاموا وقد تملكتهم ثورة الغضب، وقال بعضهم لبعض: «إصبروا على آلهتكم، إن هذا لشىء يراد» وكان مما قالوا: «كيف يسع الخلق كلهم إله واحد؟» ثم قالوا: «لا نعود إليه أبدا، وما خير من أن يُغتال

---

(١) أى ألا أدعوهم إلى ما هو خير مما يعرضون على.

(٢) الطبرى جـ٢ ص ٣٢٤. والمقصود هو ما هى هذه الكلمة حتى نعطيك إياها ونعطيك عشر كلمات مثلها.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ١ القسم الأول ص ١٣٥.

محمد»(1) وأنزل الله سبحانه فى ذلك قرآنا يصف فيه تعنتهم واستكبارهم وعدم تخليهم عما وجدوا عليه آباءهم :

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ (2)

وأقبل النبى صلى الله عليه وسلم بعد خروجهم على عمه، فقال له «أبو طالب» : «يا ابن أخى، ما شططت عليهم» (3). واستبشر الرسول الكريم بقول عمه هذا فإنه يدل على أن عمه لم يرض أن يكون الأمر بينه وبين رجالات قريش سلعة تصلح فيها المقايضة، وفى ذلك ما يدل على أن عمه يقدر دين الوحدانية، ولذلك أسرع يدعو الشيخ إلى الإسلام قائلا : «قل كلمة أشهد لك بها يوم القيامة، تقول لا إله إلا الله» ؛ ولكن «أبا طالب» كان شيخا كبيرا وكان قد انتابه المرض، وكان يخشى أن يظن الناس أنه جبُن وقالها وهو على وشك الموت، فيكون ذلك عارا عليه وعلى أهله، ولذلك قال : «لولا أن يعيبكم بها العرب يقولون : جزع من الموت لأعطيتكها ؛ ولكن على ملة الأشياخ»، فأنزل الله على نبيه قوله الكريم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (4)

وكان «أبو طالب» قوى الملاحظة، فلم يفته قول زعماء قريش بعضهم لبعض : «لا نعود إليه أبدا، وما خير من أن يُغتال محمد»، وأدرك بفطنته أنهم قد كشفوا، فى ساعة غضبهم، عن حقيقة نواياهم، وأنهم إنما جاءوا

---

(1) ابن سعد : المرجع السابق. يغتال : يقتل، أى أن أحسن الحلول أن يقتل محمد.

(2) سورة ص : الآيات ٥ ـ ٧. انظر المراجع السابقة وكذلك أبا الحسن النيسابورى : أسباب النزول ص ٢٠٩.

(3) المعنى إنك ما جرت عليهم وما ظلمتهم. الطبرى : التاريخ جـ ٢ ص ٣٢٥.

(4) سورة القصص : الآية ٥٦ ؛ انظر أبو الحسن النيسابورى : أسباب النزول ص ١٩٣ ـ ١٩٤ وكذلك الطبرى : التاريخ جـ ٢ ص ٣٢٥.

إليه ليلتمسوا لأنفسهم المعذرة إذا ما أقدموا على اغتيال ابن أخيه [1] فهم يبيتون أمراً، ولذلك فقد قرر بينه وبين نفسه أن يكون دائما على حذر، وأن يرصد العيون التى تحرس ابن أخيه حتى لا تنتهز قريش الفرصة التى تتيح لهم اغتياله على حين غفلة من «بنى هاشم».

وكان المسلمون، قبل الهجرة الأولى إلى بلاد الحبشة فى شهر رجب من العام الثانى للجهر بالدعوة، لا يجتمعون مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا خفية فى دار الأرقم حيث كان يعلمهم آداب الإسلام وتعاليمه، ويدربهم على اتباعها؛ وقد ظل مكان اجتماعهم هذا سرا مصونا لا يعرفه أحد سواهم؛ ولكنهم انتهزوا فرصة هذا الهدوء الذى يشبه الهدنة فكانوا يذهبون إلى المسجد العتيق فى جماعات صغيرة ويجلسون حول الكعبة يتحدثون فى هدوء، فغاظ ذلك المشركين كثيرا [2]، ولكنهم كظموا غيظهم، ولم يتعرضوا لهم، وكان ذلك أحد الأسباب التى أدت إلى أن يسرع المشركون فى الالتجاء إلى محاولة استمالة «أبى طالب» والاستعانة به فى الاتفاق مع «محمد» [3]. ولعل عدم تعرضهم للمسلمين الذين جلسوا حول الكعبة هو الذى جعل «أبا بكر» يرى أن رغبة المشركين فى مهادنة الرسول صلى الله عليه وسلم ماتزال قوية. ولعل ذلك هو الذى جعله يرى أن الأوان قد آن ليذهب المسلمون فى جماعة كبيرة ويتفرقوا حول الكعبة، فإن ذلك يكون تجربة يعرف المسلمون منها حقيقة نوايا شيوخ قريش وقادتها، وجعل «أبو بكر» يلح فى ذلك حتى استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مشورته، وخرج إلى المسجد، وتجمع المسلمون هناك فِرَقاً، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا [4].

وفوجئت قريش بهذا التجمع الذى لم يكن يخطر لهم على بال، فبهتوا

---

(١) حتى لا يلومهم أحد.

(٢) ابن سعد: الطبقات، جـ ١ القسم الأول ص ١٣٤.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٢ ص ٤٢٨ ــ ٤٢٩.

واستولت الدهشة عليهم فلم يحركوا ساكنا، ووقف «أبو بكر» في المسجد خطيبا يدعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد؛ فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله بعد النبي صلى الله عليه وسلم. وسرعان ما ذهبت عن المشركين دهشة هذه المفاجأة، وسرعان ما نفد صبرهم ودفعتهم غطرستهم وكبرياؤهم إلى الهجوم على المسلمين دون تفكير أو وعي بالضرب والأذى، وامتدت أيديهم الآثمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فضربوه حتى وقع مغشيا عليه، فارتمى عليه «أبو بكر» يحميه بجسمه ويتلقى عنه الضربات وهو يقول: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله» فانهالوا عليه ضربا وركلا بالأرجل وهم يقولون: «هذا ابن أبي قحافة المجنون»(١) ودنا منه سفيههم «عتبة بن ربيعة» فهجم عليه وجعل يضربه بالنعال على وجهه حتى فقد الوعي. وعلمت بالخبر «بنو تيم» — وهم عشيرة «أبي بكر» — فهرعوا إليه وحملوه في ثوب إلى بيته وهو بين الموت والحياة، وظل كذلك طوال يومه، وكان أبوه وقومه يحاولون أن يكلموه وهو لا يستطيع أن يجيب حتى شكوا في موته؛ ولما بدأ يفيق قبيل الغروب، واستطاع أن يفتح فاه كان أول ما نطق به قوله في صوت ضعيف خافت: «ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» فاستشاط أبوه وقومه من «بني تيم» غضبا، وجعلوا يعنفونه تعنيفا شديدا وأغلظوا له في القول ثم فارقوه.

ولما تقدم الليل، واسترد «أبو بكر» جزءا من نشاطه حُمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت معه أمه، «أم الخير سلمى بنت صخر»، فأكب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله، ورق عليه رقة شديدة؛ فقال «أبو بكر»: «يا رسول الله، هذه أمي وأنت مبارك فادع لها، وادعها إلى الإسلام، لعل الله أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الله تعالى، فأسلمت»(٢).

---

(١) ابن عبد البر: الدرر ص ٤٥.

(٢) عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، انظر ابن الأثير: أسد الغابة في ترجمة أم الخير بنت صخر برقم ٧٤٢٨ جـ ٧ ص ٣٢٦.

لقد تعرض «أبو بكر» للموت أكثر من مرة وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ينفق الكثير من ماله في شراء المستضعفين من العبيد، رجالا ونساء، وكان يعتقهم لوجه الله؛ فيستعيدوا على يديه حريتهم، وينجيهم الله على يديه من الاضطهاد والعذاب، وكان يرجو من وراء ذلك رضا الله ورسوله، ولقد رضى الله سبحانه، فنزل الوحى على الرسول الكريم فقال: «يا محمد»، إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول لعتيق «ابن أبى قحافة» إنه عنه راض، ورضى النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال له: «أنت عتيق الله من النار»(١).

وأخذ بعض ذوى الرأى والمكانة فى قريش يبحثون من جديد أمرهم بينهم، وأبدوا تخوفهم مما سيئول إليه حالهم إذا تمادوا فى إيذاء «محمد»، أو إذا اعتدى بعض الجهلة من فتيانهم على حياته، ورأوا، بعد إعمال الفكر، أن يعرضوا عليه عرضا جديدا لعله يقبله، فيكون فى ذلك إحلال السلام بين عشائر قريش، فاعترضه نفر منهم وهو يطوف حول الكعبة: «ووعدوا أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء» ثم قالوا: هذا لك عندنا «يا محمد»، وكف عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء؛ فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة فهى لك ولنا فيها صلاح. قال: ما هى؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة: «اللات والعزى»، ونعبد إلهك سنة»(٢). وفى رواية أخرى أنهم قالوا: يا «محمد»، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر: فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه؛ وإن كان مانعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه(٣).

وما كان لنبى أن يقبل مساومة فى الله فيعبد معه آلهة أخرى، وما كان

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة جـ٣ ترجمة عبد الله بن عثمان أبى بكر الصديق برقم ٣٠٦٤ ص ٣٠٩، ٣٣٤.

(٢) الطبرى: التاريخ جـ٢ ص ٣٣٧.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ٢ ص ٣٦٢.

«محمد» صلى الله عليه وسلم أن يقبل السجود إلى الأصنام من دون الله الواحد فلا حاجة له بكل ما يعرضون عليه إذا كانوا لا يريدون أن يعبدوا الله الواحد الأحد إلا فى مقابل أن يعبد هو أصنامهم ، فإن الأنبياء لا يسجدون إلا لله وحده لا شريك له ، فأنزل الله تعالى فيهم :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (١)

كما أنزل الله تعالى فى ذلك قوله : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (٢)

وفقد كثير من زعماء قريش وأعداء «محمد» صوابهم عقب هذا الفشل المتلاحق ورفض النبى صلى الله عليه وسلم الانقياد لهم ، فانقضوا على من بقى فى مكة من المسلمين يؤذونهم ويسيئون إليهم وبخاصة على أولئك الذين تجمعوا معه فى المسجد الحرام ؛ وكانوا يسوون فى الإرهاب والتعذيب بين الذين دخلوا فى الإسلام من القرشيين ومن غيرهم من المستضعفين ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر كل اثنين أوثلاثة منهم أن يجتمعوا هم وعائلاتهم فى منزل أحدهم ، وذلك حرصا منه على المحافظة عليهم ، حتى تتاح لهم الفرصة للتعاون معاً على حماية وحراسة بعضهم بعضا ، وعلى حفظ ما ينزل من آيات القرآن الكريم وتدارس معناها وإقامة الصلاة داخل منازلهم .

---

(١) سورة الكافرون ، وانظر أبا الحسن النيسابورى : أسباب النزول ص ٢٦١ .

(٢) سورة الزمر: الآيات من ٦٤ ــ ٦٦ ، وانظر الطبرى : التاريخ جـ٢ ص ٣٣٧ .

وكان «أبو بكر بن أبى قحافة» أكثر هؤلاء المسلمين تعرضا للإهانة والإيذاء، وأسرفوا فى ذلك حتى ضاقت به مكة ولم يعد يستطيع البقاء فيها بعد أن عادت عشيرته إلى التخلى عنه، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة، فأذن له برغم ما كان يشق عليه من فراقه، فقد كان له نعم الصديق الوفى، والوزير الناصح الأمين.

وخرج «أبو بكر» مهاجرا فى سبيل الله، وأخذ يضرب فى الأرض يوما وبعض يوم، ولقيه فى بعض الطريق «مالك بن الدغنة»، وكان سيدا من سادات قريش، إذ كان يرأس جماعة متحالفة من ثلاث عشائر قرشية، كان يطلق على حلفهم هذا حلف الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد جنوب مكة يقال له وادى الأحبش [1] ودار بينهما حوار نذكر بعض ما ورد إلينا منه:

قال «ابن الدغنة»: أين تريد يا «أبا بكر»؟ قال: أخرجنى قومى. وآذونى، وضيقوا علىّ، قال «ابن الدغنة»: ولم؟ والله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم. ارجع فأنت فى جوارى. فرجع معه حتى إذا دخل مكة، قام ابن «الدغنة» فقال: يا معشر قريش إنى قد أجرت «ابن أبى قحافة»، فلا يعرضن له أحد إلا بخير. [2] وهكذا دخل «أبو بكر» فى حماية «ابن الدغنة» وكفّت عنه قريش.

وازداد عناد «أبى لهب بن عبد المطلب» و«عقبة بن أبى معيط»، وكانا من جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعادا يرميان عليه القاذورات ولم يتورعا، فكانا يرميان عليه رحم الشاة بعد ذبحها والفرث [3] الموجود فى كرشها، فكان، صلى الله عليه وسلم، إذا انتهى من صلاته يرفع ما يرمون على عصاته ويخرج به، فيقف على بابه ويقول:

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٧٣.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٧٥ ـــ ٢٧٦ ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٧٢ ـــ ٣٧٣.

(٣) القذارة فى كرش الشاة.

«يا بني عبد مناف»، أي جوار هذا؟ ثم يلقيه بعيداً». (١) وحدث أن رأى «حمزة» بن عبد المطلب» أخاه «أبا لهب» وهو يطرح القذر والنتن على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك بأخيه وطرح تلك القاذورات على رأس هذا الطاغية، فأخذ «أبو لهب» يهز رأسه ليلقى النتن بعيدا عنها، وجعل يصيح فى وجه أخيه قائلا: «صابئ أحمق». ومنذ ذلك اليوم عدل أبو لهب عن أن يفعل مثل ذلك خوفا من أخيه «حمزة»، ولكنه كان يرسل خفية من يفعله (٢). وقد ورد عن السيدة «عائشة» أم المؤمنين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «كنت بين شر جارين «أبى لهب وعقبة بن أبى معيط»، أن كانا ليأتيان بالفرث فيطرحانها على بابى» (٣).

وكم كان يؤذى أم المؤمنين «خديجة» أن ترى ما يفعله هؤلاء السفهاء، فهو صغار لا تشير به إلا كل حمقاء من النساء من أمثال «أم جميل زوج «أبى لهب» التى كانت تبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كانت تحقد على أم المؤمنين «خديجة»، وكان يؤذيها أن تراهما وأهل بيتها يشعرون بشىء من السعادة، وكانت تعمل على أن تنغص عليهم القليل الذى كانوا يختلسونه فى تلك الأيام من السعادة والهدوء داخل بيتها، فكانت تؤذى الرسول الكريم كثيرا، وكانت تحمل الشوك والسعدان وتلقيها فى طريقه حيث يمر هو وأصحابه.

وكان «أبو بكر» قد أمن من كيد المشركين فترة من الزمن فى حماية «ابن الدغنة» سيد الأحابيش بعد أن تخلى قومه عن حمايته، إلا أن زعماء عبدة الأصنام، غاظهم أن «أبا بكر» أقام مسجداً عند باب داره فى بنى جمع، وكان يصلى فيه، كما كان يقرأ القرآن ويرتله بصوت رخيم رقيق، وقد روت أم المؤمنين «عائشة» أن الكثيرين كانوا يجتمعون ويتزاحمون داخل

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٤١٥ — ٤١٦.

(٢) الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٢ ص ٦٠٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات جـ ١، ص ١٣٤.

هذا المسجد ليستمعوا إلى تلاوته، وينصتوا إلى حلاوة ما يقرأ، ويعجبهم خشوعه وأطمئنانه فى تضرعه وصلاته وترتيله القرآن الكريم، فذهب نفر من غلاة المشركين يشكونه إلى «ابن الدغنة»، فقالوا: «إن الكثيرين من المستضعفين من الرجال والنساء والصبيان تجذبهم هيئة «أبى بكر» وخشوعه فى صلاته وفى تلاوته لما يأتى به «محمد» مما يسميه قرآنا، وإنهم يزدحمون فى مسجده فيبهرهم ما يرون ويتأثرون بما يسمعون، وإن قريشا تخاف أن يفتنهم «أبو بكر» فيهجروا دين آبائهم ويدخلوا فى دين «محمد»؛ وطلبوا من «ابن الدغنة» أن يأمره بالامتناع عن الصلاة والتلاوة فى مسجده هذا، وأن يدخل بيته فيصنع فيه ما شاء. وغضب «ابن الدغنة»، ومشى إلى «أبى بكر» وقال: «إنى لم أجرك لتؤذى قومك، إنهم كرهوا مكانك الذى أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما شئت». وكبر على «أبى بكر» أن يخاطَب بهذه اللهجة، وعز عليه أن يخفى عبادته لله الواحد الأحد بعد أن جهر بها على الملأ من قريش، وقال له فى إيمان الواثق من ربه إنه يرد عليه جواره، وإنه يؤثر أن يحتمى بالله القوى العزيز، وأعلن «ابن الدغنة» قريشا بذلك، وأنه أصبح فى حل من حمايته ولهم أن يفعلوا به ما يشاءون، فعاد سفهاء قريش وشياطينها يتربصون به ويؤذونه كما كانوا يفعلون من قبل (١).

* * *

وكان المؤمنون الذين هاجروا فرارا بدينهم إلى بلاد الحبشة فى شهر رجب من العام الخامس لنزول الوحى، وهو العام الثانى للجهر بالدعوة، كانوا قد لاقوا هناك ترحيبا وأمنا، وكانت الأخبار قد وردت إليهم أن قريشا أخذت تميل إلى مهادنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرح المهاجرون وابتهلوا إلى الله أن يهدى قريشا لطاعته؛ ثم أخذت الأخبار ترد إليهم بعضها فى إثر بعض، وكان الكثير منها محرّفا أومبالغا فيه، حتى بلغهم

---

(١) سنتناول بعض ما ناله منهم فى الفصول التالية.

فى مستهل شهر شوال أن قريشا قد دخل أكثرهم فى الإسلام (1)، فعمهم الفرح، وشكروا الله على نصر دينه، ولم يروا داعيا للبقاء فى بلاد الحبشة، فركب من استطاع منهم البحر متجهين إلى مكة، يحدوهم الأمل فى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الوصول إلى أرض الوطن، والعيش بين الأهل والأصدقاء، وكان من بينهم «عثمان بن عفان» وزوجته «رقية» «وأبو سلمة المخزومى» وزوجته «أم سلمة»، «وعثمان بن مظعون»، «والزبير بن العوام» «وعبد الرحمن بن عوف»، «وأبو عبيدة بن الجراح» «وعبد الله بن مسعود».

ولما دنا العائدون من المهجر قرب مكة، وأصبحوا على مسيرة ساعة منها، لقوا ركبا من كنانة، فسألوهم عن أخبار قريش، فأخبروهم أن ما وصل إليهم عن إسلام أكثر قريش كان باطلا، وأن طغاة الأرستقراطية الوثنية عندما يئسوا من استجابة النبى الكريم للوفاق معهم أو مهادنتهم، ورأوا منه إصرارا على تبليغ رسالة ربه، وعزما على المضى فى نشر الدعوة، عندما رأوا ذلك منه، اشتطوا مرة أخرى فى تعذيب المسلمين، وأخذوا ينزلون بهم من ألوان البلاء أضعاف ما كانوا ينزلونه بهم من قبل. ولم تهن عند سماع هذه الأخبار عزيمة هذا النفر من المؤمنين الذين سبق أن هانت على نفوسهم كل أنواع القهر والتعذيب، ولكنهم أخذوا يتشاورون ويتدبرون أمرهم بينهم وقد تجلت فيهم الشجاعة وقوة العزيمة، واتفقوا على أن يدخلوا مكة فيسلموا على النبى صلى الله عليه وسلم، ويطمئنوا على أهلهم وأموالهم.

ودخل المؤمنون العائدون من مهجرهم إلى مكة، وفرح بلقياهم كل إخوانهم من المسلمين، ولا شك أنهم هرعوا إلى مقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستمعوا إلى أحاديثه وتعاليمه، وأنه صلى الله عليه وسلم رحب بهم ترحيبا عظيما، كما فرحت أم المؤمنين خديجة بعودة أبنائها سالمين بعد غيبة طالت أكثر من ثلاثة أشهر، وأنها فرحت برؤية ابنتها «رقية» وعودة ابن أخيها «الزبير» ابن العوام، كما استقبلت بنات النبى أختهن «رقية»

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ١ القسم الأول ص ١٣٨.

بالفرح والسرور، وشكر النبى صلى الله عليه وسلم هو وآل بيته الله على حسن رعايته للمهاجرين فى غربتهم، وعلى عودتهم سالمين.

وكان ممايؤلم المسلمين ويحز فى نفوسهم أن جبابرة الأرستقراطية الوثنية لم ترحب بعودة أبنائها، وأنها أساءت معاملتهم فقابلتهم بكثير من الاستهزاء والإيذاء، واشتدوا عليهم، وسطت كل عشيرة على من عاد من أبنائهم، وأنزلت بهم أذى شديداً (١)، ولم تكن هناك وسيلة لحمايتهم من العذاب المهين، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج مرة ثانية إلى الحبشة (٢). لقد عاد هؤلاء المؤمنون من مهجرهم بعد أن تجشموا ما تجشموا من الصعاب والمتاعب أثناء السفر فى ذهابهم وإيابهم، وكان الأمل يملأ نفوسهم أن يعيشوا أحرارا فى القرية التى ولدوا فيها، وأن يعبدوا الله الواحد الأحد فى المسجد الحرام، وأن يطوفوا حول الكعبة المشرفة التى بناها جدهم «إبراهيم وابنه إسماعيل» ـ وأن يقضوا ما بقى من عمرهم بجوار النبى صلى الله عليه وسلم يعلمهم مماعلمه الله، ويرشدهم إلى مافيه خيرهم، وأن يعملوا معه على نشر دين الوحدانية، ثم تتاح لهم الفرصة لرعاية أمورهم بأنفسهم، والسهر على تنمية تجارتهم وأموالهم وهم فى بلدهم وبين أهلهم؛ ولكنهم أصبحوا مضطرين للفرار ثانية بدينهم، حتى يكونوا أحرارا لا سلطان لأحد عليهم إلا الله، يعبدونه لا يشركون به شيئا، وهم يتحملون فى سبيل ذلك البعد عن كل ما يعتز به الإنسان الحر، فينأون عن الوطن والمرشد الروحى والأهل والمال؛ فقال «عثمان بن عفان»: «يا رسول الله، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ولست معنا؟» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم مهاجرون إلى الله وإلىَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً». فقال «عثمان بن عفان»: «فحسبنا يا رسول الله» (٣).

---

(١) متفق عليه وانظر المرجع السابق

(٢) ابن سعد: الطبقات جـ ١ القسم الأول، ص ١٣٨ ـ ١٣٩؛ والنويرى عن الواقدى: جـ ١١ ص ٢٤١.

(٣) المرجعان السابقان.

ولكن كيف السبيل إلى الخروج إلى الحبشة ثانيا وقد كانت أعين كل بطن من بطون قريش ترقب بعين ساهرة وانتباه شديد أبناءها حتى لا يفلت منهم أحد! لقد كان خروجهم للمرة الثانية أكثر صعوبة، وأعظم مشقة من خرجتهم الأولى (١)، ولكنهم كانوا أكثر الناس حبا فى التضحية فى سبيل الله، وكان الإيمان بنصر الله يملأ نفوسهم، ويعلمون أن من يثق بالله يشملهم برعايته، ويجعل لهم نورا يمشون به، ويهب لهم بعد الضيق فرجا، وبعد العسر يسرا، فتسلل من استطاع منهم بمختلف الوسائل أفرادا وجماعات صغيرة، وأضاء الله لهم طرقا سلكوها، وجعل لهم من الظلم مخرجا فوصلوا إلى شاطىء البحر الأحمر فى أمان الله، واستقلوا ما يسّره الله لهم من المراكب الشراعية قاصدين مأمنهم فى بلاد الحبشة، وظلت هجرات إخوانهم المؤمنين تترى بعضها فى إثر بعض، يتسللون الواحد بعد الآخر كلما سنحت لهم الفرصة المواتية (٢).

وكم كان يعز على أم المؤمنين «خديجة» أن يغامر بركوب البحر مرة أخرى لفيف من أخلص المسلمين وأقربهم إلى قلوب المؤمنين، وكان بين هؤلاء «عثمان بن عفان» ومعه زوجته «رقية»، وابن أخيها «الزبير ابن العوام»؛ وأبو «سلمة المخزومى» ابن عمة الرسول الكريم ومعه امرأته «أم سلمة هند المخزومية»، و«عبد الرحمن بن عوف»! وكم آلمها وآلم المسلمين جميعا فى مكة وشغل بالهم أن أخبار هذا الرعيل الأول المهاجر للمرة الثانية ظلت محتبسة فلم يرد إلى مكة ما يفيد أنهم قد وصلوا بسلام إلى بلاد الحبشة، ففزع لذلك المؤمنون جميعا، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقصد خارج مكة يسأل عن أخبار الأعزاء المهاجرين، وظل كذلك فترة حتى قابل امرأة عائدة من الحبشة فأخبرته أنها رأت المهاجرين هناك، وأنهم جميعا بخير،

---

(١) المرجعان السابقان.

(٢) كانت الهجرة الأولى فى شهر رجب، ورجع من رجع منهم إلى مكة فى شهر شوال من العام نفسه، ثم أخذوا يفرون تباعاً إلى الهجرة الثانية.

وأنها قابلت «عثمان بن عفان وامرأته رقية»(١)، فحمد الله، ودعا للمهاجرين جميعا بالخير.

* * *

وكان زعماء الارستقراطية الوثنية، شيوخهم وفتيانهم، يتمسكون بالعادات الموروثة عن الجاهلية، والتقاليد المتبعة، ولم يستطيعوا أن يحيدوا عنها قيد أنملة، فهم قد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عبادة الأوثان، وكانت التقاليد تدعوهم إلى تقديم القرابين بين يدى كل منها فى أوقات معلومة، فأصبحوا أسرى تلك العادات وسيطرت عليهم تلك التقاليد، حتى حجب هذا الجمود عن المشركين بالله أنوار التفكير السليم، فانطمست أمام عقولهم سبل الفهم الصحيح، ولم يستطيعوا أن يدركوا أن تلك العادات والتقاليد نبتت أول ما نبتت عندما تطلبتها ظروف الحياة فى البيئة التى كان يعيش فيها أولئك الآباء والأجداد الأولون عيشة بدائية، ولم يستطيعوا أن يفطنوا إلى أن ظروف الحياة الإنسانية قد تغيرت وتطورت بعد ذلك على مر القرون، وأن حضارة بنى البشر قد ارتقت على تعاقب الأجيال ومضى الأزمان، فتنوعت العلوم والمعارف، وانتشرت الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية فى أنحاء كثيرة من أرجاء العالم، ووصلت إلى البلاد المجاورة لهم والتى كانوا يتجرون معها، ثم انتقلت الديانتان إلى شبه الجزيرة العربية نفسها حيث كان اليهود والنصارى يعيشون معهم جنبا إلى جنب، ولكن قريشا والعرب جميعا ظلوا ينحتون بأيديهم الحجارة فيصنعون منها تماثيل يخرون لها ساجدين، ويقدمون لها الهدايا وينحرون أمامها الذبائح، فيتضرعون إليها أن تشفع لهم عند رب السماء، فأصبحوا بذلك من المشركين

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ (٢)

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة عند ترجمة رقية برقم ٦٩٢١.

(٢) سورة ص: الآيتان ٤ ــ ٥. وانظر أبو الحسن النيسابورى: أسباب النزول، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.

وكيف يسع الخلق كلهم إله واحد؟.

لم يكن مستغرباً أمام هذا الجمود الفكرى أن يسرف مشركو قريش فى عدوانهم لكل من اتبع هذا الدين الجديد، وأن يفتنوا فى تعذيب كل من حاد عن المعتقدات والتقاليد الموروثة دون أن تأخذهم بهم شفقة أو رحمة، ودون أن يرعوا فى ذلك قيمة للعطف والمودة مما تتحلى به النفوس الكريمة إزاء من يتصل بهم بصلات الرحم والقرابة. وكان أشد مايدهش له مشركوا قريش وينال من كبريائهم أن هؤلاء الذين اعتنقوا المبادىء التى جاء بها «محمد» كانوا يتحملون كل ما يُصبّ عليهم من العذاب بصبر عجيب، وأنه كلما اشتط المشركون فى تعذيبهم ازداد المسلمون إيماناً، ويقيناً بصدق نبيهم، وتصميماً على المضى فى عبادة ربهم، وحرصاً على نشر الدعوة المحمدية كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وكان مما يؤذى سادة قريش ويؤلم فتيانها أنهم كلما أوغلوا فى اضطهاد من خرج عن ملتهم رغبة فى حملهم على الرجوع لدين آبائهم. والسجود لأصنامهم، زاد انتشار هذا الدين الجديد، وأقبل عليه أتباع جدد من أفراد القبائل القرشية نفسها ومن المستضعفين والعبيد. وكلما حاولوا بالعسف والجبروت واختراع الافتراءات والأكاذيب إطفاء نور هذا الدين الذى أتى به «محمد» سطع هذا النور وزاد انتشاره حتى فجع الكثيرون من زعماء المشركين بخروج نفر من أعز أهلهم عن طاعتهم، ودخولهم فى هذا الدين: فهذا «أبوجهل»، وهو من أشد المشركين عداوة «لمحمد» وتعاليمه، ومن أكثرهم قسوة فى إيذاء من اتبع دينه، ينكب نكبة نكراء فى أخيه «سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومى» الذى أسلم وتحمل ما تحمل من الأذى والقهر، وصبر على هذا العذاب متبعاً قوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)

فقد ظل صابراً حتى هيأ الله له من عذابه مخرجاً، وساعده حتى أفلت ونجح فى

(١) سورة هود: الآية ١١٥.

الهجرة إلى الحبشة (١). وكذلك صدم «أبوجهل» صدمة عنيفة أخرى عندما علم أن أخاه لأمه «عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي» قد ترك عبادة الأصنام وآمن «لمحمد» (٢)، ولم تهن عزيمة «عياش» برغم ما تحمل من ألوان الإهانة والتعذيب، وصبر وتجلد تنفيذاً لتعاليم ربه:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٣)

فأنجاه الله من عسف «أبي جهل» وظلم عمه «الوليد بن المغيرة المخزومي»، وحرسته العناية الإلهية فوصل سالماً آمناً إلى بلاد الحبشة وانضم إلى إخوانه الذين سبقوه إلى هناك. وظلت هجرة المؤمنين فراراً بدينهم تترى بعضها في إثر بعض منذ العام الثاني من الجهر بالدعوة وهو العام الخامس من نزول الوحي، وكانت رعاية الله تحوطهم، وعنايته تشملهم، وعينه ترعاهم حتى تجمع منهم في بلاد الحبشة في العامين الثاني والثالث من الجهر بالدعوة ثلاثة وثمانون رجلاً، وإحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب على قول «ابن إسحق» (٤)، أما «ابن عبدالبر» فقد تقصى بعده الأمر فأحصى منهم اثنين وتسعين رجلاً ومعهم سبعة من الأبناء الصغار وثماني عشرة امرأة (٥).

---

(١) إسلام سلمة انظر ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٢١ والنويري: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ص٣٢٧ وانظر كذلك أسد الغابة جـ ٢ ترجمة رقم ٢١٨ ص ٤٢٥.

(٢) كان هشام بن المغيرة المخزومي قد طلق زوجته أم ابنة أبي جهل فتزوجها أخوه ربيعة فولدت له عياشاً. انظر ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٢٥٦، وانظر ابن الأثير: أسد الغابة جـ ٤ ص٣٢٠ - ٣٢١ والنويري: نهاية الأرب حـ ١٦ ص ٢٤٤ــ٢٤٥.

(٣) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٤) ابن هشام: السيرة حـ ١ ص ٣٣٠، وابن سعد: الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ١٣٨؛ والمقصود بكلمة غرائب أنهن لسن قرشيات

(٥) الدرر ص ٥٠ ــ ٥٤ وانظر النويري: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٤١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

«سورة الروم الآية: ٦٠»



الفصل الثامن

ضراوة الكفاح

مضى النبى صلى الله عليه وسلم فى طريقه مستعيناً بالصبر ثلاثة أعوام كاملة بعد الجهر بالدعوة، يُبلّغ الناس فيها أنه لا إله إلا الله خالق كل شيء، لم يتخذ صاحبه ولا ولداً ولم يكن له شريك فى الملك، وظل يرشد قومه إلى أنه لا واسطة بين العبد وربه، فهو سبحانه يعلم ما فى الصدور، ويجيب دعوة الداعى إذا دعاه؛ ويعطف على من يلجأ ومن لم يلجأ إليه فيعطيهم من فضله، ولذلك فقد ظل طوال تلك السنوات يدعو إلى أن تكسر الأصنام، وأن تحقن الدماء فلا تقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأن تؤمن السبل، وأن توصل الأرحام، وأن يتساوى الناس جميعاً لا فرق فى ذلك بين عربى وأعجمى فهم جميعاً متساوون كأسنان المشط، وأن الله سبحانه يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى (١).

وقد بدأت هذه الدعوة سرية متأنية، وظلت كذلك ثلاث سنوات متتالية حتى رسخت أركانها؛ وآمن بها نفر من أقدر الرجال والنساء، وأحسنهم أخلاقاً، وأقواهم عزيمة؛ وتولاهم النبى الكريم بالتثقيف، وعلمهم ما كان ينزل عليه من الكتاب والحكمة حتى أحاطهم بتعاليم الإسلام ومثله العليا، ثم أخذهم بتنفيذها والتعود على ممارستها فى دار «خديجة» ثم فى بيت

(١) هذه هى بعض المثل العليا التى كان يدعو إليها الإسلام منذ بداية الدعوة وقد أشرنا إلى بعضها من قبل، وسوف نذكر بعضها الآخر فى موضعها.

«الأرقم بن الأرقم» حتى كوّن منهم دعاة صالحين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحملون معه فى عزم وقوة مسئولية نشر الدعوة الإسلامية. وعلى الرغم من السرية التى ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات الثلاث، فقد أحست قريش أنه يدعو إلى دين جديد، وأنه يبشّر أن هذا الدين قد هبط عليه من السماء، ولكنهم كانوا فى البداية لا يكترثون لذلك قليلاً ولا كثيراً، وكانوا كلما مرّ عليهم يقولون «إن غلام بنى هاشم هذا ليكلّم من السماء» (١).

ولما استقرت تعاليم هذا الدين فى نفوس الرواد الأوائل الذين آمنوا به من الرجال والنساء؛ أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة، فأقبل غير هياب ولا وجل على تبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة التى كلفه الله بها، فنادى بمبادىء الإسلام السامية، وأقبل على تفهمها والتفكير فيها مَنْ كتب الله له السعادة، فاهتدى إلى الحق وأضاء قلبه نور الإيمان؛ ونفر منها كل من أعمى الله بصيرته، فحاد عن التفكير السليم، واستكبر فأبى الاستماع إلى ما يدعى إليه، واستمر فى عناده حتى باء بالخسران المبين. ولا يتسع نطاق هذا البحث إلى إحصاء الأمثلة العديدة التى توضح هذين المسلكين المتناقضين؛ ولذلك نكتفى بضرب مثل واحد لكل طائفة من هاتين الطائفتين:

مر «عثمان بن مظعون»، قبل أن يسلم، على بيت «خديجة»، فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً فى فناء الدار، عبس ونأى بجانبه، فدعاه النبى الكريم إلى الجلوس فقبل وجلس فبالته؛ وأحسن الرسول صلى الله عليه وسلم استقباله؛ ولكن نزل عليه الوحى فى تلك الساعة، فانصرف النبىّ عن «ابن مظعون»، وشخص ببصره إلى السماء، وتساقط العرق على جبينه، وتغير لون وجهه، ومكث كذلك حتى انصراف الوحى عنه، فعاد

---

(١) متفق عليه فى أكثر مصادر السيرة انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول، ص ١٣٣، وابن عبد البر: الدرر ص ٣٨.

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طبيعته الأولى، وأقبل على «عثمان بن مظعون»، فلما سأله فى ذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أتانى رسول الله «جبريل» عليه السلام آنفاً وأنت جالس، قال «عثمان»: «فماذا قال لك؟» فتلا الرسول الكريم قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

فهزت هذه المعانى السامية «عثمان بن مظعون»، وبعثت فى نفسه الاطمئنان، وملأت قلبه نوراً، وفتح الله عليه فهداه إلى الإيمان بدينه والشهادة بصدق رسوله (٢).

وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم «الوليد بن المغيرة» سيد بنى مخزوم، وكان من أغنياء قريش وأعزهم نفراً، وأفصحهم لساناً، وأكثرهم بياناً وأحفظهم لشعر العرب، وطلب إليه أن يقرأ عليه بعض ما يسميه قرآناً، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم نفس الآية التى تلاها على «عثمان بن مظعون» من قبل، فبهر «الوليد» بمعانيها السامية، وهزته فصاحتها، ولم يتمالك أن طلب إعادة تلاوتها عليه، فلما أعادها عليه الرسول صلى الله عليه وسلم أدهشته بلاغتها ولم يتمالك نفسه ثانية فقال: «والله إن له لحلاوة (٣)، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر» (٤)، ولكن نور الإيمان لم يتسرب إلى قلبه، فنكص على عقبيه، وعاد إلى صلفه وكبريائه، واستمر فى ضلاله القديم، فما الذى دهاه؟ وما الذى منع هذا الشيخ المجرب وأمثاله من زعماء قريش أن يؤمنوا بهذا الدين الذى يدعو إلى مكارم الأخلاق فى لغة وصفها «الوليد» أنها

---

(١) سورة النحل: الآية رقم ٩٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات جـ١ ص ١١٤ ـ ١١٥، وأبوالحسن النيسابورى: أسباب النزول ص ١٦١.

(٣) الضمير عائد على القرآن.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢١٣.

ليست من قول بشر؟ وما الذى منع شبان قريش وفتيانها أن يستجيبوا جميعاً إلى دعوة الحق ؟.

ولطالما سمع هذا الشيخ وغيره من رؤساء العشائر أن السماء توشك أن ترسل نبياً من هذه القرية ينزل عليه الذكر، سمعوا ذلك من الكهان العرب، ومن أحبار اليهود، كما سمعوه من الرهبان والنصارى [1]، وكان بعض هؤلاء الشيوخ يطمع فى أن يكون هو هذا النبى المنتظر، حتى تكون له ولعشيرته السيادة والسلطان على مكة ومن حولها، ومن يدرى فلعله يصبح مثل قيصر الروم أو مثل كسرى الفرس، فينتشر أتباعه والمؤمنون به فى شتى بقاع الأرض! وكان «الوليد بن المغيرة» أحد هؤلاء الطامعين، فكيف تنزل النبوة على غلام «عبد المطلب» ويترك هو وأمثاله؟ لقد أعماه الحسد واستبد به الحقد فقال: «أينزل على محمد وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك «أبومسعود عمرو بن عمير الثقفى» سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين؟» [2]

وقد كشف الله سبحانه عن الغيظ الذى ملأ صدره وصدر أمثاله فقال:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [3]

وهكذا حال الحسد بينهم وبين تصديقه واتباعه، ولجوا فيما هم عليه من الكفر [4].

وقد عاش هؤلاء الشيوخ من رؤساء العشائر القرشية وأغنيائها عيشة

---

(١) متفق عليه فى مصادر السيرة؛ وانظر ابن هشام: جـ ١ ص ٢٠٤ ــ ٢١٣.

(٢) القريتان هما مكة والطائف.

(٣) سورة الزخرف: الآيات ٣١ ــ ٣٢.

(٤) ابن هشام: السيرة، جـ؟ ص ٣٦١.

الترف ينعمون فيها بكل ما لذ وطاب، ويلبسون أفخر الثياب حتى يأخذوا من الدنيا كل مباهجها، فقد كانوا يؤمنون كما آمن آباؤهم من قبل أن لا حياة بعد الموت:

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (١)

فكيف يؤمنون لفتى من فتيانهم جاء يبشر أن نعيم الدنيا زائل وقصير الأمد، وأن الله يبعث الناس بعد موتهم؛ فمن عمل فى الدنيا خيراً وقدم صالحاً، يدخله الله فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها؛ ومن أساء أو ظلم يدخله الله جهنم وبئس المصير؟ ولم تستطع عقولهم أن تتصور كيف يبعث الله من فى القبور بعد أن بليت أجسامهم وعظامهم، ولم يطق «أبىّ بن خلف» وهو أحد سادتهم، على ذلك صبراً، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمسك بيده قطعة هشة بالية من العظام، وأشار إليها وهو يقول: «يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم؟» (٢) ثم فرك قطعة العظم بين أصابعه فتفتت وأصبحت رماداً نفخة فى الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له الرسول الكريم فى ثقة وإيمان: «نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا (٣) ثم يدخلك النار» وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الجدال بقوله:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤)

أصبح زعماء الارستقراطية القرشية فى حيرة من أمرهم، فهم لا

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٩.

(٢) أى بعد ما بلى العظم.

(٣) أى بعد ما تكونان مثل هذا العظم.

(٤) سورة يس: الآيات ٧٧ ـ ٧٩، وانظر النويرى نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٧٤.

يستطيعون أن يفقهوا هذا الكلام، ولا أن يطمئنوا إلى هذه الوعود التى لا يصل إلى أيديهم منها شىء فى هذه الحياة الدنيا، وقد عبر «أبولهب» عن حيرتهم هذه تعليقاً على النعيم العظيم الذى وعد الله به عباده المتقين فى الحياة الأخرى بقوله: «يعدنى «محمد» أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع فى يدى بعد ذلك؟» ثم ينفخ يديه ويقول: «تباً لكما، ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد» (1). وقال «أبوسفيان» حينما سأله «الأخنس»: «أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من «محمد»؟ فرد عليه قائلاً: «يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها؛ وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها» فقال له «الأخنس» إنه يرى مثل ذلك تماماً (2). ووصف الله سبحانه حيرة زعمائهم هذه وهم يستنكرون ويتساءلون:

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (3)

فلما طال بهم التفكير اشتد بهم العناد وأوغلوا فيه:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (4)

أما فتيان قريش وشبانها فقد ذكرنا من قبل أن الله أنعم على نفر قليل منهم فهداه إلى الطريق المستقيم، طريق الإيمان بالله الواحد الأحد، وكان أغلب الباقين منهم قد أفسدهم الفراغ ووفرة المال، وصرفتهم نزوات الشباب إلى الإغراق فى طلب اللذة الآثمة، فكانوا يدنسون أنفسهم بالاختلاف إلى (5) بيوت انتشرت فى أرجاء مكة افتتحها لهم قوم من الروم وآخرون

---

(1) ابن هشام: السيرة جـ 1 ص 351.

(2) المرجع السابق ص 315 — 316.

(3) سورة الإسراء: الآية 49.

(4) سورة النحل: الآية 38.

(5) الاختلاف: الذهاب.

من النبط ؛ وأغروهم على ارتيادها بتقديم الخمور المعتقة ، والجوارى الحسان ، والفتيان صباح الوجوه ؛ وهناك كان يصدح فيها إلى ساعة متأخرة من الليل الغناء العذب الذى يطرب له هؤلاء الفتيان القرشيون الغلاظ ، وترتاح له نفوسهم وتهدأ أعصابهم المتوترة المكدودة من أثر الإفراط فى الشراب ، ومغازلة الراقصات والمغنيات والفتيان صباح الوجوه ؛ ولم يبق لهم مما كان يجب أن يتوارثوه من الخلق الكريم والإقدام إلا النزر اليسير؛ وقد أضفت عليهم هذه الحياة الرتيبة روح الاستهتار بالقيم والمثل العليا ، وأشاعت بينهم الكبْر والخيلاء وحب الاستعلاء ؛ وكان كل فريق منهم يصور له صلفه أنه قادر على أن يكتسب الشرف والمكانة الرفيعة لنفسه ولعشيرته بتقليد غيره ممن يبتعد عن حياة الإثم والمجون ، فيصنع ، إذا صحا ، مثل ما يصنعون من صالح الأعمال حتى لا يستأثر الذين استقاموا بالرياسة والمكانة الرفيعة وحب الناس ، وكان هؤلاء المفتونون بالحياة السهلة الرخيصة لا يفهمون عن النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ، أو هم يتعمدون أن لا يفهموا عنه شيئاً ، ولا يتدبروا من كلامه قليلاً أو كثيراً ، وإنما كان يخيل إليهم أنه يسعى إلى طلب الزعامة لنفسه ، ويلتمس الرياسة لعشيرته من «بنى عبد مناف» ، برغم أنه كان فى نظرهم لا يمتاز عنهم بشىء ، كما كان أقل منهم ثروة ومالاً ، ولم يكونوا أقل منه جاهاً ، وقد عبر عن رأى هذا النفر «أبوجهل» ، وهو من أكثرهم مالاً ، ومن أشدهم كبرياء وأعزهم نفراً ، وأكثرهم انغماساً فى اللهو والعبث والمجون ، فقد أجاب عندما سأله «الأخنس» : «ما رأيك فيما سمعت من «محمد» ؟» قال : «ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن «وبنى عبد مناف» الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ؛ فتى ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه» (1) .

* * *

وكان يشق على شيوخ الأرستقراطية الوثنية أمر خروج بعض شبانهم عن

---

(1) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٣١٦ .

طاعتهم، ودخولهم في دين «محمد»، وإصرارهم على التمسك باتباعه نابذين دين آبائهم وأجدادهم؛ وقد جرح كبرياءهم أن يفلت هذا العدد من خيرة شبابهم من رقابة أهلهم فارين إلى الحبشة على الرغم من الحراسة الشديدة التي فرضت عليهم، والحيطة التي اتخذت لمنعهم من الهروب من مكة؛ وساءهم أن هؤلاء الخارجين عن طاعة قريش كانوا يتمتعون في الحبشة بالحرية الكاملة، حيث يتعبدون وفق تعاليم «محمد»، وأنهم يعيشون هناك آمنين مطمئنين في جوار «النجاشي» وحمايته، وأن بعضهم قد رزق هناك بالذرية من زوجاتهم اللاتي فررن معهم. كان طغاة الأرسقراطية المشركة يستنكرون ذلك إذا خلوا إلى أنفسهم، ويستنكرونه كلما اجتمعوا وتشاوروا في أنديتهم، وأخذوا يدبرون ويتآمرون لعلهم يجدون وسيلة ترد عليهم كل من خرج عن طاعتهم، ومازالوا يتخبطون في تفكيرهم ومقترحاتهم، حتى هداهم شيطانهم إلى أن يبعثوا إلى «النجاشي» رجلين يختارونهما من بين أقدر فتيانهم، وأشدهم ذكاء، وأكثرهم حيلة ودهاء، وأن يبعثوا معهما بكثير من الهدايا والتحف النادرة للنجاشي ولبطارقته وأساقفته، وأن يطلبا من النجاشي أن يرد هؤلاء الفارين إلى أهلهم وذوي قرابتهم، واختارت قريش لهذه السفارة «عبدالله بن المغيرة المخزومي» وهو ابن عم «أبي جهل»، ومعه «عمرو بن العاص».

وسرت هذه الأخبار في أرجاء مكة كلها؛ وتحدث الناس عن هذه البعثة أو السفارة التي سوف توفدها قريش، وعن الهدايا القيمة التي سوف تحملها معها؛ وأشفق المسلمون في مكة من نتائجها، وأشفق الذين كان لهم أبناء أو إخوة أو أقارب بين المهاجرين من كيد داهية فتيان قريش «عمرو ابن العاص»؛ ولا نشك في أن السيدة «خديجة» أشفقت مع غيرها ممن أشفق على مصير جميع أولادها المؤمنين الذين هاجروا بقدر إشفاقها على مصير ابنتها «رقية» وزوجها «عثمان بن عفان» وعلى مصير «الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد» وابن عمه «الأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد» ولدى أخويها؛ وأشفق مثلهم جميعاً حامي حمى المسلمين في مكة

« أبوطالب » فأنشد شعرا وجهه إلى « النجاشي » يرجوه فيه أن يدافع عن المهاجرين الذين اختاروه واحتموا بجواره فقال (١) :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر ... وعمرو وأعداء العدو الأقارب
وهل نال أفعال النجاشي جعفرا ... وأصحابه أو عاق ذلك شاغب (٢)
تعلم، أبيت اللعن، أنك ماجد ... كريم فلا يشقى لديك المجانب (٣)
تعلم بأن الله زادك بسطة ... وأسباب خير كلها بك لازب (٤)
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ... ينال الأعادى نفعها والأقارب (٥)

ولسنا نعرف إن كان « أبو طالب » قد اتخذ الوسيلة لإرسال هذا الشعر إلى النجاشي أم لا ؛ فإن « ابن إسحق » لم يعن إلا بروايته، كما أن ابن هشام لم يعن إلا بإجازته له ؛ ولكننا نعرف أيضاً أن « أبا طالب » كان قد ورث مكانة أبيه « عبد المطلب » عن جدارة فأصبح سيداً من سادات قريش، وكان يرأس اجتماعهم فى دار الندوة، وأنهم كانوا يستقبلون هناك الوفود والرسل ؛ وعرفنا من شعره أنه يقدر خطورة موقف المهاجرين إذا نجح هذان المبعوثان فى تأدية مهمتها، ونعلم أنه كان حازماً ولم يكن ممن يكتفون بالترويح عن أنفسهم بقول بضعة أبيات من الشعر، وأنه كان يعرف الوسيلة التى يُعلم بها النجاشي بما قال، وأن النجاشي يعرف له منزلته، وسوف يقدر قوله حق قدره إذا وصل إليه.

ووصل السفيران إلى بلاد الحبشة، ودفعا إلى البطارقة والأساقفة

---

(١) ابن هشام : السيرة، جـ ١ ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤ .

(٢) هو جعفر بن أبى طالب . عاق : منع . شاغب : الذى يهيج الشر .

(٣) أبيت اللعن : تحية كانوا يحيون بها الملوك فى الجاهلية ومعناه : أبيت أن تأتى عملاً تذم عليه . والمجانب : المحتمى فى جوارك .

(٤) لازب : لاصق .

(٥) السجال : الجود ؛ وانظر ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤ .

بهداياهم ، ثم قدما إلى النجاشي هديته فقبلها منهما ، وحاولا بعد ذلك الإيقاع بالمهاجرين حتى يسلمهم إليهما ، وكان مما قالاه : «أيها الملك . إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم»(١) وأبدى السفيران رجاءهما أن يأمر الملك بتسليم المهاجرين إليهما فور استماعه لقولهما هذا دون أن يسأل المهاجرين عن حقيقة أمرهم ، فغضب النجاشي لذلك ، وقال إنه يرفض أن يسلم قوماً لجأوا إلى بلاده ، ونزلوا فى حمايته وجواره دون أن يسألهم ويعرف حقيقة أمرهم ، ومما يؤثر عنه فى ذلك قوله : «لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكاد قوم جاورونى ، ونزلوا فى بلادى ، واختارونى على من سواى ؛ حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى» (٢) .

وأرسل النجاشي يستدعى رؤساء المهاجرين ، فلما جاءهم رسوله لم تأخذهم الرهبة ، واتفقوا ، بعد أن تشاوروا ، على أن يعتمدوا على الله ولا يقولوا إلا ما علمهم رسوله صلى الله عليه وسلم . ولما دخلوا عليه وجدوا أساقفته يحيطون به وقد نشروا حوله كتابهم المقدس ، ووجدوا «عبد الله بن ربيعة المخزومى» و«عمرو بن العاص» فى مجلسه ، فقال لهم النجاشي : «ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ؟» (٣) . وتكلم عن المهاجرين «جعفر بن أبى طالب» ، فوصف فى إيجاز حال العرب قبل نزول الإسلام ، ثم ذكر فى اختصار ما يدعو إليه هذا الدين من

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٣٣٥ ؛ والنويرى : نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ .
(٢) متفق عليه وانظر المصدرين السابقين . ولا يكاد : أى لا يسمح لأحد بالكيد لهم .
(٣) المرجعان السابقان .

الفضائل، ومانهى عنه من الرذائل، ومما يؤثر عنه فى ذلك قوله : «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش (١)، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات (٢)، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام؛ فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم أيها الملك».

وساد صمت رهيب حتى قطعه النجاشى بقوله : «هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟» قال جعفر: «نعم» فقال له النجاشى : «فاقرأه علىّ» فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة مريم. فتأثر النجاشى وبكى حتى ابتلت لحيته، وبكت أساقفته حتى ابتلت كتبهم المقدسة، وساد السكون الرهيب مرة ثانية حتى قطعه النجاشى ووجه قوله إلى السفيرين العربيين قائلاً : «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون» (٣).

---

(١) الفواحش : جمع فاحشة.

(٢) المقصود أنه لا يجوز أن تتهم المرأة العفيفة المتزوجة بالباطل.

(٣) المقصود هو أن هذا الذى سمعت يخرج من المنبع الذى خرج منه الإنجيل، انظر المرجعين السابقين.

وخرج السفيران من عند النجاشى وقد شعرا بالخيبة، وكان «عمرو بن العاص» أكثر الأثنين شعوراً بالألم والمرارة، فأقسم أن يدبر تدبيراً جديداً، وأن يعود فى اليوم التالى فيغرى النجاشى بهم حتى يستأصل شأفة المهاجرين فلا يصبح لهم وجود فى بلاد الحبشة. وحاول زميله «عبد الله بن أبى ربيعة» أن يثنيه عن ذلك؛ لأنهم، وإن كانوا قد خالفوا قومهم فى العقيدة الدينية، إلا أن لهم عليها حق العدل وعدم الجور لما لهم من صلة الرحم؛ ولكن «عمرو بن العاص» رفض إلا أن يكيد لهم كيداً يغضب النجاشى. فلما كان الغد ذهب «عمرو بن العاص» إلى النجاشى، وجعل يوغر صدره ويتهم المسلمين زوراً بأنهم يقولون إن «عيسى بن مريم عبد»، واستدعى الملك رؤساء المهاجرين ثانية، فلما دخلوا عليه قال لهم: «ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟». ورد «جعفر بن أبى طالب» بإيمان صادق: «نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التى ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

وضرب النجاشى بيده الأرض إعجاباً بوصف جعفر للمسيح، وقال إنه لم يتجاوز الحقيقة فيما قال. وتجهم الأساقفة، وأظهروا عدم رضاهم عما قال النجاشى، ولكنه أصر على قوله، ووجه كلامه للمهاجرين فأمنهم قائلاً «أنتم الآمنون، من سبكم غرم (وكررها ثلاث مرات» ثم قال مشيراً إلى السفيرين: «ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لى بها؛ فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه؛ وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه» (1).

وعاد السفيران إلى مكة خائبين لم ينالا من المهاجرين شيئاً، وانتشر خبر عودتهما وإخفاقهما فى مكة انتشار النار فى الهشيم، وفرح المسلمون كما فرح آل البيت لهذا النصر الذى منّ الله به على عباده المهاجرين فى سبيله،

---

(1) انظر المرجعين السابقين ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٣٥ ــ ٣٣٨، والنويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٤٨ ــ ٢٥٠.

ولنجاتهم من كيد «عمرو بن العاص» ودهائه، فقد أصبحوا يعيشون آمنين عيشة الأحرار، في خير دار، وأكرم جوار.

وذعرت الأرستقراطية القرشية لهذا الفشل الذريع، وخافوا أن يؤدى إلى ازدياد صمود من بقى فى مكة من المسلمين، وأن يُفتح الباب أمام المترددين من شبان قريش فيدخلوا فى دين «محمد»، وقد يغرى ذلك المستضعفين إلى أن يحذوا حذوهم فيزداد أتباع «محمد» وتنمو قوتهم، وخشوا أن تُظهر هذه الهزيمة بطون قريش كلها بالضعف أمام القبائل العربية الأخرى؛ لأنها عجزت عن أن تمنع شبانها من الدخول فى هذا الدين الجديد، كما عجزت عن منعهم من الهجرة إلى الحبشة، وعن استردادهم وإخضاعهم لسطوتها وجبروتها، مما قد يكون سبباً فى إغراء بعض تلك القبائل على ترك آلهتهم، والإيمان بهذا الإله الواحد الذى يدعو إليه «محمد»، وفى ذلك القضاء المبرم على هيبة قريش، وما تجنيه من المنافع فى مواسم الحج عندما تفد القبائل على مكة، وفيه تهديد خطير لتجارة قريش ولقوافلها المحملة بأنفس المتاجر. وكان موسم الحج فى العام السادس لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأبواب. ولذلك جُن جنون الأرستقراطية المتكبرة، ورأوا أن يسارعوا بتدارك الأمر قبل أن يفلت منهم الزمام، فقرروا أن يتحدوا «محمداً» تحدياً يظهر بأسهم وقوتهم، وأن يكيدوا له بكل ما يملكون من دهاء وقوة، وأن يشتدوا فى تعذيب من بقى بمكة من أتباعه، ظناً منهم أن ذلك يمنع إقبال الناس على الدخول فى هذا الدين، كما يوقف انتشار دعوة «محمد» خارج مكة.

وأدرك «أبو طالب» خطورة الموقف، وأخذ يحتاط لحماية ابن أخيه، فهو لم ينس أن أيديهم كانت قد امتدت إليه بالأذى لولا دفاع «أبى بكر» عنه وحمايته له بجسمه، ولم ينس ما أصاب «أبا بكر» من جراء ذلك فقد أوشك أن يفقد حياته دفاعا عن «محمد»، ولم ينس أنه كان قد سمع بعض رؤساء قريش وهم يتوعدون «محمدا» عند إنصرافهم من مجلسه، وقول بعضهم لبعض: «ما خير من أن يغتال محمد». وأدرك «أبو طالب» أنهم لم يكونوا

يلقون القول على عواهنه، ولكن الغدر كان واضحا فى عيونهم، ولذلك قرر أن يأخذ حذره، وأن يحتاط للأمر، فلما كان مساء إحدى الليالى افتقدت عيونه ابن أخيه فلم يعرفوا له مقرا، فأسرعوا إليه بالخبر، فهرع «أبو طالب» ومعه بعض إخوته إلى بيت «خديجة» يسألون عنه فلم يجدوه، فقد كان أهل البيت لا يعلمون أين ذهب، فأسرع «أبو طالب» يجمع فتيان «بنى المطلب وبنى هاشم» وأخبرهم أنه يخشى أن يكون «محمد» قد أصابه مكروه، وأمرهم أن ينتخب كل واحد منهم قطعة صارمة من الحديد يخفيها تحت ملابسه ثم يذهب إلى المسجد الحرام، ويختار كل فتى منهم عظيما من عظماء بطون قريش فيجلس بجواره، وأوصى أن يجلس أحدهم بجوار «أبى جهل» فهو رأس كل شر، فإذا تأكد «أبو طالب» إن ابن أخيه قد قتل أو أصابه مكروه، فإن فتيان عبد مناف ينقضون بغتة على سادة قريش الذين يجلسون بجوارهم، ويضربونهم بالحديد الذى معهم الضربة القاضية على رؤوسهم، فتحمس الفتيان لذلك، واستجابوا جميعا لشيخهم.

وأخذ «أبو طالب» يعيد البحث والتقصى عن ابن أخيه حتى عثر على «زيد بن حارثة» فسأله عنه، فقال إنه بخير، وإنه كان معه منذ قليل، فقال «أبو طالب»: «لا أدخل بيتى حتى أراه» فخرج «زيد» سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو فى بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجل، وبادره «أبو طالب» بقوله: «يا بن أخى أين كنت؟ أكنت فى خير؟» قال: «نعم» قال: «ادخل بيتك، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم» (١).

ولسنا نستطيع، مهما أوتينا من قوة البيان أن نصور مبلغ جزع أم المؤمنين «خديجة» وآلامها عندما علمت أن زوجها الحبيب فى خطر، وأن عمه «أبا طالب» يخشى أن يكون المشركون قد اعتدوا على حياته، وأن أعمامه جميعا

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٣٥؛ والنويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٠٢.

عدا «أبي لهب» ، يبحثون عنه ، كما أننا لا نستطيع أن نصف مبلغ سعادتها وفرحها عندما علمت أنه لا يزال حيا يرزق لم يمسسه سوء ، ولا أن نصف ابتهاجها عندما رأته يهل عليها وهو داخل إلى بيتها سالما .

ولما كان الصباح غدا «أبو طالب» على النبى صلى الله عليه وسلم فأخذه بيده ، ووقف على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال : «يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا لا . وأخبرهم الخبر وقال للفتيان : اكشفوا عما فى أيديكم ، فكشفوا ، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة . فقال : والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم» (١).

وصعق شيوخ الأرستقراطية القرشية وسادتها لهذا التدبير المحكم الذى كاد أن يقضى عليهم جميعا ، وأيقنوا أن «أبا طالب» جاء لينذرهم ، وقد أعذر من أنذر، وأن «بنى هاشم وبنى المطلب» لن يبقوا على أحد من زعماء قريش إذا قتلوا «محمدا» ، وأيقنت قريش عند رؤية هذا الحشد من الفتيان أن «بنى المطلب وبنى هاشم» قد وقفوا وقفة رجل واحد مع شيخهم «أبى طالب» وابن أخيه ، فأحس المتغطرسون بالهزيمة المنكرة أمام هذا الشيخ الكبير المجرب ، وكان «أبو جهل» أشدهم انكسارا وشعورا بالخيبة والهزيمة .

وكان هذا الحادث ، كما كان إسراف المشركين فى تعذيب من أسلم من عشائرهم ، كافيا لأن يقنع النبى صلى الله عليه وسلم ، أن قريشا فى عنادها وكبريائها قد فقدت الكثير مما كانت تتحلى به من مكارم الأخلاق ، فأين ذهبت عنهم الشهامة والنخوة القرشية التى كانت تلزمهم بالمحافظة على صلة الرحم ، والحدب على من يلوذ بهم من الضعفاء والمحتاجين ، وحماية مواليهم من كل ضيم ؟ . وكذلك كان هذا الحادث دليلا على أنهم قد ركبوا رؤوسهم ولن يتورعوا عن إيذائه والقضاء عليه إذا وجدوا لذلك سبيلا ،

---

(١) المرجعان السابقان .

ولكنه، على الرغم من ذلك كله، كان يرجو أن ينزل الله عليهم رحمته، ويهديهم إلى صراطه المستقيم حتى يكونوا عونا على تبليغ رسالته.

وكان أشد الناس عداوة له «أبو جهل»، كما كان من أكثرهم شدة على أقاربه الذين أسلموا وإيذاء لهم «عمر بن الخطاب» فقد كانوا يلقون على يديه الكثير من البلاء والأذى (١) حتى قال عنه «أبو عبد الله عامر بن ربيعة» لزوجته عندما روت له أنها آنست رقة وعطفا من «عمر» عندما علم أنها يزمعان الهجرة وأنها على وشك القيام بها، فقالت لزوجها إنها ترجو من وراء رقته هذه خيرا، فقال لها زوجها: «أطمعت فى إسلامه؟» قالت: «نعم» فقال لها وقد بدت عليه أمارات اليأس: «إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب» (٢). وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى «أبا جهل» أو «عمر ابن الخطاب» يضرع إلى الله قائلا: «اللهم أشدد دينك بأحبها إليك» (٣)، فلما أوغل المشركون فى تعذيب المسلمين فى العام السادس من مبعث الرسول الكريم، واشتدت عداوتهم له، توجه الرسول صلى الله عليه وسلم بالابتهال إلى الله قائلا: (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: «بعمر بن الخطاب» أو «عمرو بن هشام») (٤).

واستجاب الله سبحانه لدعاء نبيه، فقد حدث فى اليوم التالى أن زادت كبرياء «عمر بن الخطاب»، وطغت عليه سورة من الغضب، فتوشح سيفه وخرج من بيته، ولقيه فى الطريق «نعيم بن عبد الله النحام»، وكان قد أخفى إسلامه، فسأله: «أين تريد يا عمر؟» قال: أريد «محمدا» هذا الصابئ (٥)، الذى فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٤٣.

(٢) الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٢ ص ٤٩٣.

(٣) متفق عليه وانظر النويرى: جـ ١٦ ص ٢٥٣.

(٤) متفق عليه؛ وانظر: المراجع الثلاثة السابقة.

(٥) صبأ: خرج من دينه إلى دين آخر.

آلهتها، فأقتله، فقال له «نعيم»: والله لقد غرتك نفسك من نفسك «ياعمر»، أترى «بني عبد مناف» تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت «محمدا»؟ أفلا ترجع إلى بيتك فتقيم أمرهم؟. ثم نصحه ألا يهتم إلا بأمره وأمر أسرته فيصلح من شأنهم، وأخبره أن أخته «فاطمة» وابن عمها الذى تزوجها قد أسلما. فهرع «عمر» من فوره إلى بيتها وقد زاد غلظة على غلظته. وكان يجتمع معهما في بيتهما «خباب بن الأرت» يعلمهما قراءة القرآن عملا بتعاليم النبى صلى الله عليه وسلم عندما اشتدت قسوة قريش على المسلمين بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة، وقد سمع «عمر» حين دنا من البيت قراءة «خباب» عليهما فضرب «عمر» عليهم الباب بعنف، فلما عرفوا حسه اختبأ «خباب» في مخدع بالدار. ولما دخل «عمر» سألهما عن الهمهمة التى سمعها فأنكرا، ولكنه وجه إليهما كلاما صريحا فقال: لقد بلغنى أنكما اتبعتما «محمدا» على دينه؟. وتقدم منه ابن عمه وقال في شجاعة وإيمان: أرأيت «ياعمر» إن كان الحق في غير دينك..؟ فلم يمهله «عمر» حتى يتم كلامه، ووثب عليه فألقاه على الأرض، وجعل يركله بقدميه ركلا شديدا، فتقدمت «فاطمة» بشجاعة كبيرة وحالت بينه وبين زوجها. واشتد هياج «عمر» وأفلت منه زمام نفسه، فضرب أخته ضربة عنيفة شجت رأسها وسال الدم غزيرا، وعندئذ واجهته هى وزوجها في شجاعة وحزم وقالا له: «نعم، قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ماشئت» (١).

ورأى «عمر» الدم يسيل بغزارة من رأس أخته، فأخذته رقة عليها، وندمت نفسه على ماصنع بها، وعندما رأى الدموع تنهمر من عينيها وهى تواجهه صامدة صامتة، رأى فيها شجاعة «آل الخطاب» حينما يزودون عن الحق الذى يؤمنون به، فخشعت نفسه، وطلب منها أن تعطيه الصحيفة التى كانوا

---

(١) القصة متفق عليها وقد روتها أكثر كتب السيرة، وكان اعتمادنا على ابن هشام الجزء الأول ص ٣٤٢ ــ ٣٤٦، وعلى النويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٥٣ ــ ٢٥٨.

يقرآون منها حتى ينظر ما هذا الذى جاء به «محمد» ولكنها رفضت خشية عليها، فحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها. وطمعت أخته أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم، فناولته الصحيفة.

وكان «عمر» من أكثر رجال قريش تبحرا فى اللغة العربية، وحفظا لأدبها وأيامها، كما كان يجيد الكتابة والقراءة، فتناول من أخته الصحيفة، وكان بها صدر سورة طه، فقرأ بصوته الجهورى: «بسم الله الرحمن الرحيم» فاهتز كيانه كله عندما تلا اسم الله، (١) وتوقف برهة ثم قرأ:

﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾

وهنا تمهل هنية وارتجف، ثم واصل القراءة، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

قال وكأنما يحدث نفسه: «ما ينبغى لمن يقول هذا الكلام أن يُعبد معه غيره! ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!» ثم تابع عمر تلاوة قوله تعالى:

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ (٢)

وسكت عمر قليلا، وظهر فى صوته الخشوع وهو يقول: «ما أطيب هذا الكلام وأحسنه!» ووقف عمر غارقا فى أفكاره.

---

(١) روى أن عمر قال بعد ذلك إنه لما قرأ البسملة ذعر، وأنه كلما مر فى القراءة على اسم من أسماء الله ذعر.

(٢) سورة طه: الآيات من ١ ــ ١٥.

وأدرك «خباب» في مخبئه أن «عمر» قد بهرته بلاغة القرآن، وأسرته فصاحته وجمال أسلوبه، وسمو معانيه، وتمنى أن يكون الإسلام قد سكن في قلبه فأسرع إليه وقال له: «يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه. فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام «بأبي الحكم بن هشام» [1] أو «بعمر بن الخطاب»، فالله الله يا عمر».

واستمر «عمر» سابحاً في جمال هذه المعاني السامية، واهتزت لنور القرآن نفسه الحائرة الشرسة فسكنت، وفاض قلبه بنور الإيمان، فامتلأت روحه بنور الإسلام وقال «لخباب» وقد بدا على صوته الرقة والوداعة: فدلني «يا خباب» على «محمد» حتى آتيه فأسلم. فقال له «خباب»: «هو في بيت عند الصفا، معه نفر من أصحابه».

وعمد «عمر» قاصدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فضرب عليهم الباب، وقام رجل من الصحابه فنظر من خلال الباب ورجع فزعا وهو يقول: «يارسول الله، هذا «عمر بن الخطاب» متوشحا سيفه»، وأشار «حمزة» على النبي بقوله: «فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إئذن له» فأذن له الصحابي. ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة الخارجية، فأمسك بمجمع ردائه وجذبه جذبة شديدة وقال: «ما الذي جاء بك يا ابن الخطاب؟» ثم حذره من غضب الله فقال «عمر»: «يا رسول الله، جئتك لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله» فكبّر رسول الله تكبيرة عرف الموجودون في البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن «عمر» قد أسلم، فرددوا

---

(١) سماه المسلمون أبا جهل بن هشام وقد ذكر هذا الحديث بروايات كثيرة مع خلاف يسير جداً في بعض الألفاظ. انظر ابن سعد الطبقات اكبرى جـ٣ القسم الأول ص ١٩٠، وابن الأثير: أسد الغابة في ترجمة عمر.

التكبير شكرا لله واقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم. ومسح الرسول صلى الله عليه وسلم على صدره، ودعا له بالثبات، وكان إسلام «عمر» في شهر ذى الحجة من السنة السادسة [1] من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ست وعشرين سنة [2]، وقد أنشد فى ذلك شعرا قال فيه: [3]

الحمد لله ذى المن الذى وجبت ... له علينا أياد مالها غِيَرُ
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا ... صدق الحديث نبى عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ... ربى عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من ذَلَل ... بظلمها حين تُتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة ... والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها ... فكاد تسبقنى من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا ... وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبىٌّ صدق أتى بالحق من ثقة ... وافى الأمانة ما فى عوده خور

وبات «عمر» ليلته تلك قرير العين مرتاح الضمير، وزال عنه ما كان يشعر به من حيرة، وجعل يفكر فى أمر أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعرف أن أكثرهم عداوة له هو «أبو جهل»، فحدثته نفسه أن يكون أول المشركين علما بإسلامه، ولذلك بكر فى صبيحة اليوم التالى وقصد إلى منزله، وضرب عليه بابه، فخرج إليه «أبو جهل» وهو يعجب من حضوره فى مثل هذا الوقت المبكر، ولكنه تمالك نفسه وقال: «مرحبا وأهلا بابن أختى [4]، ما جاء بك؟» قال «عمر»: «جئت لأخبرك أنى قد

---

(١) الطبقات الكبرى المرجع السابق ص ١٩٣.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ٣ القسم الأول ص ١٩٠ وما بعدها وانظر سبل الهدى والرشاد جـ ٢ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٨.

(٣) سبل الهدى والرشاد: المرجع السابق ذكره؛ وابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٤٨ فى الهامش.

(٤) أبو جهل هو ابن عم حنتمة بنت هاشم بن المغيرة وهى أم عمر: ابن الأثير: أسد الغابة، ترجمة عمر بن الخطاب برقم ٣٨٢٤ جـ ٤ ص ١٤٥، وابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ٣ القسم الأول ص ١٩٠.

آمنت بالله وبرسوله «محمد»، وصدقت بما جاء به».

واستولت المفاجأة والحيرة على «أبى جهل» فضرب الباب في وجهه وقال: «قبحك الله، وقبح ما جئت به». وقصد «عمر» على الفور المسجد العتيق حيث أعلن على الملأ من فتيان قريش، وهم فى أنديتهم حول الكعبة، أنه قد أسلم وشهد أن لا إله إلا الله، وأن «محمدا» عبده ورسوله، فثاروا عليه ثورة عاتية، وهجموا عليه فقاتلهم وقاتلوه حتى ارتفعت الشمس فى كبد السماء وخارت قواه، فجلس على الأرض وهو يقول: «افعلوا ما بدا لكم» ثم أقسم لهم أنه لو بلغ عدد المسلمين ثلاث مائة رجل لحاربوهم حتى يجلوهم عن مكة أو يخرج منها المسلمون، فاشتد هياجهم، والتفوا حوله يريدون الفتك به، فبينا هم على ذلك إذ أقبل «العاصى بن وائل السهمى»، وكان شيخا مهابا من شيوخ قريش ومن أعزهم نفرا، وأكثرهم ثراء، وكان يرتدى حلة يمنية فاخرة، وعليه قميص موشى، فزجرهم زجرا عنيفا، وأنذرهم أن «بنى عدى بن كعب»، وهم رهط «عمر»، لن يتركوهم يتقلونه دون أن ينتقموا ويثأروا له، ثم أمرهم أن يكفوا أذاهم عنه، وأن يخلوا سبيله، فامتثلوا صاغرين وتفرقوا على الفور، ومما يؤثر عنه أنه قال لهم: «ما شأنكم؟ قالوا: صبأ «عمر»، فقال: فمه؟ (١) رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أترون «بنى عدى بن كعب» يسلمون لكم صاحبكم هكذا خلوا عن الرجل» (٢).

وانتشر خبر إسلام «عمر بن الخطاب» بين كل العشائر القرشية فى مكة وما جاورها من القرى، فحز ذلك فى نفس أساطينهم، وشعر الكثيرون منهم بالهزيمة والحسرة، وكان أشدهم شعوراً بذلك خاله «أبو جهل» وعز عليهم جميعاً أن رأوه هو «وحمزة وأبو عبيدة بن الجراح» (٣) يجاهرون بالدعوة إلى دين

---

(١) يقصد فما هذا الذى تفعلونه؟.

(٢) قصة إسلام عمر عنى بذكرها كثير من كتب السيرة القديم منها والحديث: انظر ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٤٢ ـ ٣٥٠، والنويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨، ومن المراجع الحديثة: أبو شهبة؛ السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة جـ ١ ص ٣٦٣ ـ ٣٧٠.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ١ القسم الأول، ص ١٣٣.

«محمد» ، وكان «عمر» يذهب فى نفر المسلمين فيطوفون حول الكعبة ، ويصلون ويجلسون عندها فى حلقات ، وكانت قريش تضيق بذلك وتحاول منعهم ، وكان هو ومن معه يضيقون بتعرض قريش لهم فيدفعون عن أنفسهم ، وقد يؤدى ذلك فى كثير من الأحيان إلى تنابذ بالقول ، وتماسك بالأيدى ، وصراع بين الفريقين مع قلة المسلمين بالنسبة لأعدائهم ، ولكن المسلمين كانوا يستمدون القوة من إيمانهم بدينهم ، ويستعذبون الكفاح من أجل إظهار عقيدتهم ، ويصارعون فى سبيل تقرير حريتهم فى العبادة التى اختاروها لأنفسهم ، وقد روى ذلك الكثير من الصحابة فى كلمات موجزة ، فقال «صهيب بن سنان»(١) : «لما أسلم «عمر» ظهر الإسلام، ودعا إلى الله علانية، وجلسنا حول البيت حلقات، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتى به»(٢) وقال «عبد الله بن مسعود» : «كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم «عمر» قاتلهم حتى تركونا نصلى»(٣) وقال «محمد بن عبيد» : «لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم «عمر»، فلما أسلم «عمر» قاتلهم حتى تركونا نصلى»(٤) .

وقد عز ذلك كله على المشركين ، وفقد كثير منهم صوابهم فتجمعوا حول بيت «عمر» حتى امتلأ بهم الفضاء الذى يحيط به ، وسمع «العاصى» «ابن وائل» خبرهم وكان هو وقومه من بنى سهم حلفاء ، لقوم «عمر» ، فأعجب بشجاعة «عمر» وثباته على ما يعتقد أنه الحق فجاء إليه وقال : «ما بالك ؟»

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٣ وابن الأثير: أسد الغابة : ترجمة عمر برقم ٣٨٢٤ جـ ٤ ص ١٤٥ ــ ١٨١ .

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) المقصود هنا هو هجرة عمر للمدينة . وانظر ترجمة عمر السابق الإشارة إليها فى الطبقات الكبرى وفى أسد الغابة .

(٤) ابن سعد : الطبقات، المرجع السابق .

قال «عمر»: زعم قومك [1] أنهم سيقتلونني أن أسلمت» قال «العاصي»: «لاسبيل إليك» ثم خرج فلقى الناس قد سال بهم الوادى، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد هذا «ابن الخطاب» الذى صبأ. قال «العاصي»: «لاسبيل إليه فأنا جار له» فتفرق الناس، وكروا راجعين [2].

لقد أسلم «عمر بن الخطاب» فى أواخر العام السادس [3] من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك إيذانا ببداية مرحلة جديدة فى تاريخ هذا الدين الجديد هى مرحلة الصراع السافر بين الفريقين فى مكة، فريق الأرستقراطية الوثنية وهم الأكثرية الساحقة التى كانت تريد أن تستأثر بالعزة والكرامة، وأن تخص نفسها بالسيادة فى كبرياء وصلف، وهى لا تريد أن تستمع لنداء العقل، ولا إلى التفكير الهادئ الذى يسمح لغيره ممن يخالفه أن يعيش بجواره فى أمان وحرية، ولكنهم يشتطون فى التنكيل بمن يخالفهم فى الرأى والعقيدة، ونهض فى مكة نفر قليل جدا هم فريق الأقلية المسلمة الذين كانوا يتمسكون بحقهم فى الحرية والمساواة فى الحقوق الإنسانية مع من عداهم، وكانوا يبذلون النفس والنفيس فى الدفاع عن ذلك، وكلما أوغل فريق المشركين فى الطغيان وفى إيذائهم، ازداد المسلمون تمسكا بدينهم والتفافا حول نبيهم، وكلما أراد فريق المشركين إعادتهم بالعسف والجور والجبروت ازداد عدد الداخلين فى الإسلام، وكلما أراد الطغاة القضاء بالظلم على هذا الدين الجديد، زاد انتشار هذا الدين فى أوساط قريش وبين المستضعفين، واستعانوا بالصبر على احتمال الأذى حتى أسلم «عمر بن الخطاب»، فذهب يوما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟» قال: «بلى، والذى نفسى بيده

---

(١) المقصود بكلمة قومك هنا رجال قريش وليس المقصود بها بنو سهم.

(٢) الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، جـ ٢ ص ٤٩٩ برواية واردة فى البخارى عن عبد الله بن عمر.

(٣) ابن الأثير: ترجمة عمر.

على الحق إن متم وإن حييتم» قال عمر: «ففيم الخفاء يا رسول الله؟ علام نخفى ديننا ونحن على الحق، وهم على الباطل؟» فقال: «يا عمر إنا قليل، وقد رأيت ما لقينا». فقال عمر: «والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان» [1]».

وهكذا انتهت مرحلة تحمل هذه الفئة القليلة العدد مع الاعتماد على الصبر دون محاولة دفع الاعتداء بمثله إلى مرحلة جديدة أخرى هى مرحلة مقابلة الاستهزاء بالاستهزاء والإساءة بالإساءة، والإهانة بالإهانة، والعنف بالعنف، وتحدى الظلم بالاستمساك بالحق فى عزة المكافح، مهما كانت العواقب؛ وظهرت قمة هذه المرحلة الجديدة جلية أمام الناظرين عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون فى صفين: «عمر» فى أحدهما «وحمزة» فى الآخر، وساروا حتى دخلوا المسجد الحرام [2]، فأسقط فى أيدى المشركين، وصدمتهم المفاجأة صدمة عنيفة، وأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها قط، وأطلق رسول الله يومئذ على «عمر بن الخطاب» لقب «الفاروق» لأنه، كما قالت أم المؤمنين «عائشة»، فرق بين الحق والباطل [3]، ونزل جبريل عليه السلام، فقال: «يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر» [4].

---

(١) جلست فيه بالكفر أى جلست فيه قبل أن أدخل دين الإسلام.

(٢) متفق عليه وانظر أبو شهبة: السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، جـ ١ ص ٣٦٨.

(٣) ابن الأثير: المرجع السابق جـ ٤ ص ١٤٥، ترجمة رقم ٣٨٢٤.

(٤) سنن ابن ماجة، المقدمة، باب رقم ١١؛ وانظر سبل الهدى والرشاد، المرجع السابق ذكره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

(سورة الإنشراح الآيتان ٥ ـ ٦)



الفصل التاسع

المقاطعة والحصار

أخذ أساطين مشركى قريش يفكرون فى أمر «محمد» هذا الذى صمد لهم ولم يستطيعوا قهره بكل الوسائل والحيل التى تفتق عنها دهاؤهم ومكرهم ، فقد استقبلوه أول ما استقبلوه بالاستهزاء فلم يأبه لهزئهم ، ثم أخذوا يلاحقونه بالإهانة تلو الإهانة ولكنه لم يحفل بإهاناتهم ، وترفع عن مجاراتهم فى هذا الإسفاف واستمر فى دعوته ؛ ثم امتدت أيديهم إليه بالأذى فلم يزده ذلك إلا تمسكا بالنهوض بأعباء الأمانة التى ائتمنه الله عليها ، صابرا فى مواجهة كل ما يلقاه فى هذا السبيل . ولما فشلت سياسة أخذه هو وأصحابه بالقوة والقسوة والجور عمدوا إلى سياسة اللين والملاطفة والإغراء بالوعود الدنيوية ، فعرضوا عليه الجاه والسيادة فى قومه ، والغنى والملك ، والتمتع بزواج كل من تهفو إليها نفسه من زهرات قريش ؛ ولكنه كان زاهدا فى متاع الدنيا ، وكان لا يأمل إلا فى أن يخلوا بينه وبين نشر عبادة الله الواحد الذى لا شريك له ، ولا يطمع إلا فى أن يثوبوا إلى رشدهم فيتركوا عبادة الأوثان ، ويحجموا عن اقتراف المنكرات واتباع الشهوات حتى يطهرهم الإسلام فيصبحوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويبعدون عن الظلم ، ويقرون المساواة والحرية بين الناس وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

وحاول زعماء الارستقراطية القرشية أن يعيدوا بالعسف والطغيان كل من

تبع «محمدا» إلى ملتهم، فلم يزدد هؤلاء إلا تمسكا بدينهم، وإصرارا على حريتهم فى العبادة التى ترضاها نفوسهم، وكلما كان المشركون يوغلون فى الجور والاضطهاد كان يزداد انتشار هذا الدين بين أعز القرشيين من الرجل والنساء، كما كان يدخل فيه الكثيرون من المستضعفين من أهل مكة وقد صبروا جميعا على الأذى، وآثر الكثيرون منهم الفرار بدينهم والهجرة إلى الحبشة تاركين الوطن والأهل والمال فى سبيل حرية العقيدة، وقد وجدوا هناك أمنا وحرية واستقرارا. ولما حاولت قريش استغلال مكانتها ونفوذها التجارى فى الحبشة لاستعادتهم، رفض النجاشى أن يرد إليهم إخوتهم وأولادهم وأقاربهم الذين استظلوا بحمايته، وعاد السفيران إلى مكة حاملين أمتعتها وفشلهما الذريع، فكبر ذلك عليهم، واشتد غضبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأجمعوا أمرهم على قتله(١). ومما زاد الطين بلة أن نور الإسلام أخذ يزحف رويدا رويدا وكانت تتقهقر أمامه ظلمات الشرك يوما بعد يوم حتى بدأت بعض قبائل العرب خارج مكة تدخل فى هذا الدين الجديد.

وكان رؤساء المشركين يستعينون بفتيانهم على ردع الناس وقهرهم حتى يخشوا الدخول فى الدين الجديد، وحتى يخشى الذين سحرهم «محمد» إعلان إسلامهم، ولكن بعض هؤلاء الفتيان أخذوا يتركون دين آبائهم الواحد تلو الآخر، وكان بعضهم يجهر بذلك لا يخشى بأسا، مثل «أبى عبيدة ابن الجراح»، و«سعد بن أبى وقاص» ثم عز الإسلام بمناصرة «حمزة بن عبد المطلب»، و«عمر بن الخطاب»، وقد كان من أعز فتيان قريش، وأصلبهم عودا، وأعنفهم فى الذود عن تعاليمها ومعتقداتها، وأخذ «عمر ابن الخطاب» يكافح ويصارع أهله وعشيرته الذين كانوا يعتزون به وكان بالأمس يعتز بهم، ومازال يجادلهم ويجاهدهم حتى صلى فى المسجد الحرام هو ومن معه من المسلمين(٢)، ثم وقعت الكارثة الكبرى بخروج «محمد» على رأس أتباعه ومعه

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٣٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات ترجمة عمر وكذلك ابن الأثير، أسد الغابة ترجمة عمر.

«حمزة وعمر وعلى بن أبى طالب» وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره، ومن ورائهم من بقى بمكة من المسلمين، وقصدوا المسجد الحرام، وطافوا حول الكعبة ثم صلوا أمامها، وأخذوا بعد ذلك يتحلقون فى جماعات حولها، وقد أدرك شيوخ المشركين وشبانهم أن الغرض من ذلك كله هو أن يعلن «محمد» وأتباعه على الملأ من قريش أنهم لن يسكتوا، بعد اليوم، على الضيم، ولن يتغاضوا عن الإساءة، ولكنهم، على قلة عددهم، سيناجزون داخل مكة من يحاول الاعتداء عليهم مستعينين بالله الواحد الذى يعبدونه.

ولطالما دبر شياطين قريش، وطالما مكر زعماؤها للقضاء على «محمد»، وكانوا يبوءون بالفشل فى إثر الفشل؛ ولكنهم لم ييأسوا وظلوا يحيكون مكرهم آملين أن يضعوا حدا لانتشار هذا الدين الجديد، وأن يمنعوا إقبال الناس على الدخول فيه، حتى أصبح التفكير فى ذلك شغلهم الشاغل، وطال بينهم الجدل والأخذ والرد حتى كان آخر العام السادس لنزول الوحى وهو آخر العام الثالث للجهر بالدعوة، فقادهم شيطان تفكيرهم إلى أمر لم يعهده العرب من قبل، واتفقوا على مؤامرة لا ترعى حرمة الجوار، ولا حق ذوى القربى، ولا ما تعوده العرب جميعا من الإبقاء على صلة الرحم والعصبية للأهل والأقارب، واحترام حرمة النسب والمصاهرة، فقد قرر أساطين الأرستقراطية القرشية فى مستهل السنة السابعة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم رؤساء وقادة الأغلبية الساحقة من بطون قريش، قرروا مقاطعة الأقلية الضئيلة ممثلة فى «بنى هاشم وبنى المطلب» مقاطعة اجتماعية واقتصادية كاملة لا هوادة فيها، وإجبار كل من فى مكة ممن يهابون قريشا ويخشون بأسها على المشاركة فى هذه المقاطعة، ولذلك اتفقوا وتعاهدوا فيما بينهم على ألا يكلموهم ولا يتعاملوا معهم فى بيع أو شراء، ولا يخالطوهم، ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم.

وكان مشركو قريش وزعماؤها يطمعون فى أن تخيف هذه المقاطعة الصارمة «بنى هاشم وبنى المطلب» فيسلموا إليهم «محمدا» ليقتلوه ويتخلصوا منه ومن دعوته، فإن لم يصلوا إلى هذه النتيجة التى كانوا يطمعون فى

الوصول إليها فإنهم كانوا يأملون أن يفرّقوا بين «بنى هاشم وبنى المطلب»، فينحاز «بنوهاشم» إلى بطون قريش الأخرى ويتركوا «بنى المطلب» وحدهم. وكانوا يطمعون، أكثر من ذلك، في أن تؤدى قسوة المقاطعة إلى أن ينفض عن «محمد» بعض أفراد «بنى المطلب» الذين لم يكونوا قد دخلوا بعد في دينه، فيصبح القضاء عليه وعلى من بقى معه منهم أمراً ميسوراً.

وأراد زعماء الوثنية القرشية أن يدعموا هذا الاتفاق، وأن يجعلوا له حرمة وقداسة بحيث لا تجرؤ بطن من بطون قريش على نقضه، فقرروا أن يثبتوا هذا التآمر ويدونوه في صحيفة، ثم علقوا هذه الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم [1]، وبذلك أصبح لها مهابتها واحترامها بين جميع المشركين من بطون قريش، ومن القبائل العربية المشركة الأخرى.

وظل النبى صلى الله عليه وسلم رابط الجأش، ثابت العقيدة، مسلما أمره إلى الله، راضيا بقضائه وقدره، لا يخشى تهديدهم ووعيدهم، مؤمنا بقوله سبحانه:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [2]

وكان يؤمن أن الله الذى أرسله بالحق لن يخلف وعده وسوف ينصر عباده كما كان يؤمن بقوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3]

وظلت «أم المؤمنين خديجة» صامدة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم تشد من أزره، وتهون عليه كل ما يدبره له قادة الأرستقراطية القرشية من عَبَدَةِ الأوثان، وتخفف عنه، ما استطاعت، وقع هذه المحنة المفاجئة،

---

(١) متفق عليه، وانظر ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١، وابن سعد: الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ١٢٥.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٨.

واضعة نصب عينيها قوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١)

وفوجىء جميع مشركي قريش في بداية هذه المقاطعة الظالمة بانهيار أملهم في الإفساد بين «بني هاشم وبني المطلب» فقد وقف هؤلاء وقفة رجل واحد وازداد تعاونهم في الذود عن «محمد»، وقرروا أن يضحوا في سبيل ذلك بكل مرتخص وغال، واستهانوا براحتهم، وعرضوا أنفسهم لقسوة الحياة في سبيل هذا الغرض السامي، لا فرق في ذلك بين من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ومن لم يكن قد آمن بعد. أما المؤمنون منهم فقد كانوا يرون في ذلك دفاعا عن دينهم، وعن حريتهم في اختيار العقيدة التي يرتضونها، وذودا عن المبادئ الإنسانية السامية التي تدعو إليها هذه العقيدة وأما الذين كانوا ما يزالون على جاهليتهم ولم يؤمنوا بعد بالوحدانية فقد رأوا في المحافظة على «محمد» ومناصرته محافظة على شرف عشيرتهم وكرامتها، ونجدة لذوى قرابتهم ورحمهم، وقضاء على كبرياء وطغيان العشائر القرشية الأخرى، وعلى ما كانت تقترفه من ظلم، وعلى ما استباحته من حرمات، ولم يشذ عن هؤلاء أحد إلا «أبو لهب» فإنه جبن عن مناصرة أهله وعشيرته، وقاده كرهه «لمحمد» ورسالته إلى الانحياز إلى البطون القرشية الأخرى، وإلى أن يعينهم على ظلم أهله وذوى قرابته.

وفي سبيل هذه المبادئ السامية ترك «بنو هاشم وبنو المطلب» بيوتهم وما فيها من الأثاث ووسائل الترف الأخرى التي كانت متاحة لهم في تلك الحقبة من الزمان، وخرجوا، في مطلع المحرم من العام السابع لنزول الوحي وهو أول العام الرابع للجهر بالدعوة الإسلامية (٢)، إلى شعب «أبي طالب» شرقي مكة (٣)، ليعيشوا بين شعاب الجبال ورمال الصحراء، حيث لا زرع

---

(١) سورة يونس: الآية ١٠٩.

(٢) متفق عليه وانظرا ابن سعد: الطبقات جـ ١ ص ١٤٠.

(٣) متفق عليه وانظر المرجعين السابقين: السيرة والطبقات الكبرى.

ولا ماء، وحيث يقاسون من قسوة الطبيعة وطقسها المتغير فى تلك البيئة الجبلية الصحراوية ذات الحر اللافح فى الصيف والبرد القارس فى الشتاء، ولم يتخلف عن الخروج لحماية محمد أغنياء «بنى هاشم وبنى المطلب» الذين كانوا يتمتعون بالثراء وما كان يجلبه لهم من الرفاهية، وبالجاه الذى توارثوه عن آبائهم مثل «العباس بن عبد المطلب» الذى كان يملك الأموال الطائلة ويتجر فى العطور التى كان يجلبها من اليمن ومن الشام، فإنه لم يتقاعس عن أداء هذا الواجب على الرغم من أنه لم يكن قد دخل فى الإسلام حتى ذلك الحين؛ ولكنه هرع مع قومه إلى الشعب ليحيط ابن أخيه «محمدا» برعايته وحمايته، ويكون مع أخيه الأكبر «أبى طالب» ومع عشيرته الأقربين يدا واحدة على من ظلمهم، فقد كان «أبو طالب» وهو سيد قريش وزعيم «بنى هاشم وبنى المطلب»، على رأس الداخلين إلى الشعب برغم شيخوخته التى كانت قد جاوزت الثمانين من عمره، وبرغم ضعف جسمه وحاجته إلى الراحة والعيشة المسترخية الهادئة بعيدا عن كل مشقة، وعن قسوة العيش فى تلك البيئة، ولكن الشيخ استجمع كل شجاعته، وجمع حوله رجال «بنى هاشم وبنى المطلب» وفتيانهم، وحمل معهم نساءهم وأطفالهم ودخل بهم إلى الشعب بين الجبال الوعرة والصحراء المقفرة حتى يستطيعوا أن يحموا «محمدا» ويذودوا عن شرف عشيرتهم، ومحافظة على المكانة السامية والاحترام الذى كانوا يتمتعون به بين العرب كافة.

وكم كان وفاء جميلا أن تخرج معهم السيدة خديجة وتترك بيتها حيث عاشت طوال حياتها عيشة رغدة بفضل ثروتها الطائلة التى وفرت لها كل وسائل الترف، ومكنتها من الاستمتاع بكل ما كان يمكن للمال أن يحصل عليه من الطيبات التى كانت تجلبها تجارتها الواسعة من إنتاج العراق وفارس والهند عن طريق رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام. خرجت معهم فى بداية شيخوختها بعد أن أشرفت على الحادية والستين من عمرها لتعيش بعيدة عن كل وسائل الراحة التى كانت تتمتع بها فى بيتها وقد استعذبت ذلك دفاعا عن دينها، وحتى لا تتخلى عن زوجها وحبيبها الذى

نعمت بجواره أسعد أيام حياتها، ولم تعبأ بما قد تتعرض له من مشقة، وما قد يجهد جسمها الضعيف من المتاعب، وما يقابلها من مرارة الحرمان وقسوة الطبيعة حبا في الإسهام في نشر دين الوحدانية، ورغبة منها في الوقوف بجوار نبيها وزوجها تحيطه بعطفها، وتظله بحبها وحنانها، وتقاسمه الضراء كما قاسمته من قبل سعادة العيش.

وخرجت مع «خديجة» إلى الشعب ابنتها «أم كلثوم»، وكانت ماتزال فى مطلع شبابها زهرة يانعة أوشكت على الثالثة عشرة من عمرها، وكانت معها أختها «فاطمة الزهراء» التى كانت ماتزال تسبح فى سعادة الطفولة البريئة التى تؤهلها لها سنها التى لم تجاوز الحادية عشرة، وكانتا تعيشان من قبل فى بحبوحة من العيش المترف حيث كانتا تنعمان بحياة سعيدة مستقرة وجدتا فيها كل ما كانت تتيحه لهما فى ذلك العصر ثروة والديها، ولكن شاء القدر أن تنتقلا فجأة إلى حياة خشنة لا راحة فيها وسط الجبال والوديان وبين رمال الصحراء القاحلة (١).

وشعر أساطين الأرستقراطية المشركة بالنصر لأول مرة منذ بدأ الصراع بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الجهر بالدعوة، فقد عمتهم السعادة التى لم يذوقوا لها طعما طوال السنوات الثلاث الماضية، وأصبحوا عندما خلت مكة من «بنى هاشم وبنى المطلب» يشعرون بأنهم لم يتخلصوا من «محمد» وحده، ولكنهم انتصروا على هذين الرهطين اللذين كانا يتنافسان مع باقى عشائر قريش، وكانا يتغلبان عليهم بكرمهم ووداعتهم وحسن أخلاقهم مما حبب فيهم العرب قاطبة، وظنوا، وبعض الظن إثم، أن هذين الرهطين لن يلبثا طويلا حتى يذعنا ويستسلما صاغرين إليهم يفعلون بهما و«بمحمد» مايشاءون فيتخلصون منه، و يئدون دعوته ويقتلونها قتلا لا قيامة لها بعده وهى فى بداية العام الرابع من الجهر بالدعوة.

---

(١) كانت زينب فى كنف زوجها أبى العاص بن الربيع الذى كان يحبها ويحميها، وكانت «رقية» لا تزال مع زوجها «عثمان بن عفان» فى هجرتهما بالحبشة.

وبدأت المعيشة فى الشعب وسط الجبال تحت قبة السماء بعيدة عن البيوت التى بناها وعاش فيها آباؤهم من قبل، وكان «أبو طالب» يخشى أن تتسلل فى الليل شياطين قريش لاغتيال ابن أخيه فقرر اتخاذ الحيطة، وتشديد الحراسة عليه طوال الليل، وكان طوال مدة إقامتهم فى الشعب «يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتى فراشه كل ليلة، حتى يراه من أراد به شرا أوغائلة، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أوإخوته أوبنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر رسول الله أن يأتى بعض فرشهم فيرقد عليها»(١).

واستمرت المعيشة فى الشعب أكثر مما كان يتوقع لها «الهاشميون والمطلبيون»، ونفد ما كانوا قد حملوه معهم من زاد، ولما أرادوا أن يعوضوا ما فقدوه بشراء غيره، وجدوا أن أسواق مكة كانت مغلقة أمامهم، وأن أحدا من تجارها كان لا يجرؤ أن يبيعهم شيئا؛ ولما حانت إحدى المواسم التى كانت تعج بها مكة، خرجوا ليشتروا من القوافل الوافدة إلى البيت الحرام من أرجاء الجزيرة العربية، ولكن شياطين مشركى قريش كانوا أسبق منهم إلى شراء كل ما كانت تحمله معها تلك القوافل من طعام أوإدام، وإلى التنبيه على رجال القوافل بعدم التعامل مع المحاصرين بيعا أوشراء، وبذلك قطعوا عنهم الأسواق، ولم يستطيعوا أن يشتروا ما يقوتون به أنفسهم وعيالهم(٢). وكان «أبو لهب» من أنشط الداعين إلى مقاطعتهم، فقد كان يقصد الوافدين على مكة من القبائل العربية، ويغريهم بالوعود البراقة والربح الوفير حينا، أويخوفهم بالوعيد حينا آخر، وكان يضمن لهم ألاّ تبور تجارتهم، ويعدهم أن يشترى منهم كل ما يتبقى عندهم من متاع أوبضاعة بأوفر الأثمان، وهكذا شح الزاد فى الشعب وجاع الأطفال، وكان أهلهم يطبخون لهم أوراق الشجر وبعض النباتات البرية التى تنبت فى الصحراء

---

(١) ابن عبد البر: الدرر ص ٥٧.

(٢) متفق عليه، وانظر المرجع السابق.

أوعلى سفوح الجبال، وكانوا يأكلونها كارهين لأنهم لا يجدون غيرها ليقتاتوا به.

ومر عام طويل على هذا الحصار، وساءت حال «بني هاشم وبني عبد المطلب» وسعد بذلك شياطين قريش وسفهاؤهم، وظنوا أن كبرياء المحاصرين سوف تنهار عن قريب، وأنهم ولا شك سوف يذعنون ويسلمون إليهم «محمدا» يفعلون به ما يرون، ولكن نفرا من حكماء قريش وذوى المروءة والمكانة فيها ساءهم كل ذلك، وأشفقوا أن تهلك أطفال المحاصرين جوعاً وأن يذل بطنان من أعز بطون قريش ظلما، فراحوا يرسلون لهم الطعام سراً، فثارت ثائرة سفهاء قريش، وأحكموا الحصار وبثوا العيون والأرصاد حوله، وتأكد لهم أن «هشام بن عمرو العامرى» يصل من فى الشعب فيرسل لهم الطعام بين الحين والحين. و«عمرو» هذا هو أخو «نضلة ابن هشام بن عبد مناف» لأمه وكان من ذوى الفضل والمروءة، محبا للهاشميين (1)، وواصلا لهم. وتربص شياطين قريش، فعثروا على جمال ثلاثة أرسلها «عمرو» إلى الشعب فى جنح الليل محملة بالطعام، فلما أصبح الصباح ذهبوا إليه ولاموه على ذلك، فوعدهم أن يوقف إرسال معونته إلى الشعب؛ ولكنه سرعان ما ندم على هذا الوعد، وعز عليه ألاّ يصل أهله إبان محنتهم، وأن يتركهم يتضورون جوعا، فأرسل إلى الشعب جملين آخرين يحملان الزاد. وقامت قيامة سفهاء قريش، واشتد غضبهم، وراحوا يؤنبونه لخروجه على إجماعهم، وأغلظوا له فى القول، ثم هددوه بالقتل إن هو عاد إلى مثل ذلك، وكان «أبو سفيان بن حرب»، زعيم بنى أمية وسيدها، حاضرا، فاستفزه تأنيبهم «لهشام العامرى»، وأغضبه تهديدهم له، وغلبت عليه شهامته، فوجه إليهم أشد الملامة، وقال إن «هشاما» لم يرتكب إثما، وإنما دفعته الشهامة والمروءة إلى أن يصل أهله، وأن يعين ذوى قرابته عند الشدة، وكان الأجدر بقريش أن تفعل مثل ما فعل، وذعر سفهاء قريش

---

(1) ابن هشام: السيرة، جـ ١ ص ٣٧٤ـ٣٧٥، والنويرى: نهاية الأرب، جـ ١٦ ص ٢٦٠.

لمناصرة «أبو سفيان» لأحد الخارجين عما جاء فى صحيفة المقاطعة؛ ولكنهم خشوا أن يجادلوه، فقد يدفعه ذلك إلى الإنضمام هو وقومه إلى «هشام» وأمثاله ممن يعينون المحاصرين، فكظموا غيظهم ولم يجرؤ أحدهم على مخاصمة «أبى سفيان»؛ وداوم «هشام العامرى» على كرمه ومروءته، فكان يقود الناقة بنفسه فى جوف الليل البهيم محملة بالطعام ويأتى بها إلى مدخل من مداخل الشعب، ثم يوجهها ناحية المحاصرين ويضربها على جنبيها فتسرع داخلة إلى الشعب، حيث يتلقفها المحاصرون (1).

ومر عام آخر طويل على هذا الحصار الذى لم تسمع العرب بمثله من قبل، وكان الطعام الذى يصلهم خفية مما يرسله ذوو المروءة والفضل لا يكفى لسد حاجة المحاصرين، وهزل الكبار والصغار؛ ولكنهم جميعا صبروا صبر الكرام على شدة البلاء، وهول جوع الأطفال الذين طالما باتوا طوال ليلهم يبكون ويتألمون وهم يتضورون جوعا بكاء كان يسمع من خارج الشعب.

وكان أهل بيت النبى جميعا يتحملون مرارة الجوع وآلامه كما كان يتحملها بقية أهلهم المحاصرين؛ ولكن «خديجة» لم تقف مكتوفة اليدين أمام هذه النكبة المفاجئة بل كانت تبذل كل ماتستطيع من جهد ومال لتنقذهم من الهلاك، فكانت ترسل إلى أهلها يشترون لها الطعام ويرسلونه سراً إلى الشعب، وكان أهلها وعشيرتها نبلاء وأوفياء لها، فلطالما كانت قبل هذه المحنة كريمة معهم، تصلهم ببرها، وتمد كل محتاج منهم بمعونتها، فبادلوها عند شدتها وفاء بوفاء، وحبا بحب، ولا يعلم إلا الله وحده كم أنفقت من مالها فى سبيل تزويد المحاصرين بكل ما استطاعت أن تجلبه لهم، فكانت لهم نعمة وعونا قيضها الله سبحانه لإغاثتهم. وكان ابن أخيها «حكيم بن حزام ابن خويلد» يقود بنفسه الجمال محملة بالطعام إلى

---

(1) محمد بن يوسف الصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، جـ٢ ص٥٤٣.

الشعب، ولقيه ذات مرة «أبو جهل» ومعه غلام يحمل قمحا لعمته «خديجة بنت خويلد»، فأمسك بتلابيبه، وأقسم ألا يبرح مكانه حتى يفضحه في «مكة»، فقد كان في نظره يرتكب جريمة شنعاء هي الخروج على ما تعاقدت عليه قريش وعلى ما كتبوه في الصحيفة المعلقة في جوف الكعبة، وجاء «أبو البختري بن هاشم بن أسد» فنهر «أبا جهل» وقال له: «طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ[1] عن الرجل». وأبى «أبو جهل»، فتماسك الرجلان بالأيدي، وتعاركا عراكا طويلا، فضرب «أبو البختري أبا جهل» على رأسه فشجه ثم ألقاه على الأرض وجعل يركله بقدميه، ولكنهما شعرا أن «حمزة ابن عبد المطلب» جاء ووقف بالقرب منهما يرى ويسمع عراكهما، وكانت قريش تكره أن تصل أخبار مثل هذا العراك والشجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فيشمتوا فيهم، ولذلك كفوا عن هذا الصراع، ودخل القمح إلى الشعب[2].

وسارت الأيام بطيئة ثقيلة، ومرت الليالي على المحاصرين طويلة ومضنية، حتى أوشك العام الثالث على الحصار أن ينتهي، وكان كل ما يصل إليهم من الطعام خفية لا يغني ولا يسمن من جوع، حتى هزل الصغار، وضعف الكبار، ولكنهم كانوا كراما على أنفسهم، محافظين على عزتهم، يفضلون هذا الموت البطيء على أن يهنوا أو يذلوا أمام جبابرة قومهم. وأسرف سفهاء قريش في بغيهم، واستمروا في طغيانهم، وبذلوا الجهود في محاولة إحكام الحصار على الشعب، وكانت محنة أشفق منها كرام قريش وعقلاؤها، فقد أدركوا أن عناد هؤلاء السفهاء وطغيانهم سوف يؤدي إلى حرب تجويع بطيء حتى الموت لفريق من أكرم قريش حسبا، وأعزهم نسبا، وأحسنهم خلقا، وأن فناء هذا الفريق سوف يكون على مدى الدهر

---

(١) خل عنه: أي أتركه.

(٢) متفق عليه في جميع المراجع وانظر ابن هشام: السيرة جـ ١، ص ٣٥٣ــ ٣٥٤.

عارا وسبة فى تاريخ قريش ؛ أدرك ذلك فريق من كرام قريش ، وخطر على بال كل واحد منهم ذلك إذا خلا إلى نفسه فجعل يلومها ويأسف على ما حل بالمحاصرين .

وكان أسبق من حملتهم المروءة على هذا التفكير المتزن «هشام بن عمرو العامرى» وكان كما رأينا يصل المحاصرين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وقد دفعته شجاعته ومروءته إلى أن يسعى حتى جمع حوله أربعة آخرين اختارهم من ذوى العقل والمكانة بين عشائر قريش ، وممن تربطهم بالمحاصرين صلة القرابة والرحم ، فتشاوروا واتفقوا فيما بينهم على أن يمزقوا الصحيفة المعلقة فى جوف الكعبة ؛ ومن الخير أن نذكر، بشىء من التفصيل ، بعض ما ورد إلينا من خبر هذا السعى النبيل مما كان أحد الأسباب التى أدت إلى فض الحصار :

بدأ «هشام العامرى» بالذهاب إلى «زهير بن أبى أمية المخزومى» ، وهو ابن «عاتكة» عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يعيّره لأنه أسلم أخواله «لأبى جهل» وعصبته وتركهم يتضورون جوعا بينما هو يستمتع بأطيب الطعام ، ويلبس أحسن الثياب ، وعيّره كذلك أنه خضع فى ذلك «لأبى جهل» وأطاع أمره ، وأن «أبا جهل» لم يكن ليرضى لأخواله مثل هذا المصير لو أنه دعى إلى مثل ذلك ، ويجدر بنا أن نثبت بعض هذا الحوار كما ورد إلينا (١) :

قال هشام : «يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وأخوالك حيث قد علمت ، لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ .. أما إنى أحلف لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام (٢) ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك إليه أبداً» .

---

(١) الحوار وارد فى كثير من المراجع ، والنقل هنا ببعض الاختصار عن ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ص ٣٧٤ــ٣٧٥ .

(٢) هو أبو جهل .

قال زهير: «ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها»[1].

هشام: «قد وجدت رجلاً»

زهير: «فمن هو؟»

هشام: «أنا»

زهير: «أبغنا رجلا ثالثا»

فذهب «هشام» إلى «المطعم بن عدى بن عبد مناف» فقال له: «يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من «بنى عبد مناف»[2] وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن مكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا!».

قال المطعم: فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد.

هشام: «قد وجدت ثانيا»

المطعم: «من هو؟»

هشام: «أنا»

المطعم: «أبغنا ثالثا»

هشام: «قد فعلت»

المطعم: «من هو؟»

هشام: «زهير بن أبى أمية»

المطعم: «أبغنا رابعا».

فذهب «هشام» إلى «البخترى بن هشام»، فقال له نحو مما قال «للمطعم ابن عدى»، فقال «البخترى»: «وهل من أحد يعين على هذا؟» قال «هشام: «نعم «زهير بن أبى أمية، والمطعم بن عدى» وأنا معك».

---

(١) المقصود هو نقض الصحيفة التى كانت معلقة فى جوف الكعبة.

(٢) بنو هاشم وبنو المطلب بطنان من بنى عبدمناف فهم يشتركون مع «المطعم» فى جدهم جميعاً عبدمناف.

فقال المطعم: «أبغنا خامسا»

وذهب هشام إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟. فقال نعم، ثم سمى له القوم.

اتفق الخمسة على يتقابلوا فى مكان بأعلى مكة يقال له خطم الحجون، وهناك أجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها وأن يبدأ «زهير» الكلام. ويندس الآخرون وسط زعماء قريش فى نواديهم المنتشرة حول الكعبة ثم يؤيدوه من مختلف النواحى (١).

وكان النبى صلى الله عليه وسلم طوال هذه السنوات الثلاث المضنية، راضيا بقضاء الله وقدره، صابرا على هذه المحنة القاسية، يجوع كما يجوع أهله وأقرباؤه، ويقتات مثلهم على أوراق الشجر وجذور النباتات البرية، لا يخشى إلا الله، ولا يخاف إلا من غضبه، دائبا على دعوة قومه ليلا ونهارا، سرا وجهارا، صابرا على أذاهم وتكذيبهم إياه واستهزائهم به، وكان الوحى متتابعاً فى نزوله بالآيات الكريمة التى تذكر أوامر الله ونواهيه، ووعده ووعيده، وتحض على مكارم الأخلاق (٢). كما كان صلى الله عليه وسلم دائم التضرع إلى الله سبحانه أن يجعل للمحاصرين مما هم فيه مخرجا، وأن يهبهم بعد العسر يسرا؛ واستجاب الله سبحانه لدعائه فأطلعة أنه سلط حشرة الأرضة على الصحيفة الظالمة، فلحست كل ما كان مكتوبا فيها من جور

---

(١) قصة الصحيفة والحصار والسعى فى نقض التعاقد وردت فى كثير من مصادر السيرة ـ أوجز بعضها، وتوسع البعض الآخر بدرجات متفاوتة. انظر ابن هشام السيرة جـ١ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٤ و٣٧٤ ـ ٣٨١؛ وابن سعد: الطبقات جـ١، القسم الأول ١٢٥ ـ ١٢٦ و١٣٩ ـ ١٤١. وابن عبد البر الدرر ص ٦٠؛ والطبرى جـ٢ ص ٣٤١ ـ ٣٤٣؛ والنويرى: نهاية الأرب جـ١٦ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢، والصالحى: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، جـ٢ ص ٥٠٢ ـ ٥١٧، ٥٤٣ ـ ٥٤٨.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٥٤؛ والطبرى: جـ ٢ ص٣٤٣.

وظلم، ولم يبق عليها إلا ما كان مكتوبا فى صدرها وهو «باسمك اللهم».

وبادر النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك لعمه «أبى طالب»، فدهش وقال: «أحق ما تخبرنى يا ابن أخى؟» قال: «نعم والله» فجمع «ابو طالب» على الفور إخوته وذكر لهم ذلك، فقالوا له: «ما ظنك به؟» فقال: والله ما كذبنى قط» قالوا: «فما ترى؟» قال: «أرى أن تلبسوا أحسن ما تجدون من الثياب، ثم تخرجوا إلى قريش، فنذكر ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر» (١).

وخرج «أبو طالب» وإخوته إلى المسجد الحرام وقد استولى عليهم الخوف، وجلسوا تحت الحجر الأسود، وكان لا يجلس تحته إلا زعماء قريش وأهل الرأى والمكانة فيها، ودهش كل من كان فى مجالس قريش ونواديها، وظن أكثرهم أن الجوع ومتاعب العيش داخل الشعب قد أنهكتهم وقضت على كبريائهم، واعتقدوا أنهم سوف يعلنون استسلامهم، وأنهم سوف يسلمون لقريش «محمدا» دون قيد أوشرط، فعمهم البشر.

وتكلم «أبو طالب» فقال: «قد جرت أمور بيننا وبينكم لم نذكرها لكم، فائتوا بصحيفتكم التى فيها مواثيقكم، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح». وإنما قال لهم «أبو طالب» ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها. فلما أتوا بها ووضعوها بينهم قالوا «لأبى طالب»: «قد آن لكم أن ترجعوا عما أخذتم علينا وعلى أنفسكم»؛ فقال «أبو طالب»: «إنما أتيتكم فى أمر هو نَصفٌ بيننا وبينكم. إن ابن أخى أخبرنى، ولم يكذبنى، أن هذه الصحيفة التى بين أيديكم قد بعث الله عليها دابة، فلم تدع فيها إسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان (٢). فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا فلا والله لا نسلمه حتى نموت من عند

---

(١) ابن عبد البر: الدرر ص ٥٨.

(٢) ابن هشام السيرة جـ ١ ص ٣٧٧، وفى الدرر: غدركم وتظاهركم علينا بالظلم.

آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أواستحييتم » (١) .

وبدا الارتياح والرضا على وجوه المشركين ؛ وظنوا أن «أبا طالب» إنما يعرض عليهم ذلك ليجد وسيلة يحفظ بها على «بنى هاشم وبنى المطلب» ماء وجوههم ؛ فالوثيقة التى بين أيديهم كانت سليمة ومطوية ومختوما عليها بالخواتيم الثلاثة التى ختمت بها عند تعليقها فى جوف الكعبة و ولذلك رأوا أن يجاملوه حتى يتم لهم النصر ويسلم لهم «محمدا» ، فأظهروا الرضا قائلين لقد أنصفتنا ورضينا بما تقول ، وتعاقدوا معه على ذلك وهم جلوس تحت الحجر الأسود .

وفضوا الأختام ، وفتحوا الصحيفة ثم نظروا فيها ، فإذا هى كما ذكر النبى الصادق الأمين خالية من كل ما سطر فيها من بغى ومقاطعة وقطيعة رحم ، وليس فيها إلا : «باسمك اللهم» فبهتوا جميعا ووقفوا حيارى لا يدرون ما يصنعون ونكسوا على رؤوسهم ، ولكن سرعان ما عاد شياطينهم إلى إظهار السخط والندم على تعاقدهم معه ، وعادوا بقيادة «أبى جهل» إلى غطرستهم وبغيهم وقالوا : «هذا سحر ابن أخيك :» فقال : «أبو طالب» «علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر؟» ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة وقال بصوته الجهورى : «اللهم انصرنا ممن ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل ما يحرم عليه منا» ثم انصرفوا عائدين إلى الشعب » (٢) .

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء شيخ «بنى هاشم» إذ رأى الخمسة الذين تعاهدوا على نقض الصحيفة غدر سفهاء قريش لعهدهم ونكثهم لتعاقدهم مع «أبى طالب» ، فوقف «زهير بن أمية» تحت الحجر الأسود

---

(١) اعتمدنا من بين الروايات ما نعتقد أنه يمتاز على غيره ، وانظر سبل الهدى والرشاد : جـ٢ ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات جـ ١ ص ١٤٠ .

وقال (١) : «يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، «وبنوهاشم» هلكى لا يبتاع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة».

وثار «أبو جهل» وانتفض قائلا: «كذبت والله لا تشق».

وتصدى له «زمعة بن الأسود» وكان فى ناحية أخرى من المسجد فصاح فى «أبى جهل» قائلا: «أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت».

وصاح «البختري»، وكان فى ناحية ثانية من المسجد، وقال بأعلى صوته: «صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نُقرّ به».

وتقدم «المطعم بن عدى» من الناحية الثالثة من المسجد، وصاح فى «أبى جهل» وقال مخاطبا زملاءه: «صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها».

وهب «هشام بن عمرو» واقفا وصاح غاضبا وهو يخاطب زملاءه بقوله: «صدقتم وكذب من قال غير ذلك. والله لا نرضى بهذه الصحيفة الظالمة. لقد كانت شؤما منذ ساعة كتابتها، وشلت يد كاتبها، ووالله لن نرضى حتى نشقها ويعود أهلنا من «بنى هاشم وبنى المطلب» إلى بيوتهم».

وأسقط فى يدى أبى جهل، وتملكته الحيرة فلم يعد يملك زمام نفسه، واعتقد أن أكثر من بطن من بطون قريش قد اتفقوا على نقض الصحيفة، وأنه هو وقومه لا قبل لهم بهم، ولن يستطيعوا الوقوف فى سبيلهم، فقال وقد استولت عليه حسرة اليأس، وذل الهزيمة: «هذا أمر قضى بليل، تُشوور فيه بغير هذا المكان» (٢). وتقدم «المطعم بن عدى» بخطى ثابتة، فزق

---

(١) الحوار التالى كله عن ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٧٦.

(٢) أمكن التوفيق بين ماورد من الروايات التى ذكرت نقض الصحيفة بدرجات متفاوتة فى التفصيل.

الصحيفة شر ممزق وذهب الخمسة الذين تعاونوا على نقض الصحيفة وتمزيقها في نفر من أهلهم وأعوانهم لابسين السلاح إلى شعب «أبي طالب» ثم عادوا مع «بني هاشم وبني المطلب» إلى مكة (١).

ودخل الذين كانوا بالأمس مبعدين ومحصورين في الشعب إلى بيوتهم رافعي رؤوسهم، لم يهنوا ولم يذلوا ولكنهم صبروا وصابروا طوال أعوام ثلاثة حتى جعل الله لهم من أمرهم يسرا، ومما كانوا فيه من الضيق والحبس فرجا ومخرجا، وكان رجوعهم في مستهل العام العاشر لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلم «أبوجهل» وأضرابه من سفهاء قريش أن «بني هاشم وبني المطلب» أصبحوا في منعة يعتزون بأعوان أشداء لن يسلموهم لأعدائهم، فأسقط في أيدي المشركين بعد أن تجرعوا مرارة الخزي والفشل (٢).

ولما مزقت الصحيفة، وبطل ما فيها، وانتصر النبي صلى الله عليه وسلم هو وعمه «أبوطالب» وأهله من «بني عبدمناف»، أنشد أبوطالب قصيدة عامرة يشكر الله سبحانه، ويثني على النفر الذين قاموا في نقضها، ويشيد بذكر مفاخر «بني هاشم وبني المطلب»، نقتطف منها قوله: (٣)

ألا هل أتى بحريّنا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود (٤)

ثم يتحدث عن قومه «بني هاشم وبني المطلب» ويفخر بأمجادهم قائلاً:

نشأنا بها والناس فيها قلائل ... فلم ننفكك نزداد خيرا ونحمد (٥)

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ١٦، ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات جـ ١ ص ١٤١.

(٣) القصيدة رواها ابن إسحق وأقرها ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٣٧٨ــ ٣٨٠.

(٤) بحرينا: هم الذين أبحروا وهاجروا إلى الحبشة، وهذا يدل على أن الذين عادوا من الهجرة الثانية لم يكونوا قد عادوا حتى الخروج من الشعب. أورد: أرفق.

(٥) المقصود نشأنا بمكة والناس فيها قليلون ونحن لم نزل نزداد خيرا ونحمد.

ونطعم حتى يترك الناس فضلهم   إذا جعلت أيدى المفيضين تُرعد [١]

ثم يقول مادحا الذين قاموا فى نقض الصحيفة :

جزى الله رهطا بالحجون تبايعوا   على ملإ يهدى لحزم ويُرشِد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم   مقاولة بل هم أعز وأمجد [٢]
أعان عليها كل صقر كأنه   إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحرد [٣]
عظيم الرماد سيد وابن سيد   يحض على مقرى الضيوف و يحشد [٤]
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا   على مهل وسائر الناس رُقّد

ثم يعود مفاخرا بقومه فيقول :

همُ رجعوا سهل بن بيضاء راضيا   وسر أبو بكر بها ومحمد [٥]
متى شُرّك الأقوام فى جلّ أمرنا   وكنا قديما قبلها نُتودد
وكنا قديما لا نقر ظلامة   وندرك ما شئنا ولا نتشدد

* * *

ويجدر بنا كذلك أن نقتطف من قول «حسان بن ثابت» ، شاعر الرسول ، بعد ذلك بكثير، يبكى «المطعم بن عدى» حين مات ، و يذكر قيامه فى نقض الصحيفة : [٦]

(١) المقصود أنهم كانوا يطعمون فى حين كان غيرهم يمتنع عن الإطعام.
(٢) المقاولة : الملوك.
(٣) أحرد : بطيء المشى من ثقل الدرع.
(٤) كناية عن الكرم.
(٥) سهل بن بيضاء : هو سهل بن وهب يكنى بأمه وهو الذى مشى إلى النفر الذين قاموا فى نقض الصحيفة ودعاهم لذلك. انظر ابن الأثير: أسد الغابة جـ ٢ ص ٤٦٦ فى ترجمة لسهل برقم ٢٢٨١.

(٦) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٣٨٠.

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى ... بدمع وإن أنزفته[1] فاسكبى الدما

وبكّى عظيم المشعريْن كليهما ... على الناس معروفا له ما تكلما

فلو كان مجدا يُخلدُ الدهر واحدا ... من الناس، أبقى مجده اليوم مطعما

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا ... عبيدك ما لبى مُهلّ وأحرما

فلو سئلت عنه معد بأسرها ... وقحطان أو باقى بقية جرهما

لقالوا هو الموفى بخُفرة[2] جاره ... وذمته يوما إذا ما تذمما[3]

فما تطلع الشمس المنيرة فوقهم ... على مثله فيهم أعز وأعظما

---

(١) أنزفته: أنفدته.

(٢) خفره جاره: عهد جاره.

(٣) تذمما: طلب الذمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة النحل الآية : ٩٧)



الفصل العاشر

خاتمة جهاد نبيل

عاد الهاشميون والطالبيون إلى مكة موفورى الكرامة ، رافعى الرأس ، ولم تستطع عشائر قريش وبطونها الأخرى ، على كثرتها ، أن تنال من كبريائهم ، ولا أن تحط من عزة نفوسهم ، وعادوا كراماً يهابهم ويعجب بهم أهل مكة ومَنْ حولها ، وازدادت قبائل العرب لهم احتراماً ومحبة ، وسكنوا من جديد بيوتهم تذود عنهم برد الشتاء القارس ، وتحميهم من حر الصيف اللافح ، ويستمتعون فيها بأحسن الأثاث والرياش ، وينعمون بأطيب الطعام وأشهى الشراب ، وأقبلوا على مزاولة ما انقطع من أعمالهم ، وما توقف من تجارتهم ورعاية أموالهم .

وعاد أبو طالب ، شيخ بنى هاشم ، إلى مكة موفور الكرامة ، شيخاً جليلاً تهابه كل بطون قريش ، وتحبه وتعجب به العرب قاطبة لينهض بجميع مناصب الرياسة التى كان يحملها على كتفيه كما كان يحملها قبل الدخول فى الشعب برغم ما عاناه طوال سنوات المحنة الثلاث من حرمان ، وما قاساه من شظف العيش مما أثر على صحته ، ونال من شيخوخته التى جاوز فيها الثمانين من عمره . عاد إلى «مكة» شاعراً بازدياد ارتفاع مكانته الأدبية ازدياداً حققته صلابته فى الحق ، ومحافظته على ما ورثه عن آبائه من المبادئ السامية التى تدعو إلى صلة الرحم ، ودفع الظلم ، والصبر على صراع الظالمين . عاد إلى «مكة» وقد زادته المعاناة إصراراً على حماية ابن أخيه «محمد» ، وإحاطته

إياه برعايته رعاية كاملة مهما تجشم فى سبيل ذلك حتى يضمن له حرية الدعوة إلى ما يرى أن فيه الخير للناس.

وباءت بالهزيمة بطون قريش المشركة وسفهاؤها على كثرتهم، وشعروا بمرارة الخيبة لأنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من «بنى هاشم» ولا من «بنى المطلب»، ولم يتمكنوا من قتل «محمد» ولا من القضاء على دعوته، فتجرعوا غصة الفشل وذل الهزيمة، وعار الخزى أمام قبائل العرب قاطبة، وحال كبرياؤهم المكلوم بينهم وبين أن يعلموا أن أصنامهم وآلهتهم على كثرتها لم تجدهم نفعاً، ولم تستطع لهم عوناً، ولم تغن عنهم فتيلاً، وأن إله «محمد» هو الإله الحق، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، إنه على كل شىء قدير.

وعادت السيدة «خديجة» إلى بيتها، واستقرت بين أهلها ومحبيها، وعادت سيرتها الأولى، تحنو على البائس، وتعين المحتاج، وترعى أولادها، وتسهر ـ على الرغم من ضعفها وكبر سنها بعد أن جاوزت الرابعة والستين ـ على راحة زوجها وحبيبها «محمد» صلى الله عليه وسلم، تشاطره حلو الحياة من جديد، وتجاهد معه فى سبيل الله. وعادت معها ابنتها أم كلثوم وأختها الصغيرة فاطمة الزهراء، بعد أن طال حنينها إلى هذا البيت وإلى ذكريات الطفولة المرحة، واستعادتا الحياة الناعمة بعد الحياة الخشنة بين شعاب الجبال ورمال الصحراء، ومرارة الصبر على الجوع وندرة الغذاء(١).

وعاد المسلمون المحاصرون فى الشعب إلى «مكة» بعد أن كشف الله عنهم الغمة، وأحبط الله كيد المشركين بعد أن كاد يودى بحياتهم وحياة كل عزيز عليهم، فأيقنوا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن وعد الله حق، وأنه لا يضيع أجر المحسنين. عادوا وقد صهرتهم هذه المحنة القاسية، فأصبحوا

---

(١) كانت «زينب» عند زوجها، وكانت «رقية» مهاجرة الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها.

أصلب عوداً ، وأقدر على النهوض بالدعوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعاد «محمد» صلى الله عليه وسلم إلى «مكة» شاكراً الله على تأييده ، وقد زادته آلام هذه المحنة ، التى دامت ثلاث سنوات ، عزماً على عزمه ، وقوة استمدها من نصر الله له وللمؤمنين ، فأصبح لا يخشى للمشركين بأساً ، ولا يهاب لهم بطشاً ، واستمر فى السعى بين الناس يدعوهم جهاراً إلى ترك عبادة الأوثان وتكسيرها ، وإلى عبادة الله الواحد الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، آمراً بعمل الخير ، ناهياً عن المنكر ، داعياً إلى صلة الرحم ، ونشر المساواة والمحبة بين الناس ، ونبذ الظلم والاستعلاء . لقد كان يؤلمه أن يسرف مشركو قريش وسفهاؤهم فى عداوتهم وإيذائهم له وللمسلمين حتى كادوا أن يودوا بحياتهم ويقضوا عليهم لولا أن تداركتهم عناية الله ورحمته ؛ ولكن قلبه الكبير لم يكن يحمل للأرستقراطية المشركة كراهية ولا حقداً ، ونفسه الكريمة لم تكن تضمر لهم انتقاماً ولا كيداً ، ورحمته الواسعة كانت تحول بينه وبين أن يدعو عليهم ، فلم يطلب من الله أن ينزل عليهم غضبه وعقابه كما فعل بعض الأنبياء والرسل الذين غضبوا على قومهم فطلبوا من الله أن يذيقهم العذاب بما كانوا يصنعون ؛ ولكنه صلى الله عليه وسلم ، كان يعتصم بالصبر ، ويتحلى بالحلم والرأفة ، طامعاً أن يهدى الله قومه ، وأن يجعل من نسلهم من يؤمن بالله الواحد واليوم الآخر ، ويعمل على نشر الإسلام ؛ وكانت الرحمة والشفقة توحيان إليه أن يضرع إلى الله القوى العزيز بالدعاء قائلاً : **«اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون»** .

وما كادت «خديجة» تستقر فى بيتها حتى جاء البشير يزف إليها أن ابنتها «زينب» على وشك أن تضع مولودها الثانى ، بعد أن ظلت حوالى خمس سنوات من مولد ابنتها «أمامة بنت أبى العاص» وهى تضرع إلى الله الكريم أن يهبها مولوداً ثانياً تهنأ به ، ويسعد به أبوه . وكانت أم المؤمنين «خديجة» تشعر

بعدم الاطمئنان طوال تلك المدة من الزمان، خشية أن يتزوج «أبو العاص» زوجة ثانية تنجب له ما كانت نفسه تتوق إليه من البنين والبنات؛ ولكنه كان يحب زوجته وابنته أمامة، وكان شديد الإخلاص لهما فبقى وفياً لزوجته. وهرعت «خديجة» إلى ابنتها، وكم كانت فرحتها حينما وضعت «زينب» غلاماً زكياً كان بيت «أبي العاص» يموج بالبشر والسرور لمقدمه، وكاد أبوه أن يطير من الفرحة حينما حمله بين ذراعيه وأسماه «عليا»، وابتهج الرسول صلى الله عليه وسلم بمولده، وشكر الله على ما أنعم به على كريمته «زينب»، وقد أحب المولود حباً كبيراً، وأردفه خلفه عند دخول مكة يوم الفتح الأعظم، وكان الصبى قد بلغ الحلم وناهز الحادية عشرة من عمره (١).

* * *

وانتشرت بين جميع القبائل العربية أخبار فشل «قريش» في حصار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله من «بني هاشم وبني المطلب»، وذاع نبأ عودتهم موفوري الكرامة إلى بيوتهم في مكة؛ وكان لذلك دوى كبير في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية كلها طوال الشهور الأولى من العام العاشر لمبعثه صلى الله عليه وسلم. ونشط الرسول الكريم، وأخذ في توسيع نطاق الدعوة فكان يعرض الإسلام على العرب الوافدين لموسم الحج، فيحدثهم عن مبادئه السامية، وعن الفضائل التي يدعو إليها، وعما ينهاهم عنه من المنكرات. وكان كبار أتباعه من المؤمنين يبذلون قصارى جهدهم في معاونته، ولم يستطع مشركو قريش أن يتصدوا لهم، ولم يقفوا أمامهم وجهاً لوجه، ولكنهم كانوا يركبون المطايا ويجدّون السير في مختلف الطرق المؤدية إلى «أم القرى» حيث يستقبلون القبائل الوافدة قبل وصولها إلى مكة، وينشطون في استقبال زعماء الحجاج فيتوددون إليهم، ويحذرونهم من الاستماع إلى «محمد» لأنه سوف يسحرهم بقوله، ويدعوهم إلى نبذ دين

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٨ ص ٢٠، وابن الأثير أسد الغابة جـ ٤ ترجمة علي بن أبي العاص برقم ٣٧٨٥ ص ١٢٥.

آبائهم، ونحن نسوق على سبيل المثال قصة إسلام «الطفيل بن عمرو الدوسى» التى توضح نوعاً جديداً من أنواع الكيد لرسول الله بعد خروجه منتصراً من شعب «أبى طالب» (١).

صدّر «ابن إسحق» روايته بقوله: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما يرى من قومه (٢)، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه. وجعلت «قريش»، حين منعه الله منهم، يُحَذِّرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب» (٣).

وكان «الطفيل» سيداً مطاعاً فى قبيلته بنى دوس، وكان شاعراً أديباً عالماً بتراث الأدب العربى، فلما اقترب من مكة هرع إليه رجال من قريش، ومازالوا يخوفونه من سحر «محمد» حتى عزم على ألاّ يسمح لنفسه بمقابلته، ووضع فى أذنيه قطعاً من القطن حتى لا يسمع منه ولا من أحد من أتباعه شيئاً إذا لقى أحدهم مصادفة. وذهب «الطفيل» إلى المسجد الحرام، وبينما كان يطوف حول الكعبة إذا به يمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى، وغلب عليه حب الاستطلاع فوقف قريباً منه، وأراد الله أن يسمع بعض ما كان يقرأ، فإذا به كلام حسن أعجبه، وفتح الله قلبه للإيمان برسوله فقال فى نفسه: «والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته». فلما أنتهى النبى صلى الله عليه وسلم من صلاته انصرف من المسجد الحرام، فاتبعه «الطفيل» عن كثب حتى دخل بيته، فضرب عليه الباب. ولما اطمأن به المقام بعد ترحيب الرسول أخبره عن تحذير قريش له من الاستماع إلى حديثه، وطلب منه أن يذكر له حقيقة هذا الدين الجديد.

---

(١) هذه القصة رواها الكثيرون وقد اعتمدنا على ابن إسحق: السيرة جـ ١ ص ٣٨٣ ــ ٣٨٥، وعلى ابن عبد البر: الدرر ص ٦٨، وعلى الصالحى: سبل الهدى والرشاد، جـ ٢، ص ٥٤٨ ــ ٥٥٠.

(٢) أى برغم ما كان يلاقيه من قومه.

(٣) المقصود أنهم يحذرون الناس منه.

وعرض عليه الرسول مبادئ الإسلام، وتلا عليه شيئاً من القرآن وقد رُوى أن «الطفيل» حدّث بذلك فقال: «فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه. ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعلى لىّ آية تكون لى عوناً عليهم فيا أدعوهم إليه. فقال: «**اللهم اجعل له آية**»(١).

وعاد «الطفيل» إلى قومه، وبدأ بدعوة زوجته وأبيه إلى الإسلام فهداهما الله إلى الاستجابة له وأسلما، ثم أخذ يدعو أهله من بنى دوس فأبطئوا فى الاستجابة إليه، فعاد غاضباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يدعو عليهم عقاباً لهم لامتناعهم عن الاستجابة لدين الله؛ ولكن الرسول كان بالناس رؤوفاً رحيماً، ولا يرجو لهم إلا الخير، فلم يستجب له، ولكنه دعا فقال: «**اللهم أهد دوساً**»، ثم قال له: «**ارجع إلى قومك فادعهم وأرفق بهم**». وعاد الطفيل إلى قومه يرفق بهم، ويدعوهم إلى الإيمان، ويصبر عليهم حتى آمن له الكثيرون، فذهب بهم إلى المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية إليها، فوجد أن الرسول ومن معه كانوا فى «غزوة خيبر» فلحق بهم، فلما نصر الله المؤمنين هناك على «يهود خيبر» أمر الرسول الكريم بمنحهم نصيباً مما غنم المسلمون فى هذه الغزوة.

* * *

وكانت الأخبار تصل إلى المهاجرين فى الحبشة مع التجار مشوهة وبها كثير من الزيف، فقد بلغهم، فى أوائل العام العاشر لنزول الوحى، أن قريشاً دخلت فى دين الإسلام؛ ففرح المهاجرون فرحاً عظيماً أنساهم أن يحتاطوا حتى لا يقعوا فيا وقع فيه بعضهم ممن رجع إلى مكة بعد الهجرة

---

(١) المراجع السابقة.

الأولى ، فأسرع بالعودة منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً ومعهم ثمانية من نسائهم ؛ ولكنهم ما كادوا يقتربون من بلدهم حتى علموا أن ما بلغهم من الأخبار كان باطلاً (١) ، فأسقط فى أيديهم . وكانت نفوس الوثنية القرشية قد ملئت غيظاً ؛ ولكنه كان غيظاً مكتوماً ، وكانت قلوبهم محنقة ولكنه كان حنقاً مدفوناً ؛ وكانت صدورهم تغلى بما تختزنه من كراهية « لمحمد » ومن اتبعه ؛ وما كاد ثمانية من المهاجرين يدخلون مكة حتى هجم عليهم شيوخ عشائرهم فقيدوهم ورموهم فى الحبس (٢) يذيقونهم سوء العذاب ؛ وكان من بين هؤلاء « سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومى » ، فقد أنهال عليه أبوه وأخوه « أبوجهل » يؤذيانه بعد أن كتفاه ورمياه فى غياهب السجن ، وهو صابر وراض بقضاء الله وقدره ، وظل كذلك بضع سنوات حتى استطاع أن يتسلل هارباً ومهاجراً إلى المدينة المنورة بعد « غزوة الخندق » (٣) . أما بقية العائدين من المهجر فإنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا إلى بيوتهم إلا بعد أن لجأ كل واحد منهم إلى حماية وجوار أحد رؤساء أو سادة الأرستقراطية القرشية .

وكان من بين الذين طلبوا الجوار « أبو سلمة المخزومى » فانه لم يجد بدًا من أن يلجأ إلى خاله « أبى طالب » يرجو أن يستظل هو وزوجته « أم سلمة » بحمايته ، واستجاب له الشيخ على الفور ، فاشتد غضب « بنى مخزوم » وذهب إليه وفد منهم ، فقالوا إن « أبا طالب » سبق أن أجار ابن أخيه ومنع قريشاً من الاعتداء عليه ، فكيف يجير أحد أفراد عشيرتهم وهم أحق به ، ولهم أن يفعلوا به ما يشاءون ؟ وكان « أبو طالب » حليماً ، فاستمع إليهم ، وأكرم وفادتهم ، ثم تكلم فأفحمهم بالمنطق السليم ، والحجة الواضحة ، فقد قال لهم إن « أبا سلمة » هو ابن أخته « برة بنت عبد المطلب » ، وقد استجار به ، والخال فى منزلة الوالد تماماً ، وإذا كان لا يحمى ابن أخته فهو لن يحمى ابن أخيه . وكان « أبو لهب » بين الحاضرين فى

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٣٦٤ ــ ٣٦٩ ، وابن عبد البر: الدرر، ص ٦١ ــ ٦٢ ، والنويرى : نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٦٢ ــ ٢٦٨ .

(٢) ابن سعد : الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ١٣٩ .

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة جـ ٢ ص ٤٣٥ ــ ٤٣٦ ترجمة أبوسلمة بن هشام برقم ١٨٩ .

المجلس ، فعزّ عليه لوم « بنى مخزوم » أخاه الأكبر « أبا طالب » وشعر بالنخوة الهاشمية تجرى فى ضلوعه ، فتملكه الغضب ، وهب محنقاً وهو يقول : « يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون توثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد (١) . وكانت قريش تخشى أن تغضب « أبا لهب » لأنه كان منضماً إليهم فى محاربة الإسلام ، فكان ينصرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتراجع على الفور « بنو مخزوم » وقالوا : « بل ننصرف عما تكره يا « أبا عتبة » (٢) » .

وأعتز « أبو طالب » بنصرة أخيه « أبى لهب » ووقوفه معه ، وطمع فى أن تستمر هذه النخوة مسيطرة عليه حتى يقوم معه فى حماية ابن أخيه ، فأنشد قصيدة يحرضه فيها على استمرار نصرته وحماية ابن أخيه نقتبس منها قوله : (٣) .

وإن امرأ « أبو عتيبة » عمه	لفى روضة ما إن يُسامُ المظالما
أقول له ، وأين منه نصيحتى	« أبا معتب » ثبت سوادك (٣) قائما
ولا تقبلن الدهر ما عشت حطة	تسب بها إما هبطت المواسما
وولّ سبيل العجز غيرك منهم	فإنك لم تخلق على العجز لازما

ولكن طمع « أبى طالب » فى أن يثوب أخوه « أبو لهب » عن اندفاعه وتهوره فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان طمعه فى ذلك يشبه طمع إبليس فى دخول الجنة ، فقد كانت نفس « أبى لهب » قد ملئت

---

(١) المعنى إنكم تثبون عليه كلما أراد حماية قومه ، فإذا لم تمتنعوا فسنقوم معه وننضم إليه .

(٢) ابن إسحق : السيرة ، جـ ١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ ، والنويرى : نهاية الأرب ، جـ ١٦ ص ٢٦٤ .

(٣) سوادك : نفسك .

كراهية وحقداً على ابن أخيه، فطالما حاربه وأعان مشركي قريش عليه، ولم يكن هناك مطمع في رجوعه عن غيه.

وكذلك لم يجد «عثمان بن مظعون» بداً من أن يطلب جوار عمه «الوليد ابن المغيرة» حتى يستطيع أن يدخل إلى بيته في مكة، فقد اشتطت العشائر القرشية في تعذيب من عاد إليهم من أبنائهم المهاجرين، وأنزلت بهم أذى شديداً، فمد عليه «الوليد» ظلال جواره، وعاش «عثمان» فترة لا يتعرض له أحد من سفهاء قريش؛ ولكن سرعان ما ساءه أن يعيش آمناً مطمئناً في ظل هذا الجوار، بينما كان زملاؤه العائدون مثله من الحبشة يقاسون الكثير من صنوف البلاء والعذاب؛ فأخذ يلوم نفسه على قبول الاحتماء بواحد من زعماء عبدة الأصنام، وأراد لهذه النفس أن تسمو فلا يكون لأحد غير الله — سبحانه — فضل عليها، ومما يؤثر عنه في ذلك قوله وهو يحاسب نفسه حساباً عسيراً «والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي» [1].

ومشى «عثمان بن مظعون» إلى عمه «الوليد بن المغيرة» فشكره ثم اعتذر عن عدم الاستمرار في كنف هذا الجوار الذي يحميه؛ ودهش «الوليد» وسأله قائلاً: «ولم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي!» ورد عليه «عثمان» رداً كله إيمان بالله، وكرامة نابعة من نفس «أبيّة» قائلاً: «لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره». فطلب منه عمه أن يعلن ذلك في «المسجد الحرام»، فانطلقا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: «هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جواري» قال «عثمان»: «صدق، وقد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره» وانصرفا.

---

(١) ابن إسحق: السيرة جـ ١، ص ٣٧٠ — ٣٧١، والنويري: نهاية الأرب، جـ ١٦ ص ٢٦٤.

وحدث أن كان الشاعر الكبير «لبيد بن أبى ربيعة» فى مجلس من مجالس قريش ينشدهم، فجلس معهم «عثمان»، فأخذ «لبيد» ينشد قصيدته اللامية المشهورة وبدأ بقوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال «عثمان» صدقت؛ واستمر «لبيد» فى إنشاده مكملاً لبيت الشعر فقال:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال «عثمان»: «كذبت، نعيم الجنة لا يزول».

فغضب «لبيد» وقال: «يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم؛ فمتى حدث هذا فيكم؟» فقال رجل من القوم: «إن هذا سفيه من سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تغضب منه» (١)، واشتد الجدال والخصام بين الرجل وبين «عثمان»، فلطم الرجل عين «عثمان» لطمة شديدة، فتغير لونها وأحمر وتكدر؛ وكان «ابن المغيرة» يقف قريباً منهم، وساءه أن يرى أحداً يعتدى على ابن أخيه، فدعاه أن يعود فيدخل ثانية فى حمايته حتى يمنع عنه الأذى مشيراً إلى ما أصاب إحدى عينيه؛ ولكن «عثمان» أعتذر فى لباقة عن العودة إلى هذه الحماية بأسلوب يظهر فيه الاعتراف بجميل عمه وذلك عند مخاطبته بكنيته «أبا عبد شمس» وهى عادة العرب عندما يعظمون أحد رجالهم، كما يظهر فيه قوة الإيمان بالله القادر على كل شيء والرغبة فى التضحية فى سبيله، فهو يقرر فى رده أنه يرحب أن تصاب العين الثانية فى سبيل الله، وأنه يعتز بحماية القوى العزيز، ومما يؤثر عنه فى ذلك قوله: «بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس» (٢).

---

(١) ابن إسحق: السيرة جـ١ ص ٣٧٠.

(٢) المرجعان السابقان، والنقل فيما حدث «لعثمان بن مظعون» عن «ابن إسحق».

لقد عاد المهاجرون وكانوا يظنون أن مكة سوف تفتح لهم ذراعيها، وتضمهم إلى صدرها، حتى تزيل عن نفوسهم آلام الحنين إلى الوطن، ووحشة الاغتراب، ولكن الأرستقراطية الوثنية عبست في وجوههم، وأبرزت لهم أنيابها؛ وعلى الرغم من كل ما حل بهم على أيدى أعداء الله فقد كانت قلوبهم عامرة بحب الله ورسوله، وكانت نفوسهم مطمئنة بنور الإيمان، وأصبحوا قريبين من نبى الله صلى الله عليه وسلم يمسح بحنانه وعطفه ما كانوا يقاسون، حتى تطمئن نفوسهم ويرضوا بقضاء الله وقدره، وهم ينتظرون بصبر وجلد نصر الله الذى لا يخلف وعده.

وكان فيمن عاد من المهاجرين «عبد الله بن جحش» ابن عمة الرسول الكريم، و«الزبير بن العوام» ابن أخى السيدة «خديجة»، و«عبد الرحمن بن عوف»، و«أبوعبيدة بن الجراح»، وكذلك عادت «رقية» بنت النبى صلى الله عليه وسلم مع زوجها «عثمان بن عفان»، وكانت تحمل معها أبنها «عبد الله» الذى رزقها الله إياه أثناء إقامتهم بالحبشة (١)؛ وقد سعدت برؤيته جدته أم المؤمنين «خديجة». كما سعدت به خالاته فقد عوضهن الفرح بمقدمها عما قاسينه من الألم لفراق «رقية» وغيابها عنهن.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتألم أشد الألم لما كان يعانيه المؤمنون العائدون من المهجر، وكان يدعو الله القوى العزيز أن يجعل لهم من أمرهم يسرا، ومن الظلم والجبروت نجاة ومخرجاً، واستمر فى دعائه لمن ظل منهم محبوساً ومعذباً إلى ما بعد الهجرة النبوية إلى يثرب وذلك عند القنوت فى الركعة من صلاة الصبح (٢).

* * *

وسارت الأمور على هذا النحو بضعة شهور أخرى فى بداية السنة العاشرة

---

(١) ترجمة رقية فى أسد الغابة برقم ٦٩٢١ جـ ٧، وكذلك فى الاستيعاب برقم ١٨٣٩ جـ ٤.
(٢) ترجمة سلمة بن هشام فى أسد الغابة برقم ٢١٨٩ ص ٤٣٥ ــ ٤٣٦ جـ ٢.

من نزول الوحى ، وكان النبى المجاهد لا يفتأ يدعو إلى الإسلام ، فيستجيب له من هداه الله إلى نوره من أهل « مكة » ويؤمن به بعض الوافدين على « مكة » فى المواسم ، وكانت الأرستقراطية الوثنية قد أصبحت عاجزة عن إيذاء من يسلم من أهل مكة ، وعن منع بعض الوافدين من رجال القبائل العربية من الإيمان بالله ورسوله ، فازداد شعورهم بالخيبة التى ظلوا يجترونها حوالى سبعة أشهر حتى هل شهر شعبان ، وكانوا ، أثناء ذلك ، لا يجدون متنفساً لحقدهم وكراهيتهم إلا فى الاشتداد على من عاد من المهجر من أهلهم وحلفائهم ومواليهم ؛ وكانوا يمنون أنفسهم بالانتظار والترقب لعل الفرصة أن تسنح لهم ثانية ، فيشفوا غليلهم فى « محمد » ومن اتبعه ، وظلوا كذلك وهم على أحر من الجمر ، حتى واتتهم الفرصة التى لم تكن فى الحسبان ، إذ فوجىء الجميع بمرض شيخ بنى هاشم بعد أن نالت السنوات العجاف التى عانى فيها « أبوطالب » الكثير من الحرمان ، وقاسى فيها الكثير من الجوع والمعيشة الخشنة بين شعاب مكة وصحاريها ، مما أنهك شيخوخته التى كانت قد جاوزت الثمانين من العمر ؛ وقد تجلد الشيخ وقاوم كل ما عاناه من ذلك بقوة وشجاعة قل أن يوجد لها نظير بين أمثاله ، ولكن المرض أخذ يزحف عليه ، والضعف أخذ ينال منه حتى أقعده فلزم الفراش .

فلما ثقل عليه المرض اجتمع زعماء الارستقراطية القرشية المشركه ، وأخذوا يعيدون دراسة الموقف من جديد ، فرأوا أن الإسلام كان قد فشا بين بطون قريش ، واعتز بانضمام لفيف من أعز فتيانهم من أمثال « أبى بكر وحمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب » وأن النجاشى أجار من هاجر إليه من المسلمين ، ورفض أن يعيدهم إلى قريش ، وقد بقى فى جواره حتى ذلك الوقت عدد كبير منهم ، وأن المقاطعة والحصار قد فشلا فى القضاء على « محمد » وعلى دينه . وبعد طول البحث والتفكير تغلب المعتدلون منهم فرأوا أن عليهم أن يجدوا ، فى تلك الحقبة التى تمر بهم ، وسيلة تضمن لهم أن يعيشوا فى أمان وسلام مع « محمد » ولو إلى حين ؛ ولذلك قرروا أن يبادروا بالذهاب إلى « أبى طالب » لعله يقبل من جديد أن يكون وسيطاً

بين الطرفين، واقترحوا أن يوفدوا لذلك نفراً من زعماء بطون قريش يعودونه في مرضه، ثم يطلبون منه أن يأخذ بينهم وبين ابن أخيه عهداً أن يكف عنهم، فلا يتعرض لهم ولا يذكر ما يعبدون بسوء، في مقابل أن يكفوا عنه وعن الذين اتبعوه فلا يتعرضون لهم ويتركونهم أحراراً في عبادتهم (١).

وذهب الوفد إلى «أبي طالب»، وعلى رأسه «عقبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة، وأبوجهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبوسفيان بن حرب» في رجال من أشرافهم، وقد روى ابن إسحق، عن ابن عباس، قولهم: «يا أبا طالب، إنك منا حيث علمت، وقد حضرك ما ترى (٢)، وتخوفنا عليك. وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا (٣)، وخذ لنا منه، لِيَكُفَّ عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه».

وما كان لنبى أن يعقد أتفاقاً أو صلحاً يقر فيه المشركين على ضلالهم، فيسكت على عبادة الأصنام والشرك بالله؛ ولا أن يكف عن الدعوة التى أناطه الله بها. إنه لا يريد منهم إلا الإيمان بالله الواحد، ولذلك فقد كان رده عليهم عندما جاء بعد استدعاء عمه له قوله إنه لا يطلب منهم إلا: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم». فقال أبوجهل: «نعم وأبيك وعشر كلمات» قال: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه».

وخاب رجاء المشركين أمام تمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم التخلى عن أداء رسالته، وإصراره على المضى فى الدعوة لدين الوحدانية فأسقط فى أيديهم، وجعلوا يصفقون وهم يقولون: «أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلَهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب» ثم قال بعضهم لبعض: «إنه والله

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٤١٧ ــ ٤١٨، والنويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٧٧ ــ ٢٨٧.
(٢) يشيرون بذلك للمرض الذى ألزمه الفراش.
(٣) أى خذ له منا عهداً.

ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه » ثم تفرقوا (١) .

ولما رأى « أبو طالب » إصرار زعماء قريش على أن يتخذوا منه وسيلة لإرغام ابن أخيه على أن يستجيب لهم ، ويذعن لما سبق أن أبدوه من قبل مراراً من رغبات ، منتهزين فى ذلك ما كان يعانيه من مرض ، دعا إليه « بنى عبد المطلب » بحضور ابن أخيه « محمد » . وخاطبهم بقوله : « لن تزالوا بخير ما سمعتم من « محمد » وما اتبعتم أمره ، فاتبعوه وأعينوه ترشدوا » (٢) ورأى الرسول الكريم أن « أبا طالب » بقوله هذا يأمر « بنى عبد المطلب » أن يؤمنوا به ويتبعوه ويطيعوه ، فطمع أن يؤمن بالله فقال له : « أتأمرهم بها (٣) وتدعها لنفسك ؟ » (٤) ؛ ولكن « أبا طالب » كان يخشى أن تظن « قريش » أنه لم يعط « محمداً » هذه الكلمة إلا خوفاً من الموت ؛ وأنه أبى أن يقولها عندما كان صحيحاً معافى ، فقال : « أما إنك لو سألتنى الكلمة وأنا صحيح لتابعتك على الذى تقول ، ولكننى أكره أن أجزع عند الموت ، فترى « قريش » أنى أخذتها جزعاً ورددتها فى صحتى » (٥) . وروى أنه أنشد فى هذا المعنى يقول :

والله لا وصلوا إليك بجمعهم — حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك لا عليك ملامة — وأبشر وقر بذاك منك عيونا

وعرضت ديناً لا محالة أنه — من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذارى سبة — لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا

---

(١) المرجعان السابقان .

(٢) ابن سعد : الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ٧٨ .

(٣) أى أتأمرهم أن يقولوا هذه الكلمة ، ولا ترضى أن تعلن إيمانك بها ؟ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) ابن سعد : الطبقات ، جـ ١ ص ٧٧ ــ ٧٨ : والجزع هو الخوف والوهن .

فانزل الله سبحانه فى «أبى طالب قوله:

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1]

فقد كان «أبوطالب» يدافع عن النبى صلى الله عليه وسلم وينهى الناس عن أن يؤذوه أو أن ينالوه بسوء، ويأمر «بنى عبد المطلب» أن يسمعوا له ويطيعوه؛ ولكنه كان يبتعد وينأى عما جاء به الرسول من عند الله الواحد الأحد [2].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب «أبا طالب» حباً عظيماً، ويعرف له وقوفه إلى جانبه، ودفاعه عنه، وحمايته له، ولذلك فإنه لم ييأس من أن يهديه الله للإيمان بدينه، وأن ينطق بالشهادة؛ فلما علم أن الموت قد تقارب منه جاءه ثانية، فوجد عنده اثنين من شياطين المشركين هما «عبد الله بن أبى أمية وأبا جهل بن هشام» وكانا من ألد أعداء الإسلام؛ واقترب منه النبى صلى الله عليه وسلم وقال: «**يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله!**» فبادر عدوا الله قائلين: «يا أبا طالب»، أترغب عن ملة «عبد المطلب؟»[3] ولم ييأس رسول الله فجعل يعرض عليه أن ينطق بالشهادة بالوحدانية المرة تلو المرة، ولكنهما كانا كل مرة يكرران تذكيره بدين آبائه وأجداده، حتى كانت آخر كلمة تكلم بها هى قوله: «أنا على ملة عبد المطلب» ثم مات بعد ذلك للنصف من شهر شعبان فى السنة العاشرة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم [4].

كان موت «أبى طالب» صدمة عنيفة أصابت النبى الوفى لأهله ولكل من قدم إليه معروفاً؛ فقد كان أكثر الناس حفاوة به وإكراماً له منذ طفولته عندما وصاه به جده «عبد المطلب»، إذ بادر بضم ابن أخيه إلى أولاده

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٦.

(٢) أبو الحسن النيسابورى: أسباب النزول، ص ١٣٢ ــ ١٣٣.

(٣) ابن سعد: المرجع السابق. والمقصود هو هل ترجع عن ملة عبد المطلب.

(٤) المرجع السابق ص ٧٩.

يقاسمهم السراء والضراء، وكان يحبه حباً شديداً، فكان لاينام إلا إلى جنبه، ويخرج خارج البيت فيخرج معه؛ ومازال كذلك حتى كبر وبلغ اثنتي عشرة سنة، ألف أثناءها صحبته؛ فلما أراد «أبوطالب» المسيرة إلى الشام للتجارة مع القافلة القرشية، قال له ابن أخيه: «أي عم، إلى من تخلفني ههنا، فمالي أم تكفلني، ولا أحد يؤويني؟» فرق له ثم أردفه خلفه»(١)، ورحلا معاً في القافلة حتى نزلا بجوار صومعة يتعبد فيها راهب يدعى «بحيرا» فما إن رأى هذا الغلام مع عمه حتى جعل يتفرس فيه ويلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى علامات في جسمه كان يعلم عنها من القراءة في كتبه المقدسة، فلما كشف على ظهره، ورأى خاتم النبوة بين كتفيه فقبله، أخذ يوصي عمه به، ويحذره من غدر اليهود، فإن الله قد اختاره ليكون نبي هذه الأمة، وأراد الله أن يكون هذا النبي من العرب، واليهود يريدون أن تكون النبوة مقصورة على بني إسرائيل، ولذلك فسوف يحسدونه، ولن يتورعوا عن القضاء عليه إذا سنحت لهم الفرصة ووجدوا إلى قتله سبيلاً. ثم شب ابن أخيه في كنفه، فكان أحب الناس إليه، يفضله ويقدمه على أولاده، ويحوطه بعطفه ورعايته، ويعنى بتنشئته حتى كبر وأصبح رجلاً، «أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى»(٢).

وتحققت نبوءة الراهب «بحيرا»، ونزل جبريل على رسول الله عندما بلغ الأربعين، فأخبره أن الله اصطفاه وأرسله نبياً شاهدا ومبشرا ونذيرا إلى قومه وإلى الناس كافة، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وإلى الأخلاق الفاضلة، وينهاهم عن كل فاحشة، فأبى زعماء الأرستقراطية الوثنية أن يصدّقوه، ورفضوا أن يتركوا الشرك بالله فجعلوا الأوثان له أنداداً وشركاء، وحاربوه حرباً عنيفة شرسة؛ ولكن «أبا طالب» وقف في وجه شياطينهم

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٩٩.
(٢) المرجع السابق ص ٧٦ ــ ٧٧.

يذود عنه، ونشر عليه مظلة من حمايته، فلم يستطيعوا أن يحولوا بينه وبين رسالته برغم ما قاسى هو والذين آمنوا معه من عناء وتعذيب إلى أن كانت المقاطعة الظالمة والحصار اللعين فدخل معه «أبوطالب» ثلاثة أعوام فى الشعب، قاسى فيها شظف العيش، حتى أذن الله لنبيه بالنصر، فخرج «أبوطالب» وابن أخيه وأنصارهما موفورى الكرامة، وأصبحت لهم بين القبائل الكفة الراجحة، وأصاب المشركين الخزى والهزيمة.

فلما مات «أبو طالب» تنفس المشركون الصعداء، لأن هذا الشيخ كان وحده القادر على أن يجمع حوله «بنى هاشم وبنى المطلب» الذين كانوا يأتمرون بأمره، ويتبعونه دون جدال أو مناقشة، كما كان متصلاً بالنسب مع عشائر قريش الأخرى وبخاصة مع باقى بطون «عبد مناف» فكانت قريش كلها تحترمه وتهابه، ولذلك نجح فى تكوين جبهة صلبة وقفت بجواره تذود معه عن ابن أخيه، وأفلح فى تعضيده ونصرته حتى انتصر فى معركة المقاطعة على شدتها، وذاق المشركون أمام صبره وكفاحه مرارة الهزيمة الشنيعة؛ ولكن موته المفاجئ بعد هذا النصر قلب الموقف رأساً على عقب، فتغير ميزان القوى بين الفريقين، ورجحت كفة المشركين، وشعروا بالقوة وغلبة الكثرة بعد الضعف، واسترجعوا كبرياءهم، وتطلع شياطينهم مرة أخرى إلى القضاء على «محمد» رغبة منهم فى اجتثاث دعوته من جذورها حتى ينصروا أوثانهم ويسترجعوا ما فقدوه من كرامتهم، وأخذوا يتحينون لذلك الفرصة المواتية للانقضاض عليه.

ولما توفى «أبو طالب»، ذهب «على»، كرم الله وجهه، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبلغه الخبر فحزن الرسول الوفى حزناً شديداً، وقال «لعلى»: «**أذهب وغسله وداره، غفر الله له ورحمه**» وغلب عليه الحزن فقال إنه سوف يستغفر له ربه ما لم ينهه الله عن ذلك [1]. واعتكف فى منزله يستغفر الله له ويبكيه.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، القسم الأول جـ ١ ص ٧٨.

ولسنا نشك أن «أم المؤمنين خديجة» كانت تشارك نبى الله صلى الله عليه وسلم حزنه العميق، وألمه الدفين، فقد كانت تحترم «أبا طالب» وتعز احترام ومعزة المرأة الوفية أباها الذى بسط عليها وعلى زوجها وأولادها حمايته، ورعاهم كما كان يرعى أولاده من صلبه، وضحى بتجارته وراحته حين دخل معهم فى الشعب محافظة على ابن أخيه، وكانت تقدر المخاطر التى سوف يتعرض لها زوجها وحبيبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الكارثة المفاجئة؛ ولكنا لا نشك كذلك فى أنها قابلت هذا الخطب الجلل بثبات يندر أن تجد له مثيلاً، وإيمان صادق بقدرة الله القوى العزيز الذى بعث زوجها بالهدى ودين الحق، وأنه سبحانه لن يتخلى عنه، وأنه سوف يحميه من كيد المشركين مهما عظم مكرهم.

وخرج رسول الله صلـــى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام بعد وفاة أبى طالب بثلاثة أيام، وظن شياطين المشركين أن الفرصة التى كانوا يترقبونها للقضاء عليه قد واتتهم، فقد أخرج «الترمذى الحكيم» فى «نوادر الأصول» عن «على بن أبى طالب»، كرم الله وجهه[1]: أنهم هجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحاطوا به من كل جانب، وأخذوا يعتدون عليه ويتجاذبونه بينهم: فكان هذا يدفعه إلى الأمام بعنف، وذا يجذبه إليه بشدة، وهذا يهزه بقوة، وذا يكيل له ضربات قوية فى صدره، والنبى صلى الله عليه وسلم يستغيث بالله، فأغاثه القوى العزيز «بأبى بكر» الذى هرع إليه، وأخذ يدفع هذا فيبعده عنه، ويشد ذا حتى دخل بينهم ووصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحال بينه وبينهم وهو يصيح فيهم بأعلى صوته: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله، والله إنه لرسول الله» فانهال شياطين قريش على «أبى بكر» ضرباً وركلاً ولوياً وشداً من شعره بعنف شديد حتى قطعت إحدى ضفيرتيه.

لقد بلغ شياطين المشركين فى النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٠٧.

مبلغاً لم تكن تطمع قريش بمثله فى حياة عمه «أبى طالب»، ولم يتوقفوا عند هذا الحد ولكنهم كانوا يطمعون فى المزيد، فتجرأوا عليه، حتى إن أحد سفهاء فتيانهم اعترضه فى طريقه، ونثر على رأسه التراب؛ واحتمل النبى صلى الله عليه وسلم صابراً، وعاد إلى بيته، ورأته زوجته المخلصة وبناته، فهالهن الأمر، وهرعت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، فشملها الرسول الكريم بحنانه، وضرب مثلاً عالياً فى تحمل كل مايعترض الإنسان مهما عظم فى سبيل أداء واجبه والوصول إلى المثل العليا التى جاء بها الإسلام، فأخذ يهدىء من روع فتاته، ويقوى من احتمال كل من كان موجوداً فى بيته وهو يقول: «**لاتبكى يا بنيّة فإن الله مانع أباك**». وكان فى تلك الفترة كثيراً مايذكر عمه «أبا طالب» ويثنى عليه وهو يقول: «**مانالت قريش منى شيئاً أكرهه حتى مات «أبوطالب»**» (١)؛ وظل يستغفر له؛ واقتدى به المسلمون فأخذوا يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون حتى أنزل الله تعالى قوله:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (٢)

وأنزل الله فى «أبو طالب» قوله:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (٣)

وكانت تلك الاعتداءات التى أخذت تترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت عمه «أبى طالب» قد أفزعت أم المؤمنين «خديجة»، وحزت فى نفسها؛ ولكنها استجمعت كل ما استطاعت أن تستجمعه مما

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٤١٦، والطبرى: التاريخ جـ٢ ص ٣٤٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٣، وانظر أبا الحسن النيسابورى أسباب النزول ص ١٥٠ — ١٥١، والبخارى جـ٧ الحديث رقم ٤٠٥٥ ص ٢٤٣، وابن سعد: الطبقات القسم الأول جـ١، ص ٧٨.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٦، وانظر البخارى: جـ٧ الحديث رقم ٤١٣٣ ص ٣٦٢ — ٣٦٣.

بقى لها من الشجاعة، فتجلدت أمام زوجها وبناتها، واستقبلت زوجها الحبيب كما اعتادت أن تستقبله من قبل: حفية به ومواسية له فى هذه الشدة التى نزلت به، ومذكرة إياه أن الله لن يخلف وعده، وأنه سوف ينصر نبيه؛ ولكن لابد لنا أن نذكر أنها كانت قد بذلت، منذ أن كانت فى الثانية والستين من عمرها، أقصى ما تستطيع للتخفيف عن جميع المحاصرين فى شعب «أبى طالب»، وفى السهر على راحتهم، على الرغم مما كانت تقاسيه على مدى تلك السنوات الثلاث من شظف العيش أثناء الحصار، وقسوة الجوع، ومرارة الحرمان حتى استنفدت أكثر ما كانت تملك من طاقة على الصبر، وقوة على احتمال المكاره، وكان موت «أبى طالب» صدمة عنيفة أصابتها فى الصميم، فأصبح جسمها، بعد أن قاربت الخامسة والستين من عمرها ضعيفاً لا يقوى على حمل هذه النكبات التى أخذ يتلو بعضها بعضاً، فبدأ المرض يتسلل إليها، والضعف يتمكن منها يوماً بعد يوم، وأخذت تذوى كشجرة الورد التى أصاب المرض جذورها، فأخذ يجف عودها رويداً رويداً، وأخذت أوراقها تذبل ثم تتناثر ورقة فى إثر ورقة، حتى أقعدها المرض فلزمت الفراش.

لقد عاشت «أم المؤمنين خديجة» فى كنف زوجها الحبيب قرابة خمساً وعشرين سنة، بادلته فيها حباً بحب، وإخلاصاً بإخلاص، ووفاء بوفاء، ونهلت بجواره من السعادة الصافية التى لم تشركها فيها امرأة أخرى، ولم تذق مثلها من قبل امرأة غيرها من نساء قريش، فسعدت بفجر الإسلام وقد أخذ يشرق عليها وعلى الكون معها، وعاشت يغمرها نور النبوة، وأسهمت فى نشر الرسالة السماوية العظمى بعقلها الراجح، وفكرها الصائب، ونظرها الثاقب، ولم تبخل برأى، ولم تدخر جهداً، ولم تقصر يوماً، ولم تبخل بمال، وسعدت إذ رأت خيار الناس يدخلون فى دين الله، ورأت عددهم يزداد يوماً بعد يوم، ثم حزنت حين رأت المشركين يُغالون فى الكيد للنبى وأنصاره، ويشتطون فى الطغيان، ويتمادون فى العداوة، ويسرفون فى التنكيل بالمستضعفين، ولكنها صمدت بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم فقابلت غلظتهم بالصبر

والإيمان، حتى أذن الله بالنصر وخذل عبدة الأوثان، فباءوا عندما فشل الحصار بالخزى والخذلان؛ وكان كل أملها أن يطيل الله في أجلها حتى تتم سعادتها برؤية نور الإسلام يعم آفاق «مكة»، ثم يمتد منها حتى يضيء جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية؛ ولكن ها هي ذى تلزم الفراش منهوكة القوى، عاجزة عن مغالبة الضعف والمرض.

وكان النبي الوفي طوال هذه الفترة من حياة «أم المؤمنين خديجة»، يحيطها برعايته، ويشملها بعطفه، باذلاً أقصى ما يستطيع محاولاً تقوية عزيمتها حتى تقاوم الداء الذى ألم بها مقاومتها لكثير من الخطوب والأهوال التى نزلت بها من قبل، داعياً ومبتهلاً إلى المولى القوى الرحيم أن يشملها بكرمه وعنايته فيمُنَّ عليها بالشفاء، ولكن إرادة الله الحكيم، وقضاء الله العزيز، كانا قد جريا بغير ذلك، فلم تلبث أن أخذت تحتضر فوق فراشها ثلاثة أيام لم يفارق فيها سريرها.

وكان بناتها يلازمن فراشها، ساهرات على راحتها كما كانت تسهر من قبل على راحتهن، وكن يبذلن كل ما يستطعن فى خدمتها، وكلهن رجاء وتضرع إلى الله أن يلطف بها، وأن يشفيها بفضله وكرمه؛ ولكنهن كن يتذرعن بالصبر، ويتجلدن أمامها، فلا تراهن إلا مبتسمات والأمل بادٍ على وجوههن، حتى حم القضاء، وغلبت إرادة رب الأرض والسماء، ففاضت روحها الكريمة، وانتقلت إلى جوار الواحد الأحد الذى آمنت به وهى راضية مرضية فى اليوم العاشر من شهر رمضان فى العام العاشر من بداية إشراق فجر الإسلام بعد موت «أبى طالب» بشهر وخمسة أيام (١)، فينهمر دمع خاتم الأنبياء والمرسلين، وتسيل دموع أكرم البنات، وتحزن معهم جميعاً أطهر القلوب، ولكنهم لا يقولون ما يغضب رب العالمين. ثم يحملها المؤمنون إلى أرض الحجون حيث يضجعها الرسول الوفى فى قبرها، ويعود صامتاً حزيناً.

---

(١) متفق عليه فى أكثر الروايات، وانظر ابن سعد : الطبقات، القسم الأول، جـ ١ ص ١٤١.

لقد توالت على رسول الله كارثتان إحداهما فى إثر الأخرى، فمنذ شهر وخمسة أيام اختطف الموت الرجل الذى كان يحوطه برعايته، فكان يغدو ويروح حيثما أراد وهو يدعو إلى الله خارج المنزل مستظلاً بحمايته، فأصبح لا ناصر له إلا الله، وها هو ذا يفقد المرأة المخلصة والزوجة المحبة، فانطفأ السراج الذى كان يضىء أرجاء البيت ويهدى بنوره فى أحلك الظلمات، وينشر بين أهل بيته الرضا والمحبة، ثم تمتد تلك المشاعر النبيلة التى تشمل الأهل والأقارب وكل المؤمنين. لقد فقد فى هذه الفترة الوجيزة الرجل الذى كان يتنقل كيفا شاء فى ظل حمايته ليؤدى رسالة ربه بين أهل «مكة» ومن يفد عليها من رجالات القبائل العربية، ثم فقد المرأة التى كانت أول من آمن به، وأول من هون عليه الخطوب، وشد من عزيمته عند الكروب. لقد فقد الرجل الذى آواه صغيراً، وعطف عليه وحماه كبيراً، ثم فقد الزوجة التى كان يسكن إليها إذا آوى إلى بيته، ويشعر بجوارها بدفء الحب، وحنان الزوجة. عاد إلى بيته فشعر بالفراغ الكبير الذى تركته، وأحس بالوحشة بدلاً مما كان يجده هناك من الأنس والترحاب، وهكذا نزل به عام الحزن؛ ولكن قلب نبى الله كان مملوءاً بنور الإيمان، عامراً بالصبر على ما نزل به من البلاء والامتحان، فأخذ يشكر المولى عز وجل، ويأخذ نفسه بالرضا بقضائه وقدره، ولزم بيته وأقلّ من الخروج (١).

وفى وصف ما نزل برسول الله فى عام الحزن، قال ابن إسحق: «ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها؛ وبهلك عمه أبى طالب، وكان له عضداً وحرزاً فى أمره، ومنعة وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين» (٢).

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ ١ ص ١٤١.
(٢) ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٤١٦.

وكانت فرحة الأرستقراطية الوثنية لا تعدلها فرحة ؛ وكانت شماتة سفهائهم لا تعدلها شماتة ، فقد توفيت «خديجة بنت خويلد سيد بنى أسد بن عبد العزى شقيق عبدمناف» ، وكان لها بين أهلها منزلة لا تعدلها منزلة ، وكانت بهم حفية ولهم كريمة ، وكانوا لها سنداً عند الشدائد ، وعوناً فى الملمات ؛ وكانت «لمحمد» قرة عين ، ووزير صدق ، وكانت لأولاده أما رءوماً ، وكانت لمن أسلم مع «محمد» عوناً وملجأ كريماً ؛ ولم يمنع هذه الأرستقراطية الوثنية ومَن تبعها من السفهاء حياء ولا خجل أن تعلن فرحها وشماتتها ، وأن تظهر بهذا المظهر غير الكريم الذى تأباه النفوس الأبية ؛ كما تأباه الطباع الكريمة السامية ، فالموت على رؤوس العباد كأس يشرب منه الجميع الكبير منهم والصغير ، وأمام كارثته تنحنى كل الجباه ؛ ولكنه الخيلاء والتعصب للوثنية الذى ملك عليهم نفوسهم ، والكبرياء والأرستقراطية التى أفقدتهم وعيهم ، والكراهية التى كانت تنطوى عليها أفئدتهم وقلوبهم لهذا النبى الكريم الذى أرسله الله هدى ورحمة ليهديهم إلى الصراط المستقيم ، تجمعت كل هذه العوامل حتى أفقدتهم ما تبقى لهم من صواب بعد الحرب التى شنوها عليه طوال عشر سنوات ، فأخذوا جميعاً يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم ويسرفون فى الكيد له .

وكان عمه «أبو لهب» أحد أفراد هذه الأرستقراطية المسرفة فى عداوتها ، فقد كان بين المستهزئين بنبى الله صلى الله عليه وسلم طوال السنوات الثلاث التى كان يدعو فيها سراً لدين الوحدانية ، وكان من أكثرهم تعرضاً له ووقوفاً فى وجهه ، وصداً للناس عن الدخول فيما كان يدعو إليه طوال السنوات السبع التى مضت منذ جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة لنبذ عبادة الأوثان ، وكان يمنع الناس من الإقبال على عبادة الله الواحد الديان ؛ فلما استعاد عبدة الأصنام ما فقدوه من هيبتهم ، وأوغل سفهاؤهم فى الاستهانة برسول الله والاجتراء عليه ، وأخذت اعتداءاتهم تترى عليه بعضها فى إثر بعض ؛ أدرك «أبولهب» فجأة أن عزة «بنى هاشم وبنى المطلب» باتت معلقة فى الميزان ؛ وأنهم على وشك أن يفقدوا المكانة السامية

التي كانت العرب ترفعهم إليها، والتي سما بها «عبد المطلب»، وحافظ عليها «أبوطالب» فبقيت شامخة مهيبة؛ كما أحس أن كرامته هو وأولاده باتت أيضاً معلقة في الميزان، فقد أصبح أكبر من بقي على قيد الحياة من أولاد «عبد المطلب»، وكان يطمع أن يلتف حوله «بنو هاشم وبنو المطلب»، حتى ينال المركز المرموق الذي كان يشغله من قبل «أبوطالب»، فتكون له المكانة السامية التي لا تعدلها مكانة في قريش: ولذلك رأى أن يضع نفسه في الموضع الذي كان أخوه يضع نفسه فيه، وأن ينهض به في حماية ابن أخيه فيكتسب بذلك احترام ومحبة «بني هاشم وبني المطلب» ويصبح سيدهم وزعيمهم دون منازع، فجاء إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبره أنه يجيره ويحميه بحياته ويصونه بنفسه، وأن له أن يذهب أنى شاء ويقول كل ما يريد، ومما يؤثر عنه أنه قال في هذه المناسبة: «يا محمد، أمض لما أردت، وما كنت صانعاً إذا كان «أبوطالب» حياً فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت» (1).

وحدث أن تصدى ابن الغيْطلة، وهو أحد سفهاء قريش، للنبي صلى الله عليه وسلم، وسبه دون حياء أو خجل، فغضب «أبولهب» أو تظاهر بالغضب، وانهال عليه يؤذيه حتى نال منه، فولى ابن الغيطلة هارباً وهو يصيح: «يا معشر قريش، صبأ أبوعتبة!» (2) فذعرت الأرستقراطية القرشية لهذه النائبة المفاجئة التي نزلت بهم، فقد كانوا يعتمدون على «أبي لهب» في التفريق بين جماعة «بني هاشم وبني المطلب» حتى يكسر شوكتهم، ويوهن من عزيمتهم في مناصرة «محمد»، وقد اكتسبوه من قبل إلى صفوفهم بمعسول القول وبشيء من المداهنة والتعظيم المصطنع حتى انحاز إليهم، وأصبح واحداً منهم، وترك قومه وعشيرته؛ وكان فوق ذلك ذا مال وبنين فكانوا يرجون استمرار عونه حتى يتم لهم النصر على «محمد»، ولذلك أقبلوا عليه

---

(1) ابن سعد الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ١٤١، ونهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠.

(2) أبو عتبة هي كنية «أبي لهب»، والمقصود أنه كفر بعبادة الأصنام.

مذعورين، وسألوه جلية الخبر فقال: «ما فارقت دين «عبد المطلب»؛ ولكنى أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى لما يريد»(١).

وتنفس المشركون الصعداء، وذهبت لهفتهم، فقد كانوا يخشون أن يعلن «أبو لهب» أنه دخل فى دين «محمد» فتقوى من جديد عزيمة «بنى هاشم وبنى المطلب»، ولذلك اطمأنت خواطرهم، وعلموا أنه اعترته نزعة طارئة لاتلبث أن تزول، فقد كانوا أعلم منه بحقيقة نفسه، ومبلغ صموده، ويعرفون أنه كالطبل الأجوف يُسمع له دوى إذا ما لُمس، وسرعان ما يُبطل نفعه، ويخفت صوته إذا عولج بالحيلة، ولذلك فقد رأوا أن يُظهروا له غير مايُبطنون، وأن يستثيروا فيه نزعة الخيلاء والعظمة، فأثنوا على صنيعه، ومدحوا حمايته لابن أخيه فقالوا: «قد أحسنت ووصلت الرحم»(٢) وتظاهروا بالابتعاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكث بضعة أيام يخرج من بيته، ويذهب أنى شاء، ويقول ما يريد ثم يعود فلا يعترض له أحد من قريش.

ولم تدم هذه الحماية طويلاً فقد رأى دهاة المشركين أن يحتالوا حتى يبعدوا «أبا لهب» عن حماية ابن أخيه فيعود كما كان إلى صفوفهم، ولذلك أحكموا التدبير، فذهب «عقبة بن أبى معيط وأبوجهل بن هشام» فقالا له إن «محمداً» يزعم أن هناك حياة أخرى يلقى الناس فيها جزاء ما قدموا فى هذه الدنيا؛ فمن آمن به يكون جزاؤه الجنة خالداً فيها، ومن لم يصدق برسالته يساق إلى جهنم حيث يصلى ناراً ذات سعير فهل أنبأك ابن أخيك أين مقام أبيك عبد المطلب، أهو الآن فى الجنة أم فى النار؟ وانطلت الحيلة على «أبى لهب» فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك؛ فرأى الرسول بسامى حكمته أن لا يجرح كبرياء عمه، وأن يحتاط فى

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ ١ ص ١٤١، والنويرى: نهاية الأرب المرجع السابق.

(٢) المرجعان السابقان.

الرد عليه، فقال له، وقوله الصدق: «هو مع قومه». فخرج «أبولهب» من عنده راضياً مرضياً، وذهب إلى هذين الشيطانين وقال لهما معتزاً، إنه سأل ابن أخيه فأخبره أن أباه «عبدالمطلب» مع قومه؛ فلما اشتما أنه راض عن هذه الإجابة، أخذا يشككانه في الأمر، ويظهران له السخرية والشماتة، قائلين له إن معنى ما ذكره لك «محمد» هو أن قوم «أبي طالب» في النار، وأنه معهم في العذاب المهين، فغضب «أبولهب» عندما أدرك ذلك وعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا محمد، أيدخل عبدالمطلب النار؟ أوتجلى صدق الرسول بأوسع معانيه، فما كان له أن يقول غير الحق مهما كانت النتائج، فقال لعمه وهو مطمئن النفس: «نعم، ومن مات على ما مات عليه «عبدالمطلب» دخل النار»[1]، فاشتد غضب «أبي لهب»، وظهر ما كان يخفيه في قرارة نفسه من كراهية قديمة وحقد دفين لنبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: «والله ما برحت لك عدواً أبداً وأنت تزعم أن «عبدالمطلب» في النار»[2]، وخرج «أبولهب» مغيظاً محنقاً، وعاد سيرته الأولى.

عاد «أبو لهب» يعترض سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتد عليه هو وسائر قريش، يتصدون له مستهزئين، ويرمونه بالسباب وفاحش القول، ويؤذونه في نفسه وفي القلة التي بقيت بمكة ممن اتبع النور الذي أُنزل إليه[3]، وكان هؤلاء لا يستطيعون أن يقفوا في وجه الأكثرية الباغية من مشركي قريش مع تفرق كلمة «بني هاشم وبني المطلب»، وافتقارهم إلى زعيم قوي مهاب يستطيع بحكمته أن يعيد جمع صفوفهم وتوحيد كلمتهم حتى يدفع بهم العدوان الغاشم المستبد، ولذلك فقد أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن البيئة الأرستقراطية القرشية، بصلفها وكبريائها، وخيلائها وتفانيها في

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ١، ص ١٤١؛ والنويري: نهاية الأرب، جـ١٦، ص ٢٨٠.
(٢) المرجعان السابقان.
(٣) متفق عليه، وانظر المرجعان السابقان.

جمع المال، لم تعد صالحة لتنمو فيها عبادة الله الواحد الأحد، ولا يمكن أن تنتشر منها ما كانت تدعو إليه هذه الديانة من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ودعوة إلى الخير والحق والمساواة بين الناس، فقد كانت هذه الأرستقراطية تحرص على أن تبقى القبائل العربية كلها محافظة على الطقوس والتقاليد التى ابتدعتها قريش لعبادة الأوثان التى امتلأ بها المسجد العتيق حتى تضْمَن بذلك احترام العرب جميعا لرياستهم الدينية، وتنال من وراء ذلك الخير والرزق الوفير الذى يرد على مكة مع القبائل فى المواسم، ويؤكد احترام سكان شبه الجزيرة العربية لقوافلهم التجارية التى كانت لا تنقطع فى غدواتها وروحاتها مخترقة بلاد العرب من أدناها إلى أقصاها وهى تحمل نفائس الصين والهند وفارس وغيرها من بلاد المشرق، وعائدة بما غلا ثمنه وخف حمله مما كانت تنتج دول أوربا وغيرها من بلاد المغرب؛ ولم تستطع هذه الأرستقراطية الوثنية أن تدرك أو أن تتصور ما سوف ينالهم من الخير مما بشرهم به نبى الله صلى الله عليه وسلم إذا هم آمنوا بالله ورسوله وعملوا على نشر دين الوحدانية، فعندئذ تخضع لهم كافة شعوب الأرض، وتفد عليهم الخيرات من كل مكان. إنهم لم يكونوا يحفلون بالدين لأنفسهم، وإنما كان الدين بالنسبة لهم تجارة يكتسبون من ورائها الغنى الفاحش، ولذلك آثروا الشراء العاجل وما كان يجلبه لهم من نعيم وترف، على اتباع دين يمنعهم من الاستعلاء والأرستقراطية، ومن التمتع بكثير من المتع والملذات التى كانوا يستحلونها لأنفسهم مما تزخر به هذه الحياة التى لا يؤمنون أن بعدها حياة أخرى فيها حساب وثواب، أو قصاص وعقاب.

أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عليه أن يبحث عن بيئة أخرى تصلح لاستقبال هذا الدين والإيمان به، وتعمل على نشره بين الناس، ولذلك رأى أن يخرج إلى بعض القبائل فى منازلهم حتى تتاح له الفرصة لدعوتهم بعيدا عن بيئة الأرستقراطية الوثنية التى كان جوها مملوءا بالحقد والكراهية لدين الوحدانية ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أن عزم على الالتجاء إلى قبيلة بنى ثقيف بالطائف، وكانت من أكبر قبائل العرب

وأكثرها نفوذا فى شبه الجزيرة العربية بعد قريش إذ كانت عزيزة بزراعتها وثمار بساتينها وتجارتها ، وكان بينها وبين قريش صلات نسب ورحم مما جعله يأمل فى استجابتهم له .

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف[1] ومعه «زيد بن حارثة» فى أواخر شهر شوال من السنة العاشرة من مبعثه وهو الشهر التالى للشهر الذى توفيت فيه «أم المؤمنين خديجة» ؛ وفى الطائف كلّم سادات بنى ثقيف وأشرافهم عن مبادئ الإسلام ، وأخذ يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ويدعوهم لتقوى الله ، وإلى العدل والمساواة بين الناس ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والبغى [2] وعن وأد البنات [3] والسرقة والزنا . ومكث بينهم عشرة أيام يلتمس منهم النصرة لدين الله ولم يدَع أحدا من كبارهم إلا كلمه ؛ فكذبوه ، وأغلظوا له فى القول ، واستهزأوا به كما استهزأ به بعض مشركى أهل مكة من قبل ، وقال له أحد زعماء «ثقيف» : «أعجز الله أن يرسل غيرك ؟» وهو قول يشبه ما قاله بعض زعماء قريش ، وذكر الله سبحانه وتعالى قولهم فى كتابه العزيز:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [4]

---

(١) خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف مروى فى أهم كتب السيرة وكتب طبقات الصحابة . انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٤٢ ــ ١٤٣ ؛ وابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٤١٩ ــ ٤٢١ ، والطبرى التاريخ جـ ٢ ص ٣٤٤ ــ ٣٤٨ ؛ ونهاية الأرب .

(٢) البغى : الظلم والاعتداء والسعى بالفساد بين الناس .

(٣) وأد البنات : قتلهن بدفنهن أحياء .

(٤) سورة الزخرف : الآيات ٣٠ ــ ٣١ .

ثم أمروه أن يغادر بلدهم ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ، ويصيحون به ، ويرشقونه بالحجارة ؛ فكان يوما عصيبا انهالت فيه الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سال الدم من رجليه ؛ وكان «زيد ابن حارثة» يبذل أقصى ما يستطيع لحمايته ، فكان يقيه بجسمه ، وكانت الحجارة تنهال عليه حتى شُجّت رأس «زيد» شجا كبيرا .

وأشتد الكرب ، وبذل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو «وزيد» أقصى ما استطاعا من الجهود حتى خلصا من مهاجميهما ، فلجآ إلى بستان ، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يناجى ربه ، ويبتهل إليه قائلا :

«اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى (١) أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ؛ ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» (٢)

وقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عائدا إلى مكة محزونا وهو يسير على قدميه الجريحتين مسافة مائة وعشرين ميلا والدم يسيل من كعبيه المصابين ، وكان أشد ما يؤلمه أنه لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة واحدة بعد هذه الرحلة المضنية التى واجه فيها أصعب وأشق ما واجهه من متاعب حتى أنه وصف ذلك لعائشة أم المؤمنين حين سألته يوما : «هل أتى عليك يوم أشد من يوم أُحد ؟» فرد عليها صلى الله عليه وسلم بقوله : «لقيت من قومى ما كان أشد» ثم استطرد فقال : «كان أشد ما لقيتُ منهم يوم ثقيف» (٣) .

---

(١) يتجهمنى : يستقبلنى بوجه عبوس .

(٢) متفق عليه .

(٣) من حديث لعائشة أم المؤمنين فى صحيح مسلم بشرح النووى فى ١٢ / ١٥٤ .

لم يكن يخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موقفة كان حرجاً؛ ولكن قلبه الكبير كان عامرا بالثقة والإيمان بالله فقال وهو يحاول أن يطمئن رفيقه في الطريق «زيد بن حارثة» وهما عائدان إلى مكة حين سأله بلهجة تنم عن اليأس: كيف سيدخلان مكة وقد أخرجه منها جبابرة الأرستقراطية الوثنية، فقال صلى الله عليه وسلم وهو واثق ومطمئن لما يقول: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه»؛ فلما اقترب من مكة، تريث عند غار حراء، وأخذ يرسل إلى بعض رؤساء بطون قريش يطلب منهم الواحد بعد الآخر، أن يدخل مكة محتميا به حيث يقوم بتبليغ رسالة ربه مستظلا بجواره، فكان كل واحد منهم يتنصل مما دعى إليه حتى هدى الله «المطعم بن عدى» فسارع مستجيبا له، ودعا بنيه وبني أخيه وفتيان قومه وقال: «تلبّسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت «محمداً»، وأصبح هو وقومه قد لبسوا سلاحهم، فدخلوا المسجد، وقام على ناقته فنادى: «يا معشر قريش إني قد أجرت «محمدا»، فلا يهجه أحد منكم» (١)، فدخل النبي المسجد الحرام، وطاف بالكعبة حتى أتى الحجر فاستلمه وصلى ركعتين، «ومطعم بن عدى» وقومه مطيفون به، «وأبو جهل» والمشركون واقفون في المسجد يتحرقون غيظا وكمداً (٢).

اجتاز النبي الكريم هذه المواقف العصيبة بتوفيق الله، وقوة الإيمان، وصبر الأنبياء أولي العزم؛ وكان أن تفضل الرحمن الرحيم القادر على كل شيء، بالإنعام على عبده بنعمة لم يسبغ مثلها من قبل على أحد غيره من الأنبياء، إذ أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى:

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) ابن سعد: الطبقات جـ ١؛ القسم الأول ص ١٤٢.

(٢) الطبري: التاريخ جـ ٢ ص ٣٤٨.

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١).

ثم تفضل سبحانه فزاد فى تكريمه «فعرج به إلى السموات السبع، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل حتى جاء إلى «سدرة المنتهى» (٢) قال تعالى:

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰٓ ﴾ (٣)

فالإسراء والمعراج آيتان من آيات الله سبحانه اختص الله بهما «محمدا» المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين، وهما من المعجزات الدالّه على صدق نبوته، وعظيم قدره عند خالقه، وقد رأى فيهما ببصره وبصيرته من آيات ربه الكبرى جمال السماء الدنيا وما نثر الخلاق العظيم فى أرجائها من النجوم التى أبدع خلقها وأحكم تنظيم مواقعها، على اختلاف أنواعها وأحجامها، وكان ذلك قبل أن يصل إلى بعضها رواد الفضاء فى عصرنا هذا بأكثر من ألف وأربعمائة عام، ولم يكن فى تجوّله بينها فى حاجة إلى ارتداء ملابس من نوع خاص تقيه مما قد يلقاه فى تلك الأنحاء، ولا أن يحمل معه كمية من هواء الأرض تعينه على التنفس فى الأماكن الخالية من الهواء اللازم للإنسان العادى، فقد كفاه ذلك كله مُبْدع الأرض والسماء، وخالق الريح والهواء.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٥ وهو مجمع عليه.

(٣) سورة النجم: الآيات ٨ ــ ١٨.

وارتقى خاتم الأنبياء والمرسلين من السماء الدنيا وعُرج به فى باقى السموات السبع [1] حيث شاهد ما شاء الله له أن يشاهد، وقابل من شاء الله له أن يقابل، وزاد إكرام الله لعبده فارتقى حتى جاء إلى سدرة المنتهى حيث أفاض الله الكريم عليه من فضله ونوره، وأوْحى إليه ما شاء له أن يوُحى، وكان مما أكرم الله الكريم به عبده فى تلك الليلة المباركة، أن جُمع له الأنبياء والمرسلون، فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فصلى بهم فى المسجد الأقصى [2].

وفى تلك الليلة المباركة فرض الله على نبيه وأمته خمس صلوات فى كل يوم وليلة [3]؛ وهى أول عبادة فرضت على المسلمين، وثانى أركان الإسلام الخمس التى تبدأ بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ومنذ تلك الليلة المباركة والمسلمون يؤدون هذه الفريضة فى أوقاتها:

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [4]

وهم يؤدونها بعد طهارة البدن والثياب استعدادا للوقوف بين يدى الله خاشعين، وهى كما قال «ابن النفيس»: «إنها لتكرارها فى اليوم مرارا أكثر العبادات تذكارا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم» [5] فهى تذكرهم باتباع أوامر الله سبحانه، واجتناب نواهيه،

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [6]

---

(١) أخبار الإسراء والمعراج مروية بالتواتر عن الصحابة، كما لخصها ابن كثير فى تفسيره جـ ٢، وابن هشام فى السيرة جـ ١ ص ٣٩٦ ـــ ٤٠٨.

(٢) مجمع عليه: وانظر «سبل الهدى والرشاد للصالحى» جـ ٣ فقد جمع الأحاديث المتواترة عن الصحابة فى الصحيحين عن الإسراء والمعراج، وعلق عليها ص ١١ ـــ ٢٤٨.

(٣) مجمع عليه.

(٤) سورة النساء: الآية رقم: ١٠٣.

(٥) الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية الطبعة الأولى ص ١٤١.

(٦) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة قرير العين، منشرح الصدر، فقد أفاض الله من كرمه عليه، ورأى أثناء تجواله عظمة ملكوت الله وجمال صنعه، وشرّفه الله بما أوحى إليه، مما زاده قوة إلى قوة إيمانه، وعزما على عزمه فى المشابرة على نشر الدعوة، ويقينا إلى يقينه أن الله القوى العزيز معينه على النجاح فى أداء رسالته، وناصره على من يقف فى سبيله ولو كره المشركون.

ولما قصّ عليهم فى الصباح أخبار تلك الليلة المباركة ذُهش المشركون، وعقدت الدهشة ألسنتهم فى بدايتها: «فن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا، وضجوا وأعظموا ذلك»[1]، ولم تستطع عقولهم أن تدرك كيف يُسْرِى محمد من مكة إلى بيت المقدس ثم يعود إليها فى ليلة واحدة! وأنّى له ذلك وقوافل تجارتهم تقطع هذه الرحلة فى شهرين: شهر فى الذهاب وشهر فى الإياب؟ لم تستطع عقولهم أن تدرك أن الله القوى العزيز هو الذى أسرى «بمحمد» صلى الله عليه وسلم؛ وأن هذه الرحلة وما وقع فيها هى من المعجزات التى أختص الله بها خاتم الأنبياء والمرسلين، ولذلك وصفها سبحانه بقوله:

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾[2]

ولما زالت الدهشة عن المشركين قال له أحد المشركين:[3] «كل أمرك قبل اليوم كان أَمَماً[4] غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الأبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا، منحدرا شهرا، أتدّعى أنك أنت

(١) نقلاً عن سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ١٣٢.

(٢) سورة الاسراء الآية ١.

(٣) كان المتحدث هو «المطعم بن عدى» انظر سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ١٣٢.

(٤) الأَمَمُ = الأمر اليسير الهيّن = إن كل ما قلته أو دعوت إليه قبل اليوم أمر من اليسير أن نعقله، وأما حديثك اليوم فهو أمر لا يصدقه عقل.

أتيتـه فـى ليلة ؟ واللات والعزى لا أصدقك » (١) .

وهـرع بـعـض المشـركين الـى « أبـى بكـر » وأخبروه بالقصة مستعظمين حدوث ذلك ؛ وهـرع كـذلـك « أبو بكر » إلى المسجد الحرام حيث كان رسول الله صلى الله عـليـه وسلم وسأله : « يانبى الله ، أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليـلـة ؟ قـال : « نـعم » قال : « يا رسول الله ، صفه لى ، فإنى قد جئتهُ » ــ قال « الحسن » : فـقـال رسـول الله صـلـى الله عليه وسلم : فرُفع لى حتى نظرت إليه ــ فجـعـل رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يصفه « لأبى بكر » ، و يقول « أبو بكر » : صـدقـت ، أشـهـد أنـك رسـول الله كلما وصـف له منه شيئا » (٢) .. حتى إذا انتهى رسـول الله قـال « أبـو بـكـر » : « صـدقت ، وأشهد أنك رسول الله » فقال رسول الله صـلى الله عـلـيـه وسـلـم « لأبى بكر » : « وأنت يا أبا بكر الصديق » ؛ فيومئذ سمّاه الصديق (٣) .

واهـتـزت مكة كلها عند انتشار أخبار الإسراء والمعراج ، واختلف الناس هـنـاك بين مـكـذِّب ومـصـدِّق : فـأمـا المـشـركون فقد طمس الله على عقولهم ، فـركـبـوا رءوسـهـم ، وزادوا مـن استهزائهم ، وأخذوا يدبرون للكيد برسول الله صـلـى الله عـلـيه وسلم ومحاولة الاعتداء عليه ، ووصفوه بما شاءت لهم نفوسهم الحاقدة المريضة أن يصفوه به .

وأمـا المـؤمـنـون فـقـد ملأ الله قلوبهم بالإيمان الصادق بالله الواحد الأحد ، وبحـب رسـول الله صـلـى الله عـليه وسلم ، ورأوا فى الإسراء والمعراج إعلاء لمـكـانـة نـبـيـهـم ، وأنـه : « أمر من الله عز وجل فى قدرته وسلطانه ؛ فيه عبرة لأولـى الألـبـاب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن وصدق ، وكان من أمر الله تعالى على يقين » (٤) فثبتوا على دينهم .

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ ٣ ص ١٣٢ .

(٢) السيرة لابن إسحق بتحقيق ابن هشام جـ ١ ص ٣٩٩ .

(٣) اختصار عن المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق ص ٣٩٦ ــ ٣٩٧ .

وأما الضعفاء الذين دخلوا فى الإسلام ولم يكن الإيمان بالوحدانية قد ملأ قلوبهم بعد، فقد اهتزوا هزة عنيفة عصفت بإسلامهم، فارتدّوا عن دين الوحدانية إلى الشرك بالله وعبادة الأوثان لتكون وسيلة تشفع لهم عند الله، وقد كان من فضل الله وحكمته أن طهرّ جماعة المسلمين بخروج هؤلاء الضعفاء والمترددين من بين صفوفهم، بحيث لم يبق على الإسلام إلا الأقوياء الذين عمّر الله قلوبهم بالإيمان، ونفوسهم بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين هاجروا بعد ذلك بدينهم إلى يثرب، فكانوا المثل الأعلى فى الإيمان، والوفاء بما عاهدوا عليه الله ورسوله، والتضحية بأنفسهم وأموالهم، والالتفاف حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤازرونه، ويجاهدون فى سبيل الله معه، حتى نصر الله دينه، وأعزّ بهم وبالأنصار نبيه.

* * *

وعاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى بذل أقصى الجهود لنشر الدعوة، ولما كانت الأرستقراطية القرشية قد أصبحوا أشد مايكون له بغضا، وأكثر عداوة ورغبة فى القضاء عليه وعلى دينه، فقد عاد صلى الله عليه وسلم إلى البحث عن بيئة أخرى تصلح لنشر الدعوة، ولذلك نشط فى العودة إلى دعوة القبائل العربية إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وإلى مكارم الأخلاق؛ وكان يتلو عليهم بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

فكان أن قصد إلى قبيلة «كنده» فى مضاربهم، وإلى «بنى حنيفة» فى بيوتهم،

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥١.

فأبى تصديقه رؤساؤهم ورده بعضهم ردا قبيحاً (١) ؛ وهو صامد لا يكلّ ولا يملّ من الدعوة إلى الله وقد ثابر على دعوة القبائل إلى الله الواحد الأحد قرابة ثلاثة أعوام بعد وفاة «أبى طالب» و«خديجة» فكان كلما اجتمع الناس بالموسم (٢) أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، «وكان لا يسمع بقادم يقدم من العرب له إسم وله شرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده» (٣) ولم يدخر جهدا طوال هذه السنوات الثلاث فى دعوة باقى القبائل فى منازلها وفى مواسم الحج ومواسم الأسواق فى عكاظ، ومجنة، وذى المجاز، يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وأن يمنعوه (٤) حتى يبلغ رسالات ربه، فعرض نفسه أثناءها على «بنى عامر بن صعصعة ومحارب بن خصفة وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنى نضر، وبنى البكاء، وباقى بطون كنده وبطون كلب، والحارث بن كعب، وعذرة، الحضارمة»، فرده بعضهم ردا غير كريم، وأبى الآخرون أن يستجيبوا له، فلم يجد من بينهم ناصرا ولا معيناً (٥).

وظل النبى مثابرا على أداء رسالته حتى أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه، فهدى له فى أحد مواسم الحج نفرا من أهل يثرب من «الأوس والخزرج» فاستجابوا لدعوته، وآمنوا بالله ورسوله (٦)، فكان ذلك بشيرا

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٤٢٤ـ ٤٢٨؛ والطبرى: التاريخ جـ٢ ص ٣٤٨ـ ٣٥٠؛ وسبل الهدى والرشاد جـ٢ ص ٥٩٣ـ ٦٠١.

(٢) موسم الحج.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٤٢٥؛ والطبرى: التاريخ جـ٢ ص ٣٥١.

(٤) المرجعان السابقان. أن يمنعوه: أن يحموه.

(٥) ابن سعد: الطبقات: جـ١ القسم الأول ص ١٤٥.

(٦) متفق عليه فى كل المراجع؛ وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص ٤٢٨ـ ٤٦٧؛ وسبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٢٤٩ـ ٣١٠.

بدنو إشراق فجر الإسلام ، و بداية انقشاع عهد الظلم والقهر ، وإيذانا ببداية الاقتراب من نهاية مرحلة الدعوة فى بيئة «مكة» التى لم تكن مستعدة لقبولها ، وبشرى بقرب انتقالها إلى بيئة أخرى صالحة لنموها ونشرها من مدينة «يثرب» بعد هجرة نبى الله صلى الله عليه وسلم إليها فى نهاية هذه السنوات الثلاث ؛ فهناك فى «يثرب» التى أصبح يطلق عليها اسم «المدينة المنورة» منذ الهجرة النبوية الشريفة إليها وجد الأمن والأمان بين أنصار أنعم الله عليهم بنور الإيمان ، وبدأ معهم كفاحا آخر من نوع جديد ، تصارعت فيه قوتان صراعا اتخذ أشكالا ووسائل أخرى ، فقد تصارعت فيه قوة الأرستقراطية الوثنية الباغية هي ومن التفّ حولها من القبائل التى تعبد الأصنام لتقرِّبها إلى الله ، وتحاربت مع قوة من أنصار الله الواحد الأحد وهى تدعو إلى العدل والمساواة وإلى السلام والمحبة والخير، وبدأت بين القوتين حرب ضروس دامت ثمانية أعوام حتى نصر الله القوىّ العزيز عبده ، وأعز بالمهاجرين والأنصار دينه ، فدخلوا فى نهايتها «مكة» منتصرين يوم الفتح الأعظم ، وأخذوا يسطرون فى كتاب الإنسانية تاريخاً مجيدا كان بداية لنهضة حضارية عظيمة على أيديهم وأيدى من أتى بعدهم من أتباع هذا الدين الحنيف ، نهضة لم تصل البشرية إلى مستواها الرفيع من قبل مما لا يتسع المجال لذكره فى هذا البحث الذى قصد به إلقاء الضوء على الدور النبيل الذى اضطلعت به «أم المؤمنين خديجة» ، وما أسهمت به فى حياة خاتم الأنبياء والمرسلين ، مع إلقاء نظرة سريعة على جهاد النبى صلى الله عليه وسلم والرعيل الأول من الصحابة المؤمنين فى سبيل نصرة الحق والدين ، وتكوين الأمة والدولة الإسلامية فى بداية إشراق فجر الإسلام ، ونحن نرجو أن يعيننا الله ، إذا امتد بنا الأجل ، حتى نكمل ما بدأناه من الكتابة عن موضوعات أخرى أخترناها من السيرة النبوية العاطرة .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(سورة الأنفال الآية ٧٤)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الحادى عشر

الهجرة النبوية

بعد وفاة «أبى طالب زعيم بنى هاشم وبنى المطلب»، فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحماية التى كان يسبغها عليه هذا العمّ الشقيق حتى لا يناله زعماء المشركين بسوء، ولذلك استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوجه فى ظلال هذه الحماية أنى شاء، وأن يقول كل ما يريد.

وبعد انتقال «أم المؤمنين خديجة» إلى جوار ربّها، حُرِم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنيس الذى كان يملأ حياته فى البيت سعادة واطمئنانا، ويُسرِّى عنه ما كان يشعر به من ضيق، فقد كانت تحوطه بعطفها وحنانها، وتقف بجانبه تشد من أزره، وتسانده بحكمتها وصائب مشورتها، مستعينة فى ذلك بمكانتها فى قريش بصفة عامة، وبالمنزلة الرفيعة التى كانت لها فى عشيرتها بصفة خاصة، فقد كانوا يبادلونها وفاء بوفاء، وحبا بحب.

وبعد هاتين الكارثتين، ازداد إيذاء كبار مشركى قريش لنبى الله صلى الله عليه وسلم، ونالوا منه كثيرا، فازداد إيمانا بضرورة البحث عن بيئة أخرى غير «مكة» تكون صالحة لنشر الدين الإسلامى الذى يدعو إلى عبادة إله واحد لا شريك له، وإلى المساواة بين الناس، وإلى الخير والحق والعدل، وإلى البعث بعد الموت، فمن عمل صالحا فله جزاء الحسنى جنات تجرى من

تحتها الأنهار، ومن أساء فله جهنم وبئس المصير؛ ومن اتباع هذا الدين يُخرج الله الأمة الإسلامية التي تنشأ وتكون كما أرادها الله بقوله :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وكان أن حرص رسول الله على أن يستمر في جهاده داعيا القبائل والعشائر حوالي ثلاث سنوات، هدى الله أثناءها ثّلة من حجاج «الأوس والخزرج» قوامها اثني عشر رجلا إلى الدخول في الإسلام، فبايعوا النبي الكريم على الإيمان بالله ورسوله، والتمسك بتعاليمه. وقد وصف «عبادة ابن الصامت» (٢) ما تم في هذه البيعة بقوله: «بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة الأولى: ألاّ نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان (٣) نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإن وفّيتم فلكم الجنة. وإن غشيتم (٤) شيئا فأخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفارة له. وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة، فأمركم إلى الله تعالى إن شاء عذب، وإن شاء غفر» (٥).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٢) هو أحد زعماء الأنصار الذين حضروا هذه البيعة.

(٣) كناية عن كل فعل شنيع والمشي إلى ما يقبُح: معجم ألفاظ القرآن الكريم.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ما لم يغش الكبائر. والمعنى: إن ارتكبتم إثماً وعوقبتم بالحدّ الشرعي.

(٥) هذا الوصف مخرج في الصحيحين من عدة طرق عن ابن شهاب الزهري، ومروى بطريقين في سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤. هذا والعقبتان متفق عليهما، وانظر السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٤٣١ ـ ٤٦٧؛ وسبل الهدى والرشاد جـ ٣ ص ٢٧٠ ـ ٣١٠.

وعند عودة هؤلاء المسلمين إلى يثرب، أوفد معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «مصعب بن عمير الهاشمى» «ليعلِّم من أسلم منهم القرآن والشرائع، ويدعو من لم يسلم منهم إلى الإسلام(1)»، وروى «ابن حزم» أن النبى صلى الله عليه وسلم أوفد معه أيضا «ابن أم مكتوم»(2).

كان «مصعب بن عمير» أول داع للإسلام أوفده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نجح نجاحا كبيرا فى أداء الرسالة التى كُلِّف بها، إذ أسلم على يديه الكثيرون من الأوس والخزرج: «حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها مسلمون رجالا ونساء»(3).

ولما كان موسم الحج التالى لبيعة العقبة الأولى حدثت البيعة الثانية: وفيها بايع من «الأوس والخزرج» ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمرين: (4).

الأمر الأول:

عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما عاهد عليه من سبقهم من أهلهم فى البيعة الأولى، فأقروا بالإيمان بالله ورسوله؛ وعبادته لا يشركون به شيئا، وبالبعث والجزاء بعد الموت، وأن يلتزموا بالشريعة الإسلامية لبناء المجتمع الاسلامى الجديد.

---

(1) متفق عليه فى كل المصادر التى تكلمت عن البيعة الأولى. وانظر: سبل الهدى والرشاد جـ3 ص 270 ـ 277.

(2) جوامع السيرة النبوية ص 57.

(3) المرجع السابق.

(4) هذه البيعة رويت عن بعض من حضرها من عدة طرق فى كتب الصحاح، وفى كتب السيرة، وكتب التاريخ الإسلامى، وانظر سيرة ابن هشام جـ1 ص 438 ـ 454؛ وكذلك سبل الهدى والرشاد جـ3 ص 277 ـ 290 والطبقات.

الأمر الثاني :

عاهدوه على أن يطيعوه وينصروه ؛ ويؤووه هو وأصحابه . وقد بين لهم شروط هذه البيعة بقوله صلى الله عليه وسلم : «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدِمت عليكم يثرب : تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم و أبناءكم . ولكم الجنة » (١) . وقد وعدهم رسول الله كذلك أنه إذا نصره الله وأظهره فإنه لا يدعهم ، ولا يرجع لقومه .

ويدرك المتأمل فيما تمّ في هذه البيعة أن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من « مكة » إلى « يثرب » تقررت في تلك الليلة ، فقد وجد الرسول البيئة الصالحة التي يمكن أن تنتشر منها الدعوة إلى الإسلام ، وضمن لنفسه ولأصحابه الحماية والمأوى والأمن والأمان ، ولم يكن باقيا على تنفيذ الهجرة إلا التمهيد لها بتدبير محكم ؛ ثم انتظار إذن المولى بهجرة نبيّه صلى الله عليه وسلم إلى «يثرب» . وقد كان إرسال «مصعب بن عمير» إلى «يثرب» هو وزميله « ابن أم مكتوم » ونجاحهما في نشر الدين الإسلامي بين « الأوس والخزرج » مشجّعا على اتخاذ الخطوة الثانية التي تمهد لانتقال النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما تمت هذه البيعة الثانية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين الموجودين في «مكة» بالخروج إلى «المدينة» ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال لهم : «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها » (٢) .

ولم يكن خروج المسلمين من «مكة» بالأمر السهل ، فقد اهتز المشركون هناك عندما علموا بأمر هذه البيعة ، وأدركوا أن ذلك سوف يكون بداية خطر جسيم يتهددهم ؛ وخشي زعماؤهم انضمام مسلمي «مكة» إلى من

---

(١) عن سبل الهدى والرشاد جـ ٣ ص ٢٧٧ .

(٢) متفق عليه ، وانظر السيرة لابن هشام ص ٤٦٨ ـــ ٤٧٩ ، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد جـ ٣ ص ٣١٣ ـــ ٣٢٤ .

أسلم من «الأوس والخزرج» ، وبذلك تصبح «يثرب» معقلا للمسلمين ، ومركزا لتجمعهم ، فيصبحون قوة لها خطرها على أمن قريش وتجارتها ، ولذلك وقفوا فى سبيل خروج المسلمين من «مكة» ، وبذلوا كل ما يستطيعون لمنعهم من الهجرة .

وكان المسلمون فى «مكة» قد صبروا كثيرا على اضطهاد مشركى قريش لهم ، فما إن قيّض الله لهم هذه الفرصة للخلاص مما كانوا يقاسونه حتى سارعوا إلى تنفيذ ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذوا يتسللون أفرادا وجماعات ، وأعانهم الله فوصل الكثيرون منهم إلى «يثرب» ، حيث نزلوا ضيوفا مكرمين على إخوانهم فى الدين .

وأزعج المشركين نجاح هؤلاء الفارين من «مكة» ، ثم هالهم أن بعض المسلمين جاهروا بالهجرة أمامهم فى إباء وشمم كما فعل «عمر ابن الخطاب» ومن هاجر معه [1] فزاد غضب الأرستقراطية القرشية ، واشتدت فى إيذاء من بقى فى مكة من المسلمين ، وضيّقوا الخناق عليهم «حتى لا يتمكنوا من الخروج إلى «يثرب» ؛ ولكن الله العزيز أعان مَنْ بقى من المؤمنين على الهجرة حتى لم يبق بمكة أحد من المسلمين إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «وأبو بكر وعلى بن أبى طالب» ، أقاما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره ؛ وحُبس قوم كرها ، حبسهم قومهم» [2] وكذلك بقى بمكة بعض المستضعفين .

ووردت الانباء أن الإسلام أخذ ينتشر فى يثرب انتشارا سريعا أذهل خَبرُه كل من سمع به من المشركين ؛ وأن المهاجرين من مكة يلقون عند «الأوس والخزرج» الأمن والأمان وكرم الضيافة ، ففقدت الأرستقراطية القرشية صوابها ، واشتد غضب زعمائها ، وأخذوا يتشاورون لعلّهم يجدون وسيلة

---

(١) متفق عليه ، وانظر السيرة «لابن هشام» ص ٤٦٨ ـ ٤٧٩ ؛ وسبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ، جـ٣ ص ٣١٣ـ ٣٢٤ .

(٢) الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر.

يتخلّصون بها من «محمد» ودعوته، فقد أصبحوا يخشون أن يتمكن من الخروج إلى «يثرب»، حيث يتجمع حوله كل من آمن به، ويصبحون قوة تعمل على نشر دينه، وتهدد تجارتهم إلى الشمال، لوقوع «يثرب» فى طريق قوافلهم إلى الشام، فأملى الحقد والغضب عليهم أنه لا نجاة لهم، وأنه لا توجد وسيلة تنقذهم إلا بالتخلص منه بالقضاء عليه. وقادتهم نفوسهم الأمارة بالسوء إلى أن أسلم الوسائل لذلك هى أن يختاروا من كل بطن من بطون قريش فتى من أشجع فتيانها، وأن يأمروهم بقتله وهو فى بيته بضربة واحدة بسيوفهم جميعا، وبذلك يضيع دمه فى جميع بطون قريش فلا يقوى قومه من «بنى هاشم وبنى المطلب» على محاربة القبيلة كلها أخذا بثأره.

لقد مكروا مكرهم، ولكن الله القوى العزيز أحبط كيدهم، فأرسل جبريل «يأمر رسوله أن لا يبيت فى مكانه الذى يبيت فيه؛ فدعا رسول الله الله صلى الله عليه وسلم «على بن أبى طالب» وأمره أن يبيت فى فراشه، ويَتَسَجَّى [1] ببرد له أخضر بعد أن أوقفه على جَلية الخبر. فلم يتردد علىّ برهة واحدة مع علمه أن الموت سيكون فى انتظاره على أيدى الفتية المتآمرين الذين امتلأت قلوبهم حقدا وكراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم» [2].

ولما أحاط المتآمرون بالبيت خطا «علىّ» فى شجارة وإيمان، ورقد فى المكان الذى تعوّد النبى صلى الله عليه وسلم أن ينام فيه ليفدى أخاه بنفسه

---

(١) تسجى: تغطى.

(٢) وقائع الهجرة متفق عليها، وانظر: السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٤٩٠ ــ ٤٩٥، والطبقات جـ ١ القسم الأول ص ١٥٣ ــ ١٦١، وكذلك جـ ٢ القسم الأول ص ٣٤ «ابن سعد»؛ وتاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٧١ ــ ٣٤١؛ والدرر فى اختصار المغازى والسير ص ٧٠ ــ ٧٦ ومن ٨٠ ــ ٩٤؛ وجوامع السيرة النبوية لابن حزم ص ٥٥ ــ ٦٦؛ ونهاية الأرب جـ ١٦ ص ٣٢٦ ــ ٣٤١، وأسد الغابة لابن الأثير: ترجمة على بن أبى طالب رقم ٣٧٨٣ وكذلك جـ ٤ ص ٩١ ــ ١٢٦؛ وسبل الهدى والرشاد جـ ٣ ص ٣١٣ ــ ٤٠٢.

ويؤثره بالحياة (١). وتقدم النبى، غير هياب ولا وجل نحو باب الدار وهو يتلو سورة يس، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢)

فتح الباب وخرج، فأعمى الله عنه عيون المتآمرين، وأخذتهم سِنَةٌ من النوم، فتناول الرسول صلى الله عليه وسلم حفنة من التراب ووضع على رأس كل فتى منهم قبضة منها، وسار بخطى ثابتة، ونفس راضية، وإيمان الأنبياء إلى بداية هجرته الشريفة إلى «يثرب»؛ وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (٣)

ومكث الفتية المتآمرون يغطّون فى نومهم ما شاء الله لهم أن يمكثوا، ثم استيقظوا وأخذوا يتطلعون من بين خروق الباب، فيرون شخصا نائما على الفراش، حتى إذا طال بهم الانتظار اقتحموا البيت، فانتفض «على ابن أبى طالب» واقفا، وواجههم بشجاعة وثبات نادرين، وعرفه المتآمرون لأول وهلة فبهتوا ووجموا برهة، ثم انهالوا عليه ضربا وأذى وهم يسألونه: «أين صاحبك؟ فيجيبهم: «وهل كنت عليه رقيبا»، وكلما أعادوا السؤال عليه، أجابهم نفس الإجابة، فاشتد غيظهم وازدادوا له أذى وتأنيبا، حتى إذا يئسوا منه خرجوا به إلى المسجد الحرام وحبسوه، وظل محبوسا حتى نفد صبرهم ويئسوا من استجابته لهم فتركوه، ونجا النبى صلى الله عليه وسلم بفضل رعاية الله وحفظه له، وشجاعة «على» وإيمانه، فكان أول إنسان افتدى رسول الله بنفسه.

(١) آخى النبى بينه وبين علىّ أول مرة بمكة عندما آخى بين أفراد الرعيل الأول من المؤمنين، انظر الطبقات الكبرى لابن سعد: ترجمة علىّ فى البدريين جـ ٢ القسم الأول ص ١٤.

(٢) سورة يس: الآية ٨.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

ولما علم عُتاة (١) قريش وطغاتها (٢) نبأ نجاة محمد صلى الله عليه وسلم، وخروجه سالما من بيته، جُنّ جنونهم، وثاروا ثورة عاتية أفقدتهم ما كان قد بقى لهم من فطنة أوحسن تدبير، وأخذ نفر منهم يبحثون عنه داخل «مكة»، واتّجه آخرون يقصّون أثره (٣) لعلهم يستدلون على المكان الذى يختبىء فيه.

واهتدى القَصّاص الذى يقود الباحثين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أثره فتتبّعه، وأقبل خلفه «فتيان قريش من كل بطن بعصيّهم وهراويهم (٤) وسيوفهم حتى انتهوا إلى غار ثور» (٥)، فتحيّر القصاص فترة ثم قال: «ها هنا انقطع أثره، ولا أدرى أخذ يمينا أم شمالا أم صعد الجبل.

وسمع أبو بكر ضجيجهم وصخبهم وهم مقبلون نحو الغار، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قائما يصلى لله القوى العزيزو وأخذ المشركون يقتربون من الغار، فخشى «أبو بكر» على رسول الله، وأخذ يبكى قائلا: «يا رسول الله، هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسى أبكى، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره» فقال له النبى وهو واثق من حماية ربه: «لا تخف، إن الله معنا» (٦).

واقترب المشركون من مدخل الغار، فقال «أبو بكر»: «لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا تحت قدميه» فرد عليه «المصطفى» صلى الله عليه وسلم قائلا: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» وأخذ يبتهل إلى الله، فأنزل الله سكينته على «أبى بكر» (٧)، فذهب روعه، وسكن جأشه.

---

(١) عتا: عِتيًا وعتوًا: استكبر وجاوز الحد.

(٢) الطاغية: الأحمق المستكبر، والجبار العتيد.

(٣) قصّ الأثر: تتبّعه.

(٤) الهراوة: العصا الضخمة والجمع هراوى.

(٥) اعتمدنا فى قصة غار ثور على سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٢، وهو متفق عليه فى المراجع الأخرى. انظر السيرة لابن هشام جـ١.

(٦) المراجع السابقة.

(٧) المراجع السابقة فى تفسير الآية الشريفة التى نستشهد بها.

ووقف المشركون الغاضبون عند مدخل الغار، وكان الله القادر قد بعث العنكبوت فنسجت خيوطها على قمته، وأمر حمامتين بريّتين فوقفتا فى بداية مدخله؛ فقال أحد قادة المشركين: «ما أربكم فى الغار؟[1] إن عليه لعنبكوتا كان قبل ميلاد محمد!»[2] فانصرف المشركون عائدون إلى «مكة» يجرُّون أذيال الخيبة بعد أن حوّل الله بقدرته أنظارهم عن التطلّع فى عمق الغار، وأبعد بصرهم عن النظر تحت أرجلهم، فنجى رسول الله ورفيقه بفضل الحماية الربانية، والقدرة الألهية التى حفظت خاتم الأنبياء والمرسلين، وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]

وهكذا أحاط الله سبحانه نبيه «محمدا المصطفى» برعايته فمكث فى الغار ثلاثة أيام ثم ارتحل على بركة الله فى الطريق إلى مهجره ومعه «أبو بكر الصديق».

ولم يستطع كفّار قريش أن يكبحوا جماح غضبهم، واشتدّت ثورتهم، فجعلوا لمن يأتى لهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حيا أوميتا مائة ناقة، وخرج الفرسان من «مكة» يجوبون الطرق المؤدية إلى «يثرب» رغبة فى اللحاق به، وكان كل واحد منهم يطمع أن يفوز بالجائزة؛ وكان من بينهم «سراقة ابن مالك ابن جُعْشُمْ»[4] فقد استحث فرسه فجعل ينهب به

(١) أربكم: حاجتكم. (٢) مراجع السيرة السابق ذكرها.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٤) هذه القصة رواها الشيخان والأمام أحمد من عدة طرق أحدها عن أبى بكر، وأخرى عن سراقة؛ وقد أخذ مؤرخوا السيرة عن كتب الحديث، واعتمدنا فى تلخيص القصة على ما جمعه الصالحى من الروايات فى «سبل الهدى والرشاد» جـ٣ ص ٣٥٢ ــ ٣٥٤، وعلى الطبقات الكبرى جـ١ ص ٢١٩ وما بعدها، وعلى سيرة ابن هشام جـ٩ ص ٣٥٢ ــ ٣٥٤.

الأرض حتى اقترب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فعثَرَت فرسه ووقع على الأرض؛ ولكن طمعه في الحصول على الجائزة كان شديدا، فامتطى الفرس ثانية، وتقدم حتى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن، وما إن دنا منه حتى ساخت[١] يدا الفرس في الأرض.

وقصّ أبو بكر ما حدث فقال: «تبعنا «سراقة بن مالك»». فقلت يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا. قال: «لا تحزن إن الله معنا». فلما دنا منا، وكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا[٢] وبكيت؛ قال صلى الله عليه سلم: «ما يُبكيك؟». قلت أما والله ما على نفسي أبكي، ولكني أبكي عليك. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم اكفناه بما شئت»[٣]. قال أبو بكر: فساخت[٤] فرسه في الأرض حتى بطنها، فوثب عنها».

وعلم «سراقة» حينئذ أن الله حافظ نبيّه وناصره، فنادى يطلب الأمان وقال: «أنا «سراقة بن جُعْشم»[٥]، أنظروني أكلمكم، فوالله لا آذيكم، ولا يأتيكم منّي شيء تكرهونه».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: «قل له ما تبغي منا؟» فقال «سراقة»: «إن قومك قد جعلوا فيكما الدية. وأخبرتهما بما يريد الناس منهما».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اخْفِ عنا».

«فسألته أن يكتب لي كتاب موادعة آمن به»، قال: اكتب له «يا أبا بكر».

بهذه المعجزة نصر الله نبيّه ونجّاه من فارس شديد المراس، كان قد لبس

---

(١) غاص رجلاه الأماميّتان في الأرض.

(٢) المعنى: هو أن الذين يطلبوننا قد لحقوا بنا.

(٣) أي اكفنا شرّه بالطريق الذي تراه.

(٤) انخسفت وغاصت.

(٥) لم يكن سراقة من قريش ولكنه كان من بني مُدْلج.

درعه، وتقلّد سيفه، وأمسك برمحه قبل أن يركب فرسه طامعا فى أن ينال الثروة العظيمة التى وعد بها طغاة قريش من يأتى لهم «بمحمد»، وكان رسول الله أعزل لا سلاح له يُعينه على الدفاع عن نفسه، وكذلك كان صاحبه، وبفضل هذه المعجزة أصبح هذا الفارس الذى كان يريد أن يعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أعدائه الكفار حيًّا أوميتا، أصبح عاملا من عوامل الدفاع عنه، ومنع أعدائه الطامعين فى الحصول على المائة ناقة من متابعته واللحاق به.

وروى «الكلاعى» (1) عن «الحسن بن على برواية سفيان بن عُيينة» عن «أبى موسى» أن «سراقة» حينما همّ بالعودة إلى مكة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف بك يا سراقة» إذا لبست سوارَىْ كسرى!!». قال «سراقة» وقد استحوذت عليه الدهشة: «كسرى بن هرمز!!» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم».

وانصرف «سراقة بن مالك» نحو «مكة» وقد استولت عليه الدهشة وهو لا يكاد يصدّق كل ما رأى بعينيه، وسمع بأذنيه!! فهذا الرجل الذى لا يملك سيفا ولا رمحا، يضرب فى الصحراء هاربا مستخفيا من أهله وقبيلته حتى لا يقبضوا عليه فيسجنوه أويقتلوه، يدعو الله فتغوص فرسه فى الأرض ثم يستأمنه «سراقة فيخرج الفرس سليما لم يصبه أذى، وهو لا يكتفى بذلك بل يتنبّأ بأن «سراقه بن مالك» العربى من «بنى مدلج» سوف يتحلى فى يوم من الأيام بسوارَىْ «كسرى بن هرمز» ملك الفرس، الذى يجلس على عرش دولة عريقة ذات قوة ومنعة، لا يدانيها فى حضارتها وعظمتها إلا مملكة الروم!!.

وقد صدق الله نبوءة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهزم المسلمون الفرس،

---

(1) هو أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى ٥٦٥ ــ ٦٣٤ هـ، فى كتابه: «الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء» جـ ١ ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧.

واستولوا على أموال «كسرى» وكنوزه، وتذكر أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» تلك النبوءة، فاستدعى «سراقة» وألبسه سوارَىْ «كسرى بن هرمز» وقال: «الحمد لله الذى سلبَهما «كسرى بن هرمز» الذى كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما «سراقة بن جُعْشُم»، أعرابيا من بنى مدلج!!».

وقد وفىّ «سراقة» لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا لقى فى طريقه أحدا ممن يطلبون النبى الكريم طمعا فى الجائزة الكبرى ردّه عنه، وفى ذلك يقول ابن سعد: «ورجع سراقة فوجد الناس يلتمسون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ههنا، وقد عرفتم بصرى بالأثر» فرجعوا)[1].

* * *

واستأنف رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه مسيرتها فى رعاية الله سبحانه إلى أن قدما قباء[2]، فاستقبله من أسلم من أهلها أحسن استقبال، وفرح به المهاجرون الذين كانوا قد نزلوا هناك من قبل، وسأله أهل قباء أن يقيم لهم مسجدا، فأسس لهم «مسجد قباء»[3]، وهو أول مسجد اشترك الرسول الكريم مع المسلمين فى بنائه، وفرح المسلمون بتعاون النبى معهم، فشرح الله صدورهم وغمرتهم السعادة، فأخذوا ينشدون وهم مقبلون على البناء: [4]

«أفلح من يعمر المساجدا» فردّ النبى عليهم قائلا: «المساجدا»

«ويقرأ القرآن قائما وقاعدا» فردّ النبى عليهم قائلا: «وقاعدا»

«ولا يبيت الليل عنه راقدا» فردّ النبى عليهم قائلا: «راقدا».

---

(١) جـ ١ ص ٢١٩، وانظر سبل الهدى والرشاد جـ ٣ ص ٣٥٤.

(٢) قرية كانت تبعد عن «يثرب» حوالى ميلين، وقد أصبحت الآن ضاحية «للمدينة المنورة».

(٣) متفق عليه.

(٤) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ ٣ ص ٣٨٢.

ولبث النبى صلى الله عليه وسلم فيهم بضع ليال ثم ركب ناقته القصواء قاصدا يثرب على كره من أهل «قباء» فقد كانوا يرْجون أن يعيش بينهم .

وعلم الناس أن «المصطفى» صلى الله عليه وسلم قد خرج من «قباء» قاصدا «يثرب» ، فتلقاه خارج المدينة المهاجرون والأنصار رجالا وعلى الأباعر، وأخذ الصبيان والغلمان يهللون ويقولون : «الله أكبر جاءنا رسول الله ، جاء محمد» [1] حتى إذا وصل إلى «يثرب» كان أهلها قد خرجوا لاستقباله ، واعتلى العجائز أسطح المنازل ، وجعل الصبية والغلمان والنساء ينشدون : [2]

طلع البدر علينا ... من ثنيَّات الوداع [3]
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وكان يوما مشهودا عمّ الفرح فيه أرجاء المدينة ، وغمرت السعادة جميع المسلمين حتى قال البراء : «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم» [4] وروى ابن أبى خيثمة قال : «شهدت يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم أر يوما أحسن منه ولا أضوأ» [5] .

وسارت القصواء بنبى الله صلى الله عليه وسلم يحف بها الأنصار «فلم يمرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار إلا قالوا : «هلمّ يا رسول الله إلى العزِّ والمنَعَة والثروة» فيقول لهم خيراً ويدعو، أويقول :

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

(٢) متفق عليه وانظر سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٣٨٦؛ رواه البيهقى ورزين عن عائشة أم المؤمنين .

(٣) مكان كان الناس يودعون عنده المسافر إلى مكة .

(٤) سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٣٨٦ ، والبراء هو البراء بن عازب .

(٥) المرجع السابق .

«إنها [أى القصواء] مأمورة خلُّوا سبيلها». واستمرت القصواء فى سيرها بإذن الله حتى بركت عند بيت «أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى»، فنزل عنها النبى صلى الله عليه وسلم وقال: «هنا المنزل إن شاء الله» (١).

ولما نزل المصطفى صلى الله عليه وسلم على «أبى أيوب» خرج جوارٍ من «بنى النجار» يضربن بالدفوف ويقلن: (٢)

نحن جوارٍ من بنى النَّجار   ياحبذا محمدٌ من جار

ومنذ نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه القرية، أصبح اسمها «المدينة»، ونهى النبى الكريم عن تسميتها «يثرب» فقد روى الإمام «أحمد»، «وابن أبى حاتم، وابن مردويه» بسند جيد عن «البراء بن عازب» أنه قال: «قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: **«من سَمّى «المدينة» بيثرب» فليستغفر الله: هى طابة، هى طابة، هى طابة»: يعنى المدينة»**(٣).

---

(١) متفق عليه، وانظر سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠، والسيرة لابن هشام جـ١ ص ٤٩٤ ـ ٤٩٦.

(٢) رواه الحاكم وأبوسعيد النيسابورى، وانظر سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٣٩٠.

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾

[سورة المؤمنون: الآية ٥٢]



الفصل الثانى عشر

بناء الأمة الإسلامية ونشأة الدولة
فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تمهيد

كانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بداية لعهد جديد فى تاريخ البشرية؛ فقد كانت فاتحة لجهاد طويل فى نشر التعاليم الإسلامية التى ترتفع بالإنسان فوق مستوى عبادة الأصنام والشرك بالله، وتدعو لعبادة إله واحد لا شريك له، وكان لابد للنجاح فى الوصول إلى هذا الغرض السامى من بناء أمة جديدة تؤمن بالمنهج الإسلامى، وتعمل على نشر القيم الكريمة التى يدعو إليها هذا الدين فى قوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

وقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بناء هذه الأمة قائماً على أساس من الإيمان والتقوى تنفيذاً لقوله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

كما أراد أن يكون الناس في هذا المجتمع الجديد، كما أمره ربه، أحراراً متساوين في جميع الحقوق والواجبات، بحيث يكون مقياس التفاضل والتقدير بينهم هو التقوى عملاً بنص الآية الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (٢)

وأن يسود في هذا المجتمع العدل بين الناس حتى يكون كل فرد من أفراد هذه الأمة آمناً على جميع حقوقه، وعلى نفسه، وأسرته، ومالِهِ عملاً بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣)

وقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتشر في مجتمع الأمة الإسلامية القيم والمبادئ السامية التي أمر الإسلام أن يتحلّى بها المؤمنون حتى يعيشوا جميعاً حياة طيبة سعيدة تكون موصِّلة للسعادة في الآخرة، وذلك

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٨.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) سورة النحل: الآية ٩٠.

لأن الإسلام دين سماوى ينظّم حياة الناس على منهج قويم غايته مصلحة الناس جميعاً وسعادتهم فى الدارين :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (١)

وقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بناء الأمة الإسلامية التى تعيش على أساس من الفضائل التى جاء بها هذا الدين أمر لا يمكن تنفيذه إلا بإنشاء الدولة الإسلامية وأجهزتها المختلفة التى تسهر على المحافظة على هذه الأمة ضد كل اعتداء من الخارج ، كما تعمل فى الوقت نفسه على نشر الأمن والأمان بين أفراد المجتمع الإسلامى الجديد ، وتقدم للناس الخدمات والمساعدات التى يحتاجون إليها ، وأن تلتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية التى تقوم على رعاية مصالح الناس الدينية والدنيوية ، فهى كما ترعى الشئون الدينية تحافظ على النفس ، والعرض ، والمال والولد ؛ وهى تفرض عقوبات مناسبة وزاجرة مكونة من حدود وقصاص على من يعتدى على هذه المصالح . ويكون من أهم واجبات هذه الدولة أن تعمل على نشر الدين الإسلامى وتعاليمه بين الأمم والشعوب الأخرى لأن الله سبحانه أرسل خاتم الأنبياء والمرسلين ليكون الرحمة المهداه للناس أجمعين :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٧ . (٢) سورة الفتح : الآية ٢٨ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

هذه هى أهم المبادئ التى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم اين يقيم على أساسها الأمة الإسلامية، وأن يبنى عليها الدولة وأجهزتها الحكومية؛ ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهين، فقد كانت هناك عقبات ومصاعب كثيرة تقف حجر عثرة فى سبيل تكوين هذه الأمة وإنشاء هذه الدولة، وتجعل النجاح فى التنفيذ أمراً يكاد مستحيلاً، لولا أن أحاط الله رسوله بعنايته، فمهّد له الصعاب، وأعانه بفضله، فقوّى من عزيمته، وأنار بصيرته فأتاح له النجاح والتوفيق فى مهمته.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبذل أقصى ما يستطيع لبناء الأمة الإسلامية المتحدة فى بيئة أُمّيّة لم تعرف من قبل ما هى الأمة الواحدة، ولم تألف أن تعيش فى أمة متحدة؛ ولكنهم عاشوا قروناً يدينون بالولاء للقبيلة وما تشتمل عليه من البطون والعشائر وكانت هذه البطون لا تسمح لواحدة منها أن تعلو أو أن تستأثر بالتفوق والنفوذ على البطون الأخرى فى القبيلة، ولذلك كان الولاء للبطون يطغى أحياناً على الولاء للقبيلة؛ وكانت كل قبيلة تعيش مستقلة عن القبائل العربية الأخرى إلا إذا كان بينها وبين بعض القبائل حلف يربطها بها.

وكانت القبائل العربية تعبد الأصنام، ولكنها كانت لا تدين بعبادة صنم واحد، وكانت كل قبيلة من القبائل تعبد صنماً أو أكثر حتى أصبح من الصعب أن نحصى عدد الأصنام التى كانت مرصوصة حول الكعبة المشرفة أو موضوعة فوق سطحها. وكان رؤساء القبائل والعشائر يحكمون حكماً مطلقاً لا يقوم على نظام مقرر أو قانون موضوع، وكان لا يحدُّ من سلطة هؤلاء الرؤساء إلا بعض العادات والتقاليد التى توارثتها القبيلة أو العشيرة.

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن إنشاء الأمة الإسلامية، وتكوين دولة للمسلمين فى «مكة» على أسس قوية كان أمراً مستحيلاً، لأن المسلمين كانوا هناك أقلية ضعيفة، وكان المجتمع فى «مكة»، كما كان فى جميع القبائل العربية الأخرى، يقوم على أساس الطبقات: طبقة الأشراف والرؤساء، وطبقة العبيد والموالى، وكان الأشراف

والرؤساء هم الأحرار وكانوا يملكون كل شيء، وكان العبيد لا يملكون شيئاً، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولم يكن لهم في مجتمعهم حقوق، وعليهم أن يؤدوا أشق الأعمال وأصعبها وكان هذا يتنافى مع ما قرره الإسلام من الحرية والمساواة التي يجب أن يتمتع بها الناس جميعاً.

وكان يشُق على شيوخ الأرستقراطية القرشية أن ينتشر الإسلام في «مكة»، أو أن تقوم له قائمة في «المدينة المنورة»، لأن ذلك يؤدي إلى تكاثر المسلمين، وازدياد قوتهم، وانتشار نفوذهم بين القبائل العربية كلها، وقد يؤدي ذلك إلى خضوع «قريش لبني هاشم وبني المطلب» وهما فرعان من فروع «بني عبد مناف»، وهذا هو ما ذكره أبو جهل عندما سأله أحدهم بقوله: «ماذا سمعت من «محمد»؟» قال: «ماذا سمعت!! تنازعنا نحن «وبني عبد مناف» الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذا؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه» (١).

ومن هنا نستطيع أن نعرف أحد الأسباب الهامة التي دعت زعماء الشرك في «قريش» إلى محاربة بناء أمة إسلامية تتجمّع في «المدينة المنورة» قبل أن تنمو وتقوى شوكتها؛ ولذلك استنفروا القبائل العرلابية الأخرى لتعمل معهم في القضاء على إقامة دولة إسلامية يكون مقرها في المدينة حتى لا تسودا الأمة الإسلامية التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل على بنائها هناك.

فإذا أضفنا إلى ما تقدم أن شيوخ مشركي قريش كانوا يرون أن قيام أمة مسلمة في المدينة المنورة ولها حكومة منظمة تدعو إلى نشر الدين الإسلامي وإلى القضاء على عبادة الأوثان سيؤدي إلى حرمان قريش من مورد هام من موارد ثروتها، فقد كانوا يظنون ــ وبعض الظن إثم ــ أن

---

(١) السيرة لابن هنشام، مجلد ١ ص ٣١٦.

ما كانوا فيه من جاه وثروة، وما كان لهم من نفوذ بين القبائل كان راجعاً إلى ما تقوم به قريش من المحافظة على الأصنام التى كانت تعبدها العرب وكانوا يرصونها حول الكعبة المشرفة، وكانت القبائل العربية تحج إليها حاملة معها نذورها وما عندها من بضاعة، فيبيعون ما يحملون، ويبتاعوا من «مكة» ما هم فى حاجة إليه، وكذلك كان مشركوا قريش يظنون إن العرب كانوا يحترمون قوافل قريش التجارية ولا يتعرضون لها بسبب محافظة قريش على تلك الأصنام؛ وهكذا اختلط الأمر على زعماء مشركى قريش، ولم يدركوا أن واجبهم الذى شرّفهم الله به وهو حماية الكعبة المشرفة بوصفها أول بيت وضع للناس عندما أمر الله سبحانه «إبراهيم وإسماعيل» بإقامته ــ كان هو السبب فى احترام جميع العرب لهم؛ وقد توارثت قريش سدنة هذا البيت وحمايته، وكان ذلك قبل اتخاذ العرب الأصنام أرباباً من دون الله.

هذه بعض المبادئ والمُثُل العليا التى رأى النبى أن يعمل على هديها، فقد كان صلى الله عليه وسلم خُلقُه القرآن:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (١)

ونحن نرجو أن يوفقنا الله إلى دراسة الخطة التى رسمها، والخطوات التى اتخذها لبناء الأمة الإسلامية وإنشاء الدولة والأجهزة التنفيذية اللازمة لها.

* * *

(٢) ابتداء بناء الأمة الإسلامية ونشأة الدولة فى العام الأول من الهجرة النبوية الشريفة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مهّد لبناء الأمة الإسلامية وهو فى مكة أثناء تربيته لصحابته الأولين على مدى ثلاثة عشر عاماً؛ فقد رباهم تربية إسلامية، وكون منهم رجالاً على أعلى مستوى من الخلق الإسلامى الكريم، مما أهلهم لأن يكونوا قادرين على مساعدته فى بناء

(١) سورة النجم: الآيات ٣ ــ ٤.

صرح الأمة الإسلامية، ووضع الأساس الصالح لبناء أول دولة فى الإسلام، وجَعَلَهم قادرين على قيادة هذه الأمة من بعده فى السلم والحرب، فاستطاعوا أن ينشروا الدين الإسلامى خارج شبه الجزيرة العربية بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

وفى المرحلة الثانية من مراحل جهاده التى أدت إلى هجرته صلى الله عليه وسلم إلى «المدينة المنورة»، مهّد الرسول لتكوين الأمة الإسلامية بالعهد الذى أخذه على الأنصار فى بيعتى العقبة الأولى والثانية: فقد عاهدوه على الإيمان بالله ورسوله، وعبادة الله وحده لا شريك له، وبالإيمان بالبعث والجزاء بعد الموت، وبالأنبياء الذين أُرسلوا قبله، وبالالتزام بالشريعة الإسلامية، وأن يؤووه وينصروه، وقد كانت هاتان المبايعتان أساساً صالحاً لبداية تكوين الأمة الإسلامية فى المدينة المنورة، كما كانتا مدخلاً لإقامة دولة تَذود عن هذه الأمة، وتلتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية، ونشر الإسلام.

وكانت الخطة التى وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم تقوم على بناء الفرد المسلم على المنهج الإسلامى حتى يندمج فى مجتمع هذه الأمة ويؤمن بالولاء لها، وبذلك تقوم الأمة الإسلامية على أساس صالح يضمن لأفرادها السعادة فى الدارين، كما يضمن للجماعة العزّة والكرامة:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

وسنجتهد أن نُرتب دراستنا لأهم الخطوات التى اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم وفق حدوثها لنتخِّذ منها العبرة، وليكون لنا منها القدوة الحسنة.

* * *

بناء المسجد النبوى
وأثره فى تكوين الأمة الإسلامية

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون أول عمل ينهض به بعد وصوله إلى المدينة المنورة هو الشروع فى بناء المسجد الجامع: فيه تقام

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

الصلاة وهى عماد الدين، وليكون مقرّاً للحكم حيث يقابل فيه «محمد المصطفى» وفود القبائل وكبار الوافدين عليه بوصفه نبىّ الله ورئيس الدولة الإسلامية؛ وليكون المسجد مقرًّا يحكم فيه الرسول بما أنزل الله، فيقيم العدل بين الناس عملاً بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

كما أراد الرسول أن يكون المسجد مقرّاً لاجتماع أولى الرأى من الصحابة حيث يتدارسون فيه أمورهم، ويتشاور معهم النبى تنفيذاً لقوله سبحانه:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٢)

وأن يكون مكاناً يتلقّى فيه المسلمون العلم على معلمهم الأول خاتم النبيين والمرسلين، فيتعلمون منه ما يتنزل من آيات القرآن الكريم، ويدرسون العقائد المقرَّرة فى الإسلام، ويتدربون على العمل بما تقتضيه من الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وغير ذلك مما يُصلح حياتهم الاجتماعية:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣)

وليكون المسجد أيضاً منتدى لجميع المسلمين يقصدونه فى أعيادهم وأوقات فراغهم؛ فالمسجد كما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مكاناً

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٢.

للعبادة، ومدرسة لطلب العلم، ومقرّاً للحكم وإدارة شئون الدولة، وما يقتضيه ذلك من تنظيم لحياة الأمة الإسلامية من النواحي الاجتماعية والإدارية والحربية، كما كان مكاناً يحكم فيه رسول الله بين الناس وينشر العدل بينهم.

واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لبناء مسجده قطعة من الأرض كانت مجاورة لدار «أبي أيوب الأنصاري»، وهي الدار التي كان رسول الله قد نزل فيها قبل ذلك منذ بضعة أيام، وكان يملك هذه القطعة من الأرض يتيمان من الأنصار، وقد عرضا على النبي أن تكون هذه الأرض لله ولرسوله هدية منها، ووافق على ذلك وليّ أمرهما، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أبَى أن يقبل الهبة، واشترى الأرض بثمن مُجزٍ قدره عشر دنانير ذهباً (١)، فكان بذلك منفِّذاً لمبدأ هام من مبادئ الإسلام، فقد أمر الله بالمحافظة على مال اليتيم بقوله سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٢)

وعندما بدأ العمل في بناء المسجد، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع (٣) رداءه، وحمل اللَّبِن (٤) على صدره، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار وضعوا أرديتهم وأكسيتهم، وجعلوا يعملون وهم يقولون (٥):

لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك إذاً للعمل المضَلَّل

---

(١) نهاية الأرب جـ ١٦ ص ٣٤٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

(٣) وضع: خلع.

(٤) اللَّبِن: الطوب النيّ.

(٥) «سبل الهدى والرشاد» جـ ٣ ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧ عن رواية لأم المؤمنين «أم سلمة» وفي الأصل «جعلوا يرتجزون ويعملون»؛ وقد حذفنا لفظ يرتجزون لأن الكلام ليس رجزاً. وعجز هذا البيت في سيرة ابن هشام: «لذاك منا العمل المضلّل جـ ١ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

وطفق «النبى» صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللَّبن ترغيباً لهم فى العمل وهو [يردد] قولهم [1]:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة

ولاحظ على بن أبى طالب أن أحد الصحابة كان يتريَّث بين الحين والحين ليمسح غبار اللَّبن عن صدره، فجعل علىّ يرتجز، وردَّد خلفه الآخرون:

لا يستوى من يعمرُ المساجدا ... يدأب فيه قائما وقاعدا

ولا يُرى من الغبار حائدا

ورُوى أن أحد الصحابة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل حجراً فقال: «يا رسول الله أعطنيه» [2] فقال [له]: «**إذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله منى**»؛ وهكذا أصرَّ النبى صلى الله عليه وسلم أن يعمل فى بناء مسجده كما عمل من قبل فى بناء مسجد قباء، ليكون القدوة التى يجب أن يحتذيها المسلمون فى الإقبال على العمل، وذلك لأن العمل أساس من الأسس التى تقوم عليها سعادة الفرد والأسرة، وهو عنصر هام لسعادة المجتمع، ولهذا أمر الله المسلمين أن يعملوا:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [3]

كما شجعهم على إتقانه وإحسانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [4]

---

(1) اخترنا لفظ «يردد» لأن الرسول لم يكن يقيم الشعر. وجاء فى السيرة لابن هشام ان الصحابة كانوا يقولون:

لا عيش إلا عيش الآخرة ... اللهم أرحم الأنصار والمهاجرة

(2) الرواية عن زيد بن حارثة وانظر سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٤٨٩.

(3) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(4) سورة الكهف: الآية ٣٠.

وبيّنَ الله أن على المسلم، إذا أدى الصلاة المفروضة عليه، أن يعمل لكسب رزقه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١)

كما أبان الله للمسلمين أنه يسَّرَ لهم الانتقال فى الأرض سعياً لطلب الرزق الحلال :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٢)

فإذا لم يجدوا الطريق ميسَّراً أمامهم لطلب الرزق فى بلادهم فقد نصحهم بالهجرة :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (٣)

وذلك لأن المسلم مُكلّف بالعمل، فعليه أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غدا :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤)

وكان رفض النبى صلى الله عليه وسلم ترك العمل فى بناء مسجده، واستمراره فى الإسهام فيه تنبيهاً للقضاء على عادة كانت قد استأصلت بين زعماء القبائل وأثريائها، فقد كانوا يترفعون هم وأولادهم عن أداء العمل

---

(١) سورة الجمعة : الآية ١٠ .
(٢) سورة الملك : الآية ١٥ .
(٣) سورة النساء : الآية ١٠٠ .
(٤) سورة القصص : الآية ٧٧ .

ويتركونه ليقوم به العبيد والموالى ؛ وهكذا اقتدى الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على العمل فى بناء المسجد ، لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير ، ورئيس ومرءوس ، فكانوا جميعاً يتعاونون فى أداء هذا العمل الصالح ، اقتداء بالرسول الكريم ، وانفتح الباب لغرس حب العمل والتعاون فى أدائه ، كما بدأ الإيمان بأن العمل عبادة ؛ وأن العمل الصالح أساس نجاح المجتمع .

* * *

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأثرها فى تكوين الأمة الإسلامية ونشأة الدولة

بينما كان العمل فى بناء المسجد النبوى يسير سيراً حسناً ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسراع فى إدخال إصلاح جذرى فى تكوين المجتمع الإسلامى الذى بدأ يتكون فى المدينة ، إصلاحاً يؤدى إلى تربية الفرد المسلم تربية إسلامية صحيحة تؤدى إلى زيادة الترابط والتآلف بين المهاجرين والأنصار ، وتوثق عرى التعاون والمحبة بينهم ، بحيث تسمو هذه العلاقة ، فلا تكون قائمة على الضيافة والإكرام فقط ، ولا على الانتماء إلى القبيلة أو العشيرة ، ولا على الارتباط الوجدانى بالأسرة وصلة الرحم ، ولكنه صلى الله عليه وسلم خطَّط لبناء العلاقة بين أفراد هاتين الطائفتين منذ بداية استقراره فى المدينة (١) على أساس من الإيمان بالله ورسوله والولاء للإسلام ؛ وبذلك أصبح الولاء للدين مقدماً على كل ولاء آخر ، وقد بارك الله ذلك بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ . (٢)

---

(١) رُوى أن المؤاخاة كانت قبل بناء المسجد ، كما روى أنها حدثت أثناء البناء . كما روى الشيخان والإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم حالف بينهما .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

وكانت الخطوة الأولى لبناء صرح المجتمع الإسلامى فى المدينة على أسس سليمة هى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار(١)؛ وقد ساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه المؤاخاة بين العربى وغير العربى، وبين الحرّ والعبد، وبين الزعيم فى القبيلة وأحد الموالى، وبين الغنى والفقير: فآخى، على سبيل المثال، بين «بلال بن رباح» الحبشى مولى أبى بكر و«أبى رُويحة عبدالله الخثعمى»(٢)، أحد زعماء الأنصار وأولى الرأى فيهم، وهو أحد الذين عقد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء يوم الفتح وأمره أن ينادى: من دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن؛ كما حالف بين «عمار بن ياسر» حليف بنى مخزوم القرشية و«ثابت بن قيس»(٣)، أحد رجالات الخزرج وخطيب الأنصار وخطيب رسول الله؛ وكذلك آخى بين «ابن مسعود» خادم رسول الله و«سهل بن حنيف»(٤)، أحد زعماء الأوس ومن شجعانهم وهو أحد الذين ثبتوا يوم أحد، وكان يرمى بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبهذا التآخى كوّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسَراً إسلامية جديدة تآلفت قلوبها وتعاقدت على أن تسير فى هذه الحياة وفق المنهج الإسلامى الذى يرتقى بالسلوك البشرى إلى درجة لم تصل إليها الإنسانية من قبل، تآلفاً وصفه الله بقوله:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥)

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام جـ١ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٧، وسبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٥٢٧ ـ ٥٣٦، والدرر لابن عبد البر ص ٩٦ ـ ١٠٠ وجوامع السيرة لابن حزم ص ٧٣ ـ ٧٤ وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزى جـ١ ص ٤٩ ـ ٥٠، ونهاية الأرب جـ١٦ ص ٣٤٧.

(٢) أسد الغابة جـ٣ ترجمة ٣٠٤٦ وترجمة أخرى فى باب الكنى.

(٣) المرجع السابق ترجمة ٥٦٩.

(٤) المرجع السابق جـ٢ ترجمة ٢٢٨٨.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

وارتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا التآخي والتحالف، وأعلاه فجعله أوثق من الرابطة والعلاقة التي كانت بين الفرد والأسرة التي نشأ فيها وكان يفخر بها قبل هذا التآخي، فقد أصبح له من الحقوق والواجبات أكثر مما للأهل وذوي الرحم والنسب، وبذلك أصبح الأخ الجديد في الله مقدماً على ذوي الأرحام في الميراث، وقد أرتضى ذلك المهاجرون والأنصار عن طيب خاطر إيماناً بالله وطاعة لرسوله، وأثبتوا أن الله ورسوله أحب إليهم من كل شيء آخر:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (1)

لقد ضرب المتآخون في الله من الأنصار والمهاجرين أروع الأمثلة لما ينبغي أن يكون عليه المسلم المؤمن من الخلق الكريم؛ فقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في الشهامة والكرم، والإيواء والبذل وحسن المعاشرة حتى آثروا إخوانهم في الله على أنفسهم وعلى ذوي قرباهم. وضرب المهاجرون أروع الأمثلة على الاعتراف بالجميل وشكره، والإقرار بالفضل وذكره، مع التعفف وعزّة النفس، والترفّع عن الطمع فيما يملك إخوانهم الأنصار.

روى البخاري من عدة طرق عن «عبد الرحمن بن عوف» قوله: إنه لما قدم المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين «سعد بن الربيع»، فقال له «سعد»: إنه أكثر الأنصار مالاً، وإنه يريد أن يقسم له نصف ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه، فإذا حلّت تزوجها [«عبد الرحمن»] فأبى عبد الرحمن وقال: «بارك الله لك في أهلك ومالك»

(1) سورة التوبة: الآية ٢٤.

وطلب منه أن يدلّه على السوق؛ فدلّه على سوق بنى قَيْنُقَاع. وغدا «عبد الرحمن» إلى السوق فابتاع وباع وكسب، وعاد يحمل إلى بيت أخيه أقطاً(١) وسمناً. ثم تابع «عبد الرحمن» الغُدُوّ إلى السوق، ونما كسبه حتى أَمْهَرَ إحدى الأنصاريات، وبنى بها، وأصبح يعول نفسه وزوجه، وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يولم ولو بشاة»(٢).

وكان أكثر المهاجرين القرشيين تجاراً مهرة، فنزلوا كذلك إلى الأسواق وزاحموا اليهود في التجارة، وكانوا قد احتكروا التجارة فى المدينة قبل هجرة القرشيين إليها، ففتح الله على المهاجرين، إذ أقبل الناس عليهم يبيعونهم ويشترون منهم لأمانتهم وصدقهم الذى امتازوا به على اليهود. أما الذين لم يكونوا يحسنون التجارة فقد أقبلوا على الأعمال الأخرى فاشتغلوا بالزراعة بالأجر أو بالمشاركة.

وتوالت هجرة المؤمنين الذين تخلصوا بشتى الوسائل والحيل من تعذيب طغاة كفار مكة لهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما وصل المدينة أحدهم آخى بينه وبين أحد الأنصار ليمهد له سبيل الاستقرار فى المدينة «وليذهب عنهم وحشة الغُربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشدّ أزرهم ببعض»(٣).

ولما غدر يهود بنى النضير، بعد موقعة أحد، ونقضوا الصحيفة التى عاهدهم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يعيشوا فى المدينة مع المسلمين وغير المسلمين أحراراً، وجيراناً متعاونين على الدفاع عن بلدهم، ودبروا أن يغتالوا الرسول الكريم، ونجّاه الله من غدرهم، حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى اضطروا إلى التسليم بعد خمسة عشر يوماً

---

(١) اللبن الجامد.

(٢) كتاب البيوع الحديث رقم ١٨٤٩، والحديث ١٨٥٠ ص ٤ ــ ٥ جـ ٤ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وانظر أيضاً الأحاديث رقم ٣٣٦٣ ــ ٣٣٦٤ جـ ٦، وكلامنا هنا مختصر عن هذه الأحاديث الأربعة.

(٣) عن السهيلى فى الروض الأنف.

طالبين العفو من النبي الكريم، وأن يحقن لهم دماءهم، على أن يجلوا جميعاً عن المدينة حاملين معهم النساء والذرارى وكل ما حملت الإبل إلا السلاح: فشملهم النبي الكريم بصفحة المعروف، وكرمه المعهود، وعفا عنهم، وكان قادراً أن يبطش بهم جزاء محاولتهم الغدر به، فجلوا جميعاً عن المدينة، وأصبح كل ما كانوا يملكونه من أرض، وبيوت ومتاع ونخيل، مما أفاء الله على رسوله. ولما أراد أن يوزعه على مستحقيه استدعى نبى الله صلى الله عليه وسلم رؤساء الأنصار وخطب فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر فضل الأنصار، وترحيبهم بالمهاجرين فقد أنزلوهم دورهم، وأعطوهم من أموالهم مؤثرين إياهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله علىّ من بنى النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم [1]، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم». فتكلم «سعد بن عبادة» و«سعد بن معاذ» فقالا [2]: «يا رسول الله، بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون فى دورنا كما كانوا». ونادت الأنصار «رضينا وسلمنا يا رسول الله». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار**» [3]، وقسم النبى الأموال والأرض على المهاجرين الأولين دون الأنصار «إلا «سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة»، وكان فقيرين» [4]. وحبس الرسول منها جزءاً لنفسه كان ينفق على أهله منها، وكان يزرع تحت النخل، وكان يدخر منها قوت أهله سنة من الشعير والتمر» [5].

---

(١) المعنى أنهم يبقون كما هم.

(٢) هما زعيما الأوس والخزرج.

(٣) سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٤٦٢.

(٤) متفق عليه وانظر السيرة جـ ٢ ص ١٩٢.

(٥) سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٤٦٢؛ والنويرى: نهاية الأرب جـ ١٧ ص ١٤٤.

وأنزل الله تعالى فى وصف هذه الغزوة سورة الحشر. وبيَّن فيها حكم توزيع ما أفاء الله على رسوله، وأثنى على الأنصار بقوله سبحانه:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

* * *

المعايشة السلمية فى المدينة
وأثرها فى تكوين الأمة الإسلامية ونشأة الدولة

لما أكرم الله المسلمين فى المدينة فألّف بين قلوب الأخوة المتحابين فى الله من المهاجرين والأنصار، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بسامى حكمته وثاقب فكره، أن يعمل لتصبح «المدينة المنورة» مدينة يسودها السلام، وتنتشر بين جميع أهلها المحبة والتعاون، بحيث يعيشون فى أمن وأمان، (ويعرف كل منهم ما لَهُ) وما عليه، ويكون جميع سكانها من مسلمين ويهود وغير المسلمين من العرب جيراناً يُحسن كل فريق منهم جوار الآخرين، وأن يشتركوا جميعاً فى الدفاع عن القرية التى يسكنونها؛ ولذلك كتب بينهم جميعاً صحيفة تعاهدوا فيها على أن تسود المعايشة السلمية والتعاون فى أنحاء المدينة

---

(١) سورة الحشر: الآيات ٨ ـ ٩.

بما يضمن لسكانها حياة آمنة مطمئنة تكون سبباً في سعادة المجتمع وازدهار المعيشة. ولما لهذه الصحيفة من أهمية بوصفها أول معاهدة عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولمّا كان لها من أثر كبير في نشأة الأمة الإسلامية، لذلك فقد عنى «ابن هشام» بروايتها كاملة [1]، وكذلك عنى «أبوالقاسم بن سلام» بروايتها عن «الزهري» [2]، وعنها ذكرها «ابن كثير» [3] وحققها «محمد حميد الله الحيدر أبادي» [4]، ونحن نورد باختصار أهم ما جاء بها [5]:

أولاً: عنيت مقدمة الصحيفة بالنص على ما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من «محمد» النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وحلّ معهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة دون الناس».

وذكرهم بعد ذلك طائفة طائفة، وعشيرة عشيرة، وذكر بعد كل منها: «إنهم يفدون عانيهم [6] بالمعروف والقسط بين المؤمنين والمسلمين». كما تحالفوا على ما يأتي:

١ ــ «إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة [7] ظلم أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان

---

(١) السيرة، جـ١ ص ٥٠١ ــ ٥٠٧.

(٢) كتاب الأقوال، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة سنة ١٢٥٣ ص ٢٠٢ ــ ٢٠٦.

(٣) البداية والنهاية، جـ٣ ص ٢٢٤ ــ ٢٢٦.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة سنة ١٩٤١ ص ١ ــ ٧.

(٥) اعتمدنا على نص «الكتاب» في سيرة «ابن هشام»، وما جاء في «سبل الهدى والرشاد» جـ٣ ص ٥٥٥ ــ ٥٥٨.

(٦) العاني: الأسير.

(٧) الدسيعة: العظيمة، والمعنى إثماً عظيماً.

ولد أحدهم ... وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس».

٢ ـ «وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثا ولا يُؤيه، وأنه من نَصَره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة».

٣ ـ «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم».

ثانياً: «إنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة. غير مظلومين ولا متناصرين عليهم» ثم ذكر طوائف اليهود وبطونهم الداخلين في هذا العهد والموادعة.

وكذلك وادع المشركين على نفس شروط موادعة اليهود وذكرهم قبيلة قبيلة وبطناً بطناً، وأهم هذه الشروط هي:

١ ـ «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلاّ من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ (١) إلا نفسه وأهل بيته».

٢ ـ «إن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة؛ وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين».

٣ ـ «إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة؛ وإن الجار كالنفس غير مضارٍ ولا آثم؛ وإنه لا تُجارُ قريش ولا مَنْ نصرها... وإن بينهم النصر على من دهم يثرب».

٤ ـ «وإنه لا تجار حُرْمَةٌ إلا بإذن أهلها؛ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجار يُخافُ فساده فإن مَردّه إلى الله عزّ وجلّ،

---

(١) يوتغ: يهلك.

وإلى «محمد» رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه»[1].

٥ ـ «إنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جارٌ لمن برّ واتقى».

* * *

كان إبرام هذه «الصحيفة»، التى نطلق عليها فى زماننا هذا لفظ «المعاهدة»؛ هو الوثيقة الرسمية التى أعلنت تكوين «الأمة الإسلامية الواحدة» فقد نصّ على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم نصاً صريحاً فى مقدمتها، وكان تكوين هذه الأمة تنفيذاً لما أمر به الله سبحانه فى آيات الكتاب العزيز، مثل قوله سبحانه:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2]

وقد أوضح النبىّ الكريم فى هذه الصحيفة الدستور الذى ينظم حياة هذه الأمة فى جميع نواحيها، وهو التقوى والإيمان بالله وبرسوله، والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن الحكم مردُّه إلى الله ورسوله الذى كان يسهر على وحدة هذه الأمة.

وبهذه الصحيفة أو المعاهدة أصبحت «المدينة» هى قاعدة الأسلام حيث يعيش المجتمع الإسلامى الجديد المكون من المهاجرين والأنصار «ومن تبعهم فلحق بهم، وحلّ معهم، وجاهد معهم»، وبهذا فتح المجال لأن تكون «المدينة» ملجأ يُهرع إليه المسلمون الموجودون خارجها إذا تمكن الإيمان من قلوبهم ووجدوا مخرجاً لهجرتهم، وكذلك من ينضم إلى هذا المجتمع من «الأوس والخزرج» الذين كانوا ما يزالون على كفرهم حتى كتابة هذا العهد. ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ربط بين المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة، فإن هذه الصحيفة قد أكملت التوحيد بين «الأوس والخزرج»،

---

(١) أى أن الله سبحانه وتعالى مَنْ آمن به على الرضا بما جاء فيها.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

وجعلته أكثر صلابة وتوثيقاً ، لأنها محت بذلك آثار ما كان بينهما قبل الإسلام من عداوة وصراع وحروب .

ولم تكن موادعة اليهود ومن لم يكن قد آمن بعد من « الأوس والخزرج » (١) تنظيماً لإصلاح المجتمع ، وضماناً للمعايشة السلمية بين الناس فقط ولكنها كانت في الوقت نفسه تبياناً لسماحة الإسلام التي وردت في قوله تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٢)

وأوضحت هذه المعاهدة تعاليم الإسلام السامية التي تدعو إلى السلام والمحبة والتعايش السلمي ، وإلى ما يضمن للناس حرياتهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأعراضهم ، على أن يكونوا جميعاً في بلدهم جيراناً متعاونين ، وأن يدافعوا معاً عن هذا البلد الذي يعيشون فوق أرضه ، ويستظلون بسمائه ، وأن يلتزموا بالوفاء بما أبرموا من عهود ومواثيق .

ولقد عاملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الصحيفة معاملة المواطنين الذين يملكون كافة الحقوق المشروعة لكل مواطن ، وعليهم جميع الواجبات المفروضة عليه ، فعاهدهم واشترط عليهم ، وشرط لهم ؛ ولعل هذا هو السبب في أنه صلى الله عليه وسلم لم يفرض على اليهود الجزية مقابل ما أعطاهم وشرط لهم ، في زمن لم تكن الحضارة الإنسانية قد عرفت بعد حقوقاً للمواطن إذا اختلف في الدين مع الحاكم أو مع الأغلبية الموجودة في بلاده ، وخير شاهد على ذلك ما لاقاه أقباط مصر ، وهم مسيحيون ، من الاضطهاد والتعذيب على يد الكنيسة المسيحية في الدولة البيزنطية ؛ لأنهم تمسكوا بالمذهب المسيحي الذي كانوا يؤمنون به ، ورفضوا أن يتبعوا مذهب الكنيسة البيزنطية .

وكان إقرار اليهود أنه إذا حدث في « المدينة » حدث بين المتعاقدين

---

(١) أسلموا جميعاً بعد ذلك ؛ وإن كان قد بقي بينهم بعض المنافقين .

(٢) سورة الكهف : الآية ٢٩ .

يُخشى منه أو اشتجار، فإن الحكم فيه يكون مردُّه لله ولرسوله، كان هذا الإقرار أعترافا منهم بأن «محمداً» صلى الله عليه وسلم هو حاكم «المدينة»، وإليه يرْجع كل خلاف بين المتعاقدين، وإنهم ينزلون على حكمه.

ولقد أكرم الله تعالى الأمة الإسلامية الناشئة، فوفق رسوله صلى الله عليه وسلم في العام الأول من هجرته إلى عقد هذه المعاهدة التى تنشر السلام والأمان في قريتهم، وتوحد صفوفهم حتى يستطيعوا أن ينطلقوا من هذه القاعدة الصلبة التى أصبحت الحياة فيها تقوم على أساس من المعايشة السلمية والتماسك الاجتماعى بين سكانها، فيعملوا على نشر الدعوة الإسلامية، واضعين نصيب أعينهم قوله تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١)

وما كاد ينصرم الشهر السابع (٢) من هجرته صلى الله عليه وسلم حتى كان بناء مسجده قد اكتمل: فناءً مفتوحاً، أساسه من الحجر، وجدرانه من اللَّبِن وفى جانب منه عريش مسقوف بالجريد وسعف النخل يحملها قوائم من جذوع النخل أُطلق عليها اسم الصُّفَّة، وكان محرابه يتجه إلى بيت المقدس، وفى جانب منه بضع حجرات من اللبن، وسقفها الذى يستطيع أن يلمسه الواقف بيده كان مغطى بالجريد وسعف النخل، وقد عاش فى إحدى هذه الغرف مع زوجته أم المؤمنين سودة بنت زمعة (٣) التى كان قد تزوجها فى

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢) فى بعض المراجع ان بناء المسجد أكتمل فى الشهر التاسع.

(٣) تزوجها بعد موت زوجها وعودتها من مهجرها فى الحبشة ليحميها من أهلها الذين كانوا ما يزالون على عبادة الأصنام.

«مكة» بعد انتقال أم المؤمنين «خديجة» إلى جوار ربها ، وعاشت فى غرفة أخرى منها كريمته «فاطمة الزهراء» هى وأختها «أم كلثوم» عند وصولهما ومعهما أم المؤمنين «سودة» إلى «المدينة» ، وعاشت بعد ذلك ، فى غرفة أخرى أم المؤمنين «عائشة» عندما زفت إليه صلى الله عليه وسلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة الآية ٢٦١)



الفصل الثالث عشر

الصدقات وأثرها فى تكوين الأمة الإسلامية
فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

كانت العلاقة بين أفراد المسلمين، منذ بداية نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تقوم على أساس الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له، وبرسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى الولاء للإسلام وأحكامه، فالمسلمون جميعا أمة واحدة من دون الناس وصفها الله سبحانه بقوله :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (١)

وتربط بين أفراد هذه الأمة روابط قوية تقوم على الأخوّة والمساواة والحريّة؛ وعلى الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولذلك كان مجتمع المسلمين فى مكة، على قلة أفراده، وضعف إمكاناته، وبعده عن مراكز السلطة والسلطان والجاه، كان مجتمعا قويا بفضل ما كان يربط بين أفراده من الإيمان والتقوى والاحترام المتبادل والتكافل الاجتماعى الذى طالما حَثَّ عليه الله سبحانه فى كثير من آيات الكتاب العزيز.

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٥٢ .

وقد دخل فى الإسلام، فى بداية الدعوة، الكثيرون من الفقراء، وتوفى بعضهم تاركين خلفهم ذرية ضعافا، ولذلك نزلت الآيات الكريمة تدعو إلى إكرام اليتيم، والحض على إطعام الفقراء والمساكين، تعاونا وتكافلا بين أفراد المجتمع الإسلامى الناشىء الصغير، وكان من أول ما نزل من ذلك قوله فى سورة الفجر:

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (١)

وكذلك حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على إكرام اليتيم فقال: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة**» وقرن بين إصبعيه الوسطى والتى تلى الأبهام (٢).

وفى سورة الضحى، وهى كذلك من أوائل ما نزل من السور القرآنية ذكّر الله سبحانه نبيّه صلى الله عليه وسلم بالنّعم الجزيلة التى أنعم بها عليه: فقد آواه صغيرا، وحماه كبيرا، وأغناه بعد فقر «فجمع له بين مقامَىْ الفقير الصابر، والغنى الشاكر» (٣)؛ ثم دعاه إلى إكرام اليتيم، والإحسان إليه، وأن يرحم المسكين، ويلين له جانبه، فإذا لم يستطع أن يمُدَّ إليه يد العون فعليه أن يردّه ردا جميلا. قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٤)

وفى سورة الماعون تعجب الله سبحانه من أولئك الذين يكذبون بدين

---

(١) ذكر عبد الله بن عباس أن هذه السورة هى التاسعة فى ترتيب نزول سور القرآن الكريم سورة الفجر: الآية ١٧. فى ترتيب نزول السور أنظر «محمد على دروزة: سيرة الرسول، جـ١، ص ١٥٣ ــ ١٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود. وانظر مختصر تفسير «ابن كثير» جـ٣ ص ٣٦٨.

(٣) مختصر تفسير «ابن كثير» جـ٣ ص ٦٥٠.

(٤) الآيات من ١ ــ ٣. وذكر «عبد الله بن عباس» أن هذه كانت هى السورة العاشرة.

الوحدانية ، ولا يؤمنون بيوم القيامة وما فيه من الحساب والعقاب ، وساوى بينهم وبين الذين يقهرون اليتيم ولا يكرمونه ، والذين يبخلون فلا يطعمون المسكين وذلك فى قوله تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (١)

وقد وصف الله سبحانه هؤلاء الذين يبخلون بقوله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢)

وسدًا لحاجة الفقراء فى مكة ، أمر الله رسوله أن يبلغ المؤمنين أنهم مطالبون بإقامة الصلاة ، وبالإنفاق من مال الله الذى رزقهم ، وذلك فى قوله عزَّ من قائل :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ (٣)

ومن الملاحظ أنه سبحانه قدّم ذكر الإنفاق سِرًّا فى هذه الآية على الانفاق علانية ، وقد ورد مثل ذلك أيضا فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا

---

(١) الآيات من ١ ـ ٣ . وانظر مختصر تفسير « ابن كثير » ، جـ ٣ ص ٦٨٠ . وقد ذكر « ابن عباس أن هذه كانت السورة رقم ١٦ فى ترتيب النزول .

(٢) سورة يس : الآيات ٤٦ ـ ٤٧ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٣١ .

وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (١)

ولعلّ الله سبحانه أراد بهذا التوجيه الكريم أن يهذّب نفوس أثرياء الصحابة الأوائل ويعلمهم أنه يفضّل أن تكون صدقاتهم سرية محافظة على كرامة الفقراء؛ وحتى لا تكون الصدقة وسيلة من وسائل التفاخر أوالنفاق على حساب المحتاجين، وقد أنزل الله آيات مدنيه كثيرة تحض على ذلك تربية للمجتمع الإسلامى الناشىء هناك، مثل قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢)

وقد سبق أن ذكرنا أن العبيد والموالى كانوا يقومون فى مكة بأشق الأعمال وأصعبها، ولم تكن لهم، عند الأرستقراطية المشركه فى قريش، أية حقوق؛ ولكنهم كانوا أذلة مستعبدين، فلما رأوا سماحة الإسلام، وأمْرَه بالمساواة بين الناس، وأن التفاضل بينهم لا يكون بالمال ولا بالجاة ولكن بالتقوى، أقبلوا على الدخول فى الإسلام، وتمكن الإيمان من قلوبهم، فغضب المشركون وأخذوا يعذبونهم، وأسرفوا فى التنكيل بهم؛ فنزلت الآيات الكريمة تحض الصحابة الأولين على شراء المؤمنين من هؤلاء العبيد المعذبين، والاحسان إليهم إخوانا مكرمين فى الإسلام؛ قال تعالى:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٧٤.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (١).

وكما أوصى من قبل على البذل والعطاء لجميع المحتاجين، فإنه سبحانه يحض في سورة البلد (١) على ضرورة التكافل بين ذوى الأرحام وبخاصة أيام المجاعة حيث يندر وجود الطعام ويصبح عزيزا. وقد دعى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا التعاون والتكافل بقوله: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوى الرحم اثنتان: صدقة وصلة**» (٢). وقد بيّن الله كذلك فى صدر هذه الآيات أن من بين الطرق التى توصل للنجاة والسعادة طريق إكرام العبيد الذين آمنوا، والعمل على عتقهم وفك إسارهم من العبودية لغير الله الواحد الأحد لأن ذلك من أقرب العبادات عند الله وأجلّها.

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين أن يعتقوا العبيد المسلمين فى أحاديث كثيرة نذكر منها قوله: «**من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب (٣) منها إربا من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرِّجل الرِّجل، وبالفرج الفرج**» (٤). كذلك قال النبى الكريم: «**من بنى مسجدا لِيُذكر الله فيه بنى الله له بيتاً فى الجنة، ومن أعتق نفسا مسلمة كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة**» (٥). وهكذا بين للمسلمين أن حصول العبيد على حريتهم من أحسن الأعمال الصالحة التى يتقرب بها المؤمن إلى ربه.

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الأمثلة فى الجود

---

(١) سورة البلد: الآيات ١١ ــ ١٨ هى السورة رقم ٣٤ فى ترتيب نزول سور القرآن عند ابن عباس.

(٢) أخرجه أحمد، ورواه الترمذى، والنسائى، وإسناده صحيح. وانظر مختصر تفسير « ابن كثير» جـ٣، ص ٦٤٢.

(٣) الإرْب = العضو.

(٤) أخرجه البخارى، ومسلم، والترمذى عن « أبى هريرة ».

(٥) أخرجه أحمد عن عمرو بن عبسة.

والسخاء فأعتق كل ما كان يملك من عبيد رجالا ونساءً، ونكتفى هنا بذكر أمثلة من الجنسين، فقد أعتق من النساء «بركة أم أيمن، وهى جارية ورثها عن أبيه، وتزوجها زيد بن حارثة، (١) وكذلك اعتق من جواريه «سلمى (٢)، وخضرة، ورضوى، وميمونة بنت سعد»، ونذكر من بين من أعتقهم من الرجال: «زيد بن حارثة» (٣) «وسفينة، وصالح شقران»وكانا غلامين له صلى الله عليه وسلم، وقد عنى «محمد بن سعد» بجمع أسماء خدم رسول الله فى الطبقات الكبرى (٣).

وتقرباً إلى الله تعالى عنى «أبو بكر» بشراء سبعة من الذين كان يعذبهم زعماء المشركين فى مكة، نذكر من بينهم «زنيرة الرومية» (٤) التى آمنت فى أوائل بعثة الرسول، وعذبها المشركون، فلما أسلمت كُف بصرها من أثر التعذيب فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى لكفرها بهما، فقالت «ما يدرى اللات والعزى مَنْ يعبدُهما، إنما هذا من السماء، وربى قادر على ردّ بصرى، فأصبحت من الغد وقد ردَّ الله بصرها، فقالت قريش هذا من سحر «محمد».ومن الرجال الذين أعتقهم «أبو بكر» «بلال بن رباح» وهو أحد الذين أسرف زعماء الارستقراطية القرشية فى تعذيبه فأعتقه «أبوبكر» فكان من أتقى المسلمين وأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال عنه «عمر بن الخطاب»: «بلال سيّدُنا، وأعتقه سيّدُنا».

لقد شرع النبى صلى الله عليه وسلم فى تربية الصحابة الأوائل، منذ بعثه الله سبحانه، تربية إسلامية تقوم على المبادئ العامة التى أوحيت إليه لتنظيم المجتمع من جميع نواحيه، وبخاصة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والروحية، وكان يأخُذ نفسه بتنفيذ تلك المبادئ، ليكون القدوة الصالحة أمام

---

(١) أنظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) سلمى زوجة أبى رافع وترجمتها برقم ٦٩٩٩، «أسد الغابة» جـ ٧ ص ١٤٧.

(٣) جـ ١ فصله ٩ ص ١٧٩ ـــ ١٨٠.

(٤) أسد الغابة جـ ٧ ترجمة ٦٩٤٠

جميع أصحابه، وكان يعلمهم آياتها، ويحفّظهم إياها فور نزولها، ثم يراقب التزامهم بتنفيذها.

وقد قدمت السيدة «خديجة أم المؤمنين» للإسلام وللإنسانية أجلّ الخدمات، فقد كفلت جميع المسلمين أثناء الحصار الذى ضُرب عليهم فى شعب «أبى طالب» أكثر من ثلاث سنوات، إذ سوّل الحمق والكفر لزعماء الارستقراطية القرشية أن يمنعوا الطعام عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الذين دخلوا معه الشّعب من المؤمنين وعن «بنى هاشم وبني المطلب»، وحرّموا على التجار أن يبيعوهم أويبتاعوا منهم رغبة فى أن يهلكوهم جوعا أويجبروهم على التخلّى عن نبىّ الله ويسلموه لهم ليقتلوه؛ ولكن عين الله الساهرة كانت تحرس رسوله ومن كان معه، فألهمت السيدة «خديجة أم المؤمنين» أن تستعين بأهلها فكانوا يشترون لها الطعام حبا واكراما لها، فقد كانوا يبادلونها حبًّا بحب وإعزازا بإعزاز، وثابرت وثابروا حتى جعل الله لرسوله من أمره يسرا فنجا ونجا معه كل من كان فى الشّعب و وأنفقت أم المؤمنين فى سبيل الله وإنقاذا لرسوله من الهلاك أكثر ما كانت تدخر من مالها.

* * *

الصدقات والزكاة وأثرها فى تكوين الأمة الإسلامية فى بداية هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

لم ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إتمام بناء مسجده وبيوته، ولكنه سارع إلى تنظيم المجتمع الإسلامى فى المدينة، كما ذكرنا من قبل، حتى يوحّد بين أفراد هذا المجتمع الناشىء بحيث يقوم على أساس متين من المحبة والأخوة والتعاون الوثيق بين المسلمين، فكان أن آخى بين المهاجرين والأنصار على الوجه الذي بيّناه، قال «ابن الجوزى»: «وقد أحصيتُ جملة من آخى النبىّ بينهم فكانوا مائة وستة وثمانين رجلا» (١)؛ ثم أخذت

(١) انظر «تلقيح فهوم أهل الأثر» طبع الهند. والنقل هنا من «امتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع» للمقريزى، جـ ١ ص ٥٠ الطبعة الثانية.

هجرة الصحابة الأوائل تتابع بعضها فى إثر بعض على المدينة، فكان النبى كلما وصل مهاجر آخى بينه وبين أحد الأنصار حتى ازداد عدد المهاجرين زيادة كبيرة.

وكانت «المدينة» قرية صغيرة يقوم اقتصاد أصحابها من العرب على الزراعة، لأن اليهود كانوا قد احتكروا فيها التجارة والصناعة، ولذلك نستطيع أن ندرك أن ثروة «الأوس والخزرج» كانت محدودة، وأنه كان لا بد من العمل على تنظيم الحياة فى هذا المجتمع تنظيما يجعل معيشة أهله الأصليين والوافدين عليهم عيشة ميسّرة بحيث يتيسّر الرزق لهم جميعا، وبحيث لا يكون وجود المهاجرين عبئا ثقيلا على الأنصار؛ ولذلك كان من أول توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين جميعا هو ضرورة النزول إلى ميادين العمل المختلفة كسبا للرزق الحلال؛ وله أحاديث كثيرة تحث على العمل، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده» (١) وقوله صلى الله عليه وسلم: «لأن يحتطب أحدكم على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه» (٢).

وقد سارع المهاجرون إلى العمل لكسب قوتهم، ورُوى عن ام المؤمنين عائشة قولها: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عُمَّال أنفسهم، وكان يكون لهم أرواح فقيل لهم: لو أغتسلتم!!» (٣) وقال أبو بكر الصديق عندما استُخلف: «لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مئونة أهلى، فسيأكل آل «أبى بكر» من هذا المال، ويحترف للمؤمنين فيه» (٤)؛ وكان «أبوبكر» يعمل تاجراً، فقد ذكرت أم المؤمنين

---

(١) البخارى رواية عن المقدام، الحديث رقم ١٨٧٠، جـ ٤، ص ١٨.

(٢) البخارى رواية عن أبى هريرة. الحديث رقم ١٨٧٢، جـ ٤ ص ١٨ ــ ١٩.

(٣) البخارى رواية عن عروة. الحديث رقم ١٨٦٩ ص ١٨، جـ ٤. المعنى أنه كانت لهم روائح فيها شيىء من أثر العرق والعمل، ولذلك نصحوا بالاستحمام.

(٤) البخارى رواية عن عائشة أم المؤمنين بطريق الزبير، ص ١٧ ــ ١٨، جـ ٤.

«أم سلمة»: «خرج أبوبكر، رضى الله عنه، فى تجارة إلى «بصرى» قبل موت النبى صلى الله عليه وسلم» (١).

وكان «طلحة بن عبيد الله» بزازا (٢)، وهو من أوائل الذين دخلوا فى الإسلام ومن أوائل المهاجرين إلى المدينة؛ ولم يستطع حضور معركة «بدر» الكبرى لأنه كان فى تجارة له بالشام، فلما عاد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمه عن غنيمة «بدر»، فاستجاب له وأسهمه؛ وروى «ابن عبدالبر» أن الرسول بعث قبل خروجه «لبدر طلحة بن عبيدالله ومعه سعيد بن زيد إلى طريق الشام يتحسسان له الأخبار، ثم رجعا إلى المدينة يوم «وقعة بدر» فضرب لها الرسول بسهميها وأجرهما» (٣).

وكان «عثمان بن عفان» بزازا أيضا، وقد كسب من تجارته أموالا طائلة ساعدته على تجهيز جيش العُسْرة بتسعماية وخمسين بعيرا. وتمَّ الألف بخمسين فرسا (٤). وكذلك اشتغل «عبد الرحمن بن عوف» بالتجارة، وبارك الله له فربح أرباحا طائلة، وقد «تصدق على عهد رسول الله بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة» (٥).

هذه أمثلة لبعض من اشتغل بالتجارة وفتح الله لهم أبواب الرزق الحلال، وكان جميع التجار المهاجرين من قريش «وكانت التجارة أصل قريش ونسبها» كما قال «الوليد بن عبد الملك» لأولاده (٦)، ولكن كان أغلب المهاجرين لا يحسنون التجارة فاشتغل أكثرهم بالزراعة مشاركة مع أهل المدينة

---

(١) البخارى جـ ٤ ص ٦٩٧. ونقلنا عن أبى عمر بن عبد البر فى الاستيعاب.

(٢) تاجر حرير.

(٣) «تخريج الدلالات السمعية» للخزاعى التلمسانى ص ٦٩٢ وهما من المبشرين بالجنة.

(٤) جيش العُسْرة فى تبوك. والرواية عن الاستيعاب لابن عبد البر.

(٥) عن «أسد الغابة» جـ٣ ترجمة رقم ٣٣٦٤ ص ٤٨٣، رواية عن الزهرى.

(٦) تخريج الدلالات السمعية ص ٦٩٥.

المسلمين أوغير المسلمين، ولم يترفع بعضهم عن أن يعمل عندهم أجيرا يكتسب رزقه، وكانت هناك طائفة أخرى من المهاجرين ممن لا يحسنون عملا ولا يطيقونه لضعفهم أوكبر سنهم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكفلهم، ومن بين هؤء «أهل الصفة» فقد كان يعولهم ويعلّمهم أصول الدين وأحكامه، وكان الرسول كثيرا ما يشح الطعام عنده فلا يجد لهم ولا لنفسه ما يأكلون، فكان يعيش وإياهم على الطوى دون طعام أياما عدة حتى انهم كانوا يشدُّون الحجر على بطونهم من الجوع كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن يأتى الله بالفرج؛ وروى البخارى عن قتاده عن أنس: «أنه مشى إلى النبى بخبز شعير وإهالة سنخة[1]، ولقد رهن النبى صلى الله عليه وسلم، درعا له بالمدينة عند يهودى، وأخذ منه شعيرا لأهله. ولقد سمعته يقول: ما أمْسَى عند «آل محمد» صلى الله عليه وسلم، صاع برٍّ ولا صاع حب، وإن عنده لتسع نسوة»[2].

وقد اقتضت حكمة الله أن لا يترك المحتاجين من الفقراء والضعفاء والمساكين تحت رحمة الأغنياء والقادرين: إن شاءوا تفضّلوا وأعطوا، وإن شاءوا بخلوا ومنعوا، لأن ذلك يؤدى إلى أن تصبح الحياة الاجتماعية خاضعة لسيطرة الأغنياء ونزواتهم بما يقضى على مبدأ المساواة بين الناس، ويخلق النزاع والحقد والتطاحن بين طبقات الأمة، ولذلك اقتضت حكمة الله أن يفرض لطوائف مُعيّنة من الفقراء والمساكين وغيرهم من المحتاجين نصيبا معلوما فى أموال الأغنياء والقادرين أطلق عليه اسم «الزكاة»، وهى، كما أرادها الله، ليست إحسانا ولا مِنّة من الأغنياء يتفضلون بها على المحتاجين؛ ولكنها حَق مقرّرٌ لهم فيما يملكه الأغنياء مما أفاء الله به عليهم. وعلى

---

(١) الإهالة السخنة هى إلية أونحوها من الدهون متغيّرة.

(٢) البخارى حديث رقم ١٨٦٨، جـ ٤، ص ٧.

القادرين أن يقدموها إلى مستحقيها أوأن تجمعها الدولة وتقوم بتوزيعها عليهم وفق مصارفها ، قال تعالى يصف عباده المتقين :

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (١)

«والزكاة» هى أحد أركان الإسلام الخمس ، وهى ثالث ركن فرضه الله على عباده المسلمين بعد الشهادتين والصلاة ، وكما يؤدى المسلم الصلاة فى أوقاتها ، فإن عليه أن يؤتى الزكاة إلى مستحقيها فى مواعيدها ، قال تعالى يصف عباده المؤمنين :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٢)

«والزكاة» صدقه ؛ ولكنها ليست كغيرها من الصدقات التى يقدّمها الإنسان أنّى شاء ، ويهبها لمن يشاء متى شاء ؛ فهى صدقه فرضها الله على القادرين من عباده ، وحدّد لها مصارف سبعة لا يجوز أن تصرف إلا فيها ، وتستحق عندما يحول عليها فى ملكيّة حائزها حولا كاملا ، وقد بين الله مستحقيها فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣)

---

(١) سورة المعارج : الآيات ٢٣ ــ ٢٥ .
(٢) سورة الحج : الآية ٤١ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

وكان الله فيما فرض عادلا مع الأغنياء بقدر ما كان رحيما وكريما مع المحتاجين والمستحقين للزكاة ؛ فقد فرض للمحتاجين نصيبا معلوما وقرّرَ له نسبة يسيرة وضئيلة فى أموال الأغنياء لا ترهقهم ، ولا تُؤثِّر لضآلتها على أموالهم ودخلهم ، ولا تكون ثقيلة أو كريهة على نفوسهم ؛ ولكنها إذا جُمعت تصبح موردا طيبا ، وتَوْسِعَةً على المستحقين حتى يستطيعوا أن يعيشوا عيشة كريمة ، يرفع الإسلام بها من مستوى معيشتهم بحيث لا يكون فى المجتمع الإسلامى فقراء مدقعين أو ضعفاء غير قادرين يحقدون على الاغنياء والمترفين.

وكما شمل الله الحكيم المحتاجين بعطفه وكرمه وقرر «الزكاة» حقاً لهم لينقذهم مما يلاقونه من الضنك فى هذه الحياة ، فإنه كذلك شمل القادرين المكلّفين بأداء الزكاة بعدله وعطفه وكرمه فقد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أن أداء هذه الصدقة يُطهّر أموالهم كما يُطهّرهم مما اقترفوا من الذنوب ، ويُذهب عنهم بعض ما وقعوا فيه من خطيئة لأن الحسنات يذهبن السيئات ، وأن يبين لهم أن أخْذَ الرسول للزكاة منهم يُنَمّى حسناتهم التى قدموها فى حياتهم ، ولذلك أمر الله سبحانه النبىَّ صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم بالخير جزاء ما قدموا من الصدقات حتى تطمئن نفوسهم ؛ وذلك فى قوله تعالى مخاطبا رسوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

ولم يكتف الله بفرض الزكاة على الأغنياء لمصلحة المحتاجين ، ولكنه تعالى لكرمه حض عباده المتّقين على أن تسخو نفوسهم فينفقوا ويصّدقوا ، ويتمسكوا بالخلق الكريم متحلّين بالصبر ، وذلك لينشأ المجتمع الإسلامى الجديد على أساس من الخلق الكريم ، والتماسك بين الأخوة المؤمنين ، ويقوم بينهم التكافل الاجتماعى ، وتتعاون طبقات الأمة بعضها مع بعض ، كما أوصى

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

سبحانه بالبّر بين ذوى الأرحام حتى تصبح الصلة بين أفراد الأسرة، وهى نواة المجتمع، قوية والترابط بينهم متينا. قال تعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١)

ووجّه الله المؤمنين وحضهم على عمل الخير وتقديمه لجميع المحتاجين، وفى مقدمتهم ذوى الأرحام حتى يكون التكافل والتعاون بين أفراد الأسرة الواحدة كاملا، ويكون البرُّ بالضعفاء من اليتامى والمساكين، سببا من أسباب سعادة المجتمع الإسلامى وذلك فى خطابه للنبى صلى الله عليه وسلم بقوله:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

والقرآن الكريم به الكثير من الآيات البليغة التى ترغّب فى معالجة أمراض المجتمع وتعين عند النوازل التى تنزل بالأمه الإسلامية فهى تدعو إلى البذل للمحتاجين والانفاق فى الجهاد فى سبيل الله، حتى عبّرت عن

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٥.

الصدقه بأنها قرض من العبد إلى ربه سبحانه فهو الغنى الحميد الذى يكافىء على هذا العمل الطيب ويردُّه أضعافا مضاعفة لأنه هو الرزاق الكريم الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. قال تعالى :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

ومن الآيات الكريمة التى تشجع على الصدقات وترغِّب فى تقديمها وتبين الثواب العظيم المضاعف لمن يبذل فى سبيل الله قوله سبحانه :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

وقد أوضحت الآيات الكريمة بجلاء أن لتقديم الصدقات إلى مستحقيها آدابا يجب مراعاتها محافظة على كرامة الذين تقدم إليهم، وعدم المساس بمشاعرهم، من بينها ما سبق أن ذكرناه فى تفضيل الصدقة المقدمة سرّا على ما يُقدَّم منها جهرا ؛ ومنها كذلك ما أوصى به الله فى قوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٣)

ونزلت الآيات الكريمة التى تنذر الذين يبخلون فيمتنعون عن تقديم الصدقات، ويكنزون الأموال من الذهب والفضة ويحبسونها عن التداول

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة : الآيات ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .

ويمنعون زكاتها كما يمنعون الانفاق فى سبيل الله، أنذرهم بالعذاب الأليم، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (١)

وقد أدى فرض «الزكاة» بنِسَب معيَّنة فى جميع ما يملك الأغنياء والقادرون إلى ضرورة اختيار عمالٍ قادرين على جبايتها، وكان الرسول يقدر هذه الوظيفة حق قدرها لما لها من أثر فى خدمة المجتمع، فقد روى الترمذى عن رافع بن خديج قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«العامل على الصدقة بالحق كالغازى فى سبيل الله، حتى يرجع بيته»** (٢) ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يختار لها من بين أكفأ أصحابه وأعدلهم، وممن أوكل إليهم ذلك من قريش «عمر بن الخطاب»، فقد خرَّج مسلم عن أبى هريرة قوله: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم «عمر» على الصدقات (٣)، وكذلك اختار لها «خالد بن سعيد بن العاصى» وهو من أوائل الصحابة الذين آمنوا، فقد قيل إنه كان رابعهم أو خامسهم (٤).

واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار، كما روى الترمذى، على الصدقات «معاذ بن جبل»، فقد بعثه إلى اليمن (٥)، وهو من

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٣٤ ــ ٣٥.

(٢) جامع الترمذى: أبواب الزكاة، باب ما جاء فى العامل على الصدقة بالحق.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب تقديم الزكاة ومنعها.

(٤) ابن هشام جـ ٢، ص ٥٨٣.

(٥) متفق عليه.

أعلم الصحابة وأعدلهم، فقد روى البخارى عن ابن عباس بسنده : (أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث «معاذا» ــ رضى الله عنه ــ إلى اليمن؛ فقال : «ادعهم إلى شهادة ان لا إله إلا الله وأني رسول الله؛ فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة فى أموالهم : تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدّ على فقرائهم»)(١).

وكذلك اقتضت الحاجة أن يستعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الصحابة لِيَكتبوا له أموال الصدقة، وقد ذكر ابن حزم «كان كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصدقات «الزبير بن العوام»، فإن غاب أو اعتذر كتب «جهم ابن الصلت»، «وحذيفة بن اليمان» (٢).

وهكذا كان فرض الزكاة سببا فى بداية تكوين جهاز من أجهزة الدولة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى بنفسه باختيار من يقوم بهذا العمل من بين من يثق فى كفايتهم من الصحابة .

---

(١) المجلد الثالث باب وجوب الزكاة الحديث رقم ١٢٦٣.

(٢) جوامع السيرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

« سورة البقرة الآية : ١٨٣ »

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

« البقرة : ٢١٦ »



الفصل الرابع عشر

الصوم والجهاد وأثرهما فى تدعيم بناء الأمة وتنظيم الدولة الإسلامية

* * *

(١) الصوم وأثره فى تكوين المجتمع الإسلامى فى أوائل عهد رسول الله بالمدينة

فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله الصيام على الأمة الإسلامية بقوله سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾(١) ؛

فهو عبادة فرضها الله على المؤمنين من عباده ، فكانت الركن الرابع من أركان الإسلام الخمس . وقد عُنيت الآيات الكريمة ببيان ما يجب أن يعلمه المتقون عن هذه الفريضة ، فذكرت أن الزمن المقرر لها هو شهر كامل كل عام ، وأن الله سبحانه اختار لها شهر رمضان ، وأبان للناس سبب هذا الاختيار بقوله :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

وقد شاءت إرادة الله أن تقع ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر، فى رمضان، وبيَّن الله فضلها بقوله:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ (١).

وقد بيَّن الله ما يدخره من الجزاء لمن يؤمنون به، ويؤدون ما فرض عليهم، ويبتعدون عما نهاهم عنه، أنه قريب منهم، يسمع تضرُّعهم، ويستجيب لتوسلاتهم، وأمرهم أن يداوموا على الطاعة بقوله:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢)

وقد أشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل الصيام ووصف المقبول منه، كما بيَّن الجزاء الذى ادَّخره الله للصائمين مما رواه البخارى عن أبى هريرة بسنده «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله: **« كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به. وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب(٣)، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل انى امرؤ صائم. والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم(٤) أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحها: إذا أفطر فرح، وإذا لقى ربه فرح بصومه »** (٥).

---

(١) سورة القدر.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٣) الصَّخب هو رفع الصوت فى المخاصمة.

(٤) الخلوف تغيُّر رائحة الفم.

(٥) الحديث ١٧١٧ جـ٣ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

والصيام كما أمر به الله هو الإمساك عن الطعام والشراب طوال النهار ابتداء من قبيل الفجر حتى غروب الشمس، قال تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ (١)

ويمتنع الصائم كذلك عن مباشرة زوجته حتى لا يتمتع بالنهار؛ بما أحلّه الله له فى غير رمضان باللذة الجنسية: قال تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٢)

وفى تأدية هذه الفريضة، طوال شهر كامل، تدريب للفرد المسلم على الصبر، وتعويد له على كبح جماح شهواته، ولا يتأتى للفرد تنفيذ هذا الحرمان إلا إذا كانت روحه قد تشبّعت بالإيمان الذى يجعله قادراً على أن يكون قوى الإرادة بحيث يصبح من الذين يقدرون على الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس؛ وهذا كان شأن الصحابة زمن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقد سمت روح الصائمين فى غزوة بدر الكبرى، واشتدت عزائمهم فازدادوا قوة على قوتهم، ولم يصبر بعضهم برهة ليأكلوا التمرات التى أباح لهم الرسول الرحيم أن يأكلوها، بل رموها من أيديهم، وأقبلوا على القتال والصراع مع المشركين المتخمين يبتغون نصر دين الاسلام أو الشهادة فى سبيل الله، فأعانهم ربهم القوى العزيز، وجزاهم نصرا للاحياء، وجنة للشهداء (٣)

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٣) انظر الفصل الخامس عشر.

وكان فى تربية الفرد المسلم على هذا المنهج الذى شرعه الله، فأمره بالأمساك عن الطعام والصبر على العطش والابتعاد عن الشهوات فى دورة تدريبية تطول شهراً كل عام، كان فى ذلك خلق لمجتمع قوى يستطيع كلّ فرد فيه أن ينهض بتأدية المهام الصعبة التى يناط به تأديتها، وأن يجاهد حتى يتغلب على مايصادفه من عقبات، وهكذا كان المسلم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما جعل النصر حليف المسلمين فى النهاية؛ وما كانت هزيمة أُحُد إلا بسبب تغلُّب شهوة الكسب وجمع الغنيمة على رماة المسلمين الذين كانوا يحمون ظهر النبى ومن معه من المجاهدين.

وقد أدى الصبر فى طاعة الله على هذا المنوال إلى تربية النفس فى المجتمع الإسلامى، والسموّ بها سمواً جعلها تؤثر بالخير إخوانها فى الإسلام ولو كان بها خصاصة، وهكذا كان الصحابة فى عهد رسول الله، فقد آوى الأنصار المهاجرين، فرضى الله عنهم. وشكر عملهم كما بيّنّا من قبل، وعفّ المهاجرون برغم ما كانوا عليه من فقر فنزلوا مبادين العمل، ففتح الله عليهم ورزقهم، وبذلك تكوَّن مجتمع إسلامى كما أراد له أن يكون: مجتمعاً متعاوناً متحاباً فى الله، داعياً إلى الخير، وآمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.

ولا شك أن الصيام وما يشعر به المسلم من حاجة إلى الطعام والشراب، وما يؤلمه من الجوع والعطش، يبعث فى النفس المؤمنة العطف على الجائعين من اليتامى والفقراء والمساكين، والشعور بما هم فى حاجة إليه من الغوث والمعونة، ويجعل النفس الطيبة أكثر سخاء، فيزداد ماتقدمه من البذل والعطاء، وتصبح أكثر استعداداً إلى البرّ بهم ومواساتهم، وهذا هو التكافل الاجتماعى الذى كان عليه المؤمنون زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبى الكريم مثلاً يحتذى به فى الجود والعطاء والبرّ بالمحتاجين طوال العام وبخاصة فى شهر رمضان. روى البخارى عن ابن عباس بسنده قال: «كان النبى صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير؛ وكان أجود مايكون فى رمضان. حين يلقاه جبريل؛ وكان جبريل عليه السلام يلقاه

كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ: يعرض عليه النبى صلى الله عليه وسلم القرآن؛ فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريخ المرسلة» (1).

وكان أول صيام لرمضان فى العام الثانى من الهجرة، وقبل أن ينتهى هذا الشهر بيوم أو يومين أمر الله عباده بتقديم زكاة الفطر شكراً لله على أن وفقهم لتأدية هذه الفريضة، وإتماماً لطهارة الصائم، وبرّاً وطعمة للفقراء والمساكين، وكلّف الله بها كل مسلم ومسلمة، صغيراً أو كبيراً، حراً أو عبداً؛ وزكاة الفطر سنة واجبة فى مذهب ابى حنيفة، ولكن فى مذهب مالك والشافعى وأحمد فريضة، وقدرها صاع من تمر أو من شعير على كل فرد، وروى البخارى عن ابن عمر بسنده قوله: «ان النبى صلى الله عليه وسلم أمر بزكاة الفطر قبل خروج الناس للصلاة» (2).

وكان فى الأمر بتقديم زكاة الفطر دعوة كريمة للصدقة والانفاق على من يحتاج إليها دون أن يريق ماء وجهه فى السؤال فى يوم العيد، وبذلك تكون الفرحة عندهم فرحتين، فرحة بتوفيق الله لهم على تأديتهم فريضة الصوم، وفرحة ثانية لما يقدم لهم من برٍّ وإحسان تجعلهم قادرين على الترحيب بالعيد والاحتفاء بمقدمه وبالتوسعة التى أمر الله بها عليهم وعلى عيالهم؛ وقد كان المؤمنون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حريصين تقديم هذه الصدقة حرصاً على اسعاد جميع طبقات الأمة الإسلامية فى يوم عيدها.

ولا يفوت المؤرخ أن يذكر أن الله سبحانه جعل رمضان شهر نصر وبركة على رسوله خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى من كان معه من عباد الله الصائمين، إذ أعزهم الله فيه بأكبر الانتصارات التى أنعم بها عليهم، وكان أولها فى «غزوة بدر الكبرى» فى السابع عشر من شهر رمضان فى السنة

---

(1) الحديث ١٧١٥ جـ٣ ص ٢٩٣.

(2) زكاة الفطر ومقدارها متفق عليها وانظر الحديث رقم ١٣٦٥ جـ٣ ص ٧٨.

الثانية من الهجرة، فقد كان نصراً عزيزاً أشرق به فجر الإسلام، وسمت فيه روح الصائمين، وتجلت عزيمة المؤمنين طلباً لإحدى الحسنيين: الاستشهاد فى سبيل الله طلباً للجنة أو النصر أعلاءً لكلمة الله حتى ينتشر نور الإسلام، ويزول الشرك بالله فتكسر الأصنام؛ معتمدين فى جهادهم على الواحد الأحد، الذى لا يخلف ما وعد، فهو القادر على أن ينصر رسوله كما وعد، فجزاهم الله نصراً عزيزاً، وعلواً فى الدنيا والآخرة.

وكان النصر الأعظم الثانى يوم الفتح الأعظم صباح الجمعة العشرين من رمضان فى السنة الثامنة من الهجرة، يوم دخل خاتم الأنبياء والمرسلين منتصراً على رأس جيش المؤمنين «مكة» رافعين راية الإسلام، حيث قضوا على مركز عبادة الأصنام ومحوا منها الشرك بالله الواحد الأحد، فكان نصراً وصفه الله سبحانه بقوله:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١).

وقد حاول كثير من العلماء فى مختلف العصور أن يصلوا إلى معرفة الحكمة الالهية فى فرض عبادة الصوم فى كثير من الديانات السماوية، فكانوا كلما تقدمت الحضارة الإنسانية، وازداد نمو العلوم وتفرعت المعارف، اكتشفوا أن للصيام فوائد كثيرة تعود على الفرد وعلى المجتمع البشرى كله ولكن لم يدركها الذين عاشوا من قبلهم، ولذلك ازداد العلماء المتقون إيماناً بفضل الصيام على الصائم الذى يؤديه على الوجه الصحيح الذى أمر به الله وبأثره الكبير فى الارتقاء بالمجتمع البشرى فى كثير من النواحى وبخاصة فى الارتقاء بالمشاعر الإنسانية السامية والترابط الروحى بين الأغنياء والفقراء وبين الأقوياء والضعفاء.

---

(١) سورة النصر.

(٢) الأمر بالجهاد وأثره فى بناء الأمة الإسلامية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً، ونشأ بين أفراد شعب أمّى لم يتعلم القراءة والكتابة منهم إلا نفر قليل، ولم تكن لديهم مثل ما كان لدى جيرانهم من الفرس والروم مدارس أو معاهد يتلقون فيها العلم؛ ولم تنشأ فى بلادهم علوم فلسفية أو اجتماعية، ولم يكن بينهم مَنْ يَدّعى العلم بشىء من ذلك، ولم تكن لديهم كتب يعتزُّون بها مثل ما كان منها لدى اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون بينهم، ويتعاملون معهم، وصدق الله العظيم الذى وصفه فى كتابه العزيز بقوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

وهذا الصراط المستقيم هو دين الإسلام الذى أنزله الله يستكمل به ما جاءت به الأديان السابقة حتى يسمو بالإنسان ليصبح جديراً بأن يكون

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢ ـ ٥٣.

خليفة الله فى الأرض. ويقوم هذا الدين فى جوهره على الإيمان بإلهٍ واحد لا شريك له. وقد أعان الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم، فى العام الأول للهجرة على بناء أساس صالح لأمة جديدة تعيش وتعْمل وفق المنهج الذى رسمه هذا الدين فى الآيات الكريمة التى أُوحيت إليه من آيات الكتاب العزيز، داعيةً إلى الحق، والعدل، والحرية، والأخوة الإنسانية وغير ذلك من التعاليم السامية بقوله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

وقد أعان الله رسوله فى العام الأول من هجرته، فاستطاع أن يجمع صفوف هذه الأمة الإسلامية الجديدة، وأن يُوجِد رابطة جديدة بين أفرادها، كما استطاع أن يضع أساساً للأمن والأمان والتعايش السلمى بين جميع السكان الذين كانوا يعيشون داخل هذه القرية من مسلمين ومشركين ويهود، تقوية للجبهة الداخلية، وشرع فى تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، وبذلك أصبحت «المدينة» مركزاً يصلح للبدء منه فى نشر هذا الدين والدفاع عنه وعما يدعو إليه من المُثُل العليا.

وكان الرسول الكريم قد ظل يدعو، طوال ثلاثة عشر عاماً أثناء إقامته فى مكة، مشركى قريش وغيرهم من القبائل إلى الدخول فى هذا الدين الحنيف بالحكمة والموعظة الحسنة وفقاً لتعاليم ربّه، على أمل أن يهديهم الله لدينه، ولاقى فى سبيل هذه الدعوة الكثير من العَنَت والاضطهاد؛ ولكنه صبر وصابر حتى تفضل الله عليه، وجعل له من أمره يسرا، وهيّأ له بيئة صالحة يستطيع أن يعمل منها على نشر هذا الدين عزيزاً كريماً، بعيداً عن قريش معقل القبليّة، والعصبية الجاهلية، ومركز الشرك بالله. وعبادة

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

الأصنام ، فلما استقرت له الأمور في «المدينة» على الوجه الذي بيناه وبدأت الأمة الإسلامية تشعر بعزتها وقوتها ، أصبحت الظروف مهيأة وميسّرة للبدء في نشر الدعوة الإسلامية على نهج آخر غير الذي نهجه في مكة ، ولذلك بدأ في العام الثاني من الهجرة يعمل على تقوية بناء الأمة الإسلامية الجديدة التي أنشأها ، وعلى تدعيم الدولة التي تستطيع أن تقف في سبيل كل مَن تحدثه نفسه بالاعتداء على هذه الأمة رغبة في القضاء عليها في مهدها .

وحدث أن ازداد طغيان زعماء قريش، واشتد حقدهم على الإسلام والمسلمين ، فأوغلوا في تعذيب من استطاعوا احتجازهم في قريتهم من المسلمين ، وبالغوا في محاولة فتنتهم عن دينهم ، كما أفرطوا في الاستيلاء على أموال المهاجرين وبيوتهم (١) ، ولذلك كان لا بد من كبح جماح جبروت الأرستقراطية القرشية وإرهابهم محافظة على المسلمين الذين كانوا محتجزين لديهم ، وتخفيفاً مما كان يقع عليهم من العذاب حتى يهيّىء الله لهم الفرصة لاسترداد حريتهم ؛ كما كان من العدل أن يسترد المهاجرون ما انتزع منهم ظلماً من أموال ، أو تعويضهم عن بعض ما اغتصب منهم ، ولذلك أنزل الله تعالى ، في بداية العام الثاني للهجرة آياته الكريمة التي تسمح للمهاجرين ، الذين ظلموا واضطروا للفرار بدينهم طلباً للحرية والعدل ، أن يقاتلوا المشركين الباغين حتى يستعيدوا بعض حقوقهم أو أن يستولوا منهم بالقوة على ما يعوضهم عن بعض ما اغتصب منهم ، وإيقافاً لطغيان الأرستقراطية القرشية ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) من ذلك عدوان أبي سفيان على بيت بني جحش وبيعها انظر السيرة جـ١ ص ٤٩٩ .

﴿ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (1).

وقد حرصت الآيات القرآنية الكريمة على أن تُبين للمؤمنين بوضوح أن الإسلام لا يقتصر على دعوتهم أن يسالموا من سالمهم، ولكنه يدعوهم أن يبروهم، وأن يحسنوا إليهم، وأن يعدلوا معهم، قال تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (2).

ولما تمادت قريش فى غيها، وأملى الحقد عليهم أن يعملوا على تأليب القبائل الموالية لهم للاعتداء على المسلمين، أمر الله المؤمنين بردّ العدوان والدفاع عن أنفسهم؛ ولكنه سبحانه أمر ألاّ يكونوا البادئين بالعدوان وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (3).

ولما كثر أعداء المسلمين وانضم اليهود إلى مشركى قريش، ودأبوا جميعاً على الكيد للمسلمين، واستنفروا القبائل العربية الأخرى لتنضم إليهم فى محاربة المسلمين رغبة فى القضاء عليهم وعلى دينهم حثّ الله سبحانه المؤمنين على الجهاد فى آيات كثيرة نذكر منها:

---

(1) سورة الحج: الآية 39 ـ 41. وقد روى الحاكم فى المستدرك عن عبد الله بن عباس أن هذه الآيات هى أول ما نزل فى الإذن بالجهاد فى سبيل الله.

(2) سورة الممتحنة: الآية 8.

(3) سورة البقرة: الآية 190.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١).

ولما أجمعت القبائل المشركة أمرها واتحدت مع اليهود على حرب المسلمين رغبة فى القضاء على الأمة الإسلامية التى نشأت فى «المدينة» قبل أن يشتد عودها، وتزداد قوة على قوتها، حض الله المسلمين على الاتحاد والجهاد والبذل فى سبيل إعلاء كلمة الله، والمحافظة على دينه، ودفاعاً عن قريتهم وأنفسهم وأزواجهم وذريتهم وأموالهم، وأباح لهم الجهاد ضد جميع أعدائهم بقوله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢).

وقال أيضاً:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

وكما أمر الله المؤمنين بالجهاد مع عدم الاعتداء، حضهم على التقوى أثناء جهادهم، وبيّن لهم الوسائل التى تساعدهم على النصر نذكر من بينها

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٦. وانظر امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ص ٥٦.

قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

فإذا نشب القتال فى سبيل الله ، أمر الله المؤمنين أن لا يخشوا إلا الله ، وعليهم أن يثبتوا وذلك بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

وقد بين الله فضل الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله فى عدة آيات كريمة ، وذكر ما أعدّه للمجاهدين من الخير والثواب فى الدنيا والآخرة فى آيات كثيرة ، نذكر منها قوله تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

وبهذه الآية الكريمة وغيرها أوضح الله سبحانه ان دين الوحدانية الذى بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله ﷺ هو دين السلام والمحبة والسماحة .

* * *

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٠. (٢) سورة الأنفال : الآية ١٥ ــ ١٦.

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦١ ــ ٦٢.

وقد كان الاذن بالجهاد داعياً إلى ان ينظم النبى صلى الله عليه وسلم كل أمور جيش المجاهدين، وبخاصة ما كان منها متعلقاً بالمحافظة عليهم، حتى لا يتحرك الجيش من مكان لآخر، إلا إذا كان لهذا الإنتقال ما يبرره، وكان الهدف محدداً وواضحاً، والطريق إلى الهدف مأموناً، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتمد على العيون (١) التى يبثها يرودون له الطريق، ويجمعون له الأخبار عن الأعداء، ومن ذلك ما اعتمده «ابن هشام» فى السيرة عند ذكر «غزوة بدر»، وقال: وكان «بسيس إبن عمرو» (٢) «وعدى بن أبى الزغباء» (٣) قد مضيا حتى نزلا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذا شنّا لهما يستقيان فيه، ومجدى بن عمر الجهنى على الماء، فسمع عدى وبسيس جاريتين من جوارى الحاضر(٤) وهما يتلازمان ما على الماء، والملزومة (٥) تقول لصاحبتها إنما تأتى العير غدا أو بعد غد، فأعمل لهم، ثم اقضيك الذى لك. قال مجدى: صدقت ثم خلص بينهما، وسمع ذلك «عدى وبسيس». فجلسا على بعيريهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بما سمعا (٦).

وقد روى مسلم عن ثابت بن أنس بن مالك مثل ذلك عن أرسال بسيسه عينا ينظر ما صنعت عير قريش بقيادة أبى سفيان (٧).

وذكر أبو عمر بن عبد البر ان «العباس بن عبد المطلب» (عم النبى المصطفى) اسلم وكان يكتم إسلامه، وكان يكتب اخبار المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانّ يحب ان يقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم: «مقامك بمكة

---

(١) العيون: الجواسيس. (٢) هو حليف بنى ساعدة.
(٣) حليف بنى النجار. (٤) القوم النازلون على الماء.
(٥) الملزومة: المدينة. (٦) السيرة جـ١ ص٦١٧.
(٧) كتاب مشارق الأنوار على صحيح الآثار للقاضى أبو الفضل عياد جـ١ ص١١٢.

خير». فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى «غزوة بدر» من لقى منكم العباس فلا يقتله فإنما اخرج كرهاً»[1].

وقد نظم النبى صلى الله عليه وسلم جيش المجاهدين فى بدر تنظيما يشهد له بالقدره الفائقه على قيادة الحرب[2].

وكان من أهم ماقام به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تنظيم الجهاد أنه أمر بكتابة المسلمين القادرين على الجهاد فى سبيل الله والعمل على إسترداد بعض حقوق المسلمين التى سلبها الكفار، وعلى الدفاع عن «المدينة المنوره» فقد روى البخارى عن حذيفه بن اليمان، وهو أحد كبار الصحابه وصاحب سرّ النبى الكريم[3] أن حذيفه قال: «أكتبوا لى من يلفظ بالإسلام بين الناس» وقال حذيفه معتزا بأنه سجل أسماء ألف وخمسمايه مجاهد من المسلمين، ثم قارن بين مايشعر به من أمن وأمان لوجود هذا العدد من المجاهدين وبين ماكان عليه حال المسلمين قبل الهجره بقوله «فكتبنا له ألفا وخمسمايه رجل، فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمايه؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف».

وكذلك نظّم رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقه إمداد جيش المجاهدين بالشبان من أبناء الأنصار الذين يصلون إلى سن تؤهلهم للصمود فى الجهاد ونحن نكتفى هنا بأن نذكر بعض ماورد إلينا من ذلك فى بداية عهد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينه: فقد ذكر ابن عبد البر فى ترجمة سَمُرة بن جُنْدَب[4] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض غلمان الأنصار فى كل عام، فمرَّ به غلام فأجازه فى البعث[5]، وعرض عليه

---

(١) الاستيعاب فى ترجمة العباس بن عبد المطلب مع تصرف قليل حافظنا فيه بقدر الامكان على لغة بن عبدالبر.

(٢) انظر الفصل التالى.

(٣) الاستيعاب جـ ١ ص ٦٥٠.

(٤) الاستيعاب جـ ٢ ص ٥٨٠.

(٥) البعث (أى) السرية.

سمرة بن جندب من بعده فرده. فقال سمره: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أجزت غلاما ورددتني، ولو صارعته لصرعته، قال «فصارع» فصارعته فصرعته، فأجازني في البعث(١).

وقد نظم النبي طريقة العطاء؛ فقد روى أبو داود عن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الفيئ قسمه في يومه فأعطى الآهل حظين، وأعطى الأعزب حظًا، فدعينا، وكنت أدعى قبل عمار، فدعيت فأعطاني حظين، وكان لي أهل، ثم دعي بعدي عمار بن ياسر فأعطى حظا واحدا(٢) وهذا يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوزع الفيئ على المستحقين المسجلين الذين أمر أصحابه بتسجيل أسمائهم.

وكان مما عنى به أيضا تنظيم المحافظه على الغنائم التي ربحها المسلمون يوم بدر، فقد ذكر «ابن هشام» عند بحث موقعه بدر أن النبي صلى الله عليه وسلم ولّى عبد الله بن كعب بن مازن النجار جمع الغنائم والمحافظه عليها، وكذلك قال ابن عبد البرانه كان على غنائم النبي يوم بدر وكان على خمس النبي في غيرها(٢) وذكر ابن حزم(٣) أن النبي ولى كذلك «منبه بن ربيعه» المغانم يوم بدر(٤).

وهذه الجهود الكبيرة في تنظيم الجيش والمحافظة على الغنائم وتنظيم وتوزيع العطاء، هي في الحقيقه جزء هام من الجهود الكبيرة التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنظيم بناء الدولة التي تدافع عن الأمه الاسلاميه التي بدأ في تكوينها بعد الهجرة إلى «المدينة المنورة» فالجيش هو الجهاز الذي يقوم في الدفاع عن الأمه، والعطاء هو المرتب الذي يتقاضاه من يدافع عن هذه الأمه، وقد أستلزم ذلك التنظيم اختيار بعض الصحابة الذين

---

(١) معجم ما استعجم جـ ٤ ص ١٤٠١.
(٢) الاستيعاب جـ ١ ص ٣٦٩.
(٣) جمهرة ابن حزم ص ٤١.
(٤) انظر الفصل التالي عن مغانم بدر ومغانم بني قينقاع في العام الثاني من الهجرة.

يستطيعون القيام بأداء هذه الأعمال، وكان من أهمها اختيار من يحافظ على الغنائم والقائمين على تنظيم العطاء المستحق لكل فرد من المسلمين.

ويتضح من هذا بجلاء أن «عمر بن الخطاب» حينما وضع الديوان لم يفعل ذلك من فراغ، ولم يقتبسه كله مما كانت تفعل الأمم المجاورة للعرب مثل الفرس والروم، ولكنه في الحقيقة انتفع بما سنّه «محمد» المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكان ما وضعه «عمر» بذكائه تطويرا لما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يتلاءم مع ما يَسَّر الله به على المسلمين في عهدة من فتوح انساقت من ورائها الغنائم والأخماس، وكثرت موارد الزكاة وكثر ما كان يُجْبى من أهل الذمة من الجزية، وبذلك ازدادت موارد بيت مال المسلمين، وتدفقت الخيرات وأصبح من الممكن تقدير العطاء لكل مستحق بصفةٍ مستمرة ودورية، في حين أن العطاء زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبخاصةٍ في بداية عهدة «بالمدينة المنورة» كان قاصرا على ما يرزق الله به نبيه بين الحين والحين، وبذلك لم يكن للعطاء في عهدة وقت معين ولم يكن له مقدار معين، ولا يضير عمر بن الخطاب أنه استعان في تطوير الأجهزة التي بدأ الرسول الكريم بانشائها باقتباس بعض النظم التي كانت متبعة في فارس أوفي بلاد الروم.

وتنفيذا للأذن بالجهاد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول غزوة في سبيل الله وهي غزوة «الابواء» في شهر صفر من العام الثاني للهجرة وذلك ليكشف للقبائل والأعراب المقيمين حول «المدينة المنورة» عن قوة الأمة الاسلامية، ويرهب من تحدثه نفسه بالاعتداء على المسلمين، وقد أدت هذه الغزوة الغرض المقصود منها، واستطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يوادع بسببها «بني ضمرة» ثم عاد إلى «المدينة المنورة» بسلام دون حرب أوقتال (١).

---

(١) هذه الغزوة متفق عليها.

وفى ربيع الثانى من هذا العام علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نافلة من قوافل تجارة قريش عائدة من الشام عن طريق محاذ للبحر، فعقد لواءا لعمه «الحمزة بن عبد المطلب»[1] على رأس ثلاثين راكبا ليتعرض لهذه القافلة، فلقى ابا جهل وقافلته وبها ثلاثمائه من الراكبين المشركين، واصطف الفريقان للقتال، ولكن توسط بينهما «مجدى بن عمرو الجهنى» وكان موادعا للفريقين، فعاذ حمزة دون قتال.

وبعث نبى الله صلى الله عليه وسلم سرية أخرى[2] وعليها «عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب» للتصدى لقافلة قرشية اخرى، وكان معه ما بين ستين وثمانين راكبا، فلقى جماعة من قريش عند ماء «احياء فى بطن رابغ» ولم يحدث بين الفريقين قتال، ولكن «سعد بن أبى وقاص» رمى الكفار بحوالى عشرين سهما[3] فكانت أول مارمى به فى الجهاد فى سبيل الله.

وقد كان فى هاتين السريتين انذار قوى، وتحذير واضح للارستقراطية لقرشيه الكافرة حتى يعلموا أن الأمة الاسلامية قد أصبحت قوة لا يمكن أن تستكين وانها لن تقبل الطيم بعد اليوم.

ومن الملاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبعث فى هاتين السريتين أحداً من رجال الأنصار لأن المهاجرين خرجوا للجهاد بعد أن اذن الله لهم فى قتال الذين اخرجوهم من ديارهم واغتصبوا أموالهم، وكانوا يأملون أن ينالوا منهم وأن يحصلوا على ما يعوض عليهم بعض ما اغتصبه المشركون من أموالهم.

---

(١) قيل أن هذا أول لواء عقده النبى صلى الله عليه وسلم للجهاد فى سبيل الله.

(٢) اختلف فى أى من هاتين السريتين كان أولا، ولكنا أخذنا برأى ابن عبد البر فى الدرر ص ١٠٤ــ ١٠٥ ورأى ابن حزم فى جوامع السيرة النبوية ص ٧٦، ٧٧ وكذلك المقريزى فى امتاع الاسماع ص ٥١ــ ٤٢.

(٣) امتاع الاسماع.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(سورة آل عمران: ١٢٣)



الفصل الخامس عشر

إشراق فجر الإسلام

مرت الأيام بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى يثرب والأرستقراطية الوثنية سادرة فى طغيانها، يعذبون كل من بقى فى أم القرى ممن آمن بالله الواحد، ويحولون بينهم وبين اللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويصادرون أموال من استطاع الهجرة بدينه إلى «المدينة المنورة»، فيستولون على ما تركوا من بيوت ومتاع (١)، فلما توحدت «الأوس والخزرج»، وقضى الإسلام على ما كان بينها من عداوة وبغضاء ثم تآخوا مع من هاجروا إليهم، أصبح المسلمون فى «المدينة المنورة» قوة تستطيع أن تدافع عن نفسها وعقيدتها، وأن توقف طغاة الوثنيين عند حدهم وتمنع عدوانهم، ولذلك لم تكن هناك مندوحة من أن يلجأ المسلمون إلى القوة لرد الظلم والعدوان، فإنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد. وحدث أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى رمضان من السنة الثانية للهجرة على رأس تسعة عشر شهرا من مهاجره، أن قافلة يقودها «أبو سفيان بن حرب» قادمة من الشام وهى تحمل تجارة «قريش»، فعزم على أن يخرج إليها (٢) لتكون مغنما يعوّض عن بعض ما اغتصبه المشركون من أموال المهاجرين، وليردعهم عن تعذيب من بقى فى «مكة» من المسلمين وحرمانهم من أقدس الحقوق التى منحها الله لهم وهى حرية التفكير، وحرية العبادة، وحرية العيش فى أمن وأمان. خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبع وسبعين مهاجرا ومائتين وستة وثلاثين

---

(١) وصف الله المهاجرين بقوله: «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم» سورة الحشر الآية ٨.

(٢) انظر ص ٣٩٧ من هذا الكتاب.

من الأنصار(١)، وكان معه ثلاثة أفراس، وكان لكل ثلاثة أوأربعة من المسلمين بعير واحد يتناوبون ركوبه، فكان «عليّ ابن أبي طالب» و«مرثد بن أبي مرثد الغنوى» (٢) زميلي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكانا يقولان له: «اركب حتى نمشي عنك، فكان يقول: ما أنتما على المشي أقوى مني، وما أنا أغنى عن الأجر منكما».

وعلم «أبو سفيان» بخروج النبي، صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى «مكة» يطلب النجدة، وعلمت قريش أن أموالها في خطر، فهبت عن بكرة أبيها، وخرجت بخيلها وخُيلائها ومعهم القيان والدفوف. وكان «أبو سفيان» قد رأى أن يلزم جانب الحيطة فحاد بقافلته عن طريق «بدر» وهو الطريق المألوف، وسلك طريق ساحل البحر، فلما شعر أنه نجا، أرسل إلى قريش: «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا». فقال «أبو جهل»: والله لا نرجع حتى نرد «بدرا» وكان «بدر» موسما من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام، فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا»(٣).

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن المشركين في طريقهم إلى «بدر»، فجمع أولي الرأى من الصحابة واستشارهم، فكان الرأى أنهم لا يستطيعون أن ينكصوا على أعقابهم راجعين، وكانوا جميعا متحمسين للجهاد لا يهابون الموت في سبيل الله، وكان مما قاله «المقداد بن عمرو» (٤): (يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

---

(١) اختلف في عددهم فقيل كانوا بين ٢١١ و ٢١٨ انظر السيرة جـ ١ ص ٦١٢ـ ٦١٣؛ وابن سعد: الطبقات جـ٢ القسم الأول ص ٦ والطبري جـ٢ ص ٤٣١.

(٢) السيرة جـ ٢ ص ٦١٣.

(٣) متفق عليه والاقتباس من ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٦١٨ ـ ٦١٩؛ وانظر الطبقات الكبرى: جـ ٢، القسم الأول ص ٧، والطبري: التاريخ، جـ٢ ص٤٣٨.

(٤) من المهاجرين.

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (١)

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى الغماد (٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه (٣) ، ثم تكلم « سعد بن معاذ » (٤) فقال : « قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُق فى القتال ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك (٥) فسُرَّ النبى ، صلى الله عليه وسلم ثم قال : « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين » (٦) .

ولما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم « ببدر » نصحه « الحباب بن المنذر » أن ينزل على ماء بدر، وأن يأمر ببناء حوض حوله ، فيملؤه بالماء ليشرب منه المسلمون ، ويمنعوا المشركين من وروده ، فاستحسن الرسول الكريم هذه النصيحة ، وكانت تلك النصيحة بادرة من بوادر نصر الله القوى العزيز لدينه وللمؤمنين .

ولما وصل المشركون إلى بدر، حاول بعض العقلاء من بينهم ممن يدْعُون إلى السلام والخير، وعلى رأسهم «عتبة بن ربيعة وحكيم بن خزام» ، أن ينصحوا لقومهم أن يتجنبوا الحرب وويلاتها ، وأن يرجعوا عن القتال ؛ ولكن

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٤ .

(٢) برك الغماد موضع باليمن .

(٣) متفق عليه والنقل عن ابن هشام السيرة جـ ١ ص ٦١٥ ، وانظر الطبرى: التاريخ جـ ٢ ص ٤٣٤ .

(٤) من الانصار.

(٥) متفق عليه والاقتباس من السيرة جـ١ ص ٦١٥ ، وانظر الطبرى: التاريخ جـ٢ ص ٤٣٥ .

(٦) انظر سورة الأنفال الآية ٧ .

غلاة المشركين وعلى رأسهم «أبو جهل» (١)، رأوا أنهم أكثر عددا وعُدة فقد كانوا تسعماية وخمسين، وكانت لهم فصيلة من الفرسان قوامها مائة راكب، ولم يكن مع المسلمين خيل تساعدهم على الكرّ والفرّ، فغرتهم كثرتهم، وجمح بهم كبرياؤهم، فقالوا يهزأون بالمسلمين: «غرّ هؤلاء دينهم»، ورأى المشركون أن الفرصة سانحة للقضاء على رسول الله وعلى هذا الجيش الصغير الذى كان يقوده، وكلهم أمل وتطلّع أن يطفئوا نور الله، ولذلك أبوا إلا القتال؛ وقد وصف الله سبحانه ذلك بقوله:

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

ولما رأى الرسول الكريم جيش المشركين أخذ يناجى ربه فقال: **«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة» (٣).**

واستمر النبى فى الاستغاثة فترة وصفها الله القوى العزيز بقوله:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٤)

ووقف الجيشان يواجه كل منها الآخر صبيحة اليوم السابع عشر من رمضان، وتجلّت مواهب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيادة الجيش،

---

(١) السيرة جـ ١ ص ٦٢١ ــ ٦٢٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٩.

(٣) مناجاة الرسول لربة متفـق عليها مع خلاف بسيط فى بعض الألفاظ، والاقتباس هنا من ابن هشام: السيرة، جـ٢ ص ٦٢١. الخيلاء: الكبر والاعجاب. تحادك: تعاديك. أحنهم: أهلكهم. وانظر: سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٥٠.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٩.

فقد بدأ يمرّ بنفسه بين المسلمين يشجعهم ويعدل صفوفهم ، مما أثار فيهم الحماس والحمية ، ثم نظم القيادة فكان لواء المهاجرين مع «مصعب بن عمير» ولواء الخزرج مع «الحباب بن المنذر» ولواء الأوس مع «سعد بن معاذ» ، أما لواء النبي القائد الأعظم فكان مع «على ابن أبى طالب» (١) ؛ ثم أمر أن لا يحمل المسلمون على الأعداء حتى يأمرهم بذلك ، فإذا زحف نحوهم المشركون أمطرهم المسلمون وابلا من النّبال (٢)، ثم عاد إلى مركز القيادة فى عريش كان قد أُعدّ له من قبل ، وأخذ يناشد ربه ماوعده من النصر، ومما يؤثر عنه فى ذلك : **«اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض»** (٣)

وخرج من العريش ، وأخذ يحرض المسلمين على الثبات والكفاح فى سبيل الله ، واعدا إياهم بنصر الله القوى العزيز، وكان شعارهم فى ذلك اليوم : **«أحَدٌ ، أحد»** (٤) وهو شعار الوحدانية الذى يشحذ العزائم ويبث فى النفوس حب الإيمان بالله واعتماد عليه (٥).

وبدأ المشركون فى مناوشة المسلمين ، وخرج من بين صفوفهم ثلاثة من فرسانهم وطلبوا المبارزة والنزال مع نظرائهم من أهلهم ، فقال الرسول ، صلى الله عليه وسلم : **«يا بنى هاشم ، قوموا قاتلوا بحقكم الذى بُعث به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله»**. فقام «حمزة بن عبد المطلب» ، و«علىّ بن أبى طالب» ، و«عبيدة بن الحارث» ، فتبارز الطرفان ، وحبس أفراد

---

(١) السيرة: المرجع السابق ص ٦١٢ ؛ والطبقات جـ ٢ القسم الأول ص ٨.

(٢) الطبرى ص ٤٤٦ ، سبل الهدى والرشاد جـ ٤ ص ٥٦ .

(٣) الطبرى: التاريخ جـ ٢ ص ٤٤٧.

(٤) للتوسع فى وصف غزوة بدر انظر: ابن هشام: السيرة جـ ١ ص ٦٠٦ــ ٦٤٩ وابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢ القسم الأول ص ٦ ــ ١٨ ؛ والطبرى: التاريخ ، جـ ٢ ص ٤٢١ ــ ٤٦٧ ؛ والصالحى سبل الهدى والرشاد: جـ ٤ ص ٣٠ــ ٨٥.

(٥) متفق عليه وانظر السيرة جـ ١ ص ٦٣٤.

الجيشين أنفاسهم فى انتظار نتيجة هذا الصراع ، ولم يطل الانتظار كثيرا فقد نصر الله جنده فجندلوا أعداءهم ، وخرّ المشركون الثلاثة صرعى ، واستشهد «عبيدة بن الحارث» .

ورأى الرسول العظيم بحكمته أن هذا النصر قد وقع وقوع الصاعقة على الأرستقراطية المشركة ، وأنه قد فتّ فى عضدهم ، فأمر على الفور بالزحف العام عليهم ، وتقدم الصفوف وهو يحارب بنفسه ويقود المجاهدين ، فكان أشد المقاتلين بأسا ، وأقواهم عزيمة ، فإذا اشتد الصراع فى ناحية كان يهرع إليها مصلتا سيفه وهو يثب فى درعه (١) قائلا :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٢)

فكان المسلمون يهرعون إليه من كل جانب ، يجاهدون معه وهم يشعرون أنهم يستظلون بحمايته كما روى «على بن أبى طالب»(٣) و«عمر بن الخطاب» .

وحمى وطيس القتال ، وكافح المسلمون ضد الكثرة الباغية كفاح الأبطال ، وأيدهم الله بنصرة ؛ وهم يبطشون بالمشركين فريقا يقتلون وفريقا يأسرون ، وكان «حمزة بن عبد المطلب» و«على بن أبى طالب» من أشد الفرسان بطشا بالمشركين ، حتى أحصى «ابن إسحق» عدد من صرعهم «علىّ» وحده عشرة من صناديد الأرستقراطية الوثنية ، وأنه اشترك مع «حمزة» ومع غيره من أبطال المسلمين أثناء الهجوم فى قتل تسعة آخرين (٤) .

---

(١) الطبقات الكبرى : جـ ٢ ، القسم الأول ، ص ١٤ ــ ١٥ .

(٢) سورة القمر الآية ٤٥ .

(٣) الطبقات الكبرى جـ ٢ ، القسم الأول ، ص ١٥ .

(٤) السيرة من ص ٧٠٨ ــ ٧١٣ .

واستمر الصراع الرهيب طوال النهار حتى دارت الدائرة، وهزم الله الأرستقراطية المشركة هزيمة منكرة، فولت مدبرة حين زالت الشمس من يوم الجمعة، حاملة معها ذُل الهزيمة، وعار ترك جثث سبعين من صناديدهم مبعثرة فى ميدان القتال، وخزى سبعين آخرين من أشرافهم مكبلين فى مهانة الإسار؛ (١) ومخلّفة وراءها الكثير من المتاع والسلاح لقمة سائغة وغنيمة وهبها الله فيئاً لعباده المتقين الذين كافحوا وجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة التوحيد، فأكرمهم الله سبحانه بنصر مؤزر وضع به حدا فاصلا بين ما سبق أن قاساه المسلمون فى بداية فجر الإسلام من طغيان هذه الفئة الأرستقراطية الباغية وبين فجر نصر الله القوى العزيز لدينه نصرا أعلى به شريعة التوحيد، وخلد الله هذه الموقعة الفاصلة فى محكم التنزيل فى سورة الأنفال.

ونحن نكتفى هنا بالاستشهاد بقوله تعالى:

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين استشهدوا فى موقعة «بدر الكبرى» وكان عددهم اثنين وعشرين شهيدا ثم رجع هو ومن معه من المجاهدين وقد أسبغ الله عليهم رضاه ونصره؛ وكان يتبعهم رتل من الغنائم والأسرى، حتى إذا وصلوا قريبا من المدينة المنورة، وزع النبى الكريم الغنائم على المنتصرين بالتساوى (٣)، فاغناهم الله جميعا من فضله. (٤)

---

(١) متفق عليه وقد أحصى ابن اسحق فى السيرة عدد الأرسرى والقتلى مع ذكر أسماء ونسب كل منهم جـ ١ ص ٧٠٨ــ ٧١٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٧.

(٣) متفق عليه وانظر: السيرة لابن هشام: جـ ١ ص ٦٤٣.

(٤) الطبقات جـ ١ ص ١٣.

ولما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة وزع الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بالأسرى خيراً»(١). ولما استقر به المقام، جمع كبار الصحابة، وأخذ يستشيرهم فى أمر الأسرى، فقال «أبو بكر»: «يا نبى الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم، فيكونوا لنا عضدا»(٢)؛ ولكن «عمر بن الخطاب» أشار بقتلهم: «حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هواده للكفار، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم»(٣)، فأخذ النبى الكريم يفكر فى الأمر ثم دخل منزله يقلّب الأمر على وجهه، فلما خرج قال لأصحابه: «إن الله عز وجل ليليّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة؛ وإن مثلك يا «أبا بكر» مثل «إبراهيم» قال:

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤)

ومثلك يا «أبا بكر» مثل عيسى قال:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٥)

ومثلك «يا عمر» مثل نوح قال:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٦)

---

(١) ابن هشام: ص ٦٤٥.
(٢) متفق عليه، الطبرى جـ ٢ ص ٤٧٤ــ ٤٧٥.
(٣) المرجع السابق ص ٤٧٦.
(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.
(٥) سورة المائدة: الآية ١١٨.
(٦) سورة نوح: الآية ٢٦.

ومثلك «يا عمر» كمثل «موسى» قال:

﴿ ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (١)

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم اليوم عالة (٢)، فلا يفلتن أحد إلا بفداء أو ضرب عنق»؛ ثم نظم بعد ذلك أمر فداء الأسرى، فكان الرجل منهم يفادى على قدر ثروته ومكانته بين قومه.، وبذلك تراوح فداء الأسير بين ألف إلى أربعة آلاف درهم (٣). وكان أهل «مكة» يعرفون الكتابة، وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يستطع أن يفتدى نفسه بمال كان عليه أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة، وكان «زيد بن ثابت» ممن عُلم (٤)؛ أما من كان فقيرا لا مال له، ولا يعرف الكتابة فقد منّ الرسول الكريم عليه فأطلق سراحه دون فداء.

وكان هذا النصر إيذانا من الله أنه قد آن الأوان لفجر الوحدانية أن يشرق ولظلام الوثنية أن ينجلى، فقد أعزّ الله دينه، وقويت شوكة الأمة الإسلامية، وبسط الله الرزق للمهاجرين والأنصار الذين جاهدوا فى سبيله، وأغناهم من فضله، فأنزل الله حكمه بالغاء مبدأ التوارث بين الأخوة المهاجرين والأنصار، وهو المبدأ الذى كان قد تقرر أثناء المؤاخاة بينهم فى بداية الهجرة النبوية الشريفة إلى «المدينة المنورة»، وبذلك بقيت الأخوّة

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٨.
(٢) يشير الرسول بذلك إلى المهاجرين الذين اغتصب مشركو مكة أموالهم.
(٣) السيرة جـ ١، ص ٦٦٠.
(٤) متفق عليه وانظر الطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول ص ١٤.

الإسلامية هي الرابطة المتينة التي تجمع بين الأخوة المسلمين، وتوحّد بينهم دون توارث؛ قال تعالى:

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

وقال في آية أخرى:

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ (٢).

وفي تفسير هذه الآية الكريمة كتب «ابن كثير»: «بذلك عادت القرابات أوْلى بالتوارث من المهاجرين والأنصار لأن الآية ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم»(٣).

* * *

وكان «على بن أبى طالب» حينما عاد إلى «المدينة المنورة»، شاكراالله تعالى على ما أعانه ومكّنه من نصر في ساحة بدر، وعلى ما بسط له من رزق أحله الله للمجاهدين، وعلى ما منَّ به عليه الرسول الكريم فزاد من عطائه مما أفاء الله يومئذ على رسوله، كان «علىّ بن أبى طالب» يفكر في إقامة وليمة العرس. فأعدّ لذلك كما قال، شارفين(٤)، ابتهاجا بذلك اليوم الذي كان يمنى فيه نفسه بالزفاف إلى «الزهراء»، أفضل بنات قريش، وابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولكن كان غدر يهود «بنى قينقاع»

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٣) مختصر تفسير «ابن كثير» جـ ٢، ص ٨٢ ــ ٨٣.

(٤) البخاري: كتاب المغازي؛ الحديث ٢٥٢٢ جـ ٦ ص ٢٦٠. والشارف هو الجمل كبير السن.

فنقضوا ما كان بين رسول الله وبينهم من عهود، فرأى النبى أن يفرَغ لحسم هذا الأمر حتى يقضى على الفتنة فى مهدها.

وكانت الصحيفة التى وادع فيها الرسول سكان «المدينة من غير المسلمين ترمى إلى أن تَعُمَّ المعايشه السلمية جميع أرجاء «المدينة» حتى ينتشر فى ربوعها الأمن والأمان فى المجتمع «المدنى» كله بين المسلمين وطوائف اليهود والعرب الذين لم يكونوا قد دخلوا بعد فى الإسلام، فقد أمَّنهم جميعا على حياتهم وأموالهم، وأقرَّ لهم بالحرية الكاملة وبخاصة حرية التعايش السلمى وحسن الجوار وحرية العبادة، على أن يتعاونوا جميعا على حماية المدينة من جميع الأعداء، وأن يردُّوا كل خلاف بينهم إلى حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان المجتمع اليهودى فى «المدينة» مكون من ثلاث قبائل تعيش فى أماكن مختلفة منَ «المدينة» هى: «يهود بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة»، وكان الرسول مخلصا فى كتابة هذه «الصحيفة» التى نطلق عليها فى زماننا «المعاهده» وكان يرجو أن تتمسك كل طائفة من الطوائف بما تعاهدت عليه، ولكن يهود «بنى قينقاع» بيتوا الغدر والخيانة ونقضوا العهد، وكانوا يسكنون وسط «المدينة المنورة» فى حصون أعدّها لهم أجدادهم؛ وغرّتهم حصونهم، وحسبوا أنها تحميهم من المسلمين، فاعتدوا ونقضوا المعاهدة. وكانوا يعتزون بكثرة أموالهم التى اكتسبوها من العمل فى صياغة الذهب والفضة، وفى صناعة السلاح من دروع وسيوف ورماح وقِسِىّ يتجرون فيها، ويحتفظون بالكثير منها.

وزحف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصونهم فى الخامس عشر من شوال من السنة الثانية للهجرة[1]؛ وجمع رؤساءهم، وأخذ ينصح لهم قائلا «يا معشر يهود، أحذروا من الله عزَّ وجلَّ مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنى نبىّ مرسل تجدون ذلك فى كتابكم، وفى عهد الله لكم»

---

(١) غزوة بنى قينقاع انظر: السيرة جـ ٢ ص ٤٧ ــ ٥٠؛ والطبقات الكبرى جـ ٢، القسم الأول، ص ١٩ــ ٢٠، والطبرى: التاريخ جـ ٢ ص ٤٧٩ ــ ٤٨٣.

واستكبر بنو قينقاع، وغرتهم شجاعة رجالهم، فلم يستجيبوا لنصح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وردّوا بأنهم ليسوا مثل قريش، وقالوا: «لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، وإنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس» (1)؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحاصرتهم؛ وضيّق عليهم الخناق خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة، لا يدخل إليهم فيها طعام أو شراب؛ فقذف الله فى قلوبهم الرعب، فاستسلموا ونزلوا على حكم النبى الكريم، وكان قادراً أن يُنْزِل بهم أشد العقاب جزاء غدرهم ونقضهم للعهد؛ ولكن وسعتهم رحمته صلى الله عليه وسلم وكرمه: فتفضل باعفاء محاربيهم من القتل، واطلق سراحهم، وأجلاهم عن وسط «المدينة» هم ونساؤهم وذراريهم؛ وغنم المسلمون منهم الكثير من الأموال والسلاح، ولم تكن لهم أرض يفلحونها، لأنهم لم يزاولوا الزراعة (2)، كما غنم المسلمون منهم آلة الصناعة.

لقد كان نصر الله للمسلمين فى «بدر الكبرى» فى شهر رمضان، كما كان نصره لهم بعد ما يقرب من شهر على يهود «بنى قينقاع» فى «المدينة المنورة»، خير رادع، ولو إلى حين، لكل من تُسوّل له نفسه أن ينقض المواثيق أو محاولة إشاعة الفتنة والفوضى أو القضاء على الطمأنينة والأمن بين سكان «المدينة»، سواء أكانوا من اليهود أم ممن كان يصافيهم من المنافقين من أهل «المدينة».

وانقلب المؤمنون فى «المدينة» بنعمة من الله وفضل، شاكرين لله ما حباهم به نصرو وما أفاء عليهم من رزق وخير.

وقد زاد من فرح المؤمنين وسعادتهم زفاف أجمل زهرات المسلمين، وخيرهن: «فاطمة الزهراء» بنت «محمد» رسول الله، وخاتم الأنبياء والمرسلين، إلى فتى الإسلام «على بن أبى طالب» فى ذى الحجة بعد شهر من نصر الله للمسلمين على «بنى قينقاع»، فى حفل بهيج. وقد أثمر هذا

(1) المراجع السابقة.

(2) الطبرى: التاريخ جـ ٢ ص ٤٨١.

الزواج السعيد بعد عشرة أشهر ثمرة كريمة هى مولد «الحسن بن على بن أبى طالب» فى شهر رمضان من العام الثالث للهجرة؛ فكان مَقْدَمه مصدر سعادة لجدّه صلوات الله وسلامه عليه، وقرة عين لوالديه، كما كان سببا من أسباب فرح المسلمين وابتهاجهم [1].

(١) المرجع السابق.



بسم الله الرحمن الرحيم

« ... وَاللهِ ما أَبْدَلَنِي اللهُ خَيْراً مِنْهَا : آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاسُ ، وصَدَّقَتْنِي إذ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وواستني في مالِهَا إِذْ حرمَنِي النَّاسُ ، ورزَقَنِي مِنهَا الولَد إِذْ حرمَنِي أَوْلَادَ النِّساء » .

(حديث شريف)

« السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ٢٨ - ٢٩ عن الإمام أحمد » .



الفصل السادس عشر
مناقب السيدة خديجة أم المؤمنين

وقبل أن نختم الكلام عن «أم المؤمنين خديجة» ، لابد لنا أن نخصص مجالا للحديث عن مكانة هذه السيدة الجليلة المكافحة ، وهو حديث ليس من اليسير أن نوفيه حقه ، ولا أن نلم بجميع أطرافه ، لأن جوانب عظمتها كثيرة ، ومفاخرها متعددة ، ولذلك فليس أمامنا إلا أن نتناول هذا الموضوع باختصار شديد ، ولعلنا نعود إليه مرة أخرى إذا طال بنا الأجل ، وأمدنا الله بتوفيقه فتناولنا بالبحث ناحية جديدة من نواحي إشراق فجر الإسلام ، فإن لها فى كل ناحية من نواحى بزوغ هذا الفجر صنيعا جميلا ، ويدا تذكر فتشكر.

إن أول ماينبغى أن نبدأ بالحديث عنه هو ذكر بعض النواحى التى شملتها بها العناية الإلهية من رعاية ، وما خصتها به طوال حياتها من عناية ، فقد ألمحنا فى الفصول السابقة إلى أن العناية الربانية وحدها هى التى اختارتها لتكون شريكة حياة «محمد بن عبد الله» خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهيأتها لأن تكون وزيرة مخلصة تقف بجواره عند الشدائد ، وتقوى من عزيمته ، وتشحذ من همته ، فقد منحتها العناية الإلهية رجاحة العقل ، ونبل الأخلاق ، وطهرت سيرتها طوال الأربعين عاما التى سبقت زواجها منه حتى أعجبت بها مكة كلها ، وصار الناس يعرفونها بلقب أطلقوه عليها وهو: «الطاهرة» . وأرادت لها السماء أن تمارس بنفسها الإشراف على تجارتها الواسعة ، فتعلمت منها الصبر والقدرة على الصمود ، والحزم عند اتخاذ القرار ، ولذلك فقد وقفت بجوار زوجها لم تهن لحظة ، ولم يفتر حماسها للدفاع عن دين الوحدانية ، ولم تبخل فى سبيل ذلك بجهد أومال ، ولكنها صمدت عندما

هبت العاصفة التى أثارتها الأرستقراطية الوثنية على هذا الدين وعلى النبى الذى كان يبشر به ، ولم يتأثر إيمانها عندما زلزل الطغاة بعسفهم وجبروتهم إيمان بعض من دخل فى هذا الدين ، فكانت تتقى كيدهم بعقلها الراجح حينا ، وبحنان الأم الملهمة حينا آخر ، وبحب الزوجة المؤمنة العفيفة إذا أدلهم الخطب وازداد الكرب ، ولذلك فقد كانت تواجه فى عزة ورباطة جأش إسراف الطغاة الذين يدعون مع الله أصناما يخرون لها ساجدين ، ولم تنحن أمام عنفهم ، ولم تلن لها قناة واستمسكت بالحلم فلم يعصف بها الغضب .

والعناية الإلهية هى التى جعلتها بادئ ذى بدء ترفض كل من تقدم من أشراف قريش وأغنيائها طالبا الزواج منها ، ثم قضت العناية الربانية أن تختار «محمد بن عبد الله» ليتاجر لها فى أموالها ، ويشرف على قافلتها الذاهبة إلى الشام . والقضاء والقدر وحده هو الذى جعل الإعجاب بأمانة «محمد» وخلقه الكريم يتسربان إلى نفسها رويدا رويدا حتى دفعها الإعجاب والتقدير إلى عدم التقيد بعادات الجاهلية وتقاليدها ، فتختاره زوجا لا يمتاز بالمال الوفير ، ولا يعتز بكثرة الأتباع ؛ ولكنه كان يمتاز بالخلق الكريم حتى عرفه أهل مكة جميعا بلقب غير اسمه فأطلقوا عليه اسم «الأمين» ؛ فالمال كان فى نظرها عرضا زائلا ، والتقاليد والعادات الموروثة عن الجاهلية كانت فى نظرها من صنع فريق من الأجداد ظنوا أنها كانت نافعة لقضاء مآرب لهم ، وصالحة لبيئتهم فى عصر من العصور ، ثم تغير الزمن وأصبح بعض تلك العادات غير صالح للأزمان الأخرى ، ولذلك فقد قادها هذا التفكير السليم إلى أن أصبحت رائدة من رواد تقرير حق المرأة كاملا فى اختيار شريك حياتها ؛ فليس لأحد أن يطلب منها أن تجلس فى عقر دارها وهى تنتظر من يتفضل بالإقدام على طلب خطبتها ، بل إن من حقها هى أيضا أن تتشجع فتتقدم وتفاتح من تختار برغبتها فى الزواج منه .

والعناية الإلهية وحدها هى التى ألهمتها إلى عدم الوقوف فى سبيله عندما أراد أن يذهب إلى غار حراء حيث يبقى هناك شهرا كاملا كل عام ليخلو فيه لنفسه ، ويتعبد فيه لربه خالق كل شىء ، بعيدا عن أصنام مكة

وما كان منتشرا فيها من لهو ومجون وعبث وفجور؛ وهى لم تكتف بعدم الاعتراض على ذلك بل إن بعد نظرها جعلها تشجعه عليه، وتنهض بنفسها لإعداد كل ما يلزم له أثناء غيابه عنها من مأكل ومشرب.

والعناية الإلهية وحدها هى التى جعلتها تترك لزوجها أمر العناية بأموالها وتصريف أمور تجارتها بعقله الراجح وأمانته المعروفة، وأن لا تخشى كرمه الذى كان يواسى به المحتاجين، ويمد به يد العون للمنكوبين، ويقيل به عشرات من أخنى عليهم الدهر، فقد كانت كريمة بطبعها، وخيِّرة بعادتها وفطرتها، وكان المال فى يده يربو كلما أنفق منه فى وجوه الخير والبر.

وقد أراد الله الذى لا يضيع أجر المحسنين، أن يكرم هذه الزوجة النبيلة المخلصة فأمر كبير ملائكته أن يقول لخاتم الأنبياء والمرسلين: «يا محمد، هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى»، وهو إكرام قابلته بالشكر والعرفان، فردت على الفور بقولها، «الله هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام» (١)، وهو رد على البديهة يدل على ما حباها الله به من ذكاء وفطنة، وما وهبها من لباقة ألهمتها أن تعظم الله فى ردها بما هو أهله، وأن تسأله السلام والأمان، وأن تشكر جبريل لتبليغها ما أفاء الله عليها من نعمة وفضل.

والله سبحانه، هو الذى هداها إلى أن تنشر فى بيتها جوا من الهدوء والحنان والمحبة، فوجد فيه النبى الكريم وآل بيته راحة النفس، وهناء العيش بجانب الاستقرار الذى ينشده كل زوج مكافح، فلم يقابله فيه يوما ما ينغص عليه عيشه، ولم يجد فيه ما يعوق تأدية رسالته الإلهية، بل وجد فيه كل ما يعينه على تبليغها، وما يشد من أزره ويقوى من عزيمته على الدعوة إليها، كما وجد بجواره من يعاونه على تذليل العقبات التى تعترض سبيل نشرها، ولذلك فقد أعلى الله منزلتها، فأمر رسوله، صلى الله عليه وسلم،

---

(١) ورد فى كثير من كتب الحديث مع خلاف يسير فى بعض الألفاظ، والنقل هنا عن محب الدين الطبرى المتوفى سنة ٦٩٤: السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين، الطبعة الثانية، مكتب التراث الإسلامى بحلب ص ٢٦ ــ ٢٧، وانظر البخارى جـ ٦ الحديث رقم ٣٤٠٢ ص ١٦٤.

أن يبشرها ببيت فى الجنة من لؤلؤ، يسوده الهدوء، ويخلو من الجدال والخصام، فلا تجد فى ربوعه إلا راحة البال، وهناءة العيش، وسعادة النفس؛ فقد ورد عن نبى الله صلى الله عليه وسلم قوله: «أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب» (١).

وكان من إكرام الله لها أن وهبها من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذرية الصالحة، وبارك لها فيها، فامتدت جذورها، واستطالت فوق الأرض جذوعها، وامتدت فى الأقطار الإسلامية فروعها، وظلت تتوالد جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن حتى عصرنا هذا تحمل اسم نبى الله «محمد ابن عبد الله» صلى الله عليه وسلم واسم زوجته الأولى «أم المؤمنين خديجة بنت خويلد».

ولا بد لنا أن نتذكر أن خاتم الأنبياء والمرسلين ولد يتيم الأب، ثم فقد أمه «آمنة بنت وهب» وهو ما يزال فى السادسة (٢) من باكورة طفولته، ففقد رعاية الأب وحنان الأم وعطفها، وقد عوضه عطف جده «عبد المطلب» ورعاية «عمه أبى طالب» عما فقد من رعاية أبيه، وظل «أبو طالب» ينشر عليه مظلة حمايته حتى وفاته عندما بلغ «محمد» الخمسين من عمره، ولكن «محمدا» ظل طوال حياته يذكر أمه، ولم يجد من الحنان والرعاية فى طفولته وبداية شبابه إلا ما كانت توليه إياه «فاطمة بنت أسد» الهاشمية زوجة عمه وأم «على ابن أبى طالب» فقد ألقى الله فى قلبها حب هذا الطفل فعوضته بعض ما فقد من حنان الأم؛ وقد ظل النبى الوفى يذكر لها ذلك فقال عنها: «إنه لم يكن بعد «أبى طالب» أبرّ بى منها» (٣)؛ ولكنها كانت تنوء بالنهوض بإدارة بيت زوجها سيد بنى هاشم، وبما كانت تحمل من أعباء رعاية العدد الكبير من عيالها. وعندما بلغ «محمد» الحلم وبدأ

---

(١) ورد فى كثير من كتب الحديث، وانظر المرجع السابق: السمط الثمين ص ٢٧ ـ ٢٨؛ والبخارى جـ ٦ ص ١٦٢ ـ ١٦٤ الحديثين رقم ٣٣٩٨ ـ ٣٨٩٩.

(٢) متفق عليه وانظر ابن سعد: الطبقات جـ ١ القسم الأول ص ٧٣.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، المجلد السابع فى ترجمة فاطمة بنت أسد برقم ٧١٦٨.

يكتسب رزقه عاش فقيرا يكد ويتعب ليكسب قوته فى رعاية الغنم لأغنياء أهله عند أجياد بالقراريط [1]، وكان كثيرا ما يتغذى بثمار شجر الأراك، فكان يجتنى ما طاب وأسود منها [2]، فى حين كان أنداده من أغنياء شبان قريش يبكرون بالزواج من زهرات قريش بعد تقديم الصداق المناسب، وقد ظل حتى الخامسة والعشرين من عمره لا يملك ما يقدمه مهرا لواحدة منهن إلى أن قيض الله له «خديجة بنت خويلد»، فقد أدركت بذكائها وفطنتها وشفافية روحها ما «لمحمد بن عبد الله» من كرامة بشر بها الكهان وأحبار اليهود ورهبان النصارى مما جعلها تؤمن أن السماء توشك أن ترسل إلى الناس من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويهديهم صراطا مستقيما، فآمنت بما أخبرها به ابن عمها «ورقة ابن نوفل» من أن البشائر تدل على أن «محمدا» هو النبى العربى المنتظر، ولذلك فقد ضربت بعادات الجاهلية الموروثة عرض الحائط، وتقدمت فخطبته لنفسها وكفته بذلك مؤونة البحث عن رفيقة حياته؛ ثم أخلصت له بعد الزواج فكانت زوجة وفية، وأنيسة رقيقة، وأما عطوفا، فعاشا قبل النبوة خمسة عشر عاما، ذاقا خلالها حلاوة العيشة الهنية، يسودها الإخلاص والاحترام المتبادل، ونعما فيها برغد العيش؛ مما أنعم الله به عليه، وذكّره به فى القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [3]

ووهبه الله منها فى تلك الفترة الذرية الكريمة التى أصبحت لهما منبعا من منابع السعادة طوال حياتها.

وكان «محمد» فى شبابه عف النفس، طاهر الذيل لم يعرف قبل «خديجة» امرأة أخرى، فتزوجها وهو فى عنفوان شبابه فى الخامسة والعشرين من عمره وكانت هى فى الأربعين، فلما اكتملت رجولته، وازدان

---

(١) ابن سعد: الطبقات عند ذكر رعية الغنم ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكة جـ ١، القسم الأول ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة الضحى: الآية ٦.

بكامل قواه العقلية والجسمية فى الأربعين، اختاره الله للناس نبيا هاديا ومبشرا ونذيرا، فسارعت خديجة إلى مساندته، وأزالت بحكمتها وحنانها ما لقيه من روع، وأذهبت عن نفسه ما حل بها من خوف، وصدقته وآمنت بما جاء به من ربه، فكانت بذلك أول من آمن به وأول من صلى خلفه. وعندما عصفت عاصفة الحقد والكراهية التى أثارها زعماء الأرستقراطية الوثنية وقفت إلى جواره تتلقى معه كيدهم فى جلد وصبر، ويتغلبان بحكمتها وعزيمتها على دسائسهم وحماقاتهم «.فكان لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها، فكانت تثبّته وتصدقه وتخفف عنه وتهون عليه ما يلقى من قومه» (١) فخفف الله بذلك عنه حمل بعض أعباء الرسالة، ومضى فى سبيله وهى تشد من أزره طوال عشر سنوات كاملة، كانت فى بدايتها قد بلغت الخامسة والخمسين، واستمرت فى كفاحها بجانبه حتى الخامسة والستين، ولا شك أنها كانت قد فقدت أثناء ذلك الكثير مما كانت تتحلى به من جمال الخلقة، ولكن بقى لها جمال الروح، وزانها الإيمان بالله والثقة برسوله، فزاد حبه لها، ولم يفكر برهة فى أن يطلب السعادة التى كان يسعى إليها الكثيرون من رجال عصره الأقوياء عن طريق الزواج من زهرة يانعة ثانية من زهرات قريش قد يُرزق منها البنين مما كانت تشجعه وتبيحه التقاليد فى مجتمع مكة، وكذلك لم يسمح له وفاؤه لها أن يتسرى فيشترى جارية من الجوارى الحسان يعاشرها معاشرة الأزواج حتى لا يشرك فى حبه «لخديجة» امرأة أخرى، وحتى لا تشاركها فى نفسه إحدى الضرائر فتتحمل ما كانت تتحمله النساء القرشيات من قسوة الغيرة ولذع آلامها.

ولما انتقلت أم المؤمنين «خديجة» إلى جوار ربها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخمسين من عمره، وعاش بعدها حوالى ثلاث عشرة سنة تزوج فى خلالها خمس سيدات قرشيات، وأربع عربيات، وواحدة غير

---

(١) ابن هشام: السيرة، وابن عبد البر: الاستيعاب فى ترجمة خديجة وكذلك ترجمتها عند ابن حجر: الإصابة.

عربية من بنى إسرائيل [1]، وقد زفت إليه منهم واحدة فقط بكرا، وكان الأخريات ثيبات سبق لهن الزواج من قبْل، وكذلك قبل الرسولُ الكريم «مارية» القبطية هدية من «المقوقس» عظيم أقباط مصرو ورزق منها بابنه «إبراهيم». وكان من بين العشر من نسائه من عرفت بالذكاء، والجمال والفطنة، وأصالة الرأى، وكمال الدين، وكانت «أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر» من أحبهن إلى نفسه، وكانت تساميها فى الحظوة عنده «أم المؤمنين زينب بنت جحش» ابنة عمته «أميمة» وقد وصفتها «عائشة» بذلك فقالت: «هى التى كانت تسامينى من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر امرأة فى الدين خيرا من «زينب» وأتقى عند الله عز وجل، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة..» [2]؛ ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان لايفتأ يذكر أم المؤمنين الأولى «خديجة بنت خويلد»، ولا يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها [3]، حتى أن «أم المؤمنين عائشة»، وهى الزوجة الوحيدة التى زفت إليه وهى بكر بعد وفاة خديجة بحوالى خمس سنوات [4]، كانت تغار من كثرة ثنائه وشدة وفائه «لخديجة» وذلك برغم أنها كانت من أحب نسائه إليه فقد روى عنها قولها: «ما غرت على امرأة ما غرت على «خديجة»، وما بى أن أكون أدركتها؛ ولكن كان ذلك لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها، وإن كان ليذبح الشاة فيتتبع بذلك صدائق خديجة يهديها لهن» [5] ورُوى عنها كذلك قولها: «ما غرت على أحد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما غرت على «خديجة»، وما رأيتها، ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم

---

(١) متفق عليه وانظر محب الدين الطبرى: السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ٥ ـ ٦.

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) متفق عليه وانظر المرجع السابق ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٤) متفق عليه وانظر المرجع السابق ص ٣٦.

(٥) المرجع السابق ص ٣٠.

يبعثها فى صدائق خديجة؛ وربما قلت: كأنه لم يكن فى الدنيا أمرأة إلا «خديجة»، فيقول إنها كانت وكانت، وكان لى منها الولد» [1] وقالت فى مناسبة أخرى: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها عندما غارت على خديجة فأغضبته: «إنى رُزقت حبها» [2]. وكان نبى الله صلى الله عليه وسلم دائم الذكر «لخديجة» والثناء عليها، فقد روت ذلك «عائشة» قائلة: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر «خديجة» فيحسن الثناء عليها، فأدركتنى الغيرة فقلت: وهل كانت إلا امرأة عجوزا فقد أبدلك الله خيرا منها؟ فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: «لا، والله ما أبدلنى الله خيرا منها: آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى منها الولد إذ حرمنى أولاد النساء. فقالت عائشة: «فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبدا» [3].

وكان النبى الوفى بجانب حبه لها، يحترمها، ويقدر لها الدور الكبير الذى نهضت به فى خدمة الإسلام، وقد وصفها للكثير من أصحابه أنها من خير نساء العالمين ومن أفضلهن، فقد روى «على بن أبى طالب» أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة**» [4]. وروى «ابن عباس» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية**» [5] وعن «أنس» أن النبى الكريم قال: «**حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون**» [6]. وأخرج

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ ـ ٣٠ وانظر البخارى جـ ٦ الحديث ٣٤٠٠ ص ١٦٣.

(٢) السمط الثمين، ص ٣٠.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب: ترجمة خديجة وكذلك ابن حجر فى الإصابة والسمط الثمين.

(٤) محب الدين الطبرى: السمط الثمين فى مناقب امهات المؤمنين ص ٣١ عن الشيخين وصححه الترمذى.

(٥) المحب الطبرى المرجع السابق ص ٣١ ـ ٣٢.

(٦) المرجع السابق ص ٣٢ وقد ذكر محب الدين الطبرى أنه استقى الأحاديث السابق ذكرها من كتب الصحاح المختلفة.

أحمد وأبو حاتم رواية أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون» (١).

ومن أمثلة الوفاء لذكرى أم المؤمنين «خديجة»، أن ما شطتها، وكانت تدعى «أم زفر»، وفدت على نبى الله صلى الله عليه وسلم وهوفى «المدينة المنورة»، فأكرم وفادتها ثم قال: «هذه كانت تغشانا فى عهد «خديجة»، وإن حسن العهد من الإيمان» (٢).

ومن أروع الأمثلة التى ضربها الرسول الكريم وفاء لذكرى أم المؤمنين «خديجة»، أنه فى العام الثامن للهجرة، وبعد وفاتها بنحو إحدى عشرة سنة، حين ولى «الزبير بن العوام» (٣) قيادة خيل المهاجرين والأنصار القادمين لفتح مكة، أعطاه رايته، وأمره أن يغرزها بأعلى «مكة بالحجون»، وقال له: «لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتى حتى آتيك» (٤)، فلما وصلت خيل «الزبير» إلى الحجون قال له «العباس بن عبد المطلب»: «يا أبا عبد الله، ها هنا أمرك رسول الله أن تركز الراية» (٥)، وهناك بالحجون حيث كانت ترقد أم المؤمنين «خديجة» فى قبرها، ارتفع علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضربت للرسول الأعظم قبته حيث اتخذ له مكانا للقيادة يدير منه معركة الفتح الأعظم (٦)، ويشرف وهو بالقرب من قبرها على سير الحوادث. ومن هناك دخل أم القرى يوم نصر الله عبده، وأعز جنده، وهزم مشركى الأرستقراطية الوثنية وحده، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتصر دين التوحيد بالله على كل أنواع الشرك، وكُسِّرت

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى، جـ٢ ص ٦٤٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الزبير بن العوام هو ابن أخى السيدة خديجة.

(٤) الطبرى: التاريخ عند ذكر أحداث السنة الثامنة جـ ٣ ص ٥٥ ــ ٥٧.

(٥) صحيح البخارى نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية جـ ٧ ص ٧ــ ٩. الحديث ٣٧٢٥؛ والطبرى: المرجع السابق.

(٦) الطبرى: التاريخ، المرجع السابق.

الأوثان، وطهر البيت الحرام وما حول الكعبة المشرفة من الأصنام، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»(1).

(1) سورة الإسراء: الآية ٨١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

« سورة الشورى الآية: ٤٩ ـ ٥٠ »



الفصل السابع عشر

الذرية العطــرة

القسم الأول

أولاد السيدة «خديجة» قبل زواجها من «محمد» صلى الله عليه وسلم

عند الحديث عن الأولاد الذين رزقت بهم «خديجة بنت خويلد» قبل زواجها من «محمد بن عبدالله» صلوات الله وسلامه عليه، يجدر بنا أن نوضح أن رواة السيرة النبوية الشريفة وغيرهم من المؤرخين والمعنيين بجمع التراجم ورواية الأنساب اختلفوا عند ذكر أول من تزوج منها، ولعل ذلك راجع إلى أن هؤلاء الرواة لم يعنوا بجمع أخبار حياتها إلا بعد انتقال النبى الكريم إلى الرفيق الأعلى وكان ذلك حينما بدأ بعض الصحابة والتابعين، وبخاصة الشبان منهم، يعنون بجمع وحفظ كل ما يتصل بالرسول الكريم من أخبار وأقوال وأفعال، وأن أكثر ما رووه عن أخبار السيدة «خديجة» كان مصدره ابن أخيها «الزبير بن العوام» ونحن نعلم أنه ولد قبل النبوة بحوالى ست عشرة سنة فقط. وبذلك يكون قد ولد قُبيل زواجها من «محمد بن عبدالله» صلى الله عليه وسلم (١)، وقد جاءت رواياته مما سمعه عنها لا مما شاهده بنفسه، وتذكر بعض الروايات عن «الزبير» أن أول من تزوج «خديجة» هو «أبو هالة، هند بن النباش التميمى» وأنها رزقت منه بولدين؛ ثم

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، ترجمة الزبير برقم ١٧٣٢: أسلم وهو ابن خمس عشرة أو ست عشرة سنة، وبذلك يكون قد ولد قبيل زواجها بقليل.

خلف عليها بعد وفاته «عتيق بن عابد المخزومي»(١) وأنها رزقت منه بفتاة، وتذكر بعض الروايات الأخرى عنه أيضاً أنها تزوجت وهي بكر «عتيق بن عابد» أحد أبناء عمومتها ورزقت منه بفتاة ثم تزوجت بعده «أبا هالة التيمي»، وقد جمع ابن الأثير هذه الروايات كلها في ترجمته «لخديجة» وقال: «كل ذلك ذكره الزبير»(٢)؛ وقد أخذنا برأي «ابن سعد»(٣)، وهو ما قال به «ابن عبد البر»(٤)، فقد ذكرا أن أول من تزوجها هو «أبو هالة، هند بن النباش التيمي»، وأنها بكرت له بولد ذكر سماه أبوه «هنداً» أيضاً وكانت تكنى به، ثم ولدت له ابنها الثاني فسماه أبوه «هالة»؛ ولما تزوجت بعد وفاته «عتيق بن عابد المخزومي» رزقت منه ببنت سميت «هند» أيضاً.

* * *

ولم يذكر لنا التاريخ كم كان عمر السيدة «خديجة» عند زواجها الأول، ومتى توفي هذا الزوج، وكم من السنين ترملت بعده، ولا متى تم زواجها الثاني، وهل طال هذا الزواج أم قصر، وكل ما وصل إلينا أنها ظلت بعد موت زوجها الثاني زمناً طويلاً ترعى أولادها، وأنها كانت ذات مال كثير وكانت تعمل بنفسها في تنمية ثروتها في التجارة شأنها في ذلك شأن سادة قريش الذين كانوا يبعثون قوافل تجارتهم في رحلتي الشتاء والصيف، وقد رفضت الزواج من بعض عظماء قريش الذين تقدموا لخطبتها، وأنها بقيت كذلك حتى تزوجت «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم وكانت قد بلغت الأربعين، وهذه هي أصح الروايات، فقد قال بها «حكيم بن حزام بن خويلد» الأسدي ابن أخي «خديجة»، وهو رجل ولد قبل

---

(١) وفي روايات أخرى ابن عائذ بدلاً من ابن عابد.
(٢) أسد الغابة جـ٧ ترجمة خديجة رقم ٦٨٦٧ ص٧٨ـ٨٥.
(٣) الطبقات جـ٨ ترجمة خديجة ص٧ـ١١.
(٤) الاستيعاب ترجمة خديجة برقم ١٨١٧.

عام الفيل بثلاث عشرة سنة وذلك بعد مولد «خديجة» بعامين (١)، فروايته تلك هى رواية رجل عاصر الأحداث، ولا بد أن يكون قد حضر زواج عمته «خديجة من محمد»، وهى تصحح بعض ما نسب خطأ إلى «عبدالله بن عباس» من أنها تزوجت «محمداً»، صلى الله عليه وسلم وهى فى الثامنة والعشرين من عمرها، وقد أخذ المؤرخون المعروفون بتحرى أصدق الأخبار وأدق الروايات برواية «حكيم بن حزام» وظل المسلمون قرابة ألف وأربعمائة عام يؤمنون بذلك، وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح فى المقدمة.

«وهند بن أبى هالة التميمى» هو بكر «خديجة بنت خويلد» من زوجها الأول «أبى هالة التيمى» وبه كانت تكنى (٢) وهو ربيب رسول الله (٣) صلى الله عليه وسلم وقد أسلم وحسن إسلامه وكان يصحب الرسول الكريم، وروى عنه، وكان يفخر ويعتز بانتسابه لآل البيت فكان يقول: أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً: أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمى «خديجة» رضى الله عنها، وأخى «القاسم» عليه السلام، وأختى «فاطمة» عليها السلام (٤). ولما أراد «الحسن بن على ابن أبى طالب» أن يعرف أوصاف جده رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل خاله هنداً أن يصفه له، وكان هند فصيحاً بليغاً يتقن الوصف فوصفه له وأحسن وأتقن، وحفظ «الحسن»، عليه السلام هذا الوصف ورواه عن خاله «هند»، وعنيت كثير من كتب السيرة والتراجم بهذا الوصف، فأوردته كاملاً (٥)،

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ترجمة خديجة جـ٨ ص١٠، وكذلك ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة حكيم بن حزام جـ٢ برقم ١٢٣٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٨ ترجمة خديجة ص٨ وص١١.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ترجمة هند رقم ٢٦٤٩، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، طبع دار المعارف ص٢١٠، وابن حجر: الإصابة ترجمة ٩٠٠٨.

(٤) محب الدين الطبرى: السمط الثمين فى مناقب امهات المسلمين الطبعة الثانية، مكتبة التراث الإسلامى بحلب ص٣٣.

(٥) النويرى: نهاية الأرب جـ ١٨ ص ٢٧٣ — ٢٧٦.

وأورد البعض الآخر جزءاً منه، كما عنى بعض الأدباء ببيان أوجه فصاحة هذا الوصف وبلاغته فشرحه أبوعبيدة وابن قتيبة (١).

وقد شهد «هند بن أبى هالة» أُحداً، وقيل شهد بدراً(٢) وكان ممن اشتركوا فى دفن حمزة بن عبدالمطلب ودخول قبره (٣). وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلت يا رسول الله، ما حملك أن تنزع ابنتك عن عتبة، يعنى ابن أبى لهب، حتى حرشته عليك؟ قال: «**إن الله أبى أن أتزوج أو أزوج إلا إلى أهل الجنة**» (٤).

وقد عاش هند بن أبى هالة التميمى وعاصر الحوادث كلها وحضر موت «عثمان بن عفان»، وناصر «على بن أبى طالب» وحارب معه وقتل فى موقعة الجمل (٥).

وقد رزق هند هذا بمولود ذكر أسماه أيضاً «هنداً»، فابنه هذا هو «هند بن هند بن أبى هالة التميمى»، وقد عاش فى البصرة، وروى عن أبيه أنه قال: «مر النبى صلى الله عليه وسلم «بالحكم أبى مروان» (٦)، فجعل «الحكم» يغمز بالنبى صلى الله عليه وسلم ويشير بإصبعه، فالتفت إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال: «**اللهم أجعل له وزغاً**» فرجف مكانه (٧) وصار يرتعش ارتعاشاً لا إرادياً.

ومات «هند بن هند» بالبصرة فى الطاعون، فسار فى جنازته أربعة فقط كانوا يحملون نعشه لشغل الناس بموتاهم، فصاحت امرأة: «واهند ابن هنداه، وابن ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فازدحم الناس على

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة جـ ٥ ترجمة هند بن أبى هالة برقم ٥٤٠٤، ص ٤١٧ ــ ٤١٨.

(٢) ابن عبد البر وابن حزم: المرجعان السابق ذكرهما.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب.

(٤) ابن حجر جـ ٦ ترجمة هند برقم ٩٠٠٨ وكذلك ابن عبد البر: الاستيعاب.

(٥) الاستيعاب وجمهرة الأنساب لابن حزم، والمرجعان السابقان.

(٦) الحكم: أبو مروان بن الحكم كان من الذين يستهزئون بالنبى الكريم.

(٧) ترجمة هند بن هند بن أبى هالة أنظر: ابن الأثير: أسد الغابة، جـ٥ ترجمة رقم ٥٤٠٥ ص ٤١٩؛ والإصابة لابن حجر ترجمة ٩٠٠٩ جـ٦.

جنازته وتركوا موتاهم [1] تقديراً وحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته الطاهرة «خديجة أم المؤمنين». ولم يرو لنا التاريخ أن «لهند بن خديجة» أولاداً غير ابنه هذا، ولم يعقب غيره، فانقطعت بذلك ذريته.

وقد رزقت السيدة «خديجة» من «أبى هالة التميمى» ولداً ذكراً آخر اسمه «هالة»، وقد أسلم وحسن إسلامه؛ ولكننا لم نعرف من أخباره إلا القليل فقد ذكر فى السيرة [2] وذكر «ابن عبدالبر وابن حجر» [3] أن له صحبة، وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرحب بوفادته عليه فى المدينة إكراماً لذكرى أمه «أم المؤمنين خديجة» [4]، وكان له ولد اسمه «زيد بن هالة التميمى» عاش فى مصر، وحدّث عن أبيه [5]، وقد انقطعت بعد ذلك أخبار ذريته.

ورزقت السيدة «خديجة» من زوجها الثانى «عتيق بن عابد المخزومى» بنتاً أطلق عليها اسم «هند»، فلما شبت تزوجت من ابن عم لها يدعى «صيفى بن أمية بن عابد المخزومى» فولدت له ولداً ذكراً أسماه «محمداً» تيمناً باسم الرسول الكريم وكان «محمد» هذا من أولاده ذرية تقيم فى المدينة المنورة، وكان المسلمون يحبونهم ويحترمونهم ويطلقون عليهم اسم «بنو الطاهرة» وذلك تقديراً لذكرى أول أم للمؤمنين واعترافاً بفضل «خديجة بنت خويلد»، ولكن ذرية «محمد» هذا لم تعقب فانقرضوا [6].

والمتتبع لكتب السيرة وكتب الطبقات وتراجم الصحابة يلاحظ أن إرادة الله سبحانه قضت، ولا راد لقضائه، أن الذرية الطاهرة التى أنجبتها «خديجة بنت خويلد» قبل زواجها من خاتم الأنبياء والمرسلين لم تعقب، فلم يبق لهم على الزمن نسل يحفظ ذكرها وذكرهم، وأن إرادة الله شاءت

---

(١) المرجعان السابقان.

(٢) ابن هشام السيرة هامش ص١٨٧.

(٣) الاستيعاب ترجمة ٢٦٧٢؛ والإصابة ترجمة رقم ٨٩١٤.

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة هالة برقم ٥٣٢٢.

(٥) المرجع السابق.

(٦) ابن سعد: الطبقات جـ٨ عند ذكر ترجمة خديجة ص٨.

أن الذى بقى من ذريتها العطرة هم أحفادها وذريتهم من أصغر بناتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاطمة الزهراء » من زوجها « على بن أبى طالب » ، كرم الله وجهه ، فقد بارك الله فيهم وعاش منهم ومن ذريتهم البنين والبنات الذين طهرهم الله ، فكانوا مصابيح حفظت على الزمن ذكر جدتهم أم المؤمنين « خديجة » الكبرى .

القسم الثانى

الذكور أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من « أم المؤمنين خديجة »

لا بد لنا من التريث قليلاً قبل الدخول فى تفاصيل تاريخ هذه الذرية الطاهرة ، لنذكر أن مؤرخى السيرة النبوية العطرة وكتاب التراجم اختلفوا فى ترتيب مولد أولاد النبى صلى الله عليه وسلم من « خديجة » ، وذلك أن الناس لم يكونوا يعرفون تفاصيل حياتها الخاصة فى الفترة السابقة لمبعثه صلى الله عليه وسلم معرفتهم لدقائق تفاصيلها بعد الرسالة الشريفة ؛ فهل بكر الرسول الكريم بذكر أم بأنثى ؟ وهل رقية أكبر أم أم كلثوم ؟ وما هى الفترة الزمنية بين مولد كل ولد من أولاده ؟ وكم مضى من الزمن قبل أن تضع « خديجة » أول مولود لها من « محمد » صلى الله عليه وسلم ؟ لقد اعتمدنا ، أثناء هذا البحث على الكتاب المشهورين بالدقة وتحرى الأخبار ، وناقشنا مختلف الروايات ونقدناها ، ثم اخترنا من بينها الترتيب الذى استرحنا إليه فى الفصول السابقة ، وأشرنا باختصار فى الهامش إلى المصدر الذى اعتمدنا عليه عند ذكر كل حالة ؛ ولكنا نرى ، بمناسبة تخصيص فصل نؤرخ فيه لذرية الرسول الكريم من « أم المؤمنين خديجة » ، أن نذكر بشىء من التفصيل الأسباب التى جعلتنا نرجح بعض الروايات على بعض حتى يكون منهجنا واضحاً أمام القارئ الكريم .

« القاسم بن محمد » صلى الله عليه وسلم

« القاسم » هو بكر ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من « خديجة بنت خويلد » ، وبه كان يكنى أبا القاسم ، وقد أعتمدنا فى ترتيب مولده

هـذا عـلى رواية « ابن سعد » فهو من أوثق من يعتمد عليهم في التراجم ، كما أن روايته من أقدم الروايات التي وصلت إلينا فقد قال عن « القاسم » : « كان أول من ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل النبوة ، وبه كان يكنى ثم ولد له « زينب » ثم « رقية ... » (١) وقد زكى هذه الرواية ما قال به « ابن عبد البر » (٢) ، وكذلك روى « ابن الأثير » عن « الزبير » قوله إن « خديجة » : « ولدت لرسول الله صلـى الله عليه وسلم « القاسم » وهو أكبر ولده ثم « زينب » ؛ كما روى ابن الأثير عن « الجرجاني » من طريق آخر قوله : « القاسم » هو أكبر ولده ثم « زينب » (٣) ؛ وفي الحديث عن « القاسم » قال ابن الأثير : « القاسم بكر ولده وبه كان يكنى أبا القاسم » (٤) . وقد أكد لنا صحة هذا الترتيب « الحافظ بن حجر العسقلاني » فقد قال : « القاسم ابن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكره وأول مولود له ، وبه يكنى » (٥) .

وكما أختلف الرواة في ترتيب مولده . اختلفوا كذلك عند ذكر تاريخ وفاته ، وقد سبق أن ذكرنا أن أبويه سعدا به ما يقرب من عامين ، واعتمدنا في ذلك على رواية « ابن سعد » . وقول « ابن عبد البر » إنه عاش حتى مشى ثم تزكية « ابن الأثير » بذكر رواية عن « الزهري أن « القاسم » مات وهو ابن سنتين ، « والزهري » ، كما نعلم ، هو أستاذ « موسى ابن عقبة » (المتوفى سنة ١٣١ هـ) و « محمد بن إسحق » (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) ومؤلفاتهما هي المنبع الذي استقى منه أكثر من ألف بعدهما في السيرة النبوية العطرة والمغازي وتراجم الصحابة .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ القسم الأول عند ذكر أولاد رسول الله ، ص ٨٥ .
(٢) الاستيعاب : ترجمة القاسم .
(٣) أسد الغابة : ترجمة خديجة بنت خويلد برقم ٦٨٦٧ .
(٤) أسد الغابة : ترجمة القاسم بن محمد صلى الله عليه وسلم . برقم ٤٢٤٦ .
(٥) ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة .

عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أما « عبد الله » ، فإن أكثر الروايات على أنه ولد في فجر الإسلام [1] ، ولذلك لُقب بالطيب وبالطاهر، وأنه مات قبل أن يستكمل الرضاع [2] ، وأن سورة الكوثر نزلت عندما شمت أحد سفهاء المشركين بعد وفاة « عبدالله » وقال إن « محمداً » رجل أبتر بمعنى أنه سوف ينقطع ذكره بعد وفاته ، ثم أخذ سفهاء قريش يكررون هذا القول بُغضاً وكراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخزاهم الله سبحانه بإنزال هذه السورة الكريمة .

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن بعض المؤلفين المعاصرين يذكر أنه عانى الكثير حتى ثبت له أن سورة الكوثر نزلت بمناسبة موت « عبدالله » ابن خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه يعتبر أنه نجح في تحقيق تاريخ ومناسبة نزول هذه السورة الكريمة، وحقيقة الأمر أن أقدم الروايات التي وردت إلينا تقرر في وضوح أن هذه السورة نزلت بعد وفاة « عبدالله » في فجر الإسلام ، فهي السورة الخامسة عشر في ترتيب النزول ؛ ومن بين هذه الروايات القديمة ما ذكره « ابن سعد » فقد قرر أن سورة الكوثر نزلت بعد موت « عبدالله » [3] ، كما ذُكر ذلك في كثير من كتب أسباب النزول ، فقد روى « أبوالحسن علي النيسابوري » (ت ٤٦٨) أن أحد أشقياء قريش ، كان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه » ، وكان ذلك الشقي يمر بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقول : إني لأشنؤك وإنك لأبتر من الرجال ، فأنزل الله تعالى سورة الكوثر: بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [4]

---

(١) ابن سعد: المرجع السابق.

(٢) كان العرب يرضعون الذكور عامين.

(٣) الطبقات: جـ١، القسم الأول عند ذكر أولاد رسول الله، ص٨٥.

(٤) أسباب النزول ص ٢٦٠ جـ١ ص٣٩٣ ــ ٣٩٤.

وقد ذكر ابن إسحق، وكذلك النيسابورى اسم الشقى الذى تفوه بذلك القول المنكر، ولكنا لم نرد أن يكون له فى هذا الكتاب ذكراً فأغفلناه.

وقد اختلف الصحابة فى بيان من هو أول سفيه قال قولته المنكرة تلك(١)، ولكن الظاهر «أن شقياً من أشقيائهم قالها ثم أخذ أشقياؤهم يكررونها، وتوهموا لجهلهم، أن الرسول مثلهم: إذا مات بنوه انقطع ذكره؛ ولكن حاشا وكلا «بل لقد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد» (٢).

ولا شك أن «محمد بن عبد الله» وزوجته «خديجة بنت خويلد» سعدا أيما سعادة عندما وهبهما الله هذين الولدين، وأنهما كانا يريان فى مولد الذكور سعادة وعزاً، وأن هذين الطفلين كانا مناط أمل وموضع رجاء، وأن موت كل منهما كان وقعه شديداً على الوالدين، وفجيعة ذاقا بسببها مرارة ثكل الولد مرتين كما ذاقها غيرهما من البشر، ولو أراد الله سبحانه لحفظ لهما هذين الولدين، وجنّبهما الآلام والأحزان؛ ولكنه لحكمة أرادها (٣) استرد منهما الوديعة التى أسعدهما بها فترة من الزمان كما يستردها كل يوم من مئات الآباء والأمهات فى شتى أنحاء الأرض، فحزنا لفراقهما، ولكنهما استعصما بالصبر، وأخذا نفسيهما بالرضى بقضاء الله وقدره، وهذه منزلة لا يسمو إليها إلا من أنعم الله عليه وقرّبه واجتباه من الأنبياء والصالحين.

القسم الثالث

بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم من «أم المؤمنين خديجة»

زينب بنت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم

تكاد تجمع كتب السيرة وكتب التراجم على أن «زينب» هى كبرى بنات النبى الكريم، وأنه رزق بها وهو فى الثلاثين من عمره، وكانت

---

(١) السيرة جـ١ ص٣٩٣ـ٣٩٤؛ وقد آثرنا أن لا نذكر تلك الأسماء حتى لا نجعل لأحد منهم ذكراً فى هذا الكتاب. (٢) ابن كثير: التفسير.

(٣) أنظر تعليل هذه الحكمة فى تحقيقنا «للرسالة الكاملية فى السيرة النبوية الفصل (٤) من الفن الثانى».

« خديجة » في الخامسة والأربعين، فقد روى ابن إسحق ترتيب مولد البنات بقوله : « زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة » ولم يخالفه، فيما نعلم، إلا ابن هشام عندما تصدى لاختصار سيرة ابن إسحق(١)، فإن أكثر رواة السيرة تثبتاً وتحرياً للدقة يتفقون مع ابن إسحق(٢).

وكانت « زينب » أول من تزوج من بنات الرسول صلى الله عليه وسلم فقد زفت إلى ابن خالتها « أبي العاص بن الربيع » قُبيل النبوة، « وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة »(٣)، وكانت « خديجة » أم المؤمنين تحبه وكان النبي الكريم يحبه كذلك ويعطف عليه، وقد أثر عنه أنه كان « يثني عليه في صهره خيراً »(٤).

وعاشت « زينب » مع زوجها سعيدة قريرة العين، فقد كان زوجها يحبها حباً كبيراً، وكانت بدورها تبادله حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص.

ولما أكرم الله رسوله بالنبوة آمنت به « خديجة » وبناته فصدقنه وشهدن أن ما جاء به هو الحق، ودِنّ بدينه، وثبت أبوالعاص على شركه ودين آبائه »(٥)، وقد ذُكر في ذلك إنه كان يخشى أن يقال عنه إنه إنما أسلم اتباعاً لزوجته التي كان يحبها حباً عظيماً، وكان ينشد في حبها شعراً عرفه أقرانه من شبان قريش؛ فلما أُمر النبي بالجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من مبعثه، عاداه كبار المشركين، وكاد له سفهاؤهم ومشوا إلى « أبي العاص » وطلبوا منه أن يطلق « زينب ». وعرضوا عليه أن يزوجوه ممن تهفو نفسه للزواج منها من أعرق بنات قريش؛ ولكنه أبى وقال : « والله إني لا أفارق

---

(١) السيرة جـ١ ص١٩٠.

(٢) انظر على سبيل المثال ترجمة زينب في الاستيعاب لابن عبد البر، وفي ابن الأثير: أسد الغابة، الطبري: التاريخ جـ٢ ص٤٦٧ـ٤٧١، وفي محب الدين الطبري: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص١٨٣ـ١٨٧، وفي الطبقات لابن سعد جـ٧ القسم الأول ص٢٠.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٦٥١ـ٦٥٢.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق، والطبري جـ٢ ص٤٦٧ـ٤٦٨.

صاحبتي، وما أحب لي بامرأتي امرأة من قريش»[1] فشكر الرسول صلى الله عليه وسلم مصاهرته وأثنى عليه خيراً[2]، وبقيت زينب عنده لأن سورة براءة لم تكن قد نزلت بعد؛ ولذلك فلم يكن أمر التفريق بين الزوجة المسلمة والزوج المشرك قد نزل بعد.

لقد مرت «زينب» فى حياتها بأحداث جسام، وفى ظروف اتفقت فى بعضها مع الظروف التى مرت بشقيقاتها الثلاث، فلقد عاشت معهن فى طفولتها عيشة راضية سعيدة، نعمن فيها بكثير من مباهج الحياة، وما كان يغدقه عليهن أبوهن العظيم من حب وتوجيه، وما كان يجلبه لهن مال أمهن وسهر والدهن على تنميته من حياة رغدة كريمة، وما كانت توليهن أمهن من حنان ورعاية وتدريب على الحياة الفاضلة، فلما قاربت «زينب» العاشرة من عمرها زفت إلى ابن خالتها «أبى العاص بن الربيع» وهى ما تزال فى مرحلة الطفولة، شأنها فى ذلك شأن الكثيرات من أترابها من بنات قريش فى ذلك الزمان.

وقد رزقها الله قبيل الجهر بالدعوة بابنتها «أمامة» فكانت مصدراً جديداً من مصادر السعادة فى بيت الزوجية كما كانت مصدراً من مصادر السعادة فى حياة الرسول الكريم وزجته «أم المؤمنين خديجة»، فكثيراً ما كان النبى الرءوف الرحيم يخرج من بيته وهو يحملها، وروى الكثيرون من الصحابة أنه كان يحملها على عاتقه وهو واقف يصلى، فإذا ركع وضعها على الأرض، وإذا قام من سجوده عاد فحملها ثانية[3]، وكانت «أمامة» أول حفيدة سعدت بمقدمها «خديجة» أم المؤمنين.

ووهب الله «لزينب» من زوجها أبى العاص صبياً أسماه أبوه «علياً»[4]، وذلك قبيل وفاة «خديجة» فكان مقدمه عاملاً قوياً فى توثيق

---

(١) المرجعان السابقان.

(٢) المرجعان السابقان وابن عبد البر. متفق عليه.

(٣) متفق عليه وانظر الطبقات الكبرى جـ٨ ص٢٦ ـــ ٢٧ وابن الأثير فى ترجمة أمامة وترجمة أمها زينب وأبيها أبى العاص بن الربيع.

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة جـ٤ ترجمة على بن العاص برقم ٣٧٨٥ ص١٢٥.

صلات المودة والرحمة بين أبويه فى بيئة كانت تعتز بالذكور من أبنائها وتفخر بهم، وتؤمل أن يكون على يديهم حماية الأسرة وتنمية ثروتها، ونصر القبيلة والذود عنها؛ وقد استرضعه أبوه فى «بنى غاضرة» حتى يُقوّم لسانه فى بيئة فصيحة لم يتسرب اللحن إليها على عادة قريش، فلما انتهت مدة إقامته فى البادية، وكان أبوه مايزال مشركاً ضم النبى الكريم «علياً» إليه وقال: **«من شاركنى فى بنى فأنا أحق به منه، وأيما كافر شارك مسلماً فى شىء فالمسلم أحق به منه»**[1]، وقد شب الغلام حتى ناهز الحلم عند الفتح الأعظم فى السنة الثامنة للهجرة، وكان قد جاوز الحادية عشرة فأردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه[2] عندما دخل مكة، ثم لم يلبث أن توفى بعد ذلك بعد وفاة أمه «زينب» وفى نفس العام الذى توفيت فيه.

كانت «زينب» تعيش فى مكة فى بحبوحة من العيش الكريم بفضل رعاية زوجها وحبه لها، ولكنها ذاقت الكثير من مرارة العيش، فقد كانت تتألم أشد الألم لما كان يقاسيه والدها العظيم من تكذيب واستهزاء وعنت أثناء تبليغ رسالته، وكانت تشفق مما كان يقاسيه المؤمنون من تعذيب على يد جبابرة الأرستقراطية الوثنية، كما كانت ولا شك تتألم لعدم دخول زوجها فى دين الله، وعانت فترة من الاضطراب والقلق عندما علمت بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من «مكة»، ورأت شيوخ الكفر والشرك يسلكون خلفه كل الطرق، ويغرون به سفهاءهم بغية القبض عليه حياً أو ميتاً لقاء مائة ناقة، فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب سالماً شكرت الله على نجاته من القوم الظالمين، ولكنها سرعان ما شعرت بالوحشة لبعده عنها، ولهجرة شقيقتيها «أم كلثوم» و«فاطمة الزهراء» إلى المدينة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، والطبقات الكبرى جـ٨ ص٢٠، وبهذا يتحقق ماقلناه سابقاً من أنه ولد قبيل وفاة «أم المؤمنين خديجة» ويكون قد بلغ الحلم وجاوز الحادية عشرة عندما أردفه جده خلفه يوم الفتح الأكبر.

المنورة (١)، حيث أصبحت وحيدة فى مكة وليس بجوارها إلا القليل من المؤمنين الذين يخفون إسلامهم خوف بطش قريش.

ومرت الأيام و«زينب» وحيدة فى «مكة» حتى إذا كان العام الثانى للهجرة النبوية، رأت قريشاً تستعد على بكرة أبيها لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جمعوا له كل ما استطاعوا من رجال وعتاد، ثم خرجوا فى خيلهم وخُيلائهم لملاقاة المسلمين يريدون أن يقضوا عليهم، وأن يطفئوا نور الله، وخرج معهم وفى صفوفهم زوجها «أبو العاص بن الربيع».

لقد جزعت «زينب» لما رأت وما سمعت، فهى الحرب لا تبقى ولا تذر، ولا يُعرف من سيكون فيها الغالب ومن سيكون المغلوب، فحارت نفسها، واضطرب فؤادها خشية أن ينال الطغاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهلها وإخوتها فى الدين الذين يقفون معه، يؤازرونه ويفدونه بأرواحهم، وخشية أن تترمل إذا أصاب زوجها مكروه فتفقد رجلها الذى أحبته ويصبح ولداها يتيمين. ما أعظم ما قاست «زينب» وهى ترى أكثر من ألف محارب بكامل عدتهم يخرجون إلى الحرب وقد صحبوا معهم النساء يحرضنهم على القتال وهن يضربن الدفوف ويغنين الأهازيج كأنهن ذاهبات إلى عرس! هل ينصر الله دينه؟ لقد كان إيمان «زينب» بالله عظيماً قوياً، فأخذت تضرع إلى الله أن ينصر نبيه، وأن يحفظه والمؤمنين فيرد عنهم كيد الكائدين وجبروت الطغاة المشركين، وأن يحفظ زوجها لها ولولديها، وأن يهديه صراطه المستقيم.

وظلت «زينب» موزعة الفكر، كاسفة البال حتى نصر الله دينه فى بدر الكبرى، وهزم الأرستقراطية الوثنية على كثرة عددهم، ووفرة عدتهم وعتادهم، وأعز الله المسلمين على قلة عددهم، وضآلة أسلحتهم فقتلوا من الجبابرة الكثير، وأسروا منهم من أسر، وعاد باقى الطغاة إلى مكة وقد أذلتهم هزيمة بدر الكبرى، وأخذوا يدبرون أمر افتداء أسراهم.

---

(١) كانت رقية قد هاجرت إثر زوجها عثمان إلى المدينة قبيل الهجرة النبوية الشريفة.

وكان «أبو العاص بن الربيع» قد وقع فى الأسر، وقد روينا من قبل قصة القلادة التى بعثت بها «زينب» فى فداء زوجها، وأن الرسول الكريم عرف القلادة فرقّ لها رقة شديدة، وذكر «أم المؤمنين خديجة»، فترحم عليها، وأن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أطلقوا «لزينب» أسيرها، وردوا لها قلادتها، وانصرف «أبو العاص بن الربيع» عائداً إلى مكة بعد أن التقى بالنبى الكريم، وتحادثا معاً على انفراد حيث أخذ عليه عهداً أن يخلى سبيل «زينب»، وبقى هذا الاتفاق سراً، وكل ما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استدعى إليه «زيد بن حارثة» وأسرّ إليه أن يذهب وفى صحبته صحابى من الأنصار فينتظرا مرور «زينب» فى مكان ذكره لهما حتى يصطحباها إلى «المدينة المنورة».

ولما عاد «أبو العاص بن الربيع» إلى مكة وفىّ بوعده لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك امتدحه الرسول الكريم فقال: **«حدثنى فصَدقنى، ووعدنى فوفى لى»** (١).

وتجهزت «زينب» للسفر ثم خرجت من مكة فى رابعة النهار وهى راكبة هودج يحمله بعير، وكان على حراستها أخ لزوجها يدعى «كنانة بن الربيع»، فاشتد ذلك على مشركى قريش، وشعروا بالمهانة بعد ذل الهزيمة المنكرة التى لحقت بهم فى «بدر الكبرى»، وصورت لهم مصيبتهم فى تلك الموقعة أن خروجها جهاراً نهاراً من بين أظهرهم فيه مهانة أخرى وخزى لا يمكن لهم أن يقبلوه؛ فأسرع الكثيرون يريدون اللحاق بها حتى يردوها إلى مكة بالقوة، واقترب أحد شياطينهم (٢) من البعير الذى كان يحملها ونخسه برمحه، ففزع وجَفَل قافزاً فجأة، فوقعت «زينب» من هودجها على صخرة صلدة وكانت حاملاً، فسالت منها الدماء وأجهضت. وتصدى «كنانة بن الربيع» للمهاجمين، فنثر سهامه، وهدد بتسديد سهم قاتل لكل من يقترب من «زينب»، فوقف الجميع، ولم يلبث أن قدم عليهم

---

(١) أسد الغابة جـ٦ فى ترجمة أبى العاص ٦٠٣٥ ص١٨٥.

(٢) تعمدنا ألا نذكر اسم هذا الشقى حتى لا نقيم له ذكراً فى هذا البحث.

« أبوسفيان » في رهط من زعماء قريش وقال مخاطباً « كنانة » : « أيها الرجل، كف عنا نبلك (١) حتى نكلمك » . فلما كف، أقبل « أبوسفيان » حتى وقف عليه فقال : « إنك لم تصب : خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من « محمد » ؛ فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس بين أظهرنا، أن ذلك من ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن . ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثؤرة (٢)، ولكن أرجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها، فسُلّها سراً وألحقها بأبيها » (٣) .

ولم يكن « كنانة بن الربيع » يخشى بأس المهاجين؛ ولكنه سمع « زينب » تئن وهي غارقة في دمائها فآثر أن يعود بها إلى مكة، وقد قال في ذلك (٤) :

ولست أبالي ما حييت عديدهم ... ما استجمعت قبضاً يدي بالمُهند

وانقلب مشركو قريش عائدين إلى أم القرى، فلقيتهم « هند بنت عتبة » زوجة « أبي سفيان » (٥)، فهالها أن يخرج هذا الجمع الكبير لاستعادة امرأة عزلاء لا يحرسها إلا رجل واحد، فأنشدت تعيّرهم لموقفهم المشين وتذكرهم بهزيمتهم المنكرة في بدر:

أفي السلم أعيار جفاءً وغلظة ... وفي الحرب أشباه النساء العوارك (٦)

---

(١) النبل: هي السهام.
(٢) الثؤرة: هي طلب الثأر.
(٣) ابن هشام السيرة جـ١ ص ٦٥٤ـ ٦٥٥.
(٤) المرجع السابق.
(٥) هي أم معاوية بن أبي سفيان، وقد أسلمت بعد الفتح وحسن إسلامها: ابن الأثير: أسد الغابة جـ٧ ترجمة برقم ٧٣٤٢.
(٦) ابن هشام: جـ١ ص ٦٥٦. أعيار: جمع عير وهو الحمار، والنساء العوارك: النساء اللائي يحضن.

وانتظر «كنانة بن الربيع» بضع ليال حتى أصبحت «زينب» أكثر استعداداً لتحمل وعثاء السفر، ثم خرج بها ثانية بعد أن أرخى الليل سدوله، ونام أكثر الناس، وهدأت الأصوات، فتسلل بها في ظلام الليل البهيم نحو «المدينة المنورة» حتى أسلمها إلى أخيها بالتبني «زيد بن حارثة» ومعه صاحبه؛ فقدما بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كان لسقوط «زينب» فوق الصخرة الصلدة أثره المؤلم في حياتها، فقد ظلت تنزف دمها بين الحين والحين على مدى بضع سنوات حتى لقيت ربها في أوائل العام الثامن للهجرة قبيل الفتح الأعظم.

وأقام «أبو العاص» على شركه في مكة، وأقامت «زينب» عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، ونزلت سورة براءة، ففرّق الإسلام بينهما، وذلك أن المرأة إذا أسلمت قبل زوجها أصبحت لا تحلُّ له، فإن إسلامها تطليقة بائنة (١).

ومضت الأيام بعد النصر المؤزر في موقعة بدر الكبرى في العام الثاني من الهجرة النبوية الشريفة، وكان نور الإسلام يزحف على شبه الجزيرة العربية رويداً رويداً، وكان إقبال العرب على الدخول في دين الوحدانية يزداد يوماً بعد يوم، ولكن قريشاً ظلت سادرة في غيها وعنادها وهي تحاول إطفاء نور الله، وتغتصب أموال المستضعفين الذين يؤمنون برسالة «محمد» صلى الله عليه وسلم وتستولي على بيوت المؤمنين الذين يهاجرون إلى «يثرب» ليلحقوا بالرسول الكريم، فلما كان العام السادس للهجرة، حدث أن خرجت إحدى قوافل قريش التجارية إلى الشام، وخرج معها «أبو العاص بن الربيع» يتجر بماله وبأموال أئتمنه عليها بعض أهل مكة؛ وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر عودة تلك القافلة (٢)، فأرسل سَرِيَّة

---

(١) التطليقة البائنة هي التطليقة الأولى التي يجوز للرجل بعدها أن يسترد زوجه بشروط معينة. وانظر الطبقات جـ٨ عند ذكر زينب ص ٢١ وكذلك السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ١٨٥.

(٢) الطبقات جـ٨ عند ذكر زينب ص ٢١ ـ ٢٢.

قوامها سبعون ومائة راكب، وأمّر عليها «زيد بن حارثة»، ففاجأت عير قريش عند «العيص» في شهر جمادى الأولى، واستولت على كل ما تحمل من متاع، وأسرت جماعة ممن كانوا فيها، وتمكن «أبو العاص» من الإفلات فلم يقع في الأسر، وأخذ يضرب في الأرض حتى إذا جن الليل تسلل إلى «المدينة المنورة»، ثم دخل قبيل صلاة الفجر على «زينب» بنت رسول الله، واستجارها فأجارته. ولا شك أنه قص عليها نبأ مباغتة سرية المسلمين لقافلته واستيلائها على كل تجارة قريش، ومن بينها تجارته وما كان يحمل معه من متاع أئتمنه عليه أهل مكة.

ولم يلبث أن أذن بلال للصلاة، فخرج نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد، وكبّر لصلاة الصبح، وكبر بعده الناس، فنادت «زينب» من صفة النساء: أيها الناس، إني أجرت «أبا العاص بن الربيع»[1]. ولما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة، أقبل على الناس فقال: **«أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. قال: أما والذي نفس «محمد» بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم؛ إنه يجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت»**[2]. وهكذا لم يتردد «محمد» صلى الله عليه وسلم في بث الأخلاق الكريمة في نفوس المؤمنين، فقد علّمهم أن المسلمين سواسية كأسنان المشط، إذا أجار أصغرهم شأناً، وأقلهم منزلة أحداً من الناس، فإنه يصبح في حمى المسلمين جميعاً.

وانصرف النبي الكريم من المسجد، ودخل على ابنته «زينب»، فأمرها أن تكرم ضيفها، ثم ذكر لها، في أدب جم وأسلوب فصيح فيه كثير من الدقة والحنان، ما يجب أن تكون عليه العلاقة بينها وبينه، فقد أبان لها أنه

---

(١) وردت هذه القصة في أكثر مراجع كتب السيرة وكتب التراجم عند ترجمة «أبي العاص» وانظر ابن هشام: السيرة جـ١ ص٦٥٧ـ٦٥٨، والمراجع السابق الإشارة إليها: ابن عبد البر: الاستيعاب، وابن الأثير: أسد الغابة، وسير أعلام النبلاء ص٢٣٩ـ٢٤١.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٦٥٧ـ٦٥٨ وقد أثبتنا لفظ نادت بدلاً من صرخت اقتباساً من الطبقات لابن سعد وابن الأثير: أسد الغابة.

لا يجوز له أن يقربها لأنها لا تحل له ما دام مشركاً، وقد أُثر عنه قوله: «ولا يخلصنَّ إليك فإنك لا تحلين له»، فأغضت «زينب» حياء، ثم قالت: «لقد جاء في طلب ماله يا أبت» (١).

وجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السرية التي استولت على قافلة قريش وقال: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً؛ فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به». فقالوا: «يا رسول الله، بل نردُّه عليه».

وأسرع المؤمنون يحملون متاع «أبي العاص» حتى ردوا عليه ماله بأسره، لم ينقص منه ولا مما أئتمنه عليه أهل «مكة» شيء؛ و«أبو العاص» واقف يرقبهم وهم ينشطون في حمله وقد طابت نفوسهم، وآثروا حب الله والاستجابة إلى ما يرضى رسوله، فأعجب بإخلاصهم، وتسرب نور الإيمان إلى قلبه، فبدأ يشرق وجهه؛ ولكنه سرعان ما تحكم في مشاعره، ولمح ذلك كله بعض من اشتهروا بالفراسة، وكان يعلم أن المشركين يغتصبون أموال المسلمين في «مكة». فقال له: «هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين؟».

فرد عليه «أبو العاص» قائلاً: «بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي» (٢).

وأسرع «أبو العاص» بما يحمل من تجارة إلى مكة، «فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ومن كان أبضع منه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟».

قالوا: لا. فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً».

---

(١) قصة إسلام «أبي العاص بن الربيع» وردت في جميع المراجع التي سبق لنا ذكرها، وانظر: السيرة جـ ١ ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩.

(٢) أسد الغابة ترجمة أبي العاص.

قال : « فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن « محمداً » عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت » .

وبهت مشركو قريش ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفه ، وخرج « أبو العاص » قاصداً « المدينة المنورة » حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية العام السابع لهجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فأسلم على ملإ من الصحابة ، ورحب به الرسول الكريم ، ورد عليه « زينب » لم يطلب منه خطبة جديدة ولا مهراً (١) ؛ وهكذا :

قد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

واستأنف الزوجان حياتهما من جديد تحت سقف واحد ، يُخلص كل منهما لله ولرسوله ولصاحبه ، ويرعيان ابنتهما أمامة وأبنهما علياً ، وعادت السعادة ترفرف على هذه الأسرة الكريمة عاماً كاملاً ، حتى إذا كان مطلع العام الثامن للهجرة عادت إلى « زينب » علتها التى فاجأتها حينما سقطت من هودجها على صخرة صلدة وهى مهاجرة إلى « المدينة المنورة » . فأخذت تنزف من جديد دمها حتى حم القضاء ، وفاضت روحها الكريمة قبيل الفتح الأعظم .

وعاش « على بن أبى العاص » حتى بلغ سن المراهقة ، وقد سبق أن نوهنا عن حب الرسول الكريم له وعطفه على حفيده هذا ، وأنه أردفه خلفه عندما دخل « مكة » مؤيّداً بنصر الله على الأرستقراطية المشركة يوم الفتح الأعظم ، وكان الصبى قد جاوز الحادية عشرة من عمره ، وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرناه من أن مولده كان مما بُشِّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو « وأم المؤمنين خديجة » عند عودتها إلى أم القرى بعد أن نصر الله المؤمنين وفك عنهم الحصار الذى ضربه عليهم طغاة المشركين فى شعب

---

(١) قصة أبى العاص وردت فى أكثر مصادر كتب السيرة وكتب التراجم وبعضها يعنى بذكر التفاصيل ، وانظر سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٤٦٥ ـ ٤٧١ . وكذلك كتب الطبقات والتراجم التى أشرنا إليها .

« أبـي طـالـب » ؛ ولـكن الصبى لم يعمر فقد أدركه الموت بعد الفتح الأعظم بقليل .

أما « أمـامـة بـنـت زينب » فقد عاشت ، وكان نبى الله صلى الله عليه وسـلم يحبها حبـاً كبيراً ، فكان يعطف عليها ويدللها فى صغرها ، كما كان يحنـو عليهـا عـنـدمـا شبـت ، فكـان يؤثـرهـا بـالهـدايـا عـلى أحب زوجاته إليه ، فقد رُوى : « أنـه دخـل يوماً على أهله ومعه قلادة جزع (١) وقال : لأعطينها إلى أحـبـكـم إلىّ ، فـقـلـن (٢) : يـدفعها إلى ابنة « أبى بكر » (٣) ؛ ولكنه « دعا « بـابـنـة أبى العاص » من « زينب » فعقدها بيده (٤) حول عنقها » ؛ وكذلك روت « عائشة » أم المؤمنين « أن النجاشى أهدى إلى الرسول صلى الله عليه وسـلم حلية فيها خاتم من ذهب ، فأخذه ، وإنه لمعرض عنه ، فأرسل إلى ابنة ابنته « زينب » فقال : تحلى بهذا يا بنية » (٥) .

وعـنـدما أحست « فاطمة الزهراء » بقرب رحيلها عن هذا العالم ، أوصت زوجهـا « عـلـى بـن أبـى طـالـب » أن يـتـزوج بـعـدهـا « أمامة » بنت أختها « زيـنـب » (٦) وكـانـت قد ناهزت العشرين من عمرها فتزوجها بعد انتقال « فـاطـمـة الـزهـراء » إلـى الـرفـيـق الأعلى ، وعاشت فى كنفه ، حتى فاجأ الـشـقـى « عبدالله بن ملجم » أمير المؤمنين « علياً » وهو خارج لصلاة الفجر فأصابه بسيفه ، وعلم « أمير المؤمنين على » أن قضاء الله قد أوشك أن ينفذ ، وكـان أعـلـم الـنـاس بدهاء « معاوية بن أبى سفيان » ، واتساع آفاق آماله ، فـأدرك بـنـور بصيرته أن « معاوية » سوف يتطلع إلى أن يخلفه على « أمامة » فيسعى إلى الزواج منها ، وأنه سوف يبذل فى سبيل ذلك كل مرتخص وغال حـتـى يـكـون قـد صاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك أوصى « أمير

---

(١) الجزع بفتح الجيم : خرز فيه بياض وسواد .
(٢) الضمير هنا عائد على زوجات النبى .
(٣) المقصود بذلك « عائشة أم المؤمنين » .
(٤) الطبقات الكبرى جـ٨ القسم الأول ص٢٧ ؛ والسمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين .
(٥) السمط الثمين المرجع السابق .
(٦) ابن الأثير : أسد الغابة جـ٧ فى ترجمة أمامة بنت أبى العاص برقم ٦٧١٧ .

المؤمنين على » بجعل أمر « أمامة » بعد وفاته ، إلى « المغيرة بن نوفل » ، وهو أحد أحفاد جده «عبد المطلب » . وقد صحت فراسة أمير المؤمنين «علىّ» إذ تقدم « معاوية بن أبى سفيان » يخطب « أمامة » بعد انقضاء العدة ، وعرض أن يدفع لها مهراً قدره مائة ألف دينار، فأرسلت إلى « المغيرة » تستشيره فى أمرها ، ولكنه رفض وقال : « أتزوجين ابن آكلة الأكباد؟ » ثم تزوجها بعد ذلك « المغيرة » .

ولم تلد أمامة شيئاً «لأمير المؤمنين على بن أبى طالب» ، ولا « للمغيرة ابن نوفل » ؛ فقد أراد الله أن لا يكون لها ذرية ، وقد سبق فى قضاء الله وقدره أن لا يكون « لزينب » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عقباً [1] .

رقية وأم كلثوم ابنتا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بغلام من زوجته أم المؤمنين « خديجة » فكانت فرحة لا تعدلها فرحة ، ثم رزق « بزينب » ، وكم كانت سعادة « خديجة » عندما رأته يبتهج لمولدها ! وكم سعدت بعد ذلك عندما ظهر عليه الابتهاج والرضى بمولد شقيقتها « رقية » ثم « أم كلثوم » فقد رحب بمقدمها على عكس الكراهية التى كان أكثر العرب يتوارثونها لمولد البنات حتى أن أحدهم كان إذا أُخبر بولادة بنت تغير وجهه غماً وهو يحاول أن يكظم غيظه ؛ وكانت تتملكه الحيرة أيبقى عليها حية مع ما فى ذلك من هوان أم يدفنها فى التراب فور ولادتها ؟ وقد وصف الله تعالى ذلك بقوله :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ

---

(١) ترجمة أمامة بنت أبى العاص فى: ابن سعد : الطبقات جـ ٨ القسم الأول ص ٢٦ ــ ٢٧ وص ١٦٨ ــ ١٦٩ ، وفى ابن الأثير: أسد الغابة جـ ٧ ترجمة رقم ٦٧١٧ وفى محب الدين الطبرى: السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ١٩١ ــ ١٩٢ .

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١)،

ولكن الله تعالى ألهم «محمد بن عبد الله»، قبل النبوة، أن يفرح ويتهلل وجهه عندما بُشّر بمولد بناته الثلاثة اللاتى رزق بهن بعد «زينب»، واستمر معه حبه لمولد الإناث طول حياته، وهو ما نجده فى الأحاديث الكثيرة التى رويت عنه بعد النبوة تشجيعاً للعناية بالبنات بوصفهن أمهات المستقبل مما رفع مكانة المرأة فى الإسلام، ونحن نختار من بينها قوله: «من كانت له بنت فأدبّها وعلّمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له ستراً وحجاباً من النار»(٢)؛ وقد استن بذلك للمسلمين أكرم العادات، وألزمهم بأسمى التعاليم، وأنصف بذلك المرأة، وأعطاها الحق فى التعليم والتأديب.

وكان عطف «محمد بن عبد الله» هو وزوجته «خديجة»، قبل البعثة، وسهرهما على تنشئة بناتها مضرب الأمثال، فقد عشن فى رعاية الوالدين، وغمراهن بحبهما وحنانهما؛ وهكذا ظلت «رقية» و«أم كلثوم» تعيشان عيشة راضية سعيدة فى طفولتهما المبكرة؛ ولكنهما فوجئتا، بزيارة «أبى لهب» فى وفد من «بنى هاشم»، جاءوا يخطبون البنتين «لعُتُبة» و«عُتيبة» ولدى «أبى لهب»، وكانت كبراهما «رقية» فى السابعة من عمرها، وصغراهما «أم كلثوم» فى السادسة، وقد تم فى هذه الزيارة عقد زواج البنتين قبيل النبوة الشريفة جرياً على عادة قريش فى ذلك الزمان بتزويج البنات فى سن مبكرة.

ولا شك أن الطفلتين لم تكونا تدركان ماهية هذا الزواج، ولا ما هى مسئولياته؛ ولكنهما، مثل غيرهما من بنات قريش، كانتا فرحتين فقد سبقتا أترابهما بالزواج المبكر. وقد مرت بالبنتين فى حياتهما بعد ذلك ظروف تكاد تكون متشابهة، إذ بقيتا فى منزل والديهما حوالى أربع سنوات، وهما فى انتظار الزفاف؛ ولكن الله، سبحانه، أبى أن يتم ذلك، فما كاد النبى صلى

---

(١) سورة النحل: الآيتان ٥٨ـ٥٩.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن، جـ١٠ ص١١٨.

الله عليه وسلم يؤمر بالجهر بالدعوة حتى نشط «أبولهب» يناصبه العداء السافر، ويقف فى سبيل نشر عبادة الله الواحد الأحد، وأخذ يكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صب جام غضبه على البنتين فأمر ولديه بتطليقهما قبل أن تزفا إليهما. ولا شك أن كبرى البنتين، وكانت قد جاوزت مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة، شعرت بشىء من الحرج، وكانت أمها «خديجة» أكثر منها شعوراً بالحرج والاستياء لهذا الصغار الذى لم يرع فيه «أبولهب» أنبل أخلاق العرب وأكثرها محافظة على حرمة الجوار وصلة الرحم؛ ولكن رحمة الله الواسعة تداركتها؛ فما كاد «عثمان بن عفان» (١). يسمع بكيد «أبى لهب» حتى تقدم إلى حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب أن يصهر إليه فزوجه ابنته «رقية».

وينتمى «عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس» إلى بطن من أكرم بطون قريش، ومن أكثرها جاهاً وأعزها نفراً؛ وجدّته لأمه هى «أم حكيم، البيضاء بنت عبدالمطلب الهاشمى» عمة نبى الله صلى الله عليه وسم وكان «عثمان» أحد الرواد الخمسة الأوائل الذين دعاهم «أبوبكر» فاستجابوا لدعوته فجاء بهم «أبوبكر» إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحق الإسلام فآمنوا وصلوا(٢)، فأنزل الله فيهم قوله:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (٣)

وكان «عثمان» من أنبل شباب قريش خلقاً، وأكثرهم حياء، وزادته

---

(١) ابن سعد: ترجمة عثمان فى الطبقات جـ٣ القسم الأول فصلة ١ـ٢ ص٣٦ـ٥٨، وابن الأثير: أسد الغابة جـ٣ ترجمة رقم ٣٥٨٣ ص٥٨٤ وما بعدها.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٢٥٠ـ٢٥١.

(٣) سورة الزمر: الآيتان ١٧ـ١٨، وانظر أبو الحسن النيسابورى: أسباب النزول: ١٠ ابن عباس. ص٢١٠.

ثروته الواسعة تواضعاً وحباً في المبادرة لعمل الخير، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويقدره حقّ قدره فرحب به وزوّجه من كريمته «رقية».

ولما ضاق مشركو قرش ذرعاً بالدعوة المحمدية، وفشلوا في إغراء الرسول الكريم بالوعود حتى يترك هذه الدعوة ويعود إلى ملتهم، أو يهادنهم ويتركهم وشأنهم فلا يعيب آلهتهم، ويتركونه يتعبد كما يشاء، ولما رأوا أن نخبة ممتازة من شبانهم دخلت فيما كان يدعو إليه، وأن عددهم أخذ يزداد يوماً بعد يوم؛ لذلك فقد المشركون صوابهم؛ وأقبلت كل بطن من بطون قريش على إيذاء من ترك السجود لأصنامهم، واشتطوا في ذلك لعل فتيانهم يعودون إلى ما كان يعبد آباؤهم؛ ولكن الذين دخلوا في الإسلام تحملوا كل أنواع النكال والتعذيب بصبر وصلابة كان مبعثها الإيمان العميق بوحدانية الله سبحانه، وما أنزل على نبيه. ولما زاد إسراف المشركين في إيذائهم عزم المؤمنون على الهجرة فراراً بدينهم، ورغبة في المحافظة على حريتهم. وكان أول من خرج منهم للهجرة «عثمان» ومعه زوجته «رقية» بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد عزمت على أن تكون إلى جوار زوجها مشاركة له في السراء والضراء على الرغم من عناء السفر، ومخاطر ركوب البحر مما كان يتهددها هي والجنين الذى شعرت به يتحرك بين أحشائها قبيل الهجرة، فتسللت هي وزوجها في جنح الظلام خارجة من مكة مقر الكعبة المشرفة ومهبط الوحي، ومسكن الأهل والأحباب، ومفارقةً أفضل الآباء وأكرمهم، وأرق الأمهات وأطهرهن، وخير الشقيقات وأطيبهن؛ وكانت تتوجس خيفة أن يفتضح أمرهما وتفسد الخطة التي حاول المؤمنون تدبيرها للهجرة؛ فكانا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنهما لأول من هاجر إلى الله تبارك وتعالى بعد لوط**» (١).

واستحث المهاجران سراهما حتى وصلا إلى مكان متفق عليه بعيداً عن أعز القرى، وهناك تريثا قليلاً إلى أن لحق بهما باقي المهاجرين، حتى إذا

---

(١) ابن سعد: الطبقات جـ٨ ص٢٤، والمحب الطبري: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص١٨٨.

اكتمل عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة هرع الجميع فارين نحو الشاطىء ترتعد قلوبهم خوف أن يلحق بهم طغاة المشركين فيردوهم على أعقابهم حيث يلقون عذاباً تقشعر من هوله الأبدان ، وهواناً لا يطيقه الأحرار. وعكفوا في سُرُاهم على مناجاة ربهم أن يجعل لهم من أمرهم يسراً ، ومما هم فيه من خوف وضيق مخرجاً حتى وصلوا «الشعيبة» على «البحر الأحمر» ، حيث تداركتهم العناية الربانية فهيأت لهم ساعة وصولهم سفينتين لبعض التجار كانتا على وشك الإبحار صوب الحبشة ، «وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١).

ولم تبتئس « رقية » عندما أسقطت سقطاً بعد وصولها إلى الحبشة ؛ ولكنها رضيت بقضاء الله وقدره ، وشكرت له ما كانت تتمتع به من حرية وأمن وأمان هي واخوتها المهاجرون والمهاجرات في جوار النجاشي ؛ فلما أخذت الأخبار ترد إليهم أن قريشاً أخذت تتقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الكثيرين من رجالاتها دخلوا في دين الله ، استبشر المهاجرون وغمرتهم السعادة ، وخرج بعضهم من الحبشة راجعين إلى وطنهم في شهر شوال سنة خمس بعد غيبة طالت حوالي أربعة أشهر ، حيث استقبلتهم عشائرهم أسوأ استقبال ، فلقوا هناك أذى وتعنيفاً شديدين حتى أذن نبى الله صلى الله عليه وسلم للمعذَّبين في الخروج مرة ثانية إلى أرض الحبشة ، فعادت « رقية » مع زوجها «عثمان» إلى الفرار بدينها مع من استطاع الفرار في الهجرة الثانية .

وفي الحبشة رزقت « رقية » بمولود ذكر قرت به عيناً ، وسعد أبوه بمولده وسماه « عبدالله » ، وبه كان يكنى في الإسلام ، وقد شب الطفل حتى بلغ العام الرابع من الهجرة النبوية إلى «المدينة المنورة» ، فنقر عينه ديك فورم وجهه ومرض ومات(٢).

---

(١) الطبقات جـ١ ، القسم الأول ، ص١٣٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات جـ٣ القسم الأول ، ترجمة عثمان ص٣٦ ، وابن الأثير: أسد الغابة ، ترجمة عثمان برقم ٣٥٨٣ ص ٥٨٦ ، وترجمة رقية في أسد الغابة برقم ٦٩٢١ جـ٧ ص ١١٢ ــ ١١٥ .

وقد هاجرت « رقية » إلى المدينة المنورة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث لحقت بزوجها الذى كان قد اضطر إلى الهجرة قبل ذلك. ولما أقطع الرسول الكريم الدور للمهاجرين خط لعثمان بيتاً بجواره كانت له خوخة وجاه الباب الذى كان النبى يخرج منه إذا أراد زيارة « رقية » (١).

ومرضت «رقية» بالحصبة ورسول الله يتجهز للخروج إلى «بدر»، فأمر الرسول زوجها أن يقيم عندها، واشتد المرض عليها فتوفيت يوم «بدر»؛ وبينما هم يدفنونها سمع الناس التكبير، فقال « عثمان » : « ما هذا التكبير؟ » فإذا « زيد بن حارثة » على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيراً بنصر الله لدينه ولرسوله وللمؤمنين فى «بدر الكبرى» فى رمضان من السنة الثانية من الهجرة قبل موت ابنها «عبد الله» بما يقرب من عامين (٢).

وحزن « عثمان » لفقدها حزناً شديداً، وانقضت بضعة شهور كان لا يُرى إلا بائساً كئيباً، فعز ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له يوماً: «مالى أراك مهموماً؟» فشكا له عظم ما ابتُلى به بفقد زوجته المخلصة التى كانت له نعم الرفيق المعين فى الشدائد، ومما أُثر عنه أنه قال: «يا رسول الله، وهل دخل على أحد ما دخل علىّ؟ ماتت ابنة رسول الله صلى الله عيه وسلم التى كانت عندى، وانقطع ظهرى، وانقطع الصهر بينى وبينك». فرق له النبى الكريم، وبينما هما يتحاوران إذ هبط «جبريل الأمين» يوحى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين أن يزوج ابنته « أم كلثوم » من « عثمان بن عفان ». وما كاد عثمان يسمع هذا التكريم من رب العالمين حتى ابتهج شاكراً الله على ما أنعم عليه، وللرسول الكريم عطفه، وتزوج « أم كلثوم » على مثل صداق أختها وعلى مثل عشرتها فى ربيع الأول سنة ثلاث (٣)، وكان زفافها فى جمادى الآخرة من تلك السنة، وعاشت معه ولم تلد منه ولداً، وتوفيت سنة تسع فحزن عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى عليها.

---

(١) ابن سعد: المرجع السابق ذكره، ترجمة عثمان.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ترجمة عثمان.

(٣) ابن الأثير: ترجمة أم كلثوم فى الكنى برقم ٧٥٧٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

(سورة الأحزاب الآية: ٣٣)



الفصل الثامن عشر

أهــل البيـت

كان النبي صلى الله عليه وسلم مضطجعاً على كساء حبرى [1] عند زوجته «أم المؤمنين أم سلمة»، وكانت قائمة تصلى، فدخلت عليه «فاطمة الزهراء» تحمل له برمة [2] فيها خزيرة [3]، فقال لها: «ادع لى زوجك وابنيك» فجاء «على وحسن وحسين»، فدخلوا، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة» [4]؛ وهبط جبريل، عليه السلام، وتلا على النبى الكريم قول الله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [5]

فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم طرفاً من الكساء الذى كان يضطجع فوقه، «فغطى به «فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً»»، ثم أخرج يديه فألوى بهما إلى السماء، ثم قال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**» [6].

---

(١) الكساء الحبرى: قماش مخطط من قطن أو كتان كان يصنع باليمن.

(٢) البرمة: وعاء.

(٣) الخزيرة: طعام من لحم يقطع قطعاً صغيرة ثم يطبخ بماء كثير وملح، فإذا اكتمل نضجه ذر عليه الدقيق وعصد به ثم أدم عليه.

(٤) أبو الحسن النيسابورى: أسباب النزول، ص ٢٠٣.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٦) أبو الحسن النيسابورى: المرجع السابق.

والحديث عن آل البيت ذو شجون، فقد عنى الكثير من المؤرخين والنسابين وكتاب التراجم بتقصى أخبارهم، وهو محبب إلى نفس الكاتب يستطيب أن يفيض فيه، ولا يمل القارئ من متابعته، بل إن الكثيرين منهم مشوقون إلى الاستزادة من الاطلاع عليه؛ وهذا الفصل لا يتسع للإحاطة بذكرهم، والإشادة بمفاخرهم، فذلك دونه الكثير من المجلدات، ونحن نرجو أن يطول بنا الأجل، وأن يوفقنا الله لنفرد للحديث عنهم كتاباً خاصاً نحاول فيه أن نلم قدر الطاقة بأبرز معالم تاريخهم؛ وسنكتفى فى هذا الفصل بذكر ما لا بد من ذكره من أخبارهم، والتلميح إلى بعض مناقبهم، وما خصهم الله به من فضل فى بداية إشراق فجر الإسلام.

وقبل الكلام عن «فاطمة الزهراء»، لا بد أن نذكر أن على كل من يتصدى للكتابة عنها أن يحرص أشد الحرص على مقارنة الروايات المتصلة بحياتها، وأن ينقدها نقداً لا يقوم فقط على ثقته فى المؤرخ الذى ذكر الخبر، ولا على من استقى منه ذلك المؤرخ روايته؛ ولكن يجب أن يكون ما يرتضيه كتاب عصرنا هذا متفقاً أولاً مع تسلسل الحوادث التاريخية الهامة فى بداية إشراق فجر الإسلام، وهى حوادث متفق على توقيتها؛ ونذكر على سبيل المثال أن «عز الدين علىّ بن الأثير» روى، من بين ما جمع من الروايات، أن سنها يوم تزيجها كانت خمس عشرة سنة [1]؛ ولو أخذنا بتلك الرواية، اعتماداً على دقة «ابن الأثير» ونقده لكثير مما جمع من الروايات، وتحريه لصدق ما يروى [2] لكان معنى ذلك أنها هاجرت إلى يثرب وتزوجت بعد خروج بنى هاشم من الشعب بعام، وذلك قبل دخول الرعيل الأول من الأوس والخزرج فى دين الله، وهو أمر يخالف ترتيب أهم حوادث التاريخ الإسلامى؛ وكذلك كثرت الروايات المتضاربة عن تاريخ زواجها، وكيف خطبها علىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن قيمة صداقها، ووليمة عرسها؛ وقد أوقع المؤرخين فى ذلك شدة حرصهم على جمع أكثر ما يستطيعون

---

(١) أسد الغابة: ترجمة فاطمة برقم ٧١٧٥ ص ٢٢٠.

(٢) على سبيل المثال انظر نقده لبعض الروايات عن موت رقية.

جمعه من الروايات عنها وعن زوجها «علي بن أبي طالب»، وسوف نحاول أن نسرد ماتطمئن النفس إلى صحته وفق تسلسل الحوادث بعد الهجرة النبوية الشريفة.

اتفق المؤرخون والنسابون وكتاب السيرة على أن «فاطمة الزهراء» ولدت أثناء بناء قريش للكعبة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات؛ وقد كانت منذ طفولتها وضاءة الجبين، بهية الطلعة، حتى إذا شبت وترعرعت كانت أشبه الناس بأبيها كرم خلق وملاحة وجه، وفصاحة لسان، تحاكيه في طريقة حديثه وفي مشيته (١)؛ وقد هاجرت إلى يثرب بعد الهجرة النبوية بقليل بصحبة أختها «أم كلثوم» و«أم المؤمنين سودة بنت زمعة»، حملهن «زيد بن حارثة وأبو رافع»، وبذلك تكون قد هاجرت في الثامنة عشرة من عمرها (٢).

أما «علي بن أبي طالب» فكان مما أنعم الله عليه أن ضمه ابن عمه إلى أسرته وهو في السابعة من عمره بعد مولد «فاطمة» بعامين، فشب يرعاه خاتم الأنبياء والمرسلين ووجّهه إلى أفضل الأخلاق، فكان منذ صغره تقيا طاهرا، وكان أول الناس إسلاما بعد «خديجة بنت خويلد» وأول من صلى خلفه بعدها، وقد سُئل «محمد بن كعب القرظي» عن أول من أسلم: علي أوأبو بكر؟ فقال: سبحان الله، «علي» أولهما إسلاما، وإنما اشتبه على الناس لأن «عليا» أخفى إسلامه عن «أبي طالب»، وأسلم «أبو بكر» وأظهر إسلامه (٣). وعلّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علمه الله، فكان أعلم الناس بالقرآن الكريم: «ما نزلت آية إلا وقد علم فيم نزلت، وأين نزلت، وهل نزلت بليل أم نهار» حتى صار أعلم الناس بأحكام الله وأقضى الصحابة كما وصفه «عمر بن الخطاب» (٤)؛ وعنه

---

(١) وصفتها أم المؤمنين عائشة بذلك.

(٢) ابن سعد: الطبقات في ذكر فاطمة جـ١ القسم الأول ص١٣.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة: ترجمة علي بن أبي طالب برقم ٣٧٨٢ جـ٤ ص٩٤؛ وهذا يدعم ما سبق أن ذكرناه في هذا الشأن.

(٤) ابن سعد عند ذكر من كان يفتي في المدينة، جـ٢ القسم الأول ص١٠٢.

روى الكثير من علماء الصحابة مثل «عبد الله بن مسعود» و«ابن عمر، وأبو موسى الأشعري، وصهيب، وأبو هريرة»([1]) .

ولما بدأ الإسلام ينتشر بين بعض القبائل، وآمن نفر من الأوس والخزرج من سادة يثرب، وأخذ المسلمون يفرون بدينهم إلى هناك حيث وجدوا الأمن والأمان وكرم الضيافة، خشي زعماء مشركي قريش أن يتمكن «محمد» من الهجرة إلى هناك حيث تقوى شوكته، فيهدد هو وأصحابه تجارتهم، ولذلك سوّلت لهم نفوسهم الشريرة أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الله حفظه ونجاه، ونام «على بن أبي طالب» مكان الرسول الكريم غير عابىء بما قد يصيبه على أيدى الشبان الذين أمتلأت قلوبهم حقداً وكراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولكن رحمة الله حفظت «علياً» .

وأقام «على بن أبى طالب بمكة» ثلاث ليال أدى فيها الودائع التى كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابها، ثم تسلل خارجا من «أم القرى»، أرض مولده، ومهد صباه وشبابه، مهاجرا بدينه إلى يثرب التى أصبحت تسمى منذ ذلك الحين «المدينة المنورة» لما أكرمها الله بهجرة خاتم الأنبياء ومن تبعه من المؤمنين إليها، وكان «يمشى بالليل، ويكمن بالنهار حتى قدم قباء، فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم قدومه قال: «ادعولى «عليا» قيل: يا رسول الله، لا يقدر أن يمشى فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآه اعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وكانتا تقطران دما، فمسح النبى صلى الله عليه وسلم على رجليه، ودعا له بالعافية، «فلم يشتكهما حتى استشهد رضى الله عنه»([2]) .

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: «تآخوا فى الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد «على بن أبى طالب» فقال: «تآخوا فى الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد «علي بن أبى طالب» فقال: «هذا أخى؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين، وإمام

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، ترجمة على، جـ ٤ برقم ٣٧٨٣، ص ٩٩.

(٢) أسد الغابة: ترجمة «على».

المتقين، ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد، و«على بن أبى طالب» رضى الله عنه أخوين» (١).

وكان النبى الكريم، بعد وصول «على» إلى المدينة المنورة، قد وعد أن يزوجه «فاطمة الزهراء»، ولم يعلم بذلك أحد من الصحابة، فلما استقر المهاجرون فى المدينة المنورة وتآخوا مع إخوتهم من الأنصار، تقدم «أبو بكر» إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب «.فاطمة الزهراء»، فترفق به صلى الله عليه وسلم وقال: «انتظر بها القضاء»، فذكر ذلك «أبو بكر لعمر»، فقال له «عمر»: ردك «يا أبا بكر». ثم إن «أبا بكر» قال «لعمر»: اخطب «فاطمة» إلى النبى صلى الله عليه وسلم فخطبها فقال له مثل ما قال «لأبى بكر»: انتظر بها القضاء. فجاء «عمر إلى أبى بكر» فأخبره فقال له: ردك «يا عمر»(٢). وشاع الخبر فى المدينة، وكان أول من أخبر «عليا» بذلك جارية له فقالت: هل علمت أن «فاطمة» خُطبت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟، قال: لا. قالت: فقد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزوجك؟(٣). ولا شك أن كلامها بعث فى نفسه تفكيرا عميقا، فقد كان يصعب عليه أن يذهب لخطبتها وهو صفر اليدين لا يملك شيئا يمهرها به، وعلم أهله من «بنى هاشم» بالخبر، فأخذوا يحثونه على أن يخطبها؛ ولكنه تهيب الموقف بعد أن رفض الرسول خطبة صاحبيه، فذكر له أهله قرابته من أبيها وأنه لن يرد ابن عمه؛ وعلم نفر من الأنصار بالخبر، وكانوا يحبون «فاطمة وعليا»، فأخذوا يشجعونه على أن يطلبها(٤)، وشجعه «عمر بن الخطاب إذ قال له: أنت لها يا على» (٥).

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ١ ص٥٠٤ـ٥٠٥؛ وابن سعد: فى ذكر على فى أهل بدر جـ٣ ص١٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات فى ذكر فاطمة جـ١ القسم الأول ص١١.

(٣) أسد الغابة ترجمة فاطمة جـ٧ ص٢٢١.

(٤) الطبقات: المرجع السابق ص١٢.

(٥) أسد الغابة: المرجع السابق.

أثـر كـل ذلـك فـى نفس علىّ فتشجع وقصد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقـد روى بعد ذلك ما حدث فقال: «كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أُفحمت، فوالله ما استطيع أن أتـكلم، فـقـال: مـا جـاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكتُّ، فقال: لعلك جئت تخطب «فاطمة»؟ قلت: نعم. قال: وهل عندك شيء تستحلها به؟ فقلت لا والله يا رسول الله. فقال: ما فعلت بالدرع التى سلحتكها؟ فقلت: عندى والذى نفس «على» بيده إنها لحطمية [1] ما ثمنها أربعمائة درهم [2]».

وكان الرسول الكريم يجعل أمر بناته بأيديهن، وقد استن استشارتهن فى أمر زواجهن، فقال «للزهراء»: «إن «عليا» يذكرك. فسكتت، فزوجها» [3] وبذلك تم عقد قران أحب اثنين إلى أكرم الأنبياء: «فاطمة الزهراء»، أحب الناس إلى أبيها، و«على بن أبى طالب» أحب الرجال إلى نفس ابن عمه رسول الله [4] صلى الله عليه وسلم، وقد كان هذا القران، على أصح الروايات التى ترتضيها النفس، فى شهر رجب بعد مقدم النبى المدينة بخمسة أشهر؛ وكانت «الزهراء» قد جاوزت الثامنة عشرة بقليل و وكان «علىّ» فتى الإسلام فى الثالثة والعشرين.

وكان طغيان الأرستقراطية الوثنية فى مكة، وتعذيبهم للمؤمنين ومصادرة أموالهم وبيوتهم قد أدى إلى بداية صراع حربى سافر بينهم وبين المسلمين، فكانت موقعة «بدر» التى نصر الله فيها دينه نصرا عزيزا كان بشرى بتمام إشراق فجر الإسلام وهزيمة الشرك، ومنّ الله على عباده بما غنموه من المشركين فعادوا إلى يثرب وقد رضيت نفوسهم.

وأخذ «على بن أبى طالب» يستعد ليوم من أسعد أيام حياته حيث يستقبل فى بيته أجمل عروس، وأحب الناس إلى الرسول الكريم، فباع بعيرا

---

(١) حطمية: بضم الحاء وفتح الطاء: هى التى تحطم السيوف.

(٢) أسد الغابة: ترجمة فاطمة ص ٢٢١.

(٣) الطبقات الكبرى: فى ذكر فاطمة ص ١٢.

(٤) أسد الغابة: ترجمة فاطمة ص ٢٢٣ عن وصف أم المؤمنين عائشة نقلاً عن تحفة الأحوذى، أبواب المناقب، باب فضل فاطمة، الحديث ٣٩٦٥، ١٠/ ٣٧٥.

له بثمانين وأربع مائة درهم؛ فقال النبى، صلى الله عليه وسلم،: «اجعلوا ثلثين فى الطيب وثلثا فى الثياب»[1]. وقد وليت «أم أيمن» أمر إعداد جهاز العروس، فكان فيما جهزتها به: سرير وخميلة [2] من قطيفة، ووساده من أدم، وتور[3] من أدم، ومنشفة، ومنخل، وجرتين، ورحا [4].

ولما كانت ليلة العرس فى أوائل ذى الحجة على رأس اثنين وعشرين شهرا من الهجرة[5]، أولم «على بن أبى طالب» وليمة يبدو أنه بذل فيها الكثير مما أفاء الله عليه من «بدر» ومن «بنى قينقاع»، «فما كانت وليمة فى ذلك الزمان أفضل من وليمته»[6] وقدّم أخوال الرسول من الأنصار «لعلىّ» بعض الهدايا العينية مشاركة منهم فى إعداد هذه الوليمة على مألوف عادة الأهل والأقارب، فقدم سيد الأوس «سعد بن معاذ» كبشا، كما قدموا بعضا من ذرة. فلما انتهت الوليمة انتقلت أفضل عروس إلى منزل كان «علىّ» قد أعده لسكناهما، وقد زفت إليه وهى تلبس بردين وتتحلى بدملوجين[7] من فضة مصفرين بزعفران، وسعدت بحضور زفافها شقيقتاها «زينب وأم كلثوم» و«أم أيمن» ومعهن لفيف من فضليات بنى النجار جئن ليهدينها إلى أشجع فتيان المسلمين «على بن أبى طالب».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر «عليا» أن لا يدخل على «فاطمة» حتى يجيئه[8]، فتبعها بعد قليل من وصولها «حتى وقف على

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٨ ص١٣، والسمط الثمين فى أمهات المؤمنين ص ١٧١ ـ ١٧٤.

(٢) الخميلة: غطاء من قطيفة.

(٣) التور: إناء للماء. أدم: جلد مدبوغ.

(٤) الطبقات الكبرى: فى ذكر فاطمة جـ٨، والسمط الثمين، والرّحا هى الالة التى يُطحن بها.

(٥) الطبرى جـ٢ ص٤٨٥ ـ ٤٨٦. وصفوة الصفوة جـ٢ فى ذكر فاطمة.

(٦) الطبقات، والسمط السمين عند ذكر فاطمة.

(٧) البرد: كساء مخطط. والدملوج: حلية تحيط بالعضد.

(٨) الطبقات الكبرى، والسمط السمين، عند ذكر فاطمة.

الباب، فاستأذن، فأذن له، فقال: «أثَمَّ أخي؟» فتعجبت «أم أيمن» وقالت وهي تتبسط معه: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله مَنْ أخوك؟ قال: «علي بن أبي طالب» قالت: وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك؟ قال: هو ذاك «يا أم أيمن»؛ ثم دعا بماء في إناء، وتلا بعض آيات القرآن الكريم وهو يحرك الماء بيده، ثم دعا عليا فنضح[1] على كتفيه وصدره وذراعيه من ذلك الماء؛ ثم دعا فاطمة؛ فجاءت بغير خمار تعثر في ثوبها حياءً؛ فنضح عليها من ذلك الماء؛ ثم قال: والله ما ألوت أن[2] زوجتك خير أهلي؛ ثم دعا لهما قائلاً: «اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما»[3] ثم انصرف وتركهما يرتشفان من السعادة الزوجية الصافية ما شاء الله لهما أن يرتشفا.

ونستأذن القارئ الكريم أن نتوقف قليلا عن المضي في سرد تاريخ هذين الزوجين الكريمين لنذكر أن كتاب التراجم الأوائل عنوا بجمع أكثر ما استطاعوا جمعه من الروايات عن حياتها دون تمحيص، وقد نتج عن ذلك أن الكثير من تلك الروايات تضاربت تضاربا لا يصح معه الاعتماد عليها؛ فقد أخذوا تلك الأخبار عمن روى عن إحدى السيدات اللاتي اشتركن في الزفاف دون ذكر اسمها ولا سنّ الراوي عند سماع الخبر، ونحن نسوق بعضا منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

(١) لم يفرّق بعض الرواة بين أخبار قبول النبي، صلى الله عليه وسلم، تزويج «فاطمة» «لعلي» في رجب حين تمّ عقد القران قبل غزوة بدر الكبرى وقبل غزوة بني قينقاع وبين أخبار ليلة الزفاف فجاءت رواياتهم يناقض بعضها بعضا، فمنهم من روى أن «عليا» لم يكن يملك ما يولم به ليلة الزفاف فرهن درعه مقابل شطر من الشعير.

---

(١) نضح: رش.
(٢) الاقتباس من المرجعين السابقين.
(٣) صفوة الصفوة جـ٢.

(٢) ومن الرواة من خيل إليه كذلك أن «عليا» لم يكن يملك شيئا يولم به فقدم «سعد بن معاذ» كبشا وجمع له بعض الأنصار آصعا من ذرة؛ والحقيقة التى يعرفها من له علم بأخلاق العرب وعاداتهم أنهم إنما فعلوا ذلك على سبيل الهدية إكراما «لعلى» و«لفاطمة» ومجاملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتلك عادة قديمة مستمرة حتى الآن، إذ يقدم الأهل بعض الهدايا العينية أوالمالية مشاركة منهم فى المناسبات السعيدة، وكان أخوال النبى من الأنصار جديرين بذلك؛ وقد سبق أن ذكرنا أن «عليا» كان قد أعد شارفين لتلك الوليمة.

(٣) ذكر بعض الرواة أن «أسماء بنت عميس»، وكانت فى ذلك الوقت، زوجة «لجعفر بن أبى طالب»، من بين اللاتى جهزن فاطمة، وأنها شاركت فى زفافها، وأن النبى صلى الله عليه وسلم شكر لها هذه المشاركة فى إكرام «فاطمة»؛ ولكن فاتهم أن «أسماء» كانت هى زوجها فى ذلك الوقت فى مهجرهما بالحبشة، وأنهما لم يعودا إلى شبه الجزيرة العربية إلا فى المحرم من العام السابع للهجرة أثناء غزوة خيبر[١].

وقد نتج عن جمع أمثال هذه الروايات دون تمحيص أن الكُتّاب المعاصرين يلقون مشقة كبيرة فى اختيار الروايات الصحيحة؛ وقد اتخذنا وقائع التاريخ الإسلامى مرشدا لنا عند اختيار ما نؤمن بصحته من أخبار هذين الزوجين الكريمين، فبدأنا بذكر غزوة بدر، وذكرنا بلاء «على» فيها بلاء حسنا، ثم غزوة بنى قينقاع، وما غنمه المجاهدون من هاتين الغزوتين، فجاءت حوادث زواجهما منسقة تنسيقا طبيعيا ومتفقة مع حوادث التاريخ الإسلامى التى لا خلاف فى توقيتها. ومن الأمانة أن نقرر أننا ذكرنا أن «زينب» وأختها «أم كلثوم» اشتركتا فى زفاف شقيقتهما الصغرى من باب

---

(١) أسد الغابة: جـ٧ ترجمة أسماء بنت عميس، وعودتها هى وزوجها من مهجرهما أثناء غزوة خيبر متفق عليه.

الاستنتاج، إذ لا شك أنهما كانتا تحرصان على ذلك، وأنهما كانتا سعيدتين بإهداء أصغر بنات رسول الله إلى أشجع فتيان «بنى هاشم».

ونعود إلى استئناف ما انقطع من حديثنا فنقول: كان البيت الذى زفت فيه «الزهراء» يبعد قليلا عن بيت النبى صلى الله عليه وسلم[1] وقد روى أنس بن مالك: «أن رسول الله كان يمر ببيت فاطمة، ستة أشهر، إذا خرج لصلاة الفجر، يقول: الصلاة يا أهل بيت «محمد»، «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيرا»[2] فزارهما النبى يوما فقال لهما إنه يحب أن يسكنا بجواره، فعلم بذلك «حارثة ابن النعمان»، وهو من بنى النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم فبادر بتقديم منزل لهما من منازله كان ملاصقا لبيت النبى الكريم[3]، فأمر الرسول بأن يفتح فيه باب على المسجد[4] وبذلك يسر الله للنبى الكريم أن يسعدهما بزيارته، وأن يسعد بقضاء بعض أوقاته معهما كلما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ وقد كان من عادته أنه إذا عاد من غزو أو سفر «بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم يأتى «فاطمة» ثم يأتى باقى أزواجه»[5] وروى «ابن عباس» أنه كان إذا قدم من سفر قبّل ابنته «فاطمة»[6].

وكان «على» يعرف منزلته عند أستاذه الذى تولى تربيته والإشراف على توجيهه منذ السابعة من عمره، وكان يحب أن يتبسط معه فى الحديث، فسأله يوما: «أينا أحب إليك أنا أو «فاطمة»؟»، فأجاب أبلغ الناس

---

(١) الطبقات، فى ذكر فاطمة؛ والسمط الثمين ص ١٧٥.

(٢) أسد الغابة: ترجمة فاطمة ص ٢٢٣، وأخرجه الإمام أحمد والترمذى؛ انظر تفسير ابن كثير. سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) الطبقات، والسمط الثمين السابق ذكرهما.

(٤) متفق عليه.

(٥) الاستيعاب.

(٦) أسد الغابة: ترجمة فاطمة ص ٢٢٤.

على البديهة قائلا : ((«فاطمة» أحب إلى منك ، وأنت أعز على منها)[1] .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يعطف على «علىّ» عطفا شديدا ، وكان يحلو له أن يداعبه ، ومما يروى من ذلك أنه زار «فاطمة» يوما ، ولما لم يجد «عليا» فى البيت سألها عنه ، فردت إنه فى المسجد؛ فخرج إليه فوجده مضطجعا وقد استغرق فى النوم ، ووجد رداءه قد سقط عنه وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب ، وهو يداعبه قائلا : «اجلس أبا تراب ، اجلس أبا تراب»[2] ؛ فكان هذا الاسم الذى أطلقه عليه الرسول الرحيم أحب الأسماء إلى نفس «على بن أبى طالب» .

وكانت الخميلة التى أهداها لهما النبى الكريم عند زفافهما تفتح لهما بابا للمداعبة ؛ فقد كانت قصيرة ، فكانا إذا غطيا بها رأسيهما اتقاء برد الشتاء تكشفت أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رأساهما ،[3] مما كان يدعوا إلى المزاح والمرح .

وكانت زيارة الأهل سبباً من أسباب إدخال السرور على هذين العروسين ، وقد ورد أن «العباس بن عبد المطلب» زارهما يوما ، فسره أن وجد «فاطمة» تمازح «عليا» وهى تقول له : «أنا أسن منك» ، فتبسط معهما فى الحديث وقال : أما أنت يا «فاطمة» فولدت وقريش تبنى الكعبة ، والنبى صلى الله عليه وسلم ابن خمس وثلاثين سنة ؛ وأما أنت يا على فولدت قبل ذلك بسنوات[4] .

وكانت تعيش معهما فى البيت «فاطمة بنت أسد» ، أم «على بن أبى طالب» ، وكانت تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته حبا كبيرا ، وكان النبى الوفى يحبها ، ويذكر لها ما أسبغته عليه من حنان وعطف

---

(١) أسد الغابة : ترجمة فاطمة الزهراء ص ٢٢٤ .

(٢) البخارى جـ٦ : كتاب المناقب ، الحديث رقم ٣٣٠٧ ص ١١٥ – ١١٦ .

(٣) السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ١٧٨ .

(٤) ترجمة فاطمة فى كل من الطبقات الكبرى ص ١٧ ، وفى السمط الثمين ص ١٧٩ .

عندما ضمه عمه «أبو طالب» إلى أسرته؛ وكان يقول عنها: «لم يكن بعد «أبى طالب» أبرّ بى منها»(١) وكان يزورها ويقيل عندها(٢)؛ وقد طلب إليها ابنها أن تعاون زوجته فى أعمال البيت، فقبلت ذلك عن طيب خاطر حبا فى إسعاد الزهراء وإسعاد ابنها «على بن أبى طالب»، فعاش ثلاثتهم فى بيت مملوء بالحب والعطف والإخلاص والتعاون.

وقد بلغ من حب النبى لها، وعرفانه بجميلها أنه قال عند وفاتها: «إنى ألبستها قميصى لتلبس ثياب الجنة، واضطجعت معها فى قبرها لأخفف من ضغط القبر، إنها كانت أحسن خلق الله صنيعا إلىّ بعد أبى طالب»(٣).

وكان لا يشوب هذه السعادة الزوجية إلا القليل مما يحدث أحيانا بين الأزواج من خلاف، فإذا حدث شىء من ذلك فإنه كان فى حياتهما سحابة صيف عما قليل تقشع بفضل حكمة الرسول الرحيم، فقد كان يرقبهما بعين كلها عطف وحنان، وكان يعنى بالنصح والتوفيق بينهما، وقد رُوى، ولعل ذلك كان فى بداية عهدهما بالحياة الزوجية، أن «عليا» اشتد عليها، فقالت: «والله لأشكونك إلى رسول الله. فانطلقت، وانطلق بإثرها»، فدخلت على أفضل الآباء، ووقف «على» خارج الغرفة يسمع كلامها، فلما قدمت شكواها، أخذ الرسول يعلمها فى رفق ولين كيف تملك الزوجة زمام زوجها، وأنها لا تصبح أميرة فى بيتها إلا إذا تصرفت بحيث تحوز رضا زوجها، فتعمل على راحته وفق طبعه وهواه؛ ومما يؤثر من بلاغته وحكمته فى ذلك الموقف قوله لها: **«يا بنية، اسمعى واستمعى وأعقلى، إنه لا إمرة بامرأة لا تأتى هوى زوجها»**، فلما سمع «على» تلك النصيحة الموجزة البليغة، شعر

---

(١) أسد الغابة: جـ٨ ترجمة فاطمة بنت أسد برقم ٧٢٦٨ ص٢٠٧.

(٢) الطبقات الكبرى: جـ٨ عند ذكر فاطمة بنت أسد ص١٦١. يقيل: يقضى وقت القيلولة.

(٣) السيوطى: جمع الجوامع جـ١، الحديث ٧٣٨٠ـ٨٢٦٨، وقد ورد الحديث أيضاً فى مجمع الزوائد، مناقب فاطمة بنت أسد جـ٩ ص٢٥٧.

أنه جار عليها، وعاهد نفسه أن يكف عما كان يصنع، وقال لها: «والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا» (١).

ودب بعض الخلاف بينهما يوما، فذهب النبى، صلى الله عليه وسلم، إليهما وكان التأثر باديا على وجهه، ولما دخل «اضطجع، فجاءت «فاطمة» فاضجعت من جانب، وجاء «على» فاضجع من جانب» فأخذ ينصح لهما ويوجههما، ولم يزل حتى أصلح بينهما، فلما خرج وقد تهلل وجهه بشرا، قيل له: «دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك، فقال: وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلى» (٢).

ولم يمض أكثر من عشرة أشهر إلا وجاءت الثمرة اليانعة الأولى لهذا الزواج الموفق، فقد وضعت الزهراء فى النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة غلاماً زكيا (٣) كان أشبه الناس بجده خاتم الأنبياء والمرسلين (٤)، ولما وُلد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أرونى ابنى، ما سميتموه! قال «على»: سميته «حربا»، قال بل هو حسن» (٥) وكان هذا هو الاسم الذى اختاره لحفيده، و هو اسم لم تكن العرب قد سمّت به من قبل، وكان أهل اليمن يسمون بعض أولادهم حسْن بسكون السين (٦). وفى اليوم السابع لمولده أمر الرسول الكريم بحلق شعر رأسه والتصدق بزنة الشعر فضة، وبذبح شاة يوزع لحمها على الفقراء والمساكين تقربا إلى الله تعالى.

---

(١) ترجمة فاطمة الزهراء فى الطبقات الكبرى ص١٦ وفى السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص١٧٨.

(٢) المرجعان السابقان.

(٣) أسد الغابة: ترجمة الحسن بن على برقم ١١٦٥، جـ٢ ص١١.

(٤) البخارى: كتاب المناقب، باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم، الحديثان ٣١٦٧ـ ٣١٦٨؛ وأسد الغابة ترجمة الحسن جـ٢ ص١٣.

(٥) أسد الغابة، المرجع السابق ص١١.

(٦) الطبرى: جـ٢ ص٥٣٣.

وجاء عيد الفطر، فاستقبله أهل البيت، كما استقبلته جماعة المسلمين بالفرح والسرور شاكرين توفيق الله لهم بتأدية فريضة الصيام وهى ركن من أركان الإسلام، وكانت سعادة أهل البيت بالعيد لا يعدلها سعادة لما منّ الله عليهم وأكرمهم بمولد «الحسن بن على» من «فاطمة الزهراء»؛ ولكن لم يكد يمضى شهر على مولده حتى فوجئت الأسرة بقريش تحشد قواها، وتؤلب أنصارها فيهاجمون المدينة المنورة يريدون القضاء على نور الله بعد أن سطع نور فجره، فخرج إليهم الرسول والمؤمنون، وكانت موقعة أحد التى كادت، لولا لطف الله، أن تحجب نور هذا الفجر؛ وعلمت «الزهراء» أن خاتم الأنبياء قد جرح، فهرعت برغم ضعفها بعد ولادة «الحسن» إلى أفضل الآباء، تضمد جراحه بحكمتها وحنانها، فلما جلا المشركون، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله، «ناول سيفه ابنته «فاطمة» قائلاً: اغسلى عن هذا دمه يا بنية. وناولها «على»، عليه السلام، سيفه وقال: فاغسلى عنه، فوالله لقد صدقنى اليوم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك «سهل بن حنيف»، و«أبو دجانة سماك بن خرشة»» (١).

وعادت الحياة تسير سيرها العادى فى المدينة المنورة، وكان المسلمون راضين بقضاء الله وقدره، طامعين فى عفو الله وعونه، عاملين على نشر دينه؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقتطع من وقته سويعات يزور فيها «عليا» و«فاطمة»، فيسعد بهما ويسعدان به، ويداعب ابنه «الحسن»، وقد بلغ من فرط حبه له أنه كان يحمله على عاتقه، فقال رجل: «نعم المركب ركبت يا غلام، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ونعم الراكب هو» (٢)، ورآه «البراء» يوما واضعا «الحسن بن علىّ» على عاتقه وهو يقول: «اللهم إنى أحبه فأحبه» (٣)؛ وقال فيه صلى الله عليه وسلم:

---

(١) الطبرى: جـ ٢ ص ٥٣٣.
(٢) أسد الغابة: جـ ٢ ترجمة الحسن ص ١٣.
(٣) المرجع السابق.

«إنه ريحانتى من الدنيا» وقال: «اللهم أنى أحبه، وأحب من يحبه»[1].

كان هؤلاء الثلاثة: فاطمة، وعلى، والحسن هم آل بيت رسول الله، وكان يحبهم حبا جمعا، وكان يوصى الناس بحبهم، فقال، صلى الله عليه وسلم: **«أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه[2]، وأحبونى بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى»**[3].

وجاء اليوم الخامس من شهر شعبان من العام الرابع للهجرة و فأنعم الله على أهل البيت، إذ أنجبت «فاطمة الزهراء» مولودا ذكرا جاء بعد مولد «الحسن» بحوالى أحد عشر شهرا، فهرع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى زيارته والبشر باد على وجهه، فقال: «أرونى ابنى، ما سميتموه؟» قال «على بن أبى طالب»: «حربا»، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «بل هو حسين». وكان يقول عنه: **«حسين منى، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط»**[1] وروى «عبد الله بن عمر» أنه صلى الله عليه وسلم قال عن حفيديه: «الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا». وروى «أبو سعيد الخدرى» قوله: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابنى الخالة: «عيسى ويحيى» عليهما السلام)[5]. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يسعده أن يحملهما ويغطيهما، فقد قال «أسامة ابن زيد»: طرقت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فى بعض الحاجة، فخرج إلى وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو؛ فلما فرغت من حاجتى قلت: ما هذا الذى أنت مشتمل عليه؟ فكشفه فإذا «حسن وحسين» على وركيه، فقال: «هذان ابناى وابنا ابنتى اللهم إنى أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما»[6].

---

(١) الوافى بالوفيات جـ١٢ ص١٠٨.

(٢) المقصود: بسبب النعم التى ينعم بها عليكم ومنها الغذاء الذى هو سبب نماء الأجسام.

(٣) أسد الغابة جـ٢، ترجمة الحسن ص١٣.

(٤) الحديثان عن أسد الغابة جـ٢، ترجمة الحسين برقم ١١٧٣.

(٥) أسد الغابة جـ٢، ترجمة الحسين.

(٦) نفسه.

وكان مما أنعم الله به على «علىّ بن أبى طالب» أنه ربى فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت «خديجة أم المؤمنين» تحبه وترعاه، فكان لنشأته تلك أبلغ الأثر فى تكوينه الخلقى والعلمى، وكانت ملازمته للنبى الكريم سببا فى إحاطته بتاريخ الإسلام وأحكامه. وما يحض عليه من فضائل، وما ينهى عنه من رذائل، ولذلك كان الخليفة الثانى «عمر بن الخطاب» يثق فى صواب فتاواه، ويسعى فى طلبها عندما يشكل أمر من الأمور، وكان يتعوذ من معضلة ليس لها «أبو حسن» ويقول: «على» أقضانا، (1) وروى «ابن عباس» قول النبى صلى الله عليه وسلم: «أنا مدينة العلم «وعلى» بابها» (2)، وتحدث «على» يوما عن نفسه فقال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت: إن ربى وهبنى قلبا عقولا، ولسانا طلقا» (3).

وكان من حدب النبى الكريم على «علىّ» وبره به أن آخاه مرتين: مرة عندما آخى بين المهاجرين، ومرة أخرى عندما آخى بين المهاجرين والأنصار وقال له فى كل مرة منهما: «أنت أخى فى الدنيا والآخرة» (4)، وقال له يوما: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق» (5)؛ ومما يوضح منزلته فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله له: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى» (6)، ووصفت «أم المؤمنين عائشة» هذه المنزلة بقولها: «إنه كان أحب الرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم» (7). وروت أم عطية أن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(1) الطبقات الكبرى جـ٢: فى ذكر من كان يفتى فى المدينة ص١٠١–١٠٢، وأسد الغابة ترجمة على بن أبى طالب.

(2) أسد الغابة: المرجع السابق.

(3) الطبقات الكبرى: جـ٢ عند ذكر من كان يفتى بالمدينة ص١٠١.

(4) أسد الغابة: ترجمة «على» ص٩١.

(5) المرجع السابق ص١٠٥.

(6) المرجع السابق ص١٠٦.

(7) أسد الغابة جـ٧ فى ترجمة فاطمة ص٢٢٣.

بعث جيشا فيهم «على بن أبى طالب»، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم لا تمتنى حتى أرى «عليا»(١).

ولما كتب الله القتال على المسلمين بعد الهجرة إلى «المدينة المنورة»، كافح المؤمنون كفاح الأبطال ضد الأستقراطية الوثنية ممثلة فى قريش ومن حالفها من القبائل الأخرى ومَن تعاون معهم من اليهود يريدون القضاء على دين الوحدانية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطى اللواء فى أكثر غزواته إلى فتى الإسلام «على بن أبى طالب» فكان له فيها جميعاً بلاء عظيم، وأثر حسن، وكان مما وصف به جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاد «على» يوم أحد:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا «على»(٢)

وكان هذا الفتى على بطولته ومنزلته تلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم متواضعا يكثر من الصيام وقيام الليل فى عبادة الله الواحد الأحد، شهدت له بذلك «أم المؤمنين عائشة»، وقال عنه «عبد الله ابن عمر»: (لقد أعطى «على بن أبى طالب» ثلاث خصال لأن أكون أعطيتهن أحب إلى من حمر النعم: زوّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته، وأعطاه الراية يوم خيبر، وسد الأبواب من المسجد إلا باب «على»)(٣).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد حرب مَنْ اعتزم الاعتداء على المسلمين، أخذ فى الإعداد لذلك فى سرية كاملة، ثم نهض للتنفيذ بكل ما أوتى من عزم، فإذا وضعت الحرب أوزارها، كان ينصرف فى السلم لإصلاح حال المسلمين بكل ما أوتى من حسن التدبير، والصبر على مجاهدة النفس، جاعلا من نفسه القدوة فى اتباع تعاليم الدين الحنيف، والتمسك بمكارم الأخلاق التى حض عليها القرآن الكريم؛ فكان يجد السعادة فى أن يصل ذوى قرباه وأهل بيته، وكانت أحبهم إلى نفسه ابنته «فاطمة

---

(١) أسد الغابة ترجمة على ص١٠٦.

(٢) السيرة جـ٢ ص١٠٠. وذو الفقار: هو سيف النبى صلى الله عليه وسلم.

(٣) أسد الغابة: جـ٣ فى ترجمة عبد الله بن عثمان أبوبكر الصديق برقم ٣٠٦٤ ص ٣٢١.

الزهراء»، فقد كانت «أكرم أهله عليه»(١)؛ وكان يقول عنها: «فاطمة بَضْعَةٌ منى، فمن أغضبها أغضبنى»(٢) وبشرها أن الله سبحانه قد جعلها سيدة نساء أهل الجنة ما عدا «مريم بنت عمران» فقال: «سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ثم آسية»(٣). وقد بلغ من فرط إكرامه لها أنها كانت إذا دخلت عليه قام إليها، ورحب بها كما كانت تصنع هى معه(٤). وكانت أشبه الناس به كلاما وحديثا(٥)؛ ولم يكن أحد أصدق منها لهجة إلا أن يكون الذى ولدها صلى الله عليه وسلم(٦)؛ وكانت إذا مشت كأن مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم(٧)؛ ولذلك كلّه كانت تكنى «أم أبيها»(٨) وقال لها رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»(٩).

وكان «الحسن بن على» قد جاوز العامين من عمره بعد غزوة بنى قريظة سنة خمس، فكان يستطيع أن يمشى وهو يتعثر مرحا فى أرجاء البيت، وكان إذا جاء جده فرح فرحا عظيما، فإذا وقف للصلاة سعى إليه وأمسك به، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يفرج له رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر: فإذا سجد كان يعتلى ظهره فاينزله حتى يكون هو الذى ينزل(١٠)؛ وكان يقول عنه: «حسن سبط من الأسباط»(١١).

---

(١) صفوة الصفوة ترجمة فاطمة.

(٢) البخارى: جـ٦، كتاب المناقب، الحديث ٣٣١٣ ص ١٢١. والبَضْعَة هى القطعة.

(٣) الاستيعاب: ترجمة فاطمة الزهراء.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه عن عائشة أم المؤمنين.

(٦) أسد الغابة: ترجمة فاطمة عن أم المؤمنين عائشة.

(٧) الطبقات الكبرى، وأسد الغابة، والسمط الثمين عند ترجمة فاطمة الزهراء.

(٨) أسد الغابة: ترجمة فاطمة.

(٩) نفسه.

(١٠) الوافى بالوفيات: جـ١٢ ترجمة الحسن بن على برقم ٩٢ ص١٠٨.

(١١) أسد الغابة: والسبط أمة من الأمم فى الخير.

وكان «الحسين» قد جاوز حينذاك منتصف العام الأول من عمره، فكان يحبو تارة، ويتعثر تارة أخرى، وكان يحلو للرسول أن يداعب السبطين، وقد روى «جابر» أنه دخل يوما على رسول الله «فرأى الحسن والحسين على ظهره، وهو يمشي بهما على آربع ويقول: نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما»(١). وكان الطفلان ينموان نموا حسنا، وكان يختلفان أحيانا إلى المسجد، وقد روى «أبو بريدة»: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطبنا إذ جاء «الحسن والحسين»، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)

نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» (٣).

ولما شب الحسن، مد يده يوما فأخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فمه، فنزعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سئل في ذلك قال: «إنَّا آل محمد لا تحل لنا الصدقة» (٤). وأجلسه يوما بجواره على المنبر ثم قال: «إن ابني هذا سيد، ويصلح الله به بين فئتين عظيمتين» (٥).

ولما نما عودهما كان يروح عن نفسه بمداعبتهما، وتدريبهما على الرياضة

---

(١) الوافي بالوفيات: ترجمة الحسن ص ١٠٨؛ والعِدل هو حمل الجمل.

(٢) سورة التغابن: الآية ١٥.

(٣) أسد الغابة: ترجمة الحسن جـ٢ ترجمة ١١٦٥ ص١٢ــ١٣.

(٤) المرجع السابق.

(٥) البخاري في الباب التاسع من كتاب الصلح، والاقتباس هنا من أسد الغابة؛ ترجمة الحسن، وذكره الوافي بالوفيات.

ويعلمهما منذ الصغر الدفاع عن النفس، فكانا يصطرعان بين يديه، وكان يشجعهما (١).

وزار النبي الكريم يوما بيت «علي بن أبي طالب»، فوجده هو و«فاطمة» نائمين وسمع أحد السبطين يستسقي، فأبت عليه رحمته وشفقته أن يوقظ النائمين، ووجد شاة عجفاء، فمسح على ضرعها، وأخذ يحلبها، فدرّت بإذن الله؛ وأحست «الزهراء» بوجود أفضل الآباء فنهضت إليه. وتقدم أحد الطفلين يريد أن يشرب قبل أخيه، فنحّاه برفق وسقى الآخر فقالت فاطمة: «يارسول الله كأنه أحبهما إليك؟ قال لا، ولكنه استسقى قبله»؛ وبذلك لم يكتف بتقديم الشراب إليهما، ولكنه انتهز الفرصة ليبث في الطفلين منذ الصغر أكرم العادات، فقد علمهما أن ينتظر الواحد منهما دوره، وأن يؤثر شقيقه على نفسه. ولما شرب السبطان قال النبي الرحيم: «أنا وإياك وهذان وهذا الراقد في مكان واحد يوم القيامة»(٢).

وكثيرا ما بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل بيته الذين نزلت في حقهم الآية الشريفة هم «علي بن أبي طالب»، و«فاطمة الزهراء» وولديها «الحسن» و«الحسين» فقد قال «واثلة بن الأسقع»: «لقد رأيتني ذات يوم، وقد جئت النبي صلى الله عليه وسلم في بيت «أم سلمة»، فجاء «الحسن» فأجلسه على فخذه اليمنى وقبله، ثم جاء «الحسين» فأجلسه على فخذه اليسرى وقبله، ثم جاءت «فاطمة» فأجلسها بين يديه، ثم دعا «بعليّ» ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)(٣).

وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة في مناسبات كثيرة

---

(١) أسد الغابة جـ٢: ترجمة الحسين برقم ١١٧٣ ص١٨-٢٣.

(٢) أسد الغابة: جـ٧ ترجمة فاطمة ص ٢٢٤-٢٢٥ والسيوطي: جمع الجوامع: المجلد الأول، العدد ٢٤، ص ٢٩٥١، الحديث رقم ٣٧٤٢- ٨٢٣٠، وفي مسند أحمد جـ٢ ص١٢٨ حديث رقم ٧٩٢، رواية عن علي بن أبي طالب.

(٣) أسد الغابة جـ٢ ترجمة الحسين ص ٢١.

كان من بينها عندما قدم عليه وفد نصارى نجران، فقد دعاهم الرسول إلى الإسلام، وتلا عليهم ما أنزل الله من القرآن فى «عيسى بن مريم»، فلما رفضوا أمر الله سبحانه النبى أن يعرض عليهم الملاعنة بقوله تعالى:

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ (١) فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٢)

وارتضى زعماء النصارى المباهلة، فلما كان اليوم التالى، استعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك، فأخذ بيد «على» و«فاطمة»، وبيد «الحسن» و«الحسين» ثم أرسل إلى النجرانيين فخافوا عاقبة ملاعنة نبى الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نصالحك على الجزية ولا نلاعنك، فصالحهم وأصبحوا فى جوار الله وذمة رسوله (٣).

وفى سنة تسع بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، «أبا بكر» أميرا على الحج، ليقيم للمسلمين حجهم، وكان يُسمح للمشركين بالحج، وكان بعضهم يطوف بالبيت عريانا كما كان يفعل آباؤهم من قبل، فأنزل الله، سبحانه، سورة براءة يحرم ذلك، «فقيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى «أبى بكر» فقال: لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى، ثم دعا «على بن أبى طالب» فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذّن فى الناس يوم النحر بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته، فخرج «على بن أبى طالب» على ناقة رسول الله

---

(١) نبتهل: ندعو باللعنة، والمباهلة هى الدعاء باللعنة.

(٢) أنزل الله فى عيسى بن مريم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية، والآية ٦١ هى آية الملاعنة.

(٣) السيرة: جـ ١ ص ٥٧٣ ــ ٥٨٤، والطبقات الكبرى: جـ ١: القسم الأول ص ٨٤ ــ ٨٥، وأسباب النزول لأبى الحسن النيسابورى ص ٥٨ ــ ٥٩.

صلى الله عليه وسلم العضباء» (١) وأدى الرسالة التي عهد بها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد حرص، النبي صلى الله عليه وسلم، على أن يبين لصحابته ولمن يتبعهم إلى يوم الدين، فضل أهل البيت.، فقد قال: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**» (٢)، وأنزل الله في كتابه العزيز ما يدعم تعاليم الرسول فقال:

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (٣)

وقد أوضحنا من هم الذين عناهم رسول الله بقوله: «أهل بيتي» فمن هم عترته؟ إن عترة الرجل هم نسله الذين ينسبون إليه، وهم أولاده من صلبه من البنين والبنات، فهؤلاء جميعا يطلق عليهم اسم أبيهم، وقد جرت عادة العرب على أن يُنسب أحفاد الرجل من أبنائه الذكور إلى جدهم لأبيهم، أما أحفاده من بناته فلا ينسبون إليه بل ينسبون إلى أبيهم ثم إلى جدهم لأبيهم فهم ذريته من صلبه وعصبه؛ ولكن نبي الله صلى الله عليه وسلم، خرج على هذه العادة فقال: «لكل أم عَصَبَة (٤)، إلا «ابنيْ فاطمة» أنا وليها وعصبتها» (٥)، وبذلك يكون قد خص «الحسن والحسين» بخصوصية الانتساب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين دون شقيقتيها «زينب» و«أم كلثوم»، وكذلك دون غيرهما من أبناء وبنات خالاتها.

ونحن نستأذن القارئ الكريم في أن نتريث هنا قليلا حتى نبين سبب

---

(١) السيرة: جـ٢ ص٥٤٥ـ٥٤٦.

(٢) رواه زيد بن أرقم، وانظر أسد الغابة: ترجمة الحسن.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٤) عصبة الرجل: القرابة الذكور الذين يتعصبون له وينصرونه.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر.

هذا التخصيص، فقد ذكرنا فى الفصول السابقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل بناته جميعا بحبه العظيم، وأنه كان يشاركهن فى أفراحهن وأتراحهن، ويوليهن جميعا بحنانه حتى ليخيل إلى القارئ عند الكلام عن إحداهن أنه لا يحب إلا إياها؛ ولكن الحقيقة هى أن حبه لإحداهن ولأبنائها لم يُنقص مقدار شعرة واحدة من حبه وعطفه على أخواتها، ذلك أن القلب الكبير يستطيع أن يتسع للحب الكبير، ولم يتسع حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشفقته لبناته وأهل بيته وحدهم، ولكنه امتد واتسع حتى شمل كل المؤمنين وبذلك وصفه سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وهذه خاصية أكرمه بها الخلاق العظيم؛ ولكن الله أراد، ولا راد لقضاء الله وقدره، أن تموت ابنته «زينب» وابنها «على بن أبى العاص»، وأن تموت ابنته «رقية» وابنها «عبد الله بن عثمان بن عفان»، وأن تتوفى ابنته «أم كلثوم»، توفوا جميعا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك يكون قضاء الله وقدره هو الذى شاء أن تكون الذرية العطرة، والعترة الشريفة التى تحمل اسم خاتم الأنبياء والمرسلين هى خصوصية من خصوصيات «الحسن والحسين» سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنى «فاطمة الزهراء» من زوجها «على بن أبى طالب» ابن عم النبى الكريم وتلميذه الذى أكرمه الله فضمه إليه أكرم خلق الله منذ السابعة من عمره، وسهرت على رعايته فى صباه «خديجة بنت خويلد»، فكان لهما ابنا وفيا قبل أن يرزق الله الرسول بالسبطين الكريمين، وكان له تلميذا وهبه الله قلبا واعيا، وبصرا وبصيرة بالإسلام وتعاليمه؛ وكان هذان السبطان هما الدوحة المباركة التى حفظت، بعد كتاب الله، ذكر أكرم الأنبياء «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم وأوفى الزوجات «أم المؤمنين خديجة بنت خويلد».

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.



فهرس محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	١٧٥٣ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى	

٢ / ٨٧ / ٧٠٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)